مارغريت آتوود

ترجمة إيمان أسعد



Winner
The Booker Prize 2019

العُهود

الجزء الثاني لحكاية الجارية

مارغريت آتوود

العُهود

ترجمة إيمان أسعد

العُهود

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان
مبادرة 1001 عنوان

العُهود

تأليف: مارغريت آتوود
ترجمة: إيمان أسعد

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-34-849-8

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2021

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-7350339
التصنيف العمري: +13
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

"كلّ امرأة يفترض بها أن تحرّكها ذات الدوافع المحددة سلفًا لكل النساء، وإلا سُتعْتَبرُ وحشًا."

جورج إليوت، دانييل دِروندا

"حين ننظر في وجه بعضنا البعض، فنحن لا نحدق وحسب في وجهٍ نكرهه – لا، بل نحدق في مرآة ... أحقًّا لا ترون أنفسكم فينا؟"

قائد معسكر الاعتقال النازي (الأوبرستورمبانفور لِسّ) إلى المعتقل البلشفي المسن موستوفسكوي.

فاسلي غروسمان، الحياة والمصير.

"الحرية عبءٌ ثقيل، واجبٌ عظيمٌ وغريبٌ على الروح حتى تتعهّد به ... ليست بعطية تُمْنَح، بل خيارًا يُؤخَذ، والخيار قد يكون صعبًا."

أورسولا كي لو غوين، أضرحة أتوان

التمثال

سِفرُ أَرْدوا هول

1

الأمواتُ وحسب يُسْمَح لهم بأن يحظوا بتماثيل، لكني مُنحْتُ واحدًا على حياتي. تحجّرتُ قبل الأوان.

هذا التمثال تقدمةٌ صغيرة من الامتنان لمساهماتي العديدة، كذا المكتوب على الاستشهاد، والذي قرأته الخالة فيدالا. فالرؤساء أوكلوا إليها بهذه المهمة، وكانت أبعد ما تكون عن الامتنان. شكرتها بكل ما تسنى لي إظهاره من تواضع، ثم سحبتُ الحبل مطلقةً الستار القماشي الذي يكفنني؛ موجه المنتفخ اندفق على الأرض، وهأنذا منتصبة. هنا في أردوا هول لا نطلق صيحات التشجيع، لكن كان هناك تصفيقٌ مكتوم. ولهنّ أحنيت رأسي في إيماءة شكر.

تمثالي مبالغٌ فيه، فهذه هي طبيعة التماثيل، يظهرني أصغر عمرًا، في جسد أنحل، وفي شكل أفضل مما كنت عليه مذ أمد طويل. أقف منتصبة الظهر، كتفاي للوراء، شفتاي متقوستان في ابتسامة صارمة لكن خيّرة. عيناي ترنوان إلى نقطة في المدى الكونيّ اللانهائي في نظرة يفترض بها أن تجسد تعلقي بالمثل العليا، عزيمتي التي لا تفت تجاه القيام بواجبي، وإصراري على المضي قدمًا رغم كل العوائق. ليس أنّ ثمة شيء في السماء سيتجلى لعينيْ تمثالي، وقد نصبوه بين الأشجار والشجيرات الكئيبة المتحابكة جانب ممر المشاة قبالة أردوا هول. فنحن الخالات لزامٌ علينا ألا نكن متعاليات، حتى في أجسادنا الحجرية.

تقبض على يدي اليسرى فتاةٌ في السابعة أو الثامنة، ترنو إليّ في نظرة واثقة. يدي اليمنى تستريح على رأس امرأة رابضة جانبي، شعرها محجوب، ترفع عينيها إلى الأعلى في تعبير قد يُقرأ على أنها إما جبانة أو ممتنة – إحدى جوارينا – ومن خلفي

تقف إحدى لآلئي الكريمة، على أهبة الاستعداد للانطلاق في واجبها التبشيري. ومن الحزام الذي يطوق خصري يتدلى صاعقي. السلاح الذي لا ينفك يذكرني بنقائصي: لو أني كنت أكثر كفاءة، لما احتجت إلى أداة كهذه. لكانت نبرة الإقناع في صوتي كافية ووافية.

كمجموعة نحتية، لا أراها نجاحًا عظيمًا: مزدحمة جدًا. لكنت فضلت تركيزًا أكثر على نفسي. لكني على الأقل أبدو عاقلة. إذ لكان من المحتمل جدًا أن أبدو عكس ذلك، فالنحاتة الكهلة – المؤمنة الصادقة مذ وفاتها – كان لديها ميلٌ نحو منح تماثيلها أعينًا جاحظة دلالة على حميّة التقوى المتقدة. ففي تمثالها النصفي للخالة هيلينا العينان مسعورتان، في الخالة فيدالا عينا فرط الغدة الدرقية، وفي الخالة إليزابيث العينان توشكان على الانفجار.

كانت النحاتة متوترة لدى كشف الستار. هل يا ترى وجدتُ في تأويلها إياي إطراءً مرضيًا؟ هل نال استحساني؟ وهل سيبدو عليّ الاستحسان؟ لهوت بفكرة العبوس ما إن ينكشف الستار، لكني تراجعت: فأنا لست متحجرة القلب. "واقعيٌّ جدًا،" قلت لها.

حدث هذا قبل تسع سنوات. واليوم صار تمثالي باليًا: الحمام زخرفني، الطحلب شطأ في صدوعي الرطبة. المريدات ابتدعن ترك قرابين عند قدميّ: بيضٌ للخصوبة، برتقال توسلًا لاكتمال الحمل، وكرواسون دلالةً على القمر. أتجاهل المخبوزات – ففي العادة أجدها رطبة من بعد المطر – لكني أدس البرتقال في جيبي. فالبرتقال منعشٌ للروح.

أخطّ هذه الكلمات في معتزلي في المكتبة العامة التابعة لأردوا هول – إحدى المكتبات القليلة الناجية من حملة حرق الكتب الحماسية التي اشتعلت نارها المستعرة عبر أرضنا. إذ توجب علينا محو بصمات أصابع الماضي الملطخة بالدم والفساد كيما نخلق فضاءً نظيفًا للجيل الورع التقي الذي لا بد سيأتي عن قريب. على الأقل، تلك كانت النظرية.

عدا أنّ من ضمن تلك البصمات الملطخة بالدم بصمات أصابعنا، وهذه البصمات لا يسهل محوها. على مرّ الأعوام دفنت أكوامًا من العظام؛ والآن تنازعني الرغبة في نبشها – ولو من باب تنويرك، قارئي المجهول. فإن كنتَ اللحظة تقرأني، فمخطوطتي هذه قد نجت. لكني لربما واهمة: لربما لن أحظى أبدًا بقارئ. لربما اللحظة أحادث الحائط، في أكثر من معنى.

كفاني تدوينًا لليوم. فيدي توجعني، ظهري يؤلمني، وكأسي المسائي من الحليب ينتظرني. سأدس هذه الخطبة الطويلة في مخبئها، متحاشية كاميرات المراقبة – فأنا أعرف مكان كل واحدة منها، كوني أنا من نصبها. ورغم كل احتياطاتي، فأنا مدركة للمجازفة العظيمة التي آخذها: فالكتابة خطرة. وكم من الخيانات، وكم من الوشايات يخبئها الزمن لي؟ فهناك ثلة بين جدران أردوا هول ستعشق وضع يديها على هذه الصفحات.

مهلًا عليّ، أنصحهم في صمت: فالأمر سيزداد سوءًا.

زهرةٌ أثيرة

محضر أقوال الشاهدة "369A"

2

طلبت مني أن أصف لك نشأتي في جلعاد. تقول لي أن الأمر سيساعدك، وصدقًا أتمنى مساعدتك. أتخيلك تتوقع قصصًا مرعبة وحسب، لكن الواقع أن العديد من الأطفال قد لقوا الحب والحنان، في جلعاد كما في أي مكان آخر، والكثير من البالغين كانوا طيبين وإن ليسوا معصومين عن الخطأ، في جلعاد كما في أي مكان آخر.

وآمل أن تضع في الحسبان، أيضًا، أن حنينًا يراودنا جميعًا إلى الطيبة التي عرفناها أطفالًا، مهما بدت ظروف تنشئتنا غريبة على الآخرين. أتفق معك بأن على جلعاد أن تؤول إلى الزوال – فهي ترزح تحت خطاياها العديدة، جل مبادئها كذب، ويقينًا مناقضة لما نواه الرب – لكن عليك أن تفسح لي مجالًا أندب فيه الخير الذي سنفقده.

في مدرستنا، الزهريّ كان للربيع والصيف، الخوخيّ للخريف والشتاء، الأبيض للمناسبات: الآحاد والاحتفالات. الذراعان محجوبتان، الشعر محجوب، حاشية التنانير حتى الركبة إن كنت أصغر من سن الخامسة ومن بعدها لا يزيد ارتفاعها عن الكاحل ببوصتين، لأن شهوات الرجل الملحة فظيعة وتلك الشهوات لا بدّ أن تُشكَم. فعينا الرجل اللتان ما تبرحان تجولان هنا وهناك مثل عينيّ النمر، تترصدنا مثل الأضواء الكاشفة، لا بد أن تُذرآن عن إغوائنا وسطوتنا التي صدقًا تعمي البصيرة – عن سيقاننا المشوقة أو الهزيلة أو السمينة، عن أذرعنا الرشيقة أو المعجّرة أو الشبيهة بالسجق، عن بشرتنا الخوخية أو البثِرة، عن عقصنا المجدولة

من شعر لامع أو شعر خشن عنيد كما الإهاب، أو الضفائر القشية الهزيلة، لا يهم. إذ كيفما تكن أشكالنا وملامحنا، فما نحن، رغمًا عنّا، سوى فخاخ وحبائل إغراء، نحن المسبب البريء الذي لا لوم يقع عليه سوى أنه في صميم طبيعتنا إسكار الرجل في خمرة الشهوة، فيتمايل ويترنح ويقع من على الحافة – حافة ماذا؟ تساءلنا، أهي أشبه بجرف؟ - ويهوي في نيران الجحيم، مثل كرة ثلج مصنوعة من كبريت ملتهب تقذفها يد الرب الغاضبة. نحن القيّمات على كنز لا يقدر بثمن، كنز خبيء، غير مرئي، داخل جسدنا؛ نحن الزهور الأثيرة التي لا بد أن تُصان في الدفيئة، وإلا سينقضون فجأة علينا وينتزعون بتلاتنا ويسلبوننا كنزنا ويمزقوننا إربًا وتسحقنا أقدام الرجال النهمين المترصدين لنا في كل ناصية، هناك في العالم الواسع حادّ الحواف والمهووس بالخطايا.

هذه عينة من مواعظ الخالة - سيّالة المخاط - فيدالا والتي كانت تلقيها علينا ونحن جالسات في المدرسة نطرز غرز البيتي بوان على مناديل اليد ومساند القدمين واللوحات المؤطرة: زهورٌ في مزهرية وفاكهةٌ في زبدية هي النقوش المفضلة. لكن الخالة إسْتِي، المعلمة المفضلة لدينا، كانت ستقول إن الخالة فيدالا تبالغ ولا مغزى من إرعابنا، فغرس هذا النوع من المقت للرجال من شأنه أن يخيم بآثاره السلبية على سعادتنا الزوجية المستقبلية.

"ليس كل الرجال هكذا، فتياتي،" كانت ستقول لنا في نبرة تهدئ من روعنا. "القوامون من الرجال يمتلكون شخصيات سوية. حتى أنّ بعضهم يمتاز بقدرة جيدة على كبح شهوات النفس. وما إن تتزوجن سيبدو لكنّ الأمر مختلفًا، لا يثير خوفًا فظيعًا على الإطلاق." لكن ما أدراها هي، فالخالات غير متزوجات؛ قد حُرِّمَ عليهن الزواج. ولهذا السبب أُحِلّ لهن الكتابة والكتب.

"نحن مع آبائكن وأمهاتكن سنختار أزواجكن بمنتهى الحكمة متى ما أزف الوقت،" كانت ستقول الخالة إسْتى. "لذا ما من داع للخوف. فقط تعلمن دروسكن وثقن في كباركن في معرفة ما هو خيرٌ لكنّ، وكل شيء سيؤول مآلًا حسنًا. سأصلي لأجل هذا."

لكن رغم غمازتيْ الخالة إسْتى وابتسامتها الودودة، فرواية الخالة فيدالا هي التي سادت. كم طاردتني في كوابيسي: زجاج الدفيئة يتهشم، التمزيق والشق وسحق الحوافر، شظايا نفسي الزهرية والبيضاء والخوخية تنتثر على سائر الأرض. كم أفزعتني فكرة النضج – أن أصبح كبيرة كفاية للزواج. إذ ما كان لدي أدنى ثقة في حكمة خيار الخالات: خشيت أن يؤول مآلي زوجة جَدْي مشتعل[1].

الأثواب الزهرية، البيضاء، والخوخية كانت قاعدة لباس الفتيات المميزات أمثالنا. أما الفتيات العاديات من عوائل الكفاف فكن يرتدين ذات الطراز طوال الوقت – تلك العباءة الرمادية القبيحة المخططة بالألوان، العباءة ذاتها التي ترتديها أمهاتهن. هن حتى لم يتعلمن غرزة البيتي بوان أو الكروشيه، فقط الخياطة وصنع أزهار ورقية وما شابه من مهام. هنّ لسن مختارات للزواج من خيرة الرجال – أبناء يعقوب والرؤساء وأبناؤهم – على خلافنا نحن؛ وإن يظل الاحتمال قائمًا بأن يصطفي خيرة الرجال إحداهن متى ما كبرت ووجدها جميلة جدًا.

لا أحد أقرّ بهذا. إذ لم يكن من المفترض بك أن تتباهى بنفسك وجمالك، ليس بالخلق الذي ينم عن تواضع، وكذلك ملاحظة ملامح الوسامة على الآخرين. عدا أننا نحن الفتيات كنا مدركات للحقيقة: خيرٌ لك أن تكوني جميلة من أن تكوني قبيحة. حتى الخالات منحن الجميلات اهتمامًا أكثر. لكن إن كنتِ سلفًا مختارة، فلا فرق يصنعه إن كنت جميلة أم قبيحة.

لم أكن حولاء مثل خُلْدَة ولا قاطبة الجبين مثل شونَمِيّة، ولا شبه معدومة الحاجبين مثل رفقة، بل كنت غير ناضجة بعد. وجهي كان أشبه بالعجين، مثل قطعة الكوكيز التي كانت تعدها لي خصيصًا مرتثي المفضلة، صِلّة، مع عينين من

1 إشارة إلى ما ورد في سفر متى (25: 31 – 46) عن يوم القيامة حيث يجلس الرب على عرشه، "وتحشر لديه جميع الأمم، فيفصل بعضهم عن بعض، كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن شماله." والخراف مجازٌ للأبرار الذاهبين إلى الحياة الأبدية في الملكوت، بينما الجداء مجازٌ للطالحين الذاهبين إلى العذاب الأبدي في الجحيم.

زبيب وأسنان من بذور اليقطين. لكني وإن لم أكن جميلة على نحو لافت، فقد كنت جدّ جدّ مختارة. اصطفاءٌ مضاعف: إذ لم أكن وحسب مختارة للزواج من رئيس بل مختارة أولًا من طابيثة، من كانت أمي.

هذا ما اعتادت طابيثة سرده عليّ: "كنتُ قد خرجت للتنزه في الغابة،" كانت ستقول، " ثم وقعت على قلعة مسحورة، ووجدت الكثير من الفتيات الصغيرات عالقات فيها، مقفلٌ عليهن، ولا واحدة منهن لها أم، وكلهن واقعات تحت سحر المشعوذات الشريرات. كنت أملك خاتمًا سحريًّا حرّرت فيه قفل القلعة، لكن ما كان باستطاعتي سوى إنقاذ فتاة صغيرة واحدة. لذا رحت أمعن النظر فيهن، وهكذا، من بين حشد الفتيات، اصطفيْتكِ أنتِ!"

"وما الذي جرى للبقية؟" كنت سأسألها. "الفتيات الصغيرات الأخريات؟"

"أمهاتٌ أخريات أنقذنهن،" كانت ستجيبني.

"وهل كنّ يملكن أيضًا خواتم سحرية؟"

"بالطبع، عزيزتي. لكي تكوني أمًّا فأنت في حاجة أولًا إلى خاتم سحريّ."

"وأين الخاتم السحري؟" كنت سأسألها. "أين هو الآن؟"

"ها هو على إصبعي،" كانت ستقول، مشيرةً إلى الإصبع الثالث من يدها اليسرى. إصبع القلب، كانت ستسميه. "لكن خاتمي ما كان فيه إلا أمنية واحدة، وهذه الأمنية أنفقتها عليك. وبذا بات الآن خاتمًا عاديًّا، خاتم الأم اليومي."

وهنا كانت ستسمح لي بوضع الخاتم، والذي كان خاتمًا ذهبيًّا، مع ثلاثة فصوص ألماسية: فصٌّ كبير، وفصٌّ أصغر على كل جانب من جانبيه. بدا فعلًا كما لو كان فيما مضى خاتمًا سحريًّا.

"وهل رفعتني وحملتني؟" كنت سأسألها. "خارج الغابة؟" كنت حافظةً القصة عن ظَهر قلب، لكني أحببت الإصغاء إليها تعيد سردها على مسامعي.

"لا، عزيزة قلبي، فأصلًا كنت كبيرة آنذاك. ولو أني حملتك، لكنتُ سعلت، والمشعوذات كنّ سيسمعننا." وكان لي أن أرى الحقيقة في ما تقول: فهي تسعل كثيرًا. "لذا أخذتك من يدك، وخلسةً خرجنا من القلعة كي لا تسمعنا المشعوذات.

كلتانا همسنا ششش، ششش "- وهنا كانت سترفع اصبعها على شفتيها، وأرفع أنا إصبعي إلى شفتيّ وأقول ششش، ششش بابتهاج – " ثم انطلقنا نجري سريعًا، سريعًا جدًا عبر الغابة، كي ننفذ بجلدنا من المشعوذات الشريرات، فإحداهن قد رأتنا نخرج من الباب. جرينا وجرينا، من ثم اختبأنا في شجرة صفصاف. كانت مخاطرة عظيمة."

أملك ذكرى ضبابية عن الجري في غابة مع شخص يمسك بيدي. هل يا ترى اختبأت في شجرة صفصاف؟ بدا لي أني فعلًا اختبأت في مكان ما. لذا ارتأيت أنّ ما تقوله صحيح.

"وماذا جرى لاحقًا؟" كنت سأسأل.

"أحضرتك إلى هذا البيت الجميل. ألست سعيدة هنا؟ فأنت العزيزة الأثيرة، في قلوبنا جميعًا! ألسنا كلتانا محظوظتيْن في اصطفائي لك؟"

كنت سآوي إلى حضنها، قريبًا جدًا منها، ذراعاها تطوقاني، رأسي مسنودٌ على جسدها النحيل، أستشعر وعورة أضلاعها الناتئة. أذني ملتصقة بصدرها، أسمع طرق دقاته داخلها – تتسارع وتتسارع، بدا أنها تنتظرني أقول لها شيئًا. وكنت مدركة للسطوة التي تمتلكها إجابتي عليها: كان بيدي أن أجعلها تبتسم، أو لا.

وما كان عساني أن أجيبها سوى بأجل؟ أجل، أنا سعيدة. أجل، أنا محظوظة. على أي حال، تلك كانت الحقيقة.

وكم كان عمري وقتئذ؟ لربما ستة أو سبعة أعوام. يصعب عليّ معرفة ذلك، إذ لا ذكريات واضحة لديّ عن حياتي قبل ذاك الوقت.

أحببت طابيثة كثيرًا. كانت جميلة وإن هزيلة، وكانت ستقضي ساعات في اللعب معي. كان لدينا بيت دمى يشبه بيتنا، مع غرفة جلوس وغرفة طعام ومطبخ كبير لأجل المرثيّات، وغرفة المكتب للأب حيث رفوف الكتب. وكل تلك الكتب الصغيرة المزيفة الموضوعة على الرفوف كانت خاوية. سألتها لم لا يوجد شيءٌ داخلها – فقد كان لدي إحساسٌ واه بأن من المفترض وجود علامات على تلك الصفحات – وأمي قالت بأن تلك الكتب هي زينة، مثلها مثل المزهريات.

يا لها من أكاذيب كثيرة اضطرت إلى النطق بها لأجلي! كي تبقيني آمنة! لكنها كانت على قدر المهمة. كان لديها عقلٌ مبدعٌ جدًا.

كان لدينا غرفتا نوم جميلتان في الطابق الثاني من بيت الدمى، مع ستائر وورق جدران ولوحات – لوحات لطيفة، فاكهة وزهور – وغرف نوم أصغر في الطابق الثالث، وفي المجمل خمسة حمامات، رغم أن إحدى تلك الحمامات كانت تدعى حجرة البودرة – ولم عساهم يسمونها بهذا؟ وما هذه "البودرة"؟ - وقبوٌ حيث تحفظ المؤن.

وكان لدينا كل الدمى التي قد تحتاجها: دمية الأم في رداء زوجة الرئيس الأزرق، دمية فتاة صغيرة مع أثوابها الثلاث – الزهرية، البيضاء، والخوخية، مثل أثوابي أنا – ثلاث دمى مرثيات في أرديتهن الخضراء الباهتة مع مآزرهن، وصيٌّ مع قبعته يقود السيارة ويجز العشب، ملاكان واقفان عند البوابة كلٌّ مع مسدسه المنمنَم البلاستيكي كي لا يتمكن أحد من الدخول وإلحاق الأذى بنا، ودمية أب في زي الرئيس الرسمي الأنيق. ما كان برجل كثير الكلام، لكنه اعتاد ذرع المكان كثيرًا والجلوس على رأس المائدة، والمرثيات كن سيحضرن له أشياءً على الصواني، وبعدها كان سيمضي إلى مكتبه ويقفل عليه الباب.

في هذه، كانت دمية الرئيس شبيهة بأبي، الرئيس كايل، من كان سيبتسم لي ويسألني إن كنت فتاة مطيعة، من ثم يختفي. الفرق بينهما أنّ لي أن أرى ما الذي تفعله دمية الرئيس في مكتبه، أي جلوسه إلى طاولة المكتب حيث الفاحوص الاتصاليّ وكومة الأوراق، لكن مع أبي الواقعي ما كنت لأعرف: فدخول مكتب أبي كان من المحظورات.

إذ قيل أنّ ما يفعله أبي في الداخل أمرٌ بالغ الأهمية، تلك الأمور المهمة جدًا التي يفعلها الرجال، بالغة الأهمية حدّ يعصى على الإناث التدخل فيها لأنّ عقولهن أصغر وبذا فهن عاجزات عن التفكير بأفكار عظيمة، وفقًا للخالة فيدالا، من تولت تعليمنا الدين. سيكون أشبه بتعليم قطة الكروشيه، قالت خالة إسْتى، من علمتنا **الحرف**، وكنا سنضحك على ما تقول، إذ يا للسخافة! فالقطط أصلًا لا أصابع لها!

إذن فالرجال يملكون شيئًا شبيهًا بالأصابع في رؤوسهم، أصابع لا تملكها الفتيات. وهذا يفسر كل شيء، قالت الخالة فيدالا، ولن تسمح بأي سؤال آخر في هذا الشأن. صفقت شفتيها، مقفلةً الباب على أي كلمة أخرى قد تقال. كنت أعرف أنّ لا بد هناك كلمات أخرى في جعبتها، إذ حتى نظرية القطط هذه لم تبد صائبة. فالقطط لا تريد ممارسة الكروشيه. ونحن لسن بقطط.

الخيال يفتح الباب على المحرمات. لهذا قضمت حواء **تفاحة المعرفة**، قالت الخالة فيدالا: جريرة خيالها الواسع. لهذا هناك أشياء خيرٌ لنا ألا نعرفها. وإلا فبتلاتنا ستتمزق وتنتثر.

في علبة تركيب بيت الدمى، كانت هناك دمية جارية في رداء أحمر مع بطن منتفخ وقلنسوة بيضاء تحجب وجهها، عدا أنّ أمي قالت إننا لسنا في حاجة إلى جارية في بيتنا لأنهم أصلًا قد حظوا بي، وعلى الناس ألا يتملكهم الطمع ويرغبون في أكثر من فتاة صغيرة. لذا غلفنا الجارية بورق المحارم، وقالت إنّ لي أن أمنحها لاحقًا إلى فتاة صغيرة أخرى لا تملك بيت دمى رائع مثل بيتنا ومن ستستفيد من دمية الجارية.

كنت سعيدة بوضع الجارية بعيدًا في العلبة لأن الجواري الحقيقيات كن يوترنني. اعتدنا تجاوزهن في رحلاتنا المدرسية لدى سيرنا في صفين طويلين مع خالة متمركزة عند كل طرف. الكنائس كانت وجهة رحلاتنا، أو الحدائق العامة حيث نلعب متشابكات الأيدي في دوائر أو نتأمل البط في بركة. لاحقًا كان سيجوز لنا الذهاب إلى الإنابة والابتهالات الصاخبة في أثوابنا وحُجُبنا البيضاء كي نرى أناسًا إما تعدم أو تتزوج، لكن لم نكن بعد ناضجات لحضور تلك المناسبات، قالت الخالة إسْتي.

في حديقة من الحدائق كانت هناك أراجيح، لكن بسبب تنانيرنا، والتي قد تنفخها الريح فتسترق الأعين النظر إلى داخلها، ما كنا لنجرؤ حتى على السماح لأنفسنا بركوبها. الأولاد وحسب يجوز لهم تذوق تلك الحرية؛ هم وحسب يجوز لهم الانقضاض والتحليق؛ هم وحسب يجوز للهواء أن يحملهم نحو السماء.

حتى اليوم ما سبق لي قط أن ركبت أرجوحة. تبقى أمنية من أمنياتي.

وبينما كنا نسير على مدِّ الشارع، الجواري كنّ يمشين في أزواج، اثنتين اثنتين، مع سلال تبضعهن. ما كنّ لينظرن إلينا، أو ليس كثيرًا، ولا مباشرةً، وما كان يفترض بنا النظر إليهن لأن من الوقاحة التحديق فيهن، قالت الخالة إسْتي، مثلما من الوقاحة التحديق في المعاقين أو أي شخص آخر مختلف. كذلك ما كان مسموحًا لنا طرح أي سؤال عن الجواري.

"ستعرفن كل هذا متى ما كبرتن،" هكذا كانت الخالة فيدالا ستجيبنا. كل هذا! الجواري جزءٌ من كل هذا! شيءٌ سيئ، إذن؛ شيءٌ مؤذ، أو شيء تأذى، والشيئان لربما هو الشيء ذاته. هل الجواري كنّا نحن فيما مضى، بيضاوات وزهريات وخوخيّات؟ هل كنّ مهملات، هل كشفن عن الجزء الغاوي فيهن؟

والآن ما عاد لأحد أن يرى شيئًا منهن. ما كنت لترى حتى وجوههن مع اعتمارهن تلك القلنسوات البيض. بدا بعضهن مثل بعض.

بيت الدمى في بيتنا ضمّ دمية خالة، مع أنها أصلًا لا تنتمي إلى بيت، بل تنتمي إلى مدرسة، أو إلى أردوا هول، حيث قيل إنّ الخالات يعشن. متى ما كنت ألهو

بيت الدمى وحدي، اعتدت حبس دمية الخالة في القبو، والذي ما كان تصرفًا طيبًا مني. كانت ستقرع وتقرع باب القبو صارخة، "أطلقي سراحي،" لكن دمية الفتاة الصغيرة ودمية المرثا التي عاونتها ما كانتا لتكترثا بها، وأحيانًا كانتا ستضحكان.

لا يساورني الشعور بالرضا وأنا أقر لك بارتكابي هذا العمل الوحشي، حتى وإن مارست هذه الوحشية على دمية. هو الجانب الانتقامي في طبيعتي والذي أنا آسفة لأقول إني فشلت في كبحه بالكامل. لكن في تدوين كهذا، فخيرٌ لك أن تتحرى الدقة في ذكرك مساوئك، مثلما تتحرى الدقة في الحديث عن تصرفاتك الأخرى. وإلا فلا أحد سيفهم ما الذي دفعك إلى اتخاذ القرارات التي اتخذتها.

كانت طابيثة من علمني التزام الصدق مع نفسي، ولمن السخرية أن تعلمني هي اياه مع كل الأكاذيب التي أخبرتني بها. لكن كي أكون منصفة، فهي على الأرجح كانت صادقة متى ما تعلق الأمر بها. فهي حاولت – وأنا أؤمن بهذا – أن تكون شخصًا صالحًا بقدر استطاعتها، وتحت حكم الظروف.

كل ليلة، بعد سردها قصة النوم عليّ، كانت تدسني في الفراش مع حيواني المحشو المفضل، الحوت – فالرب خلق الحيتان كيما تلهو في البحر، لهذا أبيح لنا اللهو به – ومن بعدها نصلي.

الصلاة أخذت شكل أنشودة، وكنا سننشدها معًا:

فيما أستلقي على فراشي كي أنام
أصلي للرب أن يحفظ لي نفسي؛
وإن متّ قبل أن أفتح عينيّ،
أصلي للرب أن يرفع روحي إليهِ.

أربع ملائكة واقفون حول فراشي،
اثنان عند قدميّ واثنان عند رأسي؛

ملاكٌ يراقب وملاكٌ يصلي،

وملاكان يرفعان روحي إليهِ.

طابيثة كان لديها صوتٌ جميل، صوت ناي فضيّ. حتى الآن، بين الفينة والأخرى، متى ما غالبني النعاس ليلًا، أسمعها من بعيد تغني.

أكثر من أمر ضايقني في هذه الأغنية. أولها، الملائكة. كنت مدركة أن الملائكة المقصودة في الأنشودة هي النوع المتجلي في الثياب الليلية البيضاء والمجنحة بأجنحة من ريش، لكن لم تكن تلك هي الصورة المتجلية في مخيلتي. تخيلتها على نوعنا نحن من الملائكة: الرجال في الزي الرسمي الأسود مع أجنحتهم القماشية مدروزة في ملابسهم، وحاملين المسدسات. لم تستهوني فكرة وقوف أربعة ملائكة مدججين بالسلاح حول فراشي وأنا نائمة، فهم في نهاية المطاف رجال، ماذا عن عورتي التي قد تنكشف من أسفل لحافي؟ قدمي، على سبيل المثال. ألن تؤجج فيهم نار الشهوات؟ بلى ستؤججها، فلا مفر من ذلك. لهذا صورة الملائكة الأربعة لم تكن بالصورة التي تبعث في قلبي الاطمئنان.

كذلك، فالصلاة عن موتك نائمًا ليست بالفكرة التي تساعدك على النوم. لم أظن أني سأموت، لكن ماذا إن متّ؟ وما شكل روحي – هذا الشيء الذي سترفعه الملائكة بعيدًا معها؟ طابيثة أخبرتني بأن الروح هي النفس التي لا تموت بموت جسدك. كان يفترض بهذه المعلومة أن تبهجني.

لكن حقًا، يا ترى كيف تبدو روحي؟ تصورتها مثلي تمامًا، غير أنها أصغر حجمًا بكثير: صغيرة بحجم دمية الفتاة في بيت دماي. موجودة داخلي، إذًا لربما هي ذات الكنزِ الخبيء فينا والذي أخبرتنا الخالة فيدالا أن نصونه بمنتهى الحذر. إن ضلّت نفسك، قالت الخالة فيدالا، تمخط أنفها، فستقع روحك على وجهها وتهوي من على الحافة سفلًا في هاوية سحيقة لا قرار لها، وهناك ستشتعل فيها نيران الجحيم الأبدي، مثلها مثل الجداء. مصيرٌ تمنيت من كل قلبي أن أتفاداه.

في بداية الفترة التي سأصفها لك الآن، كنت وقتذاك في الثامنة من عمري، أو على الأرجح في التاسعة. أتذكر أحداث تلك الفترة جيدًا لكن لا أتذكر عمري بالضبط. فمن الصعب عليّ تذكر تواريخ الرزنامة، لا سيما أنه ما كان لدينا من رزنامة أصلًا. لكني سأتابع السرد بقدر استطاعتي.

اسمي كان آغنس يمامة. وآغنس تعني "الحَمَل"[2]، أخبرتني أمي، طابيثة. وكانت سترتل عليّ هذه القصيدة:

حملي الصغير، من خلقك؟
أتراك تعرف من خلقك؟[3]

هناك بقية لهذه القصيدة، لكني نسيتها.

أما بالنسبة ليمامة، فالاسم أتى من قصة في الإنجيل. يمامة كانت فتاة صغيرة مميزة لأن أباها، أيوب، ابتلاه الرب بسوء الحظ كيما يمتحنه، وأسوأ ما في الأمر أن كل أطفال أيوب قد قتلوا. كل أبنائه، كل بناته: قتلوا! أوصالي كانت ترتعد كل مرة أسمع فيها هذه القصة. لا بد كان إحساسًا فظيعًا، ذاك الذي شعر به أيوب ما إن سمع بالخبر.

لكن أيوب تجاوز الامتحان، ووهبه الرب أطفالًا آخرين – عدة أبناء، وكذلك ثلاث فتيات – وبذا عاد سعيدًا من جديد. ويمامة كانت إحدى بناته الثلاث.

2 ارتباط الإسم "آغنس" بالحمل يعود إلى القديسة آغنس الرومانية والتي استشهدت في سن الثانية عشرة لرفضها الزواج وإصرارها على صون بتوليتها المُكرّسة لعريسها السماوي يسوع. ودائمًا ما تُرسَم حاملةً للحمل بين ذراعيها دلالة على افتدائها نفسها وكذلك لكون إسمها آغنس – الطاهرة في اللغة اليونانية – قريبة جدا من كلمة آغنوس والتي تعني الحمل في اللغة اللاتينية. والقديسة آغنس هي شفيعة الفتيات الصغيرات وضحايا الاغتصاب.

3 قصيدة "الحَمَل" "The Lamb" للشاعر ويليام بلايك.

"الرب وهبها لأيوب، مثلما وهبني الرب إياك،" قالت أمي.

"وهل ابتلاك الرب أيضًا بسوء الحظ؟ قبل اصطفائك لي؟"

"أجل، مررت بالابتلاء،" قالت، مبتسمة.

"وهل اجتزت الامتحان؟"

"لا بد أني اجتزته،" قالت أمي، "وإلا لما حظيت بهبة اصطفاء ابنة رائعة مثلك."

كنت سعيدة بهذه القصة. لاحقًا وحسب تفكرت مليًا في الأمر: كيف لأيوب أن سمح للرب أن يرمي عليه بثلة أطفال جدد متوقعًا منه التظاهر بأن أطفاله الأموات ما عادوا يعنون له شيئًا؟

متى ما لم أكن في المدرسة أو برفقة أمي – وصرت أقضي وقتًا أقل وأقل برفقة أمي، لأنها باتت تقضي وقتًا أطول وأطول في حجرتها في الطابق العلوي مستلقية في فراشها، تفعل ما تسميه المرثيات "الرقود للراحة" – قضيت وقتي في المطبخ، فقد أحببت مراقبة المرثيات يعددن الخبز والكوكيز والفطائر والكعك والحساء واليخنة. كل المرثيات كنّ يُدْعون مرثا لأن هذه هي هويتهن، وكلهن ارتدين ذات الطراز من اللباس، لكن كل واحدة منهن كان لها أيضًا اسمٌ أول. المرثيات عندنا كن فيرا، روزا، وصِلّة؛ كان لدينا ثلاث مرثيات لأن أبي رجلٌ مهمٌ جدًا. صِلّة كانت المفضلة لدي لأنها اعتادت الحديث في نبرة رقيقة، بينما فيرا جشّاء وروزا عبوسة. ليس خطؤها، الرب خلقها على هذا الوجه. كانت أكبر عمرًا من الأخريين.

"هل لي أن أساعد؟" كنت سأسأل المرثيات. وكن سيعطينني قطعًا من بقايا عجين الخبز ألهو بها، وكنت سأصنع رجلًا من العجين، وكن سيخبزنها في الفرن مع ما يخبزنه في الفرن. ودومًا كنت سأصنع رجالًا من العجين، ولا مرةً صنعت امرأة، لأن ما إن تُخبَز عجينتي كنت سآكلها، ما منحني الشعور بامتلاكي قوة خفية على الرجال. إذ بات واضحًا لديّ، بأن رغم ما تقوله الخالة فيدالا عن الشهوات التي أثيرها فيهم، فإنني عدا ذلك لا أملك أي سلطة عليهم.

"هل لي أن أصنع الخبز من الصفر؟" سألت يومًا فيما صِلّة تخرج الوعاء كي

تبدأ المزج. فكثيرًا ما راقبتهن حدّ اقتنعت أني أعرف الطريقة.

"لا حاجة لإزعاج نفسك بهذا،" قالت روزا، تقطيب وجهها عابسٌ أكثر من المعتاد.

"لماذا؟" سألت.

فيرا ضحكت ضحكتها الجشاء. "سيكون لك مرثيات يقمن بكل هذا العمل عنك، ما إن يختاروا لك زوجًا لطيفًا وسمينًا."

"لن يكون سمينًا." اعترضت قائلة، فبالتأكيد لا أريد زوجًا سمينًا.

"بالطبع لا، مجرد تعبير وحسب،" قالت صِلّة.

"ولن تضطري إلى التسوق أيضًا،" قالت روزا. "مرثتك ستتسوق عنك. أو الجارية، إن احتجت واحدة."

"قد لا تحتاج واحدة،" قالت فيرا. "فأمها –"

"لا تقوليها،" قالت صِلّة.

"ماذا؟" سألتها. "ماذا بشأن أمي؟" كنت أعرف أن هناك سرًّا يتعلق بأمي – سرًّا يتعلق بالطريقة التي يقلن فيها تخلد للراحة – وقد أرعبني.

"لا شيء، سوى أن أمك بيدها إنجاب طفلها بنفسها،" قالت صِلّة تهدئ من روعي، "لذا فأنا متأكدة أن بيدك إنجاب طفل أيضًا. تودين أن يكون لك طفل، أليس كذلك عزيزتي؟"

"أجل،" أجبتها. "لكني لا أريد زوجًا. فهم مقرفون." وثلاثتهن ضحكن.

"ليس الجميع مقرفين،" قالت صِلّة. "فأبوك زوج." أفحمتني بحجتها، إذ ما كان عساي أن أقول.

"سيحرصان على أن يكون زوجًا لطيفًا،" قالت روزا. "وليس أي زوج هرم."

"لا بد أن يحافظا على منزلتهما،" قالت فيرا. "لن يزوجاك من رجل أدنى، أبدًا."

ما عدت راغبة في التفكير في الأزواج. "لكن ماذا إن كانت هذه هي رغبتي؟" سألتهن. "أن أصنع الخبز؟" فمشاعري قد جرحت: بدا كأنهن يطوقن أنفسهن بدائرة ويتركنني خارجها.

"ماذا إن أردت صنع الخبز بنفسي؟"

"حسنٌ، بالطبع لك أن تفعلي ذلك، فمرثياتك سيجبرن على تركك تخبزين،" قالت صِلّة. " فيومئذ ستكونين ربة البيت. لكنهن سينظرن إليك بازدراء. سيشعرن بأنك تسلبينهن موقعهن. الأعمال التي يتقنّها. ولا تريدين لشعور كهذا أن يساورهن عنك، أليس كذلك، عزيزتي؟"

"زوجك لن يقبل بذلك أيضًا" قالت فيرا مع ضحكة أخرى من ضحكاتها الجشاء. "فالعجن يضرّ باليدين. هاك! أنظري إلى يديّ!" وبسطت يديها: أصابعها متعرّجة، الجلد خشن، الأظافر قصيرة، محاطة بالجلد الميت – لا تشبه في شيء يديْ أمي النحيلتين الرشيقتين، مع خاتمها السحري. "عملٌ شاق – يضر باليدين. ولن يسمح بأن تفوح منك رائحة العجين."

"ولا المبيّض،" قالت روزا. "مِن الفرك."

"سيريد منك الالتزام بالتطريز وما شابه،" قالت فيرا.

"البيتي بوان،" قالت روزا. استشفيت سخرية في صوتها.

فالتطريز ما كان يومًا من مهاراتي القوية. ودومًا ما انتقدت على غرزي المهلهلة. "أمقت البيتي بوان. أريد أن أصنع الخبز."

"ليس بيدنا أن نحظى دومًا بما نريد،" قالت صِلّة في نبرة رقيقة. "حتى أنتِ."

"وأحيانًا يتوجب بنا القيام بما نكره،" قالت فيرا. "حتى أنتِ."

"لن أخبز إذًا!" صحت فيهن. "أنتن لئيمات معي!" وركضت خارج المطبخ.

لحظتها كنت أبكي. ورغم أنه قيل لي ألا أزعج أمي، انسللت إلى الطابق العلوي وإلى حجرتها. كانت مستلقية أسفل غطائها الجميل الموشى بالزهور الزرقاء. عيناها كانتا مغمضتين لكن لا بد أنها سمعتني لأنها فتحتهما. كل مرة أراها، تلكما العينان كانتا تبدوان أكبر وأكثر سطوعًا.

"ما الأمر، حلوتي؟"

زحفت أسفل الغطاء وضممت جسدها. كانت دافئة جدًا.

"ليس عدلًا،" صحت باكية. "لا أريد أن أتزوج! لم عليّ الزواج؟"

لم تقل لي لأنه واجبك، كما كانت ستقول الخالة فيدالا، ولا ستريدين الزواج متى ما أزف الوقت، كما كانت ستقول الخالة إسْتى. في البدء لم تقل أي شيء. بدلًا عن ذلك ضمتني إليها وراحت تمسد شعري.

"أتذكرين كيف اصطفيتك،" قالت لي، "من بين كل الفتيات الأخريات."

لكني كنت كبيرة كفاية على تصديق حكاية الاصطفاء هذه: القلعة المحصنة، الخاتم السحري، المشعوذات الشريرات، الفرار بعيدًا.

"ليست سوى حكاية خيالية،" قلت لها. "فأنا جئت من بطنك، مثلي مثل كل الأطفال الآخرين." لم تؤكد كلامي. ما قالت شيئًا. ولسبب ما أرعبني صمتها.

"خرجت من بطنك! أليس كذلك؟" سألتها. "شونميّة هي من أخبرتني، في المدرسة. عن البطون."

ضمتني أمي إليها أقرب وأقرب. "مهما سيحدث،" قالت لي بعد برهة، "تذكري دومًا أني أحببتك من كل قلبي."

أظنك خمنت ما أوشك على قوله لك، ليس أبدًا بالخبر السعيد.

أمي كانت على فراش الموت. والكل عرف، عداي.

عرفت بذلك من شونميّة، من زعمت أنها صديقتي المفضلة. ما كان مسموحًا لنا أن نحظى بصديقات مفضلات. إذ ليس من اللطيف تكوين حلقات صداقة صغيرة، قالت الخالة إسْتى: فمن شأن هذا أن يقصي الفتيات الأخريات ويشعرهن بالسوء من أنفسهن، فواجبنا جميعًا أن تعاون الواحدة منا الأخرى على أن تصبح الفتاة المثالية.

الخالة فيدالا قالت بأن الصديقات المفضلات يفضين إلى الهمس والتآمر وحفظ الأسرار، والمؤامرات والأسرار تفضي إلى معصية الرب، ومعصية الرب تفضي إلى التمرد، والفتيات المتمردات يصبحن نسوة متمردات، والنسوة المتمردات أسوأ من المتمردين الرجال لأن الرجال المتمردين خونة، بينما النسوة المتمردات يصبحن زانيات.

وإذ برفقة تسألها في صوتها الشبيه بصرير الفأر، وما الزانية؟ فوجئنا جميعًا بطرحها السؤال إذ نادرًا ما تطرح رفقة أي سؤال. والدها لم يكن برئيس مثل آبائنا. بل مجرد طبيب أسنان: أفضل طبيب أسنان، وكل عوائلنا تقصد عيادته، مما سمح لرفقة الالتحاق بمدرستنا. لكن عنى أيضًا أن الفتيات الأخريات ازدرينها وتوقعن منها الإذعان.

رفقة كانت جالسة إلى جانبي – دومًا كانت تحاول الجلوس إلى جانبي في حال لم تصدها شونميّة – واستشعرتُ الرجفة تسري فيها. خشيتُ أن تعاقبها الخالة فيدَالا على وقاحتها، لكن لكان من الصعب على أي أحد، حتى على الخالة فيدالا، أن يتهمها بالوقاحة.

شونميّة الجالسة على الطرف الآخر مني همست لرفقة: لا تكوني غبية! الخالة فيدالا ابتسمت، ابتسامتها الشحيحة، وقالت إنها تأمل ألا تكتشف رفقة

الجواب بالتجربة الشخصية، فالمرأة التي تصبح زانية مصيرها إما الرجم حتى الموت أو الشنق من عنقها مع كيس خيش يغطي وجهها. الخالة إسْتى قالت ألّا داعي لإرعاب الفتيات بلا مبرر؛ من ثم ابتسمت وقالت إننا زهراتٌ أثيرات، وهل من أحد قط سمع بزهرة متمردة؟

حدقنا فيها، نجبر أعيننا على الاتساع قدر المستطاع دلالةً على براءتنا، نومئ موافقات على كلامها. لا زهرات متمردات هنا!

بيت شونميّة كان لديهم مرثا واحدة وحسب بينما نحن لدينا ثلاث، ما عنى أن أبي يفوق أهميةً أباها. والآن أدرك أن هذا كان الدافع وراء رغبتها في أن تكون صديقتي المفضلة. كانت فتاةً قصيرة وممتلئة بضفيرتين سميكتين طويلتين حسدتها عليهما، فضفيرتاي كانتا هزيلتين وأقصر، حاجباها الأسودان أضفا عليها ملامح توحي بأنها أكبر من عمرها. كانت عدوانية، لكن فقط من وراء ظهور الخالات. في كل خلاف بيننا، هي وحسب من كانت على حق. إن عارضتها، ستردد رأيها الأول، لكن في صوت أعلى. كانت فظة مع كثير من الفتيات، لا سيما رفقة، وأخجل الآن من إخبارك بأني كنت أضعف من الوقوف في وجهها ونقض رأيها. فشخصيتي كانت ضعيفة متى ما تعاملت مع الفتيات من عمري، رغم أن في البيت المرثيات كن يصفنني بالعنيدة.

"أمك على فراش الموت، أليس كذلك؟" همست لي شونميّة ساعة الغداء.

"كلا،" همست لها. "هي فقط تعاني من حالة!" كذا المرثيات وصفن وضعها: حالة أمك. حالتها هي السبب وراء حاجتها للرقود كثيرًا للراحة، والسعال. المرثيات بتن يحملن صواني الطعام إلى حجرتها؛ والصواني كانت تعود مع الأطباق بالكاد تنقص منها لقمة.

ما عاد مسموحًا لي زيارتها بكثرة. ومتى ما زرتها، فغرفتها كانت ستكون شبه معتمة. ما عادت تفوح برائحتها، رائحة رقيقة، حلوة، مثل رائحة زنبق موز الجنة في حديقتنا، بل كأنما غريبٌ عطن وقذر انسل داخلًا واختبأ تحت سريرها.

كنت سأجلس إلى جانب أمي الراقدة أسفل غطاء سريرها المطرز بالزهور الزرقاء وأمسك بيدها اليسرى الهزيلة حيث خاتمها السحري وأسألها متى ستختفي حالتها، وكانت ستجيبني أنها تصلي للرب أن يخلصها من معاناتها عما قريب. وكنت سأطمئن: إذ يعني أنها ستتحسن. من ثم كانت ستسألني إن كنت فتاةً صالحة، وإن كنت سعيدة، ودومًا كنت سأجيبها بأجل، وكانت ستشد على يدي وتطلب مني الصلاة معها، وكنا سنغني تلك الأنشودة عن الملائكة الواقفين حول السرير. وأخيرًا كانت ستقول شكرًا، كاف عليها لهذا اليوم.

"هي على فراش الموت، صدقيني،" همست شونميّة. "هي هذه حالتها. الموت!"

"لا، ليس صحيحًا،" همست بصوت عال. "هي تتحسن. معاناتها ستنتهي عمّا قريب. هي صلّت للرب كي يخلصها."

"بنات،" قالت الخالة إسْتى. "في ساعة الغداء أفواهنا مخلوقة للأكل وحسب. فالأفواه لا تتكلم وتمضغ في ذات الآن. ألسنا محظوظات بنعمة هذا الطعام الجميل؟" كانت شطائر بيض، وفي العادة أحبها. لكن في تلك اللحظة رائحتها أثارت فيّ الغثيان.

"سمعت من مرئتي،" همست شونميّة ما إن لفت شيءٌ آخر انتباه الخالة إسْتى. "ومرئتك أخبرتها. ما يعني أنها الحقيقة."

"أيّ مرثا؟" سألتها. استعصى عليّ التصديق بأن مرثا من مرثياتنا ستخون أمي وتدعي بأنها على فراش الموت – ولا حتى روزا العبوسة.

"وما أدراني أيّهن؟ فكلهن مرثيات،" قالت شونميّة، تطوّح بضفيرتيها السميكتين عني.

بعدَ ظهيرة ذاك اليوم وما إن أوصلني الوصيّ من المدرسة إلى البيت، توجهت إلى المطبخ. صلّة كانت تفرد عجينة فطائر؛ وفيرا تقطع دجاجة. كان هناك قدر حساء يغلي ببطء على عين الموقد الخلفية: بقايا الدجاج كانت ستطرح فيه، وأي قشور خضراوات وعظام. فمرثياتنا كن مدبرات فائقات فيما يتعلق بالطعام، وما

كن ليهدرن شيئًا من المؤونة.

روزا كانت واقفة عند المغسلة الكبيرة ذات الحوضين تشطف الأطباق. كان لدينا غسّالة صحون، لكن المرثيات ما كن يستخدمنها إلا بعد عشاء الرئيس في بيتنا لأنها تستهلك الكثير من الكهرباء، قالت فيرا، وهناك عجز في الطاقة إثر الحرب. أحيانًا كنّ يدعونها بحرب القِدْر-المُراقَبة لأنها لا تغلي أبدًا، أو بحرب عجلة حزقيال لأنها ما تنفك تدور وتدور دون الوصول إلى مكان؛ لكن أشياء كهذه ما كن يقلنها إلا بينهن.

"شونميّة قالت إن إحداكن أخبرت مرتها بأن أمي على فراش الموت،" أعلنت فجأة. "فمن منكنّ نطقت بالكذبة؟!"

ثلاثتهن توقفن عن فعل ما كن يفعلنه. وكأنما لوّحت بعصاي السحرية وجمدتهن: صلّة مع الشوبك مرفوع في يدها، فيرا مع ساطور في يد وعنق دجاجة شاحب طويل في اليد الأخرى، روزا مع طبق وقماشة غسيل. ثم رحن يتبادلن النظر فيما بينهن.

"ظننا أنك تعرفين،" قالت صلّة في نبرتها الرقيقة. "قد ظننا أن أمك لا بد أخبرتك."

"أو أبوك،" قالت فيرا. وكم كان من السخيف قولها هذا، فمتى كان سيتسنى لأبي إخباري؟ بالكاد تواجد في البيت تلك الأيام، ومتى ما كان موجودًا، فإما يتناول عشاءه بمفرده في غرفة الطعام أو يحبس نفسه في مكتبه يؤدي كل تلك الأشياء المهمة.

"نحن جدّ آسفات،" قالت روزا. "فأمك امرأةٌ صالحة."

"زوجة مثالية،" قالت فيرا. "صبرت على معاناتها دون شكوى." لحظتها انهرت على طاولة المطبخ، أجهش باكيةً على يديّ.

"علينا أن نحتمل الابتلاء، فالرب يمتحن إيماننا،" قالت صلّة. "علينا أن نتمسك بالأمل."

الأمل في ماذا؟ قلت في نفسي. ما الذي لديّ آمل لأجله؟ إن كنت لا أرى أمامي سوى الفقد والظلمة.

أمي توفيت بعدها بليلتين، رغم أني لم أعلم بوفاتها إلا صباح اليوم التالي. كنت حانقة عليها لمرضها مرضًا عضالًا دون أن تخبرني – مع أنها أخبرتني، بطريقة ما: فهي صلت للرب أن يخلصها من معاناتها، وها هي صلاتها استجيبت.

ما إن فرغت من غضبي، شعرت وكأنما بضعةٌ مني اقتطعت – بضعةٌ من قلبي، بضعةٌ ماتت معها. أملت أن تكون الملائكة الأربعة الواقفة حول سريرها حقيقية، وأنها فعلًا رعتها، ورفعت روحها بعيدًا، كما في الأنشودة. حاولت جهدي تصورهم يرفعونها عاليًا عاليًا، نحو الغمام الذهبي. لكني صدقًا عجزت عن تصديقها.

الترتيلة

سِفْرُ أَرْدوا هول

6

ليلة البارحة، وأنا أهيئ نفسي للخلود إلى الفراش، نزعت الدبوس عن شعري، ما تبقى من شعري. في إحدى مواعظي الأخلاقية الحماسية على خالاتنا قبل عدة أعوام، حاضرتهن عن خطيئة الخيلاء، والتي لا تنفك تنسل إلى صدورنا رغم كل التضييق الذي نمارسه على أنفسنا. "الحياة لا تتعلق بالشعر،" قلت آنذاك، نصف مازحة، لكنها الحقيقة. ولهي حقيقة أيضًا أن الشعر يتعلق بالحياة. فهو شعلة الشمعة في الجسد، ومع خبوها يتقلص الجسد ويذوب. فيما مضى كان لدي من الشعر ما يكفي لاعتمار قنزعة، أيام القنزعة؛ ما يكفي لربطه في عقدة الكعكة، في عصر الكعك. أما اليوم فشعري مثله مثل وجبات طعامنا هنا في أردوا هول: شحيحٌ ومتباعد. شعلة حياتي تهمد، أبطأ مما يتمناه من هم حولي، وأسرع مما يظنون.

تأملت انعكاسي على المرآة. من اخترع المرآة فضله وحسب على القلة منّا: لا بد كنا أسعد حالًا قبل معرفتنا بمظهرنا. ليس بقدر السوء الذي توقعته، قلت في نفسي: فوجهي لا يفشي أي علامة ضعف. محتفظٌ بقوامه الجلدي، بشامة الذقن التي تضفي عليه شخصيته، نقش تجاعيده المألوفة. ما كنت يومًا بالجميلة اللعوب، لكني كنت وسيمة فيما مضى: صفةٌ ما عاد لها أن تقال. جليلة هي أقصى ما يمكن أن نجازف به.

وإلام سيؤول مصيري؟ تساءلت. هل سأبلغ شيخوختي عجوزًا مُهمَلة برفق، أتحجّر يومًا بعد يوم؟ هل سأغدو تمثالي الحجري الجليل؟ أم هل سأسقط أنا ونظامي ونسختي الحجرية معي، يجروني بعيدًا وأُباع على أني غرضٌ غريب، زينة مرجة، كتلة رهيبة من سقط المتاع؟

أو هل سأحاكم على أني وحشٌ متحجر القلب، أعدم بالرصاص على يد كتيبة الرماة وأتدلى من على عمود إنارة كيما تراني العامة؟ هل ستمزقني جموع الغوغاء إربًا ويحملون رأسي المقطوع على وتد ويستعرضونني في الشوارع على صيحات المرح والسخرية؟ فقد أضرمت في الصدور ما يكفي من الغضب.

اللحظة ما زلت أملك القرار في هذا الشأن. لا إن كنت سأموت، بل متى وكيف. وأليس هذا الخيار حرية من نوع ما؟

أوه، وكذلك خيار من سأجر معي إلى الهاوية. فقائمتي جاهزة.

أدرك أنك تحمل أحكامك المسبقة عليّ، قارئي العزيز؛ هذا، بالطبع، إن سبقتني سمعتي إليك وفككت شفرة من أكون، أو كنت.

في يومي هذا أنا أسطورة، حية لكن أكثر من حية، ميتة لكن أكثر من ميتة. أنا رأسٌ مؤطر، معلق على الحائط الخلفي للصفوف، صفوف الفتيات رفيعات المقام كفاية كي يحظين بصفوف: ابتسامتي كالحة، ألوم وأحذر وأنصح في صمت. أنا البعبع الذي تستحضره المرثيات كي ينزلن الرعب في قلوب الأطفال الصغار – إن لم تلتزمي حسن التصرف، فالخالة ليديا ستأتي وتنال منك! كذلك فأنا تجسيد المثالية الأخلاقية التي يقتدى بها – وما التصرف الذي كانت ستريده منك الخالة ليديا؟ - وأنا القاضي والمحكم في تساؤلات النفس الضبابية – يا ترى ما كانت ستقول الخالة ليديا؟

صحيح، بتّ منتفخة بالقوة، لكني بت سديمية أيضًا – هلاميّة، متبدلة الأشكال. أنا في كل مكان ولست في أي مكان: حتى في عقول الرؤساء ألوح شرًّا منذرًا. كيف لي أن أستعيد نفسي؟ كيف لي أن أعود وأتقلص إلى حجمي الطبيعي، حجم امرأة عادية؟

لكن لربما فات الأوان. تأخذ الخطوة الأولى، وكي تنقذ نفسك من عواقبها، تأخذ الخطوة التالية. في أوقات مثل وقتنا، هناك اتجاهان وحسب: الأعلى أو الهاوية.

اليوم كان البدر الأول بعد الحادي والعشرين من آذار. في بقية أصقاع العالم، الحملان تذبح وتؤكل؛ بيض الفصح، أيضًا، يستهلك بالأكوام، لأسباب تتعلق بإلهة خصوبة نيوليثية الكل اختار ألا يتذكرها.

هنا في أردوا هول حذفنا لحم الحملان لكن احتفظنا بالبيض. وكمكافأة خاصة أسمح بتلوينها: زهريٌّ فاتح وأزرقٌ فاتح. لا فكرة لديك عن البهجة التي يبعثها البيض الملون في قلوب الخالات والمبتهلات المجتمعات في قاعة الطعام حول العشاء! فنظامنا الغذائي رتيب وأي تغيير بسيط مرحبٌ به، حتى وإن يكن التغيير في اللون وحسب.

بعد تقديم زبديات البيض المبستلة وتأمل الجميع إياها بإعجاب وقبل أن نبدأ وليمتنا الهزيلة، استهللت **بصلاة النعمة** المعتادة – ربِّ بارك طعامنا وأبقنا على الصراط، وليفتح الله علينا – ثم تلوت صلاة **نعمة الاعتدال الربيعي**.

كما تكلّلَ العام بجودك وابتهجت الأرض ربيعًا مزهرًا، أحيِ قلوبنا يا الله وكلّلها ببهجة غفرانك ونعمتك. اللهم بارك بناتنا، بارك زوجاتنا، خالاتنا، مبتهلاتنا، وبارك في لآلئنا الكريمة المبشرات بكلمتك وراء حدودنا، ولتصبّ إلهي شفقتك الأبوية على أخواتنا الجواري من وقعن في مصيدة عصيانك وخلصهن من خطاياهن بقبول أجسادهن وكدحهن تقدمةً وقربانًا لعظمتك.

وبارك اللّهم في الرضيعة نيكول، من سرقتها يد أمها الجارية التي خانت عهدك وخبأتها في كندا الوثنية؛ وبارك كل الأطفال الأبرياء مثلها، المحكوم عليهم بالنشأة على يد الأشرار. قلوبنا وصلواتنا معهم ليلًا ونهار. اللهم أسرع إلى نصرتنا وأعد إلينا الرضيعة نيكول؛ ولتكن مشيئتك طريقها إلينا.

بير أردوا كم إسترس[4]. آمين.

أنا راضية بهذا الشعار المبهم الذي ابتدعته. فهل أردوا تعني "البلاء" أم "المخاض

4 "Per Ardua Cum Estrus": شعار أردوا هول هو تلاعب على الشعار الرسمي للقوات الملكية الجوية الكندية حتى العام 1968 "Per ardua ad astra" والذي يعني "بالكفاح نشق طريقنا نحو النجوم".

الأنثوي في إنجاب الأمم"؟ هل دلالة إسترس ذات علاقة بالهرمونات أم الطقوس الوثنية احتفالًا بالربيع؟ قاطنات أردوا هول لا يعرفن ولا يكترثن. ما دمن يكررن الكلمات الصحيحة في الترتيب الصحيح، فهن آمنات.

وهناك **الرضيعة نيكول**. فيما رحت أصلي لأجل عودتها كل الأعين رنت نحو صورتها المعلقة على الحائط خلفي. كم هي نافعة، الرضيعة نيكول: فهي تستحث الحميّة في صدور المؤمنين، تذكي نار الكراهية ضد أعدائنا، تقف شاهدة على احتمال الخيانة في جلعاد وعلى خداع ومكر الجواري، من لسن أبدًا أهلًا للثقة. ونفعها لا يقف عند هذا الحد وحسب، تفكرت متأملة: على يديّ - إن انتهى الحال بها بينهما - ستحظى الرضيعة نيكول بمستقبل باهر.

تلك كانت تأملاتي على صوت الترتيلة الختامية، ينشدنها في تناغم ثلاث شابات يافعات من مبتهلاتنا. أصواتهن كانت جليّة وصافية، وبقيتنا جلسنا نستمع في طرب إليهن. رغم أفكارك المسبقة، قارئي العزيز، فاعلم أنه كان هناك من جمال في جلعاد. ألا تظننا كنا سنصبو إلى الجمال؟ فقد كنا بشرًا في نهاية المطاف.

أرى أنني أتحدث عنّا في صيغة الماضي.

الموسيقى كانت لحنًا لمزمور قديم، لكننا استبدلنا كلماته بكلماتنا:

تحت عينه تشعّ منارة حقيقتنا
ونبصر كل الخطايا؛
سنرقبكن في خروجكن،
وفي دخولكن.
من كل قلب سنقتلع الرذيلة الخفية،
وفي صلواتنا ودموعنا نقدم ذبيحة الخطيئة.

أقسمنا على الطاعة، وبالطاعة سنحكم
ولن ننحرف عن الصراط القويم!
يد العون نمدها في كل عمل قاس،

لحياة الخدمة أقسمنا على تكريس أنفسنا.
كل فكرة عاطلة، وكل المتع نسحقها،
نفسنا ننكرها، والإيثار فريضتنا الأبدية.

تافهة لا سحر فيها، هذه الترتيلة: لي أن أقول هذا، كوني أنا من نظمها. لكن تراتيل كهذه لا يقصد بها أن تكون قصائد. هي بكل بساطة تذكيرٌ لمن ينشدنها بالثمن الباهظ الذي سيدفعنه إن ضللن عن الصراط القويم. فنحن لا نغفر الزلة من إحدانا، هنا في أردوا هول.

بعد الإنشاد، المضغ الاحتفاليّ بدأ. لاحظت أنّ الخالة إليزابيث تناولت بيضة أكثر من نصيبها والخالة هيلينا تنازلت عن بيضة من نصيبها، حريصة على أن يلاحظ فعلها الجميع. أما الخالة فيدالا، تمخط في منديل المائدة، فقد رأيت عينيها المحمرتين تتخاطفان من على إحداهما إلى الأخرى، من ثم حطتا عليّ. ما الذي تنوي عليه؟ في أي اتجاه ستقفز القطة؟

* * *

من بعد احتفالنا الصغير، شددت الرحال في حجّي الليلي إلى مكتبة هِلدْغارْد العامة على حدود أردوا هول، قاطعةً المجاز المضاء بنور القمر ومتجاوزةً تمثالي الظليل. دخلت، حيّيت أمينة المكتبة الليلية، عبرت القسم العام، حيث وجدت ثلاثًا من مبتهلاتنا يعانين مع معرفة القراءة والكتابة التي اكتسبنها مؤخرًا. مشيت عبر **قاعة القراءة**، والتي يتطلب دخولها تصريحًا أعلى، حيث كتب الإنجيل راقدة في ظلمة صناديقها المقفلة، تتأمل العابرين في سكينة، تتوهج بهالة أسرارها الغامضة.

ثم فتحت الباب المقفل وشققت طريقي بحذر عبر أرشيف **الأصول والأنساب** بملفاته السرية. فمن الضروري تدوين مَنْ قريب مَنْ، رسميًا وواقعًا: فبسبب نظام الجارية، طفل الزوجين قد لا يكون على صلة دم بالأم المختارة ولا بالأب الرسمي،

فجارية يائسة قد تعمد إلى أن تحبل بأي طريقة كانت. ومن صميم عملنا تدوين هذه المعلومات لأنفسنا، كي نمنع الوقوع في شبهة زنا المحارم: فلدينا ما يكفينا من الأطفال الفاسدين. وفي صميم عملنا كذلك حراسة تلك المعرفة بكل حميّة: فالأرشيف هو قلب أردوا هول النابض.

أخيرًا وصلت حرمي الداخلي، عميقًا في قسم **عالم الأدب المحرّم**. على رفوفي الخاصة رتبت مجموعتي من الكتب المحظورة، الخارج متناول الرتب الأدنى. جين آير، آنا كرنينا، تس سليلة دربرفيل، الفردوس المفقود، حياة الفتيات والنساء– يا للذعر الأخلاقي الذي سيدب في أوصال مبتهلاتنا إن فلت كتابٌ من هذه الكتب ووقع بين أيديهن! هنا أيضًا أحتفظ بمجموعة أخرى من الملفات، متاحة فقط للقلة؛ أتصورها التاريخ السري لجلعاد. ليس كل ما يتقيّح ذهبًا، لكن للمرء أن يتربح منه ربحًا غير مالي: فالمعرفة قوة، لا سيما سيئة السمعة. أنا لست بأول من يفطن إلى هذا، أو يتربح منه متى ما أتيحت له الفرصة: كل وكالة مخابرات في العالم تعرف هذا.

ما إن انعزلت، تناولت مخطوطتي الوليدة من مخبئها، مخبأ مستطيل مجوّف قصصته داخل كتاب من الكتب الفاحشة: **أبولوجيا برو فيتا سُوا: دفاعٌ عن حياة المرء** للكاردينال نيومان. ما عاد من أحد يقرأ ذاك المجلد الثقيل، بما أنّ الكاثوليكية اعتبرت شركًا وبدعة تلامس السحر الأسود، لذا فمن غير المرجح لأحد أن يفتحه. لكن إن فتحه أحدهم، فطلقةٌ ستخترق رأسي؛ طلقةٌ قبل أوانها، فأنا بعيدة كل البعد عن استعدادي للمغادرة. إن ومتى ما غادرت، فأخطط للرحيل مع رصاصة أعلى دويًّا.

تقصّدت اختيار هذا العنوان، إذ ما الذي أفعله هنا سوى الدفاع عن حياتي؟ حياتي التي قدتها. الحياة التي – أقنعت نفسي – ما كان لي من خيار آخر سوى المضي فيها. فيما مضى، قبل مجيء النظام الحالي، ما كنت لأعير بالًا إلى الدفاع عن حياتي. إذ ما ظننته أمرًا ضروريًّا. كنت قاضية في محكمة الأسرة، منصبٌ نلته

بعد عقود من الكدح والضنك والتسلق المهنيّ الجهيد، وكنت عادلة في أداء واجبي قدر المستطاع. ودائمًا ما وضعت نصب عينيّ تحسين العالم متى ما رأيت مجالًا للإصلاح، ضمن الحدود العملية لمهنتي. ساهمت في التبرعات الخيرية، صوتّ في الانتخابات الفيدرالية والمحلية، كانت لي آرائي القيمة. ظننتني أعيش حياةً فاضلة؛ وظننت فضيلتي ستنال الاستحسان.

لكني أدركت إلى أي مدى كنت مخطئة بشأن هذا، وبشأن الكثير من الأمور، يوم أُلقيَ القبض عليّ.

الملابس الطّريدة

محضر أقوال الشاهدة "369B"

7

يقولون إنّ أثر الندبة لن يزول، لكني تقريبًا أشعر بتحسن؛ لذا أجل، أظنني قوية كفاية كي أقوم بهذا الآن. قلتَ إنك تريد مني أن أخبرك كيف تورطت في هذه القصة من الأساس، لذا سأحاول؛ مع أنه يصعب عليّ معرفة من أين أبدأ.

سأبدأ من قبل عيد ميلادي، أو ما اعتدت التصديق بأنه عيد ميلادي. فنيل وميلاني قد كذبا عليّ بهذا الشأن: كذبا عليّ لأسباب صحيحة وبنيّة طيبة، لكني ما إن عرفت بهذا غضبت جدًا عليهما. غير أن مواصلة الغضب عليهما بات صعبًا، فقد كانا ميّتَين آنذاك. لك أن تغضب على الأموات كما تشاء، لكن أبدًا لن تحظى بنقاش معهم حول ما ارتكبوه بحقك؛ أو قد تحظى بنقاش لكن سيكون من طرف واحد. وشعوري بالذنب وازى شعوري بالغضب، لأنهما قُتِلا، وصدقت حينها بأن جريمة قتلهما هو خطئي.

كان يفترض بي حينها أن أبلغ السادسة عشرة. أكثر ما كنت أصبو إليه هو الحصول على رخصة قيادتي. فقد شعرت بأني كبيرة على حفلة عيد ميلاد، لكن ميلاني حرصت دومًا على إحضار كعكة وبوظة ودومًا ما غنت لي "ديزي، ديزي، أصدقيني القول وأجيبي سؤالي،" أغنية قديمة لطالما أحببتها وأنا طفلة لكن بت أجدها محرجة. لاحقًا حصلت على الكعكة – كعكة شوكولا، وبوظة بالفانيلا، المفضلتان لديّ – لكني عجزت عن تناولهما. فميلاني ما عادت موجودة.

عيد الميلاد ذاك كان اليوم الذي اكتشفت فيه أني محتالة. أو لست محتالة، كما يقال على الساحر الفاشل: بل زائفة، مثل قطعة أثرية زائفة. كنت تزويرًا ارتكب عن عمد. كنت جد يافعة وقتئذ – لماذا أشعر وكأنّ ما حدث حدث قبل

جزء من الثانية – لكني الآن ما عدت يافعة. يا للوقت القصير الذي يستلزمه تغيير الوجه: نحته، تحجيره. ما عاد من وجود لنظرة العينين الواسعتين الساحرتين في المدى. بتّ متنبهة، حادة الحواس، أشد تركيزًا. بت ضيقة الأفق.

نيل وميلاني كانا والديّ؛ كانا يديران متجرًا يدعى **الملابس الطريدة**. كان متجرًا لبيع الملابس المستعملة: ميلاني كانت تدعوها "المحبوبة في الماضي" لأنها قالت إن "مستعملة" تعني "مستغلة". كان على اللافتة خارجًا كلب بودل زهري مبتسم في تنورة منفوشة مع عقدة زهرية على رأسه، يحمل كيس مشتريات. من أسفله كان الشعار مطبوعًا في خط مائل بين علامتي التنصيص: "أبدًا لن تعرف الفرق!" المغزى أن الملابس المستعملة في حال ممتازة حدّ لن تعرف أبدًا بأنها كانت مستعملة، لكن ذلك ما كان صحيحًا على الإطلاق. فمعظم تلك الملابس كانت هراءً رثًّا.

ميلاني أخبرتني أنها ورثت **الملابس الطريدة** من جدتها. كذلك قالت بأنها على علم بأن اللافتة عتيقة الطراز، لكنها باتت مألوفة لدى الناس وتبديلها الآن سينم عن قلة احترام.

متجرنا كان يقع في كوين ويست، في امتداد مربعات سكنية من المحال التي – كما قالت ميلاني - كانت شبيهة بمتجرنا، أقمشة، أزرار، زركشة، ملابس داخلية رخيصة، ومتاجر الدولار الواحد. أما الآن فالمنطقة تحولت إلى تجارية راقية: مقاهي تعتمد التجارة العادلة والمنتجات العضوية، متاجر بيع خصومات الماركات الشهيرة، وبوتيكات أنيقة. في رد فعل منها على هذا التغيير، علقت ميلاني على الواجهة لافتة **فنٌ ملبوس**. لكن في الداخل، المتجر كان مكتظًا بكل أنواع الملابس التي ما كنت لتدعوها مطلقًا بالفن الملبوس. أجل، كانت هناك زاوية تضم ملابس لمصممَين معروفين، لكن أي قطعة ثمينة منها ما كانت لتتواجد أصلًا بين **الملابس الطريدة**. أما بقية المعروض فكانت ملابس من كل الأنواع. وكل أنواع الناس دخلوا المتجر: الشباب، العجائز، باحثين عن صفقة أو لقية، أو باحثين للمتعة وحسب. أو باعة: فحتى المشردون كانوا سيحاولون تحصيل بضعة دولارات من بيع قميص

التقطوه من سوق الكراج.

ميلاني كانت تعمل في الطابق الرئيس. كانت ترتدي ألوانًا ساطعة، البرتقالي والفوشيا مثلًا، لأنها قالت بأن تلك الألوان تخلق طاقة وأجواء إيجابية، ففي القلب من قلبها هي نصف غجرية، كذا اعتادت أن تقول. دومًا كانت نشطة ومبتسمة، لكن دومًا أبقت عينًا مترصدة على النشالين. بعد الإغلاق، كانت تفرز وتوضب: هذا للصدقات، وهذا للبالة، وهذا للفن الملبوس. وكان من عادتها، فيما تفرز وتوضب، أن تغني ألحانًا من الأفلام الموسيقية – الأفلام القديمة من الماضي البعيد، "أوه يا له من صباح جميل،" كانت إحدى أغانيها المفضلة، "وحين تمشي في قلب العاصفة." غناؤها كان يستفزني؛ وكم أنا نادمة الآن.

أحيانًا كانت تجد نفسها غارقة: الكثير الكثير من القماش، محيطٌ من القماش، أمواجٌ من الملابس تعلو قادمةً نحوها مهددةً بجرفها معها. كشميرا ومن ذا الذي سيشتري كشميرًا عمره ثلاثون عام؟ فالكشمير لا يزداد جمالًا مع مضي السنين، كانت ستقول – على خلافها هي.

نيل كان ملتح، لحيةٌ شائبة ولم تكن دومًا بالمهذبة، كذلك لم يكن هناك من شعر كثير على رأسه. لم يبد عليه أنه رجل أعمال، لكنه تولى ما كان كلاهما يدعوانه "مسألة المال": الفواتير، المحاسبة، الضرائب. كان لديه مكتب في الطابق الثاني، أعلى سلم مغطاة درجاته بالسجاد المطاطي. كان لديه حاسوب وخزانة ملفات وخزنة، لكن عدا ذلك فالغرفة لم تبد أبدًا حجرة مكتب: بل ماثلت المتجر اكتظاظًا وفوضى لأن نيل أحبّ جمع الأشياء. صناديق موسيقى زنبركية، كان يملك العديد منها. ساعات حائط، الكثير من الساعات المختلفة. حاسبات قديمة تعمل مع مقبض. دمى بلاستيكية تمشي أو تثب عبر الأرضية، دبب وضفادع وأطقم أسنان زائفة. جهاز عرض الشرائح الضوئي لنوع من الشرائح الملونة ما عاد أحد يملكها. كاميرات – كم عشق الكاميرات الأثرية. بعض تلك الكاميرات تلتقط صورًا جودتها أفضل من أي صورة تلتقطها كاميرات اليوم، كان سيقول. كان لديه رف كامل لا يحمل شيئًا سوى الكاميرات.

مرةً ترك الخزنة مفتوحة واسترقت نظرة داخلها. عوضًا عن رزم المال التي توقعتها، لم أجد شيئًا داخلها سوى قطعة صغيرة مصنوعة من المعدن والزجاج. ظننتها دمية أخرى مثل طقم الأسنان الوثّاب، لكني ما استدليت على الزنبرك فيها، وخفت من لمسها إذ بدت عتيقة جدًا.

"هل لي أن ألعب بها؟" سألت نيل.

"تلعبين بماذا؟"

"تلك اللعبة في الخزنة."

"ليس اليوم،" أجابني مبتسمًا. "ربما متى ما كبرت." ثم أغلق باب الخزنة، ونسيت أمر تلك الدمية الصغيرة الغريبة إلى أن جاء الوقت الذي تذكرتها فيه، وفهمت حقيقتها.

نيل كان سيحاول إصلاح مختلف تلك الأغراض، عدا أنه غالبًا ما فشل لعجزه عن العثور على قطع غيار. والشيء المعطوب كان سيجلس هكذا، على الرف، "يجمع الغبار"، كما قالت ميلاني. نيل ما كان ليطيق التخلص من أي شيء ورميه خارجًا.

وعلى جدران المكتب علّق ملصقات قديمة: **الألسن الفالتة تغرق السفن**، من حرب وقعت في الماضي البعيد؛ امرأة في رداء سروالي تثني ذراعها المعضلة إثباتًا أن المرأة بإمكانها صنع القنابل -أيضًا تعود إلى ذات الحرب؛ وملصق بالأسود والأحمر يظهر رجلًا وعلمًا يعود لروسيا قبل أن تصبح روسيا، كما قال نيل. كل تلك الملصقات ورثها عن جده الأكبر، من عاش في وينيبيغ. لم أعرف شيئًا عن وينيبيغ سوى أنها باردة.

أحببت **الملابس الطريدة** في طفولتي: كان أشبه بكهف مليء بالكنوز. ما كان مسموحًا لي التواجد وحدي في مكتب نيل خشية أن "ألمس الأشياء" وبالتالي "أكسرها". لكن كان مسموحًا لي اللهو بألعاب الزنبرك وصناديق الموسيقى والحاسبات العتيقة، تحت المراقبة. أما الكاميرات فممنوع، لأنها ثمينة جدًا، قال نيل، وعلى أي حال فلا أفلام فيها، فما المغزى إذن من اللهو بها؟

لم نقطن أعلى المتجر. بيتنا كان على مسافة بعيدة، في حيٍّ من تلك الأحياء السكنية حيث تجد البيوت القديمة ذات الطابق الواحد مع بضعة بيوت كبيرة وجديدة بنيت حيث هدموا بيوتًا قديمة. بيتنا لم يكن ذا طابق واحد – بل له طابق علوي، حيث غرف النوم – لكن لم يكن أيضًا بالبيت الجديد. كان مشيدًا من القرميد الأصفر، عاديٌّ جدًا. ما كان من شيء فيه يدعوك إلى التريث وإلقاء نظرة أخرى عليه. عدا أني الآن، وأنا أستحضر في ذاكرتي تلك الأيام، أظنها الميزة التي لاءمتهما.

اعتدت قضاء أيام السبت والآحاد في الملابس الطريدة لأن ميلاني لم ترغب بوجودي وحدي في البيت. ولم لا؟ بدأت أسألها مع بلوغي الثانية عشرة. لأنّ ماذا إن وقع حريق، قالت ميلاني. وعلى أي حال، فترك طفلة وحدها في البيت هو ضد القانون. وكنت سأحاججها أني لم أعد طفلة، وهي كانت ستتنهد وتقول إني أصلًا لا أميز الطفل من البالغ، والأطفال مسؤولية عظيمة، وأني حين أكبر سأتفهم موقفها، وأخيرًا تنهي الجدال بقولها إني تسببت لها بالصداع، فنمضي نحو سيارتها ذاهبتان إلى المتجر.

كان مسموحًا لي تقديم يد العون – فرز القمصان وفق الحجم، لصق رقع الأسعار عليها، تنحية القمصان التي كانت إما في حاجة إلى الرتق أو الرمي. أحببت فعل هذا: كنت أجلس إلى طاولة في الزاوية الخلفية، محاطة برائحة خفيفة من كرات العث، أرقب الداخلين إلى المتجر.

ليس كل من دخل المتجر كان زبونًا. بعضهم كان من المشردين، يريدون استخدام حمام الموظفين لدينا. ميلاني كانت تسمح لهم بالدخول في حال كانت تعرفهم، لا سيما في الشتاء. كان هناك رجلٌ كهل اعتاد الدخول في هدوء. كان يرتدي معطفًا من التويد أعطته إياه ميلاني مع صُدَر صوفية. آنذاك كنت قد بلغت الثالثة عشرة، ووجدته مثيرًا للريبة، لا سيما مذ أخذنا تلك المادة التربوية في المدرسة حول المعتدين الجنسيين على الأطفال. اسمه كان جورج.

"عليك ألا تسمحي لجورج باستخدام الحمام،" قلت لميلاني. "فهو منحرف."

"ديزي، لا تقولي هذا، ليس بالتصرف اللطيف،" قالت ميلاني. "وما الذي يجعلك تظنين فيه هذا الظن السيئ؟" كنا في بيتنا، في المطبخ.

"لأنه فعلًا منحرف. دائمًا ما يحوم في المكان. يزعج الناس ويستجديهم خارج المتجر. أيضًا، هو يترصدك." لكنت قلت إنه يترصدني، وكنت لحظتها سأثير فزعها، لكن الحقيقة أنه لم يفعل. جورج ما أعارني قط أي انتباه.

ميلاني ضحكت قائلة، "كلا، هو لا يترصدني." فقررت في نفسي أنها ساذجة. كنت في تلك السن التي يتحول فيها الآباء فجأة من أناس عليمين بكل شيء إلى أناس لا يفقهون شيئًا.

كان هناك شخصٌ آخر اعتاد الدخول والخروج من المتجر كثيرًا، لكنها ما كانت بمشردة. خمنت أنها في الأربعين، ولربما أقرب إلى الخمسين: لطالما وجدت صعوبة في التخمين مع الأشخاص الأكبر عمرًا. في العادة كانت ترتدي سترة جلدية سوداء، بنطال جينز أسود، وجزمة ثقيلة؛ أبقت على شعرها الأسود الطويل مربوطًا ومشدودًا للوراء، وأبدًا ما وضعت مساحيق تجميل. بدت أشبه براكب دراجة نارية، لكن ليس براكب حقيقي – بل أقرب إلى إعلان عن راكب دراجة. لم تكن زبونة – اعتادت الدخول من الباب الخلفي كي تستلم الملابس المخصصة للصدقات. ميلاني أخبرتني أنهما صديقتان قديمتان لذا متى ما طلبت منها آدا أي شيء، وجدت من الصعب عليها أن تجيبها بلا. على أي حال، ميلاني ادّعت أنها فقط تمنح آدا الملابس العصية على البيع، على الأقل أناسٌ سيستفيدون منها.

لم أر في آدا شخصية المرأة المحبة لفعل الخير. لم تكن رقيقة ولا مبتسمة، كانت جليفة، ولدى مشيها كانت تفشخ ساقيها. ولا مرة بقت في المتجر فترةً طويلة، ولا مرة غادرت المكان دون حملها صناديق كرتونية من ملابس الصدقة، تحشرها في أية سيارة جاءت بها وركنتها في الزقاق خلف المتجر. من حيث أجلس كان لي أن أرى تلك السيارات. لم تأتنا أبدًا بذات السيارة.

نوعٌ ثالث من الأشخاص اعتادوا دخول الملابس الطريدة دون شراء أي شيء. تلكن النساء اليافعات في أرديتهن الفضية الطويلة وقلنسواتهن البيض من يدعون أنفسهن **باللآلئ الكريمة**[5] ويزعمن أنهن مبشرات يقمن بعمل الرب لأجل جلعاد.

5 سفر متّى (13:45): "مثل ملكوت السماوات كمثل تاجر كان يطلب اللآلئ الكريمة، فوجد لؤلؤةً ثمينة جدًا، فمضى وباع جميع ما يملك واشتراها."

كنّ مثيرات للريبة أكثر من جورج. عملهن يتمركز في الوسط التجاري، يتحدثن إلى المشردين ويدخلن المتاجر ويعلقن بالشخص كما الطفيليات. بعض الناس تصرفوا معهن بوقاحة، لكن ميلاني أبدًا ما تصرفت معهن هكذا لأنها لم تر في هذه التصرفات أي فائدة.

كنّ دومًا يظهرن في أزواج من اثنتين، يرتدين عقدًا من اللؤلؤ ويبتسمن بكثرة، لكن ما كانت بابتسامات صادقة. كن سيعرضن على ميلاني نسخ من كتيباتهن المطبوعة حيث صور الشوارع النظيفة، الأطفال السعداء، وشروق الشمس، وعناوين يفترض بها أن تغريك إلى شد الرحال إلى جلعاد: **ضالٌ عن الصراط؟ باب المغفرة ما زال مفتوحًا!، مشرّد؟ في جلعاد بيتٌ لك.**

ودائمًا وأبدًا كان هناك على الأقل كتيبٌ واحد عن الرضيعة نيكول. "أعيدوا إلينا الرضيعة نيكول!" "الرضيعة نيكول تنتمي إلى جلعاد!" في المدرسة عرضوا علينا فيلمًا وثائقيًا عن الرضيعة نيكول: أمها كانت جارية هرّبت طفلتها خارج جلعاد. والد الرضيعة نيكول كان رئيسًا كبيرًا ومجرمًا من كبار رؤساء عصابة جلعاد، لذا أثار تهريبها اهتياجًا عظيمًا، وجلعاد طالبت بعودتها، كي يجتمع شملها بأبويها القانونيّيْن. كندا تباطأت في اتخاذ الإجراءات غير أنها أخيرًا استسلمت للضغوط وصرحت بأنها ستبذل كل الجهود لاسترجاعها، لكن وقتئذ كانت نيكول قد اختفت ولم يعثر عليها أبدًا.

من بعدها أصبحت الرضيعة نيكول الوجه الإعلامي لجلعاد. في كل كتيب من كتيبات اللآلئ الكريمة كنت ستجد ذات الصورة لها. بدت مثلها مثل أي رضيع، لا شيء يميزها، لكنهم حوّلوها قديسة في جلعاد، كذا أخبرتنا المعلمة. وحتى نحن حولناها إلى أيقونة: ففي كل مرة كانت تنطلق مظاهرة في كندا ضد جلعاد، كنت سترى صورتها ومن أسفل الصورة شعارات من مثل **الرضيعة نيكول! رمز الحرية!** أو **الرضيعة نيكول! تقود الركب!** وكأنما لرضيع أن يقود أي ركب، كنت سأقول في نفسي.

أساسًا لم أطق الرضيعة نيكول مذ كتبت ورقة بحث عنها. حصلت على درجة

جيّد لقولي بأنها كانت كرة قدم يتقاذفها الطرفان، وخيرٌ للجميع وسعادة عظيمة للكثيرين لو أنهم فقط يعيدونها وننتهي من الأمر برمته. المعلمة أنبتني واتهمتني بقسوة القلب وأنّ عليّ احترام مشاعر الناس وحقوقهم، فحاججتها بأن الناس في جلعاد هم أيضًا أناس، أليس علينا إذن احترام حقوقهم ومشاعرهم؟ ففقدت أعصابها ونهرتني قائلة بأنّ عليّ أن أنضج، ولربما كان معها حق: فقد تعمدتُ مفاقمة النقاش معها. لكني كنت حانقة لحصولي على درجة جيد.

كل مرة كنّ يدخلن فيها اللآلئ الكريمة، كانت ميلاني تقبل كتيباتهن وتعدهن بترك مجموعة منها عند نقطة البيع. وأحيانًا كانت تعيد إليهن بعضًا من تلك الكتيبات القديمة: فقد اعتدن جمع المتبقي منها لتوزيعها في دول أخرى.

"لم تفعلين هذا؟" سألتها ما إن بلغت الرابعة عشرة إذ زاد اهتمامي وقتها في السياسة. "نيل يقول بأننا ملحدون. وبتصرفاتك هذه فأنت تشجعينهن." كنا قد تلقينا في المدرسة ثلاث وحدات دراسية عن جلعاد: مكانٌ فظيع، فظيعٌ جدًا، حيث لا يحق للمرأة العمل ولا قيادة السيارة، حيث تجبر الجارية على الحمل مثلها مثل أي بقرة، غير أنّ البقرة أعزّ وأكرمُ منها. وما طينة أولاء البشر الذين يقفون في صف جلعاد إلا إن كانوا في الأصل وحوشًا؟ لا سيما مناصرات جلعاد من النساء. "لم لا تخبرينهن بأنهن الشيطان عينه؟"

"لا فائدة ترجى من التحاور معهن،" قالت ميلاني. "فهنّ متعصبات."

"إذن أنا من سيخبرهن." ظننتني حينها مدركة لكل ما هو خطأ في الناس، لا سيما البالغون منهم. ظننتني قادرة على إعادتهم إلى جادة الصواب. اللآلئ الكريمة كنّ أكبر مني، ما كنّ بطفلات: فكيف إذن يصدقن كل هذا الهراء؟

"إياك،" نهرتني ميلاني بحدة. "الزمي مكانك في الخلف. لا أريدك أبدًا أن تتكلمي معهن."

"لم لا؟ أنا قادرة على التعامل مع."

"هن يخدعن الفتيات من عمرك ويقنعهن بالذهاب إلى جلعاد معهن. سيقلن إنّ اللآلئ الكريمة يساعدن النساء والفتيات. سيحاولن استمالة المثالية فيك."

"لن أقع أبدًا في حبائلهن!" قلت ساخطة. "فلست ناقصة عقل لعينة." لم تكن من عادتي اللعان أمام ميلاني ونيل، لكن أحيانًا تفلت مني تلك الكلمات.

"الزمي الأدب وإلا فركت لسانك بالصابون،" قالت ميلاني. "فاللعان يترك عنك انطباعًا سيئًا."

"آسفة. لكني لست بناقصة عقل."

"بالطبع لستِ كذلك،" قالت ميلاني. "لكن دعيهنّ وشأنهن. أنا أستلم منهن الكتيبات كي ينصرفن."

"وهل اللؤلؤ في عقودهن حقيقي؟"

"زائف،" قالت ميلاني. "كل ما يتعلق بهن زائف."

رغم كل ما فعلته ميلاني لأجلي، إلا أنّ رائحتها كانت نائية. رائحة صابون معطر بالورد في حمام ضيوف في بيت غريب أزوره. ما أعنيه، أني أبدًا ما شممت فيها رائحة أمي.

أحد كتبي المفضلة في مكتبة المدرسة، حين كنت أصغر عمرًا، كان كتابًا يدور حول رجل يُلحق نفسه بقطيع ذئاب. هذا الرجل ما كان أبدًا ليستحم لأنه إن فعل فرائحة قطيع الذئاب ستُشطف عنه والذئاب حينها سترفضه. معي أنا وميلاني، فالأمر كان أشبه باحتياجنا إلى اكتساب رائحة القطيع هذه، الشيء الذي كان سيضمنا معًا في كينونة واحدة – نحن معًا. لكن ما حدث هذا قط. إذ لم نكن بالقطيع الذي يهوى التعانق.

كذلك، فنيل وميلاني كانا مختلفين عن بقية آباء الأطفال الذين أعرفهم. إذ دائمًا ما تصرفا معي بحذر شديد، وكأني سهلة الكسر. كأني قطة جوائز وهما يرعياني: قد تتعامل مع قطتك على أنها أمرٌ مسلمٌ به، تتصرف بأريحية حولها، لكن مع قطة شخص آخر فتلك قصة أخرى لأنك إن أضعت تلك القطة فستشعر بالذنب على نحو مختلف تمامًا.

أمرٌ آخر: الأطفال في المدرسة كانت لديهم صور عن أنفسهم – الكثير من الصور. آباؤهم وثقوا كل دقيقة من حيواتهم. حتى أنّ بعض الأطفال يملكون صورًا عن لحظة مولدهم، وأحضروها معهم إلى حصة **اعرض وتحدث**. كم كان مقرفًا رؤيتها – الدماء والساقين الكبيرتين مفشوختين، مع رأس صغير يتدلى من بينهما. كانوا يملكون صورًا عن مرحلة طفولتهم المبكرة، المئات والمئات منها. ما كان ليتجشأ طفل من أولاء الأطفال إلا ويصوب بالغ كاميرته عليه طالبًا منه أن يعيد فعلها – وكأن على الطفل أن يعيش حياته مرتين، مرةً في الواقع ومرةً لأجل الصورة.

لكن هذا لم يحدث معي. مجموعة نيل من الكاميرات الأثرية كانت ممتعة، لكن الكاميرات التي تعمل حقًّا ما كان لها من وجود في بيتنا. ميلاني أخبرتني أن كل

صور طفولتي المبكرة قد تلفت في حريق. الغبي وحسب كان سيصدق كلامها، وأنا صدقتها.

والآن سأخبرك بالتصرف الغبي الذي اقترفته، وعواقبه الوخيمة. لست فخورة بتصرفي: بالنظر إلى الوراء، أدرك كم كنت حمقاء، لكن وقتذاك ما كنت لأراه تصرفًا أحمق.

قبل عيد ميلادي بأسبوع، تقرر الانطلاق في تظاهرة ضد جلعاد. فصور إعدامات جديدة تسربت من جلعاد وعرضت في نشرات الأخبار: نساء مشنوقات بتهم الردّة والهرطقة وكذلك لمحاولتهن تهريب الأطفال الرضع، جرائم تعد خيانة عظمى في قانونهم. والمدرسة منحت الصفين الأقدمين في المدرسة يوم تغيّب حتى ننضم إلى التظاهرة كجزء من وحدة نشاط **الوعي الاجتماعي العالمي**.

كنا قد أعددنا اللافتات: **لا تجارة مع عصابة جلعاد! العدالة لنساء جلعاد! الرضيعة نيكول، نجمتنا الهادية!** وبعض الأولاد أضافوا لافتات بيئية: **جلعاد، مكذبة الاحتباس الحراري! جلعاد تريد شَوْيَنا!** مع صور لحرائق الغابات وأناس ميتين وطيور ميتة وأسماك نافقة. عدة معلمين وبعض الآباء المتطوعين كانوا سيرافقوننا حرصًا على ألا نتعرض لأي عنف. كنت متحمسة جدًا كونها التظاهرة الأولى التي كنت سأشارك فيها. لكن نيل وميلاني قالا إنّ ليس بوسعي المشاركة.

"ولم لا؟" سألتهما. "فالجميع ذاهب!"

"قطعًا لا،" قال نيل.

"لكنك دائمًا ما تقول أنّ واجبنا الدفاع عن مبادئنا."

"الأمر مختلف الآن. الوضع ليس آمنًا، ديزي."

"الحياة ليست آمنة، أنت نفسك تقول هذا. على أي حال، لا داع للقلق، فمعلمون كثر قادمون، والتظاهرة جزء من نشاط مدرسي – إن لم أذهب، سأخسر درجات!" لم أكن صادقة تمامًا في الجزئية الأخيرة، لكن نيل وميلاني حرصا على نيلي درجات جيدة.

"ربما تستطيع الذهاب،" قالت ميلاني. "إن سألنا آدا الذهاب برفقتها؟"

"أنا لست بطفلة، وبالتأكيد لا أحتاج مربية!" صحت ساخطة فيهما.

"هل تهلوسين؟" قال نيل لميلاني. "هذا الشيء سيعج بالصحافة! سيذاع في كل النشرات!" وراح يشد خصلة من شعره، ما تبقى من شعره – كانت الدلالة على قلقه.

"هذا هو المغزى!" قلت له. أنا نفسي كنت صنعت لافتة من اللافتات التي كنا سنحملها – في أحرف حمراء كبيرة وجمجمة سوداء. **جلعاد = موت العقل**. "الفكرة برمتها هي الظهور على نشرات الأخبار!"

ميلاني وضعت يديها على أذنيها. "صدّعتني. نيل محق. لا يعني لا. ستقضين بعد الظهيرة في المتجر تساعدينني، وانتهى الكلام."

"أقفلا عليّ إذن!" وعصفت غاضبة إلى غرفتي وصفقت الباب. لا، ليس بيدهما إجباري.

المدرسة التي كنت أدرس فيها تدعى **مدرسة وايل**. سميت تيمنًا بفلورانس وايل[6]، نحاتة من الزمن القديم وصاحبة الصورة المعلقة في ردهة المدخل الرئيسي. هذه المدرسة تشجع على الإبداع، قالت ميلاني، وفهم أسس الحرية الديموقراطية وحقك في التفكير وإبداء رأيك، قال نيل. أخبراني أنّ هذا هو السبب وراء إرسالهما إياي إلى تلك المدرسة، رغم معارضتهما مبدأ المدارس الخاصة بشكل عام؛ لكن ما العمل، فمعايير المدارس الحكومية منخفضة جدًا، بالطبع يقع على عاتقنا جميعًا واجب تحسين النظام، لكن في الوقت الحالي لا يريدان لي أن أتعرض للطعن على يد موزع مخدرات مراهق. لكني الآن أظنهما اختارا **مدرسة وايل** لسبب آخر تمامًا. نظامها الصارم في الحضور والغياب: فمن المستحيل تفويت يوم دراسي. هكذا تسنى لنيل وميلاني معرفة مكاني طوال الوقت.

ما أحببت **مدرسة وايل**، لكني أيضًا لم أكرهها. كانت شيئًا عليّ اجتيازه في طريقي إلى الحياة الحقيقية، والتي كان سيتضح لي شكلها عن قريب، أقرب مما

6 Florence Wyle

ظننت. قبل فترة ليست بالطويلة، أردت أن أكون طبيبة بيطرية أعالج الحيوانات الصغار، لكن الحلم بدا لي طفوليًا. بعد ذلك قررت أن أصبح جراحة، لكني وقتها شاهدت فيلم فيديو عن الجراحة عرضوه علينا في المدرسة فأصابني بالغثيان. طلبة آخرون أرادوا دخول عالم الغناء والأزياء وغيره من المجالات الإبداعية، لكني افتقرت إلى الأذن الموسيقية والاكتراث لآخر صيحات الموضة.

كان لي عدة أصدقاء في المدرسة: أصدقاء نميمة، بنات؛ أصدقاء تبادل الواجبات، بناتٌ وأولاد. كنت حريصة على أن تظهرني درجاتي أغبى مما أنا عليه – إذ لم أرد البروز كطالبة مجتهدة – لهذا فواجباتي المدرسية لم تحمل قيمة تبادل عالية. لكن صالة الألعاب والرياضة – فلا بأس كان لدي من البروز فيها، وكنت بالذات جيدة في الرياضات التي تتطلب السرعة وطول القامة، مثل كرة السلة، ما منحني شعبية كبيرة لدى الفرق. أما حياتي خارج المدرسة فكانت محدودة، فنيل وميلاني كانا سريعا القلق والاهتياج. ما كان مسموحًا لي التجول في المجمعات التجارية لأنها موبوءة بمدمني الهيروين، قالت ميلاني، ولا التسكع في المنتزهات، قال نيل، ليس مع كل الرجال الغرباء المتربصين بالفتيات هناك. لذا فحياتي الاجتماعية في مجملها كانت صفرًا: لا شيء فيها سوى كل الأمور التي سيسمح لي بفعلها متى ما كبرت. كلمة نيل السحرية في البيت كانت لا.

عدا أنّ، هذه المرة، ما كنت لأتراجع: كنت سأشارك في التظاهرة مهما كان الثمن. كانت المدرسة قد استأجرت حافلات لنقلنا. ميلاني ونيل، في محاولة استباقية منهما لمنعي، اتصلا بالناظرة وأنكرا منحهما إياي الإذن، والناظرة طلبت مني البقاء في المدرسة، وأكدّتُ لها أني بالطبع متفهمة، لا مشكلة، وسأجلس في انتظار ميلاني تأتي وتصحبني في سيارتها. لكن لم يكن هناك سوى سائق الباص يؤشر الأسماء على قائمة الطلاب دون أن يميز أحدًا عن الآخر، والجميع كان يتحرك في غير انتظام، والآباء والمعلمون ما داروا لنا بالًا وما كانوا على علم أصلًا بأني لا يفترض بي الذهاب، لذا تبادلت بطاقة الهوية مع زميلة لي في فريق كرة السلة لم ترغب بالذهاب وركبتُ الباص، يغمرني، لحظتها، شعورٌ عارمٌ بالرضا عن نفسي.

في البدء كانت مسيرة التظاهر مثيرة للحماس. كنا في وسط المدينة التجاري، قرب المجلس التشريعي، عدا أنها ما كانت بالمسيرة حقًّا، فلا أحد سار إلى أي مكان، الجميع وقفوا محشورين في الزحام. أناسٌ ألقوا خطابات. قريبة كندية لامرأة قضت نحبها في مستعمرات جلعاد تنظف النفايات المشعة المميتة تكلمت عن عمالة الاستعباد. قائد **الناجون من الإبادة الجماعية في مستوطنات جلعاد القومية** تحدث عن المسيرات الإجبارية إلى نورث داكوتا، حيث حشدوا الناس كما قطعان الغنم في بلدات أشباح مهجورة مسوّرة تاركين إياهم بلا طعام ولا ماء، وكيف لقي الآلاف منهم حتفه، وكيف خاطر الناس بحياتهم في قطعهم الطريق شمالًا نحو الحدود الكندية في عز الشتاء، ورفع يدًا مبتورة الأصابع قائلًا، قضمة صقيع.

من بعده صعدت على المنصة متحدثة من **راعية الملاذ** – منظمة لاجئين لأجل نساء جلعاد الهاربات – وتحدثت عن أولاء النساء اللواتي انتزع منهن أطفالهن، وإلى أي حد هو جرمٌ قاس، وكيف إن حاولت استعادة طفلك فسيتهمونك بازدراء الرب. لم أستطع الاستماع إلى كل تلك الخطب لأن نظام الصوت ما انفك يتقطع، لكن المعنى كان جليًّا. كان هناك العديد من لافتات **الرضيعة نيكول: كل أطفال جلعاد هم الرضيعة نيكول!**

ثم رحنا أنا ومجموعة مدرستنا نهتف بالشعارات رافعين لافتاتنا، مع مجاميع أخرى حملت لافتات مختلفة: **فليسقط الحكم الفاشي في جلعاد! افتحوا باب اللجوء الآن!** وإذ بمسيرة مضادة تقترب منا حاملين لافتات مختلفة: **أغلقوا الحدود الآن! احتفظي بعاهراتك ولقطائك في أرضك جلعاد، فلدينا ما يكفينا هنا! أوقفوا الغزو! يا مداعبات القضيب عدن من حيث أتيتن!** وكان من بينهم مجموعة من تلكن اللآلئ الكريمة في أرديتهن الفضية وعقود اللؤلؤ – مع لافتات تقول **الموت لسارقات الأطفال** و**أعيدوا إلينا الرضيعة نيكول**. أناسٌ في جانبنا رموهنّ بالبيض وهتفوا مبتهجين ما إن أصيبت إحداهن، لكن اللآلئ الكريمة ما برحن يبتسمن

ابتسامتهن الزجاجية.

العراك اندلع. مجموعة مقنعين يرتدون الأسود راحوا يهشمون واجهات المتاجر. وفجأة ظهر العديد من رجال الشرطة في عدة مكافحة الشغب. بدا وكأنهم انبثقوا بغتة من تحت الأرض، تقدموا نحونا دافعين الناس بدروعهم بكل قوة، وانهالوا بهراواتهم ضربًا على المتظاهرين دونما تمييز بين الأطفال والكبار.

حتى تلك اللحظة كنت جذلة، لكن سرعان ما انتابني الذعر. أردت الخروج من هناك، لكن كنا محشورين وعجزت تمامًا عن الحراك. تهت عن بقية فصلي، والذعر دبّ في الجموع. أناسٌ تدافعوا من هنا وهناك، يصيحون ويصرخون. شيءٌ ما ضربني في بطني: مرفق، على ما أظن. لهثت وشعرت بدموعي تسيل من عينيّ.

"من هنا،" قال صوتٌ أجش من خلفي. كانت آدا. أمسكت بي من ياقتي وجرتني خلفها. لا أدري كيف شقت طريقًا لنا، أظنها ركلت الكثير من السيقان. ثم وصلنا الشارع خلف أحداث الشغب، كذا أطلقوا على التظاهرة في نشرات الأخبار. وحين رأيت المشاهد قلت في نفسي، الآن أعرف شعور التواجد في أحداث شغب: هو ذاته الشعور بالغرق. ليس أني غرقت قبلها يومًا.

"ميلاني قالت إنك قد تكونين هنا،" قالت آدا. "سآخذك إلى البيت."

"لا، لكن – " لم أرد الاعتراف لها بأني مذعورة.

"الآن، حلوتي. لن أسمع منك تأففًا ولا اعتراضًا."

رأيت نفسي على نشرات الأخبار تلك الليلة: أرفع لافتة وأهتف. ظننت نيل وميلاني سيغضبان مني، لكنهما ما كانا غاضبين، بل قلقيْن. "لم فعلت ذلك؟" قال نيل. "ألم تصغي إلى ما قلناه لك؟"

"دائمًا ما تعظني بأن على المرء أن يقف في وجه الظلم،" قلت له. "والمدرسة تعظني بهذا أيضًا." كنت مدركة تجاوزي الحدود، لكن ما كان بنيتي الاعتذار.

"وما الخطوة التالية؟" قالت ميلاني، توجه سؤالها لا إليّ بل لنيل. "ديزي، هلّا أحضرت لي كأسًا من الماء؟ ستجدين بعض الثلج في البراد."

"قد لا يكون بالسوء الذي نظنه،" قال نيل.

"لا يسعنا المخاطرة،" سمعت ميلاني تقول. "علينا التحرك الآن، وبالآن أعني البارحة. سأتصل بآدا، ستدبر لنا عربة نقل."

"ليس لدينا بديل احتياطي جاهز،" قال نيل. "لا نستطيع ..."

عدت إلى الغرفة مع كأس الماء. "ما الذي يجري؟" سألتهما.

وأجابني نيل، "أليس لديك واجبٌ مدرسيّ تؤدينه؟"

بعد ثلاثة أيام اقتحم أحدهم الملابس الطريدة. المتجر كان موصولًا بجهاز إنذار، لكن اللصوص دخلوا وخرجوا قبل أن يتسنى لأحد الوصول، وهذه هي المشكلة مع أجهزة الإنذار، قالت ميلاني. لم يعثر اللصوص على أي مال لأن ميلاني لا تحتفظ أبدًا بمال نقدي في المتجر، لكنهم انتشلوا قطعًا من الفن الملبوس، وعاثوا الفوضى في مكتب نيل – ملفاته كانت مبعثرة على سائر الأرضية. كذلك سرقوا قطعًا من مجموعة مقتنياته – بضع ساعات وكاميرات عتيقة، ودمية مهرج زنبركية. أشعلوا النار في المكان، لكن على عجالة، قال نيل، لهذا انطفأ الحريق بسرعة.

الشرطة قدمت وسألت إن كان لنيل وميلاني أي أعداء. أجابا بأن لا أعداء لهما، وأنّ كل شيء على ما يرام – لعلهم مجموعة من أولاد الشوارع يسعون للحصول على مال للمخدرات – لكن كان لي أن أرى قلقهما لأنهما راحا يتحدثان في تلك الطريقة التي يتحدثان بها إذا أرادا ألا أسمع.

"قد حصلوا على الكاميرا،" كان نيل يقول لميلاني لدى دخولي المطبخ.

"أي كاميرا؟" سألتُه.

"أوه، كاميرا عتيقة وحسب،" قال نيل. المزيد من شد الشعر. "لكن للأسف نادرة."

ومذ ذاك، نيل وميلاني باتا متوتريْ الأعصاب. نيل طلب جهاز إنذار جديد للمتجر، وميلاني قالت إننا على الأرجح سننتقل إلى بيت آخر، لكن ما إن بدأت أطرح الأسئلة قالت لي أنها مجرد فكرة وحسب. نيل قال لا ضرر ولا ضرار عن الاقتحام. ظل يعيدها ويكررها، ما تركني أتساءل ما الضرر الفادح الذي وقع، عدا طبعًا اختفاء كاميرته المفضلة.

الليلة التالية للاقتحام، وجدت ميلاني ونيل يشاهدان التلفاز. لم يكن من عادتهما مشاهدته – اعتادا تركه وحسب مفتوحًا على الدوام – لكن هذه المرة

جلسا يشاهدان في تركيز. لؤلؤة كريمة تعرف بـ "الخالة أدريانا" وجدت ميتة في شقة مفروشة حيث تقطن هي ورفيقتها اللؤلؤة الأخرى. وجدوها موثوقة برباط إلى مقبض الباب مع حزام ثوبها الفضي ملتف حول عنقها. كانت ميتة لعدة أيام، قال خبير الأدلة الجنائية. مالك شقة مفروشة أخرى هو من شم الرائحة واتصل بالشرطة. والشرطة صرحت بأنها عملية انتحار، فشنقٌ ذاتيٌّ على هذا النحو صار مشهدًا معتادًا.

عرضوا صورة اللؤلؤة الكريمة الميتة. تفحصتها جيدًا: من الصعب أحيانًا تمييز لؤلؤة كريمة عن أخرى مع ردائهن الموحد، لكني تذكرت وجودها مؤخرًا في الملابس الطريدة، توزع الكتيبات. وكذلك شريكتها، والتي تعرف بـ "الخالة سالي،" وهي – قال مقدم الأخبار- متوارية حاليًا عن الأنظار. عرضوا صورة لها هي الأخرى: والشرطة طالبت بتبليغ السلطات في حال رؤيتها. لا تعليق صدر حتى الآن عن قنصلية جلعاد.

"فظيع،" قال نيل لميلاني. "الفتاة المسكينة. يا لها من مأساة."

"ولماذا هي مأساة؟" قلت له. "فاللآلئ الكريمة يعملن لصالح جلعاد. هن يكرهننا. والكل يعرف هذا."

كلاهما نظر إليّ. وما الكلمة التي تصف تلك النظرة؟ مفجوعة، على ما أظن. ووجدتني مرتبكة: علام اكتراثهما، علام حزنهما على موتها؟

الشيء السيئ جدًا وقع في عيد ميلادي. الصباح بدأ وكأنما الأمور كلها طبيعية. نهضت، ارتديت زي **مدرسة وايل** البليديّ الأخضر – هل ذكرت لك أننا في المدرسة كان لدينا زيٌّ موحد؟ وارتديت جزمتي ذات الرباط في قدميّ المجوربتين الخضراوين، سحبت شعري للوراء في ذيل حصان وفق إرشادات مظهر الطالبة في المدرسة – لا خصل فالتة – ومضيت نحو الطابق السفلي.

ميلاني كانت في المطبخ، حيث يوجد في الوسط جزيرة من الغرانيت. ما كنت سأرغب فيه حقًا هو إحدى تلك المناضد من الراتينج المعاد تدويره مثل

تلك الموجودة في مقصف مدرستنا – إذ لك أن ترى عبر الراتينج كل ما علق فيه، حتى أني في نضد منها رأيت جمجمة راكون، وهكذا كنتَ دائمًا ستجدُ شيئًا تركز عليه نظرك.

معظم وجباتنا تناولناها على جزيرة المطبخ. كان لدينا غرفة جلوس مع طاولة طعام، حيث من المفترض أن نقيم حفلات العشاء، لكن نيل وميلاني ما أقاما قط حفل عشاء؛ بل عقدا اجتماعات، تتعلق بكل تلك القضايا المختلفة التي يناصرانها. في الليلة السابقة عقد اجتماعٌ من تلك الاجتماعات في حضور بعض الناس: أكواب القهوة كانت لا تزال على الطاولة، مع طبق يضم فتات البسكويت الهش وحبات عنب ذاو. لم أر من كان هؤلاء الناس لأني بقيت في غرفة نومي في الأعلى، أتحاشى عواقب أيّما التصرف الذي ارتكبته. إذ اتضح لي أن المسألة أكبر بكثير من مجرد عصيان بسيط.

دخلت المطبخ وجلست إلى الجزيرة. ميلاني كانت جالسة وظهرها إليّ؛ كانت تتأمل خارج النافذة. عبر تلك النافذة كنتَ سترى فناء بيتنا – الأصائص الاسمنتية الدائرية تضم شجيرات إكليل الجبل، فناءً مرصوفًا مع طاولة وكراس خارجية، وزاوية من الشارع الأمامي.

"صباح الخير،" قلت لها. ميلاني التفتت فجأة.

"أوه، ديزي! لم أسمعك! عيد ميلاد سعيد! ستّ عشرة سنة حلوة جميلتي!"

نيل لم يشاركنا الفطور، بقي في الطابق العلوي يتحدث على الهاتف، وقت ذهابي للمدرسة أزف ولم ينزل بعد. مشاعري جرحت قليلًا، قليلًا وحسب: إذ ظل مشغول البال في الفترة الأخيرة.

ميلاني قادت بي إلى المدرسة، كما كانت عادتها: إذ لم يرق لها ركوبي الباص والذهاب وحدي، رغم أنّ محطة الباص قريبة جدًا من بيتنا. قالت لي – كما تقول دومًا – أنها أصلًا في طريقها إلى الملابس الطريدة وستوصلني في دربها.

"الليلة سنتناول كعكة عيد ميلادك، مع البوظة،" نبرتها ارتفعت مع نهاية

كلامها فبدا كأنها تطرح عليّ سؤالًا. "سأقلك من المدرسة. فهناك موضوع نود أنا ونيل محادثتك عنه، الآن وقد بت كبيرة كفاية."

"حسنٌ،" أجبتها. ظننت الحديث سيدور حول الفتيان ومعنى الرفض والقبول، وكنت سئمت فعلًا الاستماع إلى كل تلك المحاضرات عنه في المدرسة. ارتأيت أنه سيكون حديثًا محرجًا، لكن سيتوجب عليّ بلع الموس والإصغاء صامتة.

أردت أن أعبر لها عن أسفي لذهابي إلى التظاهرة، لكنّا وصلنا المدرسة ولم أقلها. غادرت السيارة بصمت؛ ميلاني انتظرت حتى وصولي المدخل. لوحت لها، ولوحت لي. لا أدري لماذا فعلتُ ذلك – فليس من عادتي التلويح لها. أظنني كنت أحاول الاعتذار منها.

لا أذكر ذاك اليوم الدراسي جيدًا، ولم عساي أتذكره؟ فقد كان يومًا عاديًا. والعادي أشبه بتأملك خارج نافذة سيارة. كل شيء عابر، هذا وذاك وهذا وذاك، يتجاوزك دون أن يترك فيك أوهى أثر. ساعاتٌ عادية كهذه لا تختزنها في سجل الذاكرة؛ فهي عادات يومية، مثلها مثل تفريش أسنانك.

بعض أصدقائي في حلقة تبادل الواجبات غنوا لي هاپي بيرثداي في مقصف المدرسة فيما جلسنا نتناول الغداء. طلبة آخرون شاركوا بالتصفيق.

ثم حلّت الظهيرة. الهواء كان راكدًا، الساعة تباطأت. جلست في حصة اللغة الفرنسية، حيث توجب علينا قراءة صفحة من رواية كوليت القصيرة – ميتسو، عن نجمة مسرح منوعات تخبئ رجلين في حجرة ملابسها. إلى جانب كونها رواية باللغة الفرنسية، كان يفترض بها أن ترينا إلى أي حد كانت الحياة رهيبة وشاقة على النساء، لكن حياة ميتسو لم تبد لي رهيبة وشاقة. فقد خبأت رجلًا وسيمًا في خزانتها – ليت كان بيدي أنا فعل ذلك. لكن حتى إن عرفت رجلًا كهذا، فأين كنت سأخبئه؟ ليس في خزانة الملابس في غرفة نومي. فميلاني كانت فورًا ستكتشف الأمر، وإن لم تفعل، وقتئذ كان سيتوجب عليّ إطعامه. تفكرت مليًا في المسألة: ما نوع الطعام الذي كنت سأتسلل به دون أن تلاحظني ميلاني؟ بسكويت هش وجبن؟ كذلك لاستحال عليّ مضاجعته: ففي تركه يغادر الخزانة مخاطرة

عظيمة، ولا حيز في الخزانة يكفي حتى أحشر نفسي معه. تلك كانت أحلام اليقظة التي غالبًا ما سرحت فيها على مرِّ اليوم الدراسي: تمضية وقت.

مع ذلك، تلك كانت مشكلة في حياتي. لم أخرج قط مع أحدهم لأني ما التقيت أصلًا بشخص قد أرغب بالخروج معه. بدا لي ألا سبيل لتحقيق ذلك. فالأولاد في مدرسة وايل ما كانوا أبدًا بالخيار: قضيت المرحلة الابتدائية برفقتهم، رأيتهم ينقرون أنوفهم، رأيت بعضهم يتبول على نفسه. فكيف لأي مشاعر رومانسية أن تراودني عنهم مع صور ذهنية كهذه.

حينذاك تملكتني الكآبة، إحدى العوارض الجانبية لاحتفالك بيوم ميلادك: تتوقع تغييرًا سحريًا لكن لا شيء يحصل. وحتى أبقى مستيقظة، رحت أنتف شعري، خلف أذني اليمنى، شعرتين ثلاث كل مرة. وكنت مدركة أني إن بقيت أنتزع ذات العدد على فترات طويلة فإني أخاطر بترك بقعة صلعاء، لكني كنت بدأت هذه العادة قبل أسابيع قليلة وحسب، فلم القلق؟

أخيرًا انتهى اليوم الدراسي وأزف وقت عودتي إلى البيت. مشيت على مدِّ الردهة المصقولة حتى باب المدرسة الأمامي ووطئت خارجه. كان هناك مطرٌ خفيف؛ معطفي المطري لم يكن معي. تفحصت الشوارع: ما كان من أثر لسيارة ميلاني.

فجأة ظهرت آدا جانبي، في سترتها الجلدية السوداء.

"هيّا. فلنركب السيارة." قالت لي.

"ماذا؟" قلت لها. "لماذا؟"

"الأمر يخص نيل وميلاني." نظرت في وجهها، وقرأت على ملامحها أنّ خطبًا فظيعًا قد وقع. لو كنت أكبر عمرًا لسألتها حالًا، لكني لم أفعل لأني أردت تأجيل لحظة معرفتي بما جرى. في القصص التي قرأتها، وقعت عيناي أكثر من مرة على ذعر لا يوصف. حينها كانت مجرد كلمات، واللحظة وصفت تمامًا ما أشعر به.

ما إن دخلنا السيارة وتحركنا، سألتها، "هل أصيب أحدهما بأزمة قلبية؟" فهذا أسوأ ما خطر لي.

"لا،" قالت آدا. "أصغي إليّ جيدًا ولا تفقدي أعصابك عليّ. لا يمكنك العودة إلى بيتك."

الإحساس المروع في بطني ازداد سوءًا. "ما الأمر؟ هل اندلع حريق؟"

"قد وقع انفجار،" قالت لي. "عبوة متفجرة، في السيارة. خارج الملابس الطريدة."

"تبًا. هل تضرر المتجر؟" فأولًا السطو والآن هذا.

"كانت سيارة ميلاني. هي ونيل كانا فيها."

لدقيقة جلست صامتة دون أن أنبس بكلمة؛ إذ لم أع ما قالته. فأي مجنون سيرغب بقتل نيل وميلاني؟ فهما شخصان عاديان جدًا.

وأخيرًا نطقت، "إذن هما ميتان؟" جسدي كله كان يرتجف. حاولت تصور الانفجار، لكن كل ما رأيت كان الفراغ. مربعٌ أسود.

عربة النقل

سِفرُ أَرْدوا هول

12

من أنت قارئي العزيز؟ ومتى أنت؟ لربما الغد، لربما خمسون عامًا من الآن، ولربما أبدًا.

لربما أنتِ إحدى خالات أردوا هول، عيناك وقعتا صدفة على هذه المخطوطة. وبعد لحظة الرعب التي ستنتابك على وقع خطاياي أتراك ستحرقين هذه الصفحات حتى تحافظي على صورتي التقية نقيةً لا شائبة فيها؟ أم تراك ستذعنين للعطش البشري للسلطة وتطلقي ساقيك للريح كي تشي بي عند العيون؟

أم هل أنت متطفل من خارج حدودنا، تنقب في أرشيف أردوا هول ما إن سقط النظام؟ وفي هذه الحال، فمخزون الوثائق المجرّمة التي خبأتها كل تلك الأعوام لن تظهر وحسب في محاكمتي – إن أثبت القدر مكره الخبيث، وعشت لأشهد محاكمة كهذه – بل أيضًا في محاكمات الآخرين. فقد جعلته من صلب شأني معرفة كل جثة وأين دفنت.

أراك تتساءل الآن كيف تدبرتُ تحاشي التطهير السياسي على يد علّية القوم – على الأقل في الأيام الأولى من جلعاد، إلى أن نضجت كدولة واستقرت على نهج تكالب الكلاب. آنذاك العديد من البارزين السابقين في صفوفهم شنقوا على الحائط، حرصًا من الجالسين على المنصة العليا ألا يطيح بهم الطامحون من رفاقهم. ولعلك افترضت، كوني امرأة، أني حتمًا كنت أكثر عرضة لهذه الغربلة، لكنك ستكون مخطئًا في افتراضك. لأن، وبكل بساطة، كوني امرأة استثناني من قائمة مغتصبي العرش المحتملين، إذ حُرّم على المرأة في المطلق تولي كرسي في

مجلس الرؤساء؛ لذا، من سخرية القدر، شرعهم هذا هو الذي أنقذني.

لكن هناك ثلاثة أسباب أخرى وراء تعميري السياسي. أولًا، النظام في حاجة إليّ. فأنا المسيطرة على الجانب النسائي من المؤسسة بقبضة حديدية في قفاز جلدي في كف صوفيّ، وأنا من يبقي النظام سائدًا: مثلي مثل خصيّ الحرملك، ولا أحد سواي مهيأ لمهمة كهذه. ثانيًا، أعرف الكثير عن الرؤساء – الكثير من القذارة – وليسوا واثقين ما الذي فعلته بمعرفتي هذه فيما يخص التوثيق. إن علقوني على المشنقة، فهل تلك القذارة ستتسرب بطريقة ما؟ لربما يظنون أني أخذت احتياطاتي، وسيكونون محقين في ظنهم.

ثالثًا، أنا كتومة. كل رجل من أولاء الكبار شعر بأن أسراره في أمان لدي؛ لكن – كما كنت سأوضح له وإن موارِبة – فأسراره في أمان طالما أنا في أمان. فمذ أمد بعيد وأنا أؤمن في مبدأ الضوابط والموازين[7].

ومع ذلك، رغم كل هذه الاحترازات الأمنية، فلا أسمح لنفسي بأن أركن للخمود. فجلعاد دربٌ زلق: الحوادث تقع كل يوم. أحدهم أصلًا قد كتب رثائي، لا شك لدي البتة. رجفةٌ ترعد في أوصالي: يا ترى من ذا الذي وطأ للتو على قبري؟[8]

الوقت، أتوسل إلى الهواء، فقط القليل من الوقت. هذا كل ما أحتاج.

البارحة تلقيت دعوة غير متوقعة إلى اجتماع شخصي مع الرئيس جود. ليست بالدعوة الأولى التي أتلقاها. فعددٌ من تلك الاجتماعات التي عقدناها في البدايات لم تسر على نحو جيد؛ الاجتماعات الأخرى، المنعقدة مؤخرًا، جاءت مثمرة للطرفين.

وفيما شددت الرحال قاطعةً رقعة العشب الواهنة التي تغطي الأرض

7 "Checks and Balances": مبدأ فصل السلطات الذي تقوم عليه مؤسسة الحكم في الولايات المتحدة الأميركية. بحيث تتوزع القوى بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية في موازين تحول دون غلبة إحدى السلطات على البقية.

8 إشارة إلى القول المأثور، "أحدهم وطأ على قبري" وتقال إذا سرت الرجفة في أحدهم واعتبرها نذيرًا على دنو الموت وقرب إعداد القبر.

الفاصلة بين أردوا هول والمقر الرئيس لجهاز العيون المراقبة، وصعدت – بجهد عسير – منحدر السلالم البيضاء المهيبة المؤدية إلى المدخل الرئيس المرفوع على عمد كثيرة، تساءلت إلام سيؤول إليه هذا الاجتماع. لا بد أن أعترف أن نبض قلبي تسارع أكثر من المعتاد، ليس فقط بسبب السلالم. فليس كل من عبر هذا المدخل خرج منه.

العيون بسطت سلطتها على مبنى المكتبة العامة الضخم، حيث ما عاد من كتب إلا كتبهم، أما المحتويات الأصلية فإما حرقت أو، إن كانت ثمينة، أضيفت إلى مقتنيات ثلة الرؤساء النشالين. وبما أني صرت الآن حافظة لتعاليم الكتاب المقدس، فلي أن أقتبس بالفصل والآية مخاطر سلب الغنيمة التي حرّمها الرب، لكن الكتمان نصف الشجاعة، لذا لن أفعلها.

ويسعدني أن أنقل إليك أنّ لا أحد محا جداريات سلالم المدخل الرئيس عن أي جانب من الجانبين: بما إنها تصور جنودًا قتلى، ملائكة، وأكاليل النصر، فقد وجدوها ورعة كفاية للقبول بها، عدا أنّ علم الولايات المتحدة الأميركية السابقة على الجانب الأيمن طُمِس وطلوا فوقه علم جلعاد.

منذ عرفته، والرئيس جود يعلو شأنه في العالم. تقويم نساء جلعاد ودفعهن نحو الصراط المستقيم لم يشبع إلا القليل من غروره ولم يكسبه الاحترام المأمول. لكن ما إن تولى جهاز العيون المراقبة، العالم بأسره بات يهابه. مكتبه يقع في مؤخر المبنى، في مساحة كانت مكرسة في الأصل لتخزين الكتب وضم حجيرات الباحثين. عينٌ ضخمة بؤبُئها من الكريستال الحقيقي معلقة على وسط الباب. هكذا يتسنى له رؤية من يوشك على قرعه.

"تفضلي،" قال ما إن رفعت يدي. العينان اليافعان اللذان رافقاني أخذاها إشارةً إلى مغادرتهما.

"عزيزتي الخالة ليديا،" رحب بي بابتسامة مشرقة من خلف مكتبه الضخم. "شكرًا لك على تشريف مكتبي المتواضع بحضورك. آمل أن تكوني بخير."

بالتأكيد لم يأمل هذا، لكني غضضت النظر. "له الحمد،" أجبته. "وأنت؟

وزوجتك؟" هذه الزوجة دامت أطول من المعتاد. إذ من عادة زوجاته الموت في سن مبكرة: فالرئيس جود من أشد المؤمنين بالقوى الخارقة التي تمتلكها النسوة اليافعات في تجديد شباب الرجل، مثله مثل الملك داوود وتشكيلة من أباطرة المخدرات في أميركا الوسطى. بعد مرور فترة ملائمة عقب كل حداد، يجعله معلومًا أنه عاد إلى السوق بحثًا عن عروس قاصر جديدة. لا، دعني أكن أكثر وضوحًا: هو يجعله معلومًا لي.

"أنا وزوجتي كلانا بخير، له الحمد،" أجابني. "أحمل لك أخبارًا عظيمة. رجاءً اجلسي." جلست، وتأهبت للإصغاء بانتباه. "عملاؤنا في كندا نجحوا في التعرف على اثنين من أنشط عملاء اليوم المايوي وتخلصوا منهما. غطاؤهما السري كان متجر ألبسة مستعملة في حي وضيع في تورنتو. البحث الميداني المبدئي يشير إلى لعبهما دورًا رئيسًا في مساعدة ونصرة الهاربات عبر درب النساء السري."

"العناية الإلهية باركتنا."

"عملاؤنا الكنديون من الشباب المتحمس لقضيتنا هم من تولوا تنفيذ العملية، لكن لآلئك الكريمة هن من أشرن إلى الطريق. حصافةٌ منك مشاركتنا المعلومات التي يتسقطنها بفطرتهن الأنثوية."

"هن يقظات، مدرّبات، ومطيعات،" قلت له. اللآلئ الكريمة كن في الأصل فكرتي – فالأديان الأخرى لها إرساليات، فلم لا يكون لدين جلعاد إرسالية؟ والإرساليات الأخرى اهتدى إلى دينها الكثير، فلم لا يهتدون إلى ديننا؟ والإرساليات الأخرى تعتمدها وكالات التجسس مصدرًا لجمع المعلومات، فلم لا نعتمد إرساليتنا مصدرًا؟ لكن – ولأني لست حمقاء أو على الأقل لست بذاك النوع من الحمقِ، فقد تركت الرئيس جود ينال الفضل كله. رسميًا، اللآلئ الكريمة يرفعن تقاريرهن إليّ أنا وحسب، إذ سيبدو من غير اللائق للرئيس أن يقحم نفسه في تفاصيل عمل يعود أصلًا للمرأة؛ لكن لزامٌ عليّ بالطبع أن أمرر إليه كل ما أراه إما ضروريًا أو طارئًا. أكثر من اللزوم وسأخسر سيطرتي على العملية، أقل من اللزوم وسأجد نفسي في دائرة الشبهات. تلك الكتيبات الجذابة التي يوزعنها هي من

إعدادنا نحن، صممناها وطبعناها في المطبعة الصغيرة الكائنة في إحدى أقبيتنا في أردوا هول.

مبادرتي في تأسيس اللآلئ الكريمة جاءت في وقت حرج في مسيرته، فشله الذريع في مشروعه الأحمق **مستوطنات المناطق القومية** بات عصيًا على الإنكار، تهم الإبادة الجماعية التي رفعتها منظمات حقوق الإنسان غدت مصدر إحراج، دفق لاجئي المستوطنات من داكوتا الشمالية عبر الحدود الكندية ما كان ليرقأ، وخطته السخيفة في استصدار **شهادة العرق الأبيض** سرعان ما انهارت وتخبطت في مستنقع الرشاوي والتزوير. لذا فإطلاق برنامج اللآلئ الكريمة أنقذ عنقه، وإن كنت مذ ذاك أتساءل إن كان من الحكمة السياسية إنقاذه. هو مدينٌ لي، أجل، لكن الدين قد يستحيل وزرًا عليّ. فهناك أناس لا يتقبلون أن يدينوا بشيء لأحد.

لكن، في تلك اللحظة، الرئيس جود كان في ذروة بهجته. "صدقًا، هن اللآلئ الثمينة. ومع تخلصنا من هذين العميلين وخروجهما من الخدمة، فهذا يعني مشاكل أقل لك، هذا هو المأمول – حالاتٌ أقل من هروب الجواري."

"له الحمد."

"بالطبع لن نشارك العامة عملنا البطولي الكاسح في الاستئصال والتطهير."

" سنُلام عليه في كل الأحوال،" قلت له. "في الإعلام الكندي والعالمي. بطبيعة الحال."

"ونحن سننكر،" قال لي. "بطبيعة الحال."

لحظة صمت خيمت علينا ونحن نتأمل بعضنا البعض من أعلى مكتبه، مثل لاعبي شطرنج، ربما؛ أو مثل رفيقي حزب قديمين – فكلانا نجا من ثلاث موجات من التطهير السياسي. تلك الحقيقة وحدها خلقت ما يشبه الرابط بيننا.

"عدا أنّ أمرًا لا يزال يحيرني،" قال لي. "هذان الإرهابيان حتمًا كان لهما عميلٌ هنا في جلعاد."

"حقًا؟ لا أصدق!"

"قد أجرينا تحليلًا حول كل المهارب المعروفة: معدل النجاح العالي هذا لا يمكن تفسيره إلا بوجود عنصر التسريب. شخصٌ هنا في جلعاد - شخصٌ يملك الدخول على بيانات توزيع رجال الأمن - حتمًا أرسل بالمعلومات إلى جماعة درب النساء السري. أي الطرق هي تحت المراقبة، أي الطرق ستكون على الأرجح سالكة، معلومات من هذا القبيل. فكما تعرفين، الحرب أفضت إلى شح الوجود الأمني، لا سيما في فيرمونت وماين. فقد احتجنا الرجال في مكان آخر."

"ومن ذا الذي سيغدر بجلعاد؟" سألته. "يخون مستقبل أمتنا!"

"نعمل على معرفته. في الوقت الحالي، إن خطر لك أي فكرة ..."

"بالطبع،" أكدت له.

"أمرٌ آخر. الخالة أدريانا. اللؤلؤة الكريمة التي وجدت ميتة في تورنتو."

"أجل. لأمرٌ مفجع. أهناك من معلومات أخرى؟"

"نتوقع تحديثًا من القنصلية، سأعلمك بالمستجدات."

"إن كان من شيء بيدي فعله، فلك أن تعتمد عليّ."

"أنت سندي، عزيزتي الخالة ليديا، وقيمتك الثمينة لا تقدر بكل الياقوت، له الحمد."

وبما أني أهوى تلقي الإطراء مثلي مثل أي شخص آخر أجبته، "شكرًا."

***

لربما كانت حياتي ستأخذ مسارًا آخر. لو أني أمعنت النظر في ما يجري حولي، لو أني رأيت الصورة الأشمل. لو أني وحسب حزمت أمتعتي في وقت أبكر، مثلما فعل البعض، وغادرت البلد - البلد الذي كنت ما أزال أظنه البلد نفسه الذي انتميت إليه لأعوام عديدة.

لا فائدة عملية ترجى في الندامة. فقد اتخذت خياراتي، وما إن اتخذتها، خياراتي اللاحقة تقلصت. طريقان تفرعا في غابة صفراء وسلكت الطريق الأكثر

عبورًا[9]. والطريق كانت منتثرة بالجثث، كما هي الحال مع ذاك الضرب من الطرق. لكن، وكما ترى، فجثتي ليست بينها.

في وطني المتلاشي، وقبل أن يتلاشى، ما انفكت الأوضاع لأعوام تستحيل من سيئ إلى أسوأ. الفيضانات، الحرائق، الأعاصير، الزوابع، الجفاف، شح المياه، الزلازل. الكثير من هذا، القليل من ذاك. البنية التحتية المتهالكة – لماذا لم يخرج أحدهم المفاعل النووي من الخدمة قبل فوات الأوان؟ الاقتصاد المتهاوي، البطالة المرتفعة، نسب الولادة المنخفضة.

الناس ذعروا. ثم هاجوا.

مع غياب حلول ناجعة، بدأ البحث عن شخص لإلقاء اللوم عليه.

ولماذا تراني اعتقدت، رغم كل ما كان يجري، أن الحياة ستظل تسير على منوالها الطبيعي؟ هل لأن مع سماعنا تلك الأخبار لأمد طويل اعتدناها؟ فأنت لن تصدق أن السماء ستهوي إلا بعد أن تسقط قطعة منها على رأسك.

أُلقيَ القبض عليّ بفترة قصيرة بعد هجوم أبناء يعقوب وتصفية الكونغرس. بدءًا قيل لنا إن الهجوم الإرهابي نفذته جماعة إسلامية: أعلن عن حالة الطوارئ، لكن قيل لنا أن نواصل حياتنا كما المعتاد، سيعاد العمل بالدستور، وإن حالة الطوارئ سترفع عن قريب. كانوا محقين في هذا، لكن ليس على النحو الذي ظنناه.

كان يومًا قائظًا لا يطاق. المحاكم كانت مغلقة – لفترة مؤقتة، إلى أن يعاد الترتيب النظامي للسلطة ويستقر حكم القانون، كذا قيل لنا. ورغم ذلك، فالبعض منا توجه إلى عمله – نستفيد من الوقت المتاح في معالجة الوثائق المتراكمة، أو على الأقل هذا كان عذري. في الحقيقة كل ما أردت هي الصحبة.

9 إشارة إلى قصيدة "The Road Not Taken" للشاعر الأميركي روبيرت فروست، والبيت الأصلي في ختام القصيدة يقول، "طريقان تفرعا في غابة صفراء وسلكت الطريق الأقل عبورًا." والتي قد يؤولها البعض مجازًا لقرار سلوك الطريق الأخلاقي، ومن هنا تتأتى سخرية الخالة ليديا من قرار كهذا بقرارها سلوك الطريق الأكثر عبورًا.

الغريب، أنّ لا أحد من زملائنا الرجال اعتراه هذا الاحتياج. لربما وجدوا السلوان مع زوجاتهم وأطفالهم.

وبينما كنت جالسة أتصفح ملف قضية من القضايا، إحدى زميلاتي الأصغر سنًا – كايتي، والتي عينت مؤخرًا، في السادسة والثلاثين، حامل في شهرها الثالث عن طريق بنك منوي – دخلت مكتبي. "علينا أن نغادر الآن،" قالت لي.

حدقت فيها. "ما الذي تعنينه؟"

"علينا أن نغادر البلد الآن. خطبٌ غير طبيعي يحدث."

"بالطبع خطبٌ غير طبيعي يحدث – فنحن في حال طوارئ – "

"لا، الأمر أسوأ من هذا. بطاقاتي البنكية ألغيت. بطاقات الائتمان – البطاقتين. كنت أحاول الحصول على تذكرة طيران، هكذا عرفت. هل سيارتك هنا؟"

"ماذا؟ ولماذا؟ لا يمكنهم قطع أموالك عنك بكل هذه البساطة!"

"على ما يبدو يمكنهم،" قالت كايتي. "إن كنت امرأة. هذا ما قالته لي شركة الطيران. الحكومة المؤقتة قد شرعت قوانين جديدة: مال المرأة ينتمي إلى أقرب أقربائها من الذكور."

"الوضع أسوأ مما تظنين،" قالت أنيتا، زميلة أكبر عمرًا بقليل. فقد دخلت هي الأخرى إلى مكتبي. "أسوأ بكثير."

"لا قريب لي من الذكور،" قلت مصعوقة. "الأمر برمته غير دستوري!"

"انسي الدستور،" قالت أنيتا. "فقد أبطلوه للتو. سمعت بالأمر في البنك، حين حاولت ..." وراحت تجهش في البكاء.

"استجمعي نفسك،" قلت لها. " فلنفكر بالأمر."

"سيجدون قريبًا لك من الذكور في مكان ما،" قالت كايتي. "لا بد أنهم خططوا لهذا الأمر لأعوام: أخبروني أن أقرب القربى من الذكور هو ابن أختي البالغ اثنا عشر عام."

في تلك اللحظة أحدهم رفس الباب الرئيسي. خمسة رجال داهموا المكان،

دخلوا اثنين اثنين يتبعهم رجلٌ واحد، الرشاشات في وضعية إطلاق النار. كايتي، أنيتا، وأنا خرجنا من مكتبي. موظفة الاستقبال العام، تيسا، صرخت واختبأت أسفل مكتبها.

رجلان منهم كانا شابين يافعين – على الأرجح في العشرينات – لكن الثلاثة الآخرين كانوا كهولًا في منتصف العمر. الشابان كانا لائقين جسديًا، أما الكهول فكروش البيرة كانت متدلية عنهم. كانوا يرتدون عدة التمويه التي توزعها وكالات التمثيل، ولولا الرشاشات لضحكت، غير مدركة بعد أنّ ضحكة المرأة ستغدو عن قريب امتيازًا غير متاح.

"علام كل هذا؟" سألتهم. "كنتم طرقتم الباب! فالباب كما ترون مفتوح!"

الرجال تجاهلوني. أحدهم – الآمر، كما بدا لي – قال لرفيقه، "لديك القائمة؟"

جربت نبرة أشد حنقًا. "من المسؤول عن هذا التخريب؟" كنت للتو بدأت أعي الصدمة: قشعريرةٌ سرت في أوصالي. هل هذه عملية سطو؟ اختطاف رهائن؟ "ما الذي تريدونه؟ فنحن لا نحتفظ بأي مال هنا."

أنيتا وكزتني بمرفقها كي أصمت: فهي كانت أكثر وعيًا مني لما يجري.

الرجل الثاني في سلسلة القيادة رفع ورقة. "من منكن الحامل؟" وثلاثتنا تبادلنا النظرات. كايتي خطت للأمام. "أنا."

"لا زوج، أليس كذلك؟"

"لا، أنا ..." كايتي طوقت بطنها بيديها الحاميتين. هي اختارت أن تكون أمًّا عازبة، مثلها مثل الكثير من نساء ذاك العصر.

"الثانوية،" قال الآمر. الشابان اليافعان تقدما نحوها.

"تعالي برفقتنا، سيدتي،" قال الأول.

"لماذا؟" قالت كايتي. "ليس من حقكم اقتحام المكان و-"

"تعالي برفقتنا،" قال الشاب الثاني. كلٌّ أمسكها من ذراع، وسحباها. صرخت بأعلى صوتها، لكن لا فائدة، معهما خرجت من الباب.

"توقفوا!" صحت بهم، صراخها المتلاشي يتناهى إلينا من الرواق.

"أنا من يعطي الأوامر هنا،" قال الآمر. كان يرتدي نظارة وشاربه مفتول، عدا أنّ مظهره هذا لم يصيّره عمًّا طيبًا. على مرّ الأعوام التي قضيتها - في ما لك أن تسميه - مسيرتي المهنية في جلعاد، لاحظت أن السلطة متى ما وقعت فجأة في يد أرذل القوم صيرتهم الأكثر وحشية في استغلالها.

"لا تقلقي، لن تتعرض لأي أذى،" قال الرجل الثاني في سلسلة القيادة. "هي ذاهبة إلى مكان آمن."

قرأ أسماءنا من على القائمة. لا فائدة من إنكار هوياتنا: فهم أصلًا على دراية بنا. "وأين موظفة الاستقبال؟" سأل الآمر. "تيسا هذه."

المسكينة تيسا ظهرت من خلف المكتب، ترجف ذعرًا.

"ما رأيك؟" سأل الرجل من بيده القائمة. "سوق التجزئة، الثانوية، أو الاستاد؟"

"كم عمرك؟" سأل الآمر. "لا عليك، مذكورٌ هنا. سبعٌ وعشرون."

"فلنمنحها فرصة. سوق التجزئة. لعل رجلًا يقبل الزواج بها."

"قفي هناك،" أشار الآمر لتيسا.

"إلهي، قد تبولت على نفسها،" قال الكهل الثالث.

"لا تقسم على لغو،" نهره الآمر. "دلالة جيدة. امرأة خائفة، أظنها ستنفذ كل ما تؤمر به."

"عشم إبليس في الجنة أن يفعلن ما يؤمرن به،" قال الرجل الثالث. "فهنّ نساء." أظنه كان يقصد المزاح.

الشابان اليافعان اللذان تواريا مع كايتي عادا وقدما من الباب. "هي في عربة النقل الآن،" قال أحدهما.

"وماذا عن تلكما المدعوتين بالسيدتين القاضيتين؟" قال الآمر. "لوريتا هذه؟ دافيدا هذه؟"

"في استراحة الغداء،" قالت أنيتا.

"سنأخذ الآن هاتين. وأنت انتظر هنا معها إلى أن يعودا،" قال الآمر، مشيرًا

إلى تيسا. "ثم أقفل عليها في عربة نقل سوق التجزئة. وأحضر القادمتين من ساعة الغداء."

"سوق التجزئة أم الاستاد؟ هاتان هنا؟"

"الاستاد،" قال الآمر. "إحداهما كهلة، وكلتاهما خريجتا حقوق، قاضيتان. وقد سمعت الأوامر بنفسك."

"مع ذلك، يا له من هدر، مع بعض الحالات،" قال الكهل الثاني، يومئ صوب أنيتا.

"العناية الإلهية ستقرر،" قال الآمر.

ساقونا أنا وأنيتا نزولًا على الدرج، خمس طوابق. هل يا ترى كان المصعد معطلًا؟ لا أدري. قيدوا أيدينا أمامنا وأدخلونا في عربة نقل سوداء، مع لوح متين يفصل بيننا وبين السائق وشبكة أسلاك في النوافذ المعتّمة.

كلتانا التزمت الصمت، إذ ما الذي بيدنا قوله؟ فقد كان جليًا ألا أحد سيجيب صرخات استغاثتنا. لا فائدة ترجى من الصراخ والارتطام بأجسادنا على جدران العربة: أي شيء نفعله لن يكون سوى هدر عبثي لطاقتنا. لذا جلسنا ننتظر.

على الأقل العربة مزودة بالتكييف. وهناك مقاعد نجلس عليها.

"ما الذي سيفعلونه بنا؟" همست أنيتا. إذ استعصى علينا رؤية ما يجري خارج النوافذ. استعصى علينا حتى رؤية بعضنا البعض، لا شيء تبدى منا سوى أخيلة معتمة.

"لا أدري." أجبتها.

عربة النقل توقفت - عند نقطة تفتيش على ما أظن - ثم تحركت، ثم توقفت. "المحطة الأخيرة،" سمعنا صوتًا يقول. "أخرجا!"

درفتا باب العربة الخلفي فتحتا. أنيتا تسلقت خارجها أولًا. "هيا تحركي،" قال صوتٌ آخر. شقّ عليّ الخروج من العربة مع يديّ المقيدتين: أحدهم تناول ذراعي وجرّني، وسقطت مترنحة على الأرض.

مع ابتعاد العربة بعيدًا، وقفت متقلقلة أتأمل حواليّ. كنت في ساحة مفتوحة ومعي مجاميع كثيرة من الناس – على الأصح، من النساء – ورجالٌ كثر مدججون بالسلاح.

كنت في الاستاد. لكنه ما عاد استادًا. صار سجنًا.

وسِتّة للمَيْتة

محضر أقوال الشاهدة "369A"

13

كما ترى، يشقّ عليّ سرد الأحداث التي أحاطت بموت أمي. فطابيثة أحبّتني حبًّا غير مشروط، وبرحيلها شعرت بكل شيء من حولي يرتعش. بيتنا، الحديقة، حتى غرفتي - لا شيء منها بدا لي حقيقيًّا – كلها تحللت إلى غيمة ضبابية واختفت. ما برحت أتفكر في آية من الإنجيل أرغمتنا الخالة فيدالا على حفظها عن ظهر قلب:

تعيدُ الإنسان إلى الغبار، وتقول: "عودوا يا بني آدم". فإنّ ألف سنة في عينيك كيوم أمسِ العابر، وكهجعة من الليل. تغمرهم بالرقاد، فيصيروا كالعشب النابت في الصباح. في الصباح يزهر وينبت، وفي المساء يذبل وييبس.[10]

يذبل وييبس، يذبل وييبس. أشبه بلثغة – وكأنما الرب عجز عن الاختيار بين الكلمتين فجمعهما. الكثيرات منا تلعثمن بتلك الكلمتين لدى تسميعنا الآية.

أعطوني فستانًا أسود لأجل جنازة أمي. بعض الرؤساء وزوجاتهم حضروا المراسيم، مرثياتنا الثلاث حضرن. كان هناك تابوتٌ مغلق يضم قشرة أمي الأرضية، وأبي ألقى تأبينًا قصيرًا عن مآثر أمي وكيف كانت زوجةً صالحة، دومًا تؤثر الآخرين على نفسها، قدوةٌ لكل نساء جلعاد، ثم تلا صلاةً يشكر فيها الرب على تخليصها من معاناتها، والكل أجاب آمين. في جلعاد لا أحد يثير جلبة في جنائز النساء، حتى عاليات المقام منهن.

الأناس المهمون من الحضور رافقونا من المقبرة إلى المنزل حيث أقيم استقبالٌ بسيط. صِلّة أعدت فطائر جبن منتفخة، أحد أطباقها المميزة، وتركتني أساعدها.

10 المزمور 90 (3-6) من الكتاب المقدس.

وجدت فيه شيئًا من السلوان: أن يسمح لي بوضع مئزر، بشر الجبن، عصر العجين من المخروط على صفحة الخبز، ومشاهدته ينتفخ عبر نافذة الفرن الزجاجية. خبزنا الفطائر في اللحظة الأخيرة، ما إن قدم الناس.

خلعت المئزر عني وتوجهت إلى الاستقبال في فستاني الأسود، كما طلب مني أبي، والتزمت الصمت، كما طلب مني أبي. معظم الحضور تجاهلوا وجودي، ما عدا زوجة من الزوجات، تدعى بولا. كانت أرملة، ونوعًا ما مشهورة بسبب زوجها، الرئيس ساندرز، من قتل في مكتبه على يد جاريتهما، بسيخ – فضيحة تجلجلت همسًا في مدرستنا العام الماضي.

رواية بولا أنّ الفتاة كانت مجنونة، انسلّت ليلًا إلى الأسفل وسرقت السيخ من المطبخ، وما إن فتح المسكين ساندرز الباب قتلته غدرًا – قتلت رجلًا ما عاملها إلا بكل احترام لها ولموقعها. الجارية فرت من البيت، لكنهم اصطادوها وشنقوها، وعرضوا جثتها على الحائط.

الرواية الأخرى روتها شونميّة، نقلًا عن مرثتها، نقلًا عن المرثا الرئيسة في بيت ساندرز. رواية تتضمن شهوات عنيفة ورابطًا أثيمًا. فالجارية حتمًا أثارت شهوة الرئيس بطريقة ما، فأمرها بالانسلال خلسة في الليل فيما الجميع نيام. تنزلق إلى مكتبه كما الأفعى، حيث ينتظرها الرئيس، عيناه تشعان مثل مصباح ساطع. من يدري أي مطالب شهوانية أجبرها على تلبيتها؟ مطالب غير طبيعية بالتأكيد، دفعت بالجارية إلى هاوية الجنون، ليس أن بعضهن في حاجة إلى من يدفع بهن، فهن أصلًا مترنحاتٌ على الحافة، لكن هذه كانت أسوأ من غيرها. يصعب عليهن التفكير فيها، قالت المرثيات، من لديهن القليل وحسب يفكرن فيه.

حين لم يأت زوجها إلى مائدة الفطور، مضت بولا تبحث عنه ووجدته مطروحًا على الأرض دون بنطاله. بولا ألبسته البنطال قبل استدعائها الملائكة. كان عليها أن تأمر إحدى مرثاتها بمساعدتها: فالميت إما متيبس أو رخو، والرئيس ساندرز كان رجلًا ضخمًا وغليظ الشكل. وروت شونميّة على لسان المرثا أن بولا تلطخت بالكثير من الدماء وهي تصارع في إلباس الجثة، أعصابها لا بد فولاذية للقيام بشيء

كهذا فقط لأجل الحفاظ على المظاهر.

فضلت رواية شونميّة على رواية بولا. ورحت أتخيلها في الاستقبال بينما والدي يعرفني عليها. كانت تتناول فطيرة جبن منتفخة، وتتفحصني بعينيها. كنت قد رأيت ذات النظرة على وجه فيرا لدى نخسها الكعكة بشاروقة كي ترى إن أصبحت جاهزة.

ثم تبسمت وقالت، "آغنس يمامة. يا لك من فتاة لطيفة." وربتت على رأسي وكأني في الخامسة من عمري، قائلة كم من الرائع أني حظيت بفستان جديد. رغبةٌ داهمتني بعضِّها: هل المفترض بالفستان الجديد أن يعوضني عن موت أمي؟ لكن كان خيرًا لي أن أشكم لساني على أن أظهر حقيقة مشاعري. تصرفٌ لم أنجح دومًا في تحقيقه، لكني في تلك المناسبة نجحت.

"شكرًا لك،" أجبتها. تصورتها جاثية على ركبتيها في بركة من الدم، تحاول إلباس رجل ميت بنطاله. تلك الصورة صيّرتها خرقاء في نظري، ورفعت من معنوياتي.

بعد أشهر من وفاة أمي، تزوج أبي من الأرملة بولا. على إصبعها تجلى خاتم أمي السحري. أظن أنّ أبي لم يرغب في هدره، إذ ما الداعي لشراء خاتم جديد مع توفر خاتم جميل وثمين للاستعمال؟

المرثيات تذمرن. "كانت رغبة أمك حصولك على الخاتم،" قالت روزا. لكن بالطبع ما كان بيدهن فعل شيء. كنت حانقة أفور غيظًا، لكني أنا الأخرى ما كان بيدي فعل شيء. حردت وتجهمت، لكن لا أبي ولا بولا أدارا لي بالًا. فقد انتهجا معي أسلوبًا يدعى "مسايرتي"، والذي بالممارسة يعني تجاهل حالتي المزاجية كي أتعلم أن صمتي العنيد لا تأثير له البتة عليهما. نهجهما التربوي هذا دائمًا ما ناقشاه في حضوري، يتحدثان عني بصيغة الغائب. أرى أنّ آغنس تمر في مزاج سيئ. أجل، ومثلها مثل الطقس المتقلب، سرعان ما سينجلي. فتلك طبيعة الفتيات الصغيرات.

بعد زفاف أبي وبولا بفترة قصيرة، وقع حادثٌ مزعج في المدرسة. لا أسرده عليك الآن كي أروّعك، بل لأنه ترك في نفسي أثرًا بالغًا، ولربما سيفسر لك لماذا البعض منا، مذ ذاك الوقت والمكان، تصرفنا على النحو الذي تصرفنا عليه.

هذا الحدث وقع في حصة الدين، حيث، كما ذكرت سالفًا، تلقينا الدروس على يد الخالة فيدالا. فهي كانت المسؤولة عن مدرستنا، وفي الواقع عن كل المدارس الشبيهة بمدرستنا – مدارس فيدالا، كذا كانت تدعى – لكن صورتها المعلقة على الحائط الخلفي لكل فصل كانت أصغر حجمًا من صورة الخالة ليديا. هناك خمسٌ من تلك الصور: الرضيعة نيكول في الأعلى، إذ توجب علينا الصلاة كل يوم لأجل عودتها الآمنة. من ثم الخالة إليزابيث والخالة هيلينا، من ثم الخالة ليديا، من ثم الخالة فيدالا. الرضيعة نيكول والخالة ليديا كانتا مؤطرتين بالذهب، أما الأخريات فمؤطرات بالفضة.

بالطبع كلنا عرفنا من كنّ النساء الأربع: كن **الخالات المُؤسِّسات**. لكن مُؤسِّسات ماذا، ما كنا لنعرف، وما كنا لنجرؤ على السؤال: إذ لم نرد إهانة الخالة فيدالا بلفت الانتباه إلى صورتها الأصغر. شونميّة قالت إنّ عين الخالة ليديا في الصورة تلاحقك أينما ذهبت وأنها تسمع كل ما نقول، لكنها عادة شونميّة المبالغة وابتداع القصص.

الخالة فيدالا جلست على مكتبها الكبير. فقد حرصت على رؤيتنا جميعًا. أخبرتنا بأن نحرك أدراجنا للأمام ونقترب من بعضنا البعض. ثم أخبرتنا بأننا كبارٌ كفاية للاستماع إلى قصة من أهم قصص الإنجيل – قصة مهمة لأنها رسالة من الرب إلى الفتيات والنساء، لذا علينا أن نصغي جيدًا. كانت قصة **السّرِيّة التي قُطّعت إلى اثنتي عشرة قطعة**.

شونميّة، الجالسة جانبي، همست، "أعرف القصة جيدًا." رفقة، الجالسة على جانبي الآخر، مدت يدها إلى يدي أسفل طاولة الدرج.

"شونميّة، التزمي الصمت،" نهرتها الخالة فيدالا. وبعد أن تمخطت، أخبرتنا القصة التالية.

سُرِّيّة رجل – أشبه بالجارية عندنا – هربت من مالكها، عائدة إلى مثوى أبيها. تصرفٌ في منتهى العصيان منها. الرجل ذهب كي يردّها، ولكونه رجلًا طيبًا متسامحًا، فكل ما سأله هو عودتها إليه. الأب، عالمًا بالقوانين، أجاب بنعم – وعبّر عن خيبته في ابنته وعصيانها – والرجلان تشاركا العشاء احتفاءً باتفاقهما. غير أنّ العشاء أدى إلى تأخر انطلاق الرجل وسرِّيّته في رحلة عودتهما، وحالما أظلمت الدنيا التجآ إلى بلدة لا يعرف الرجل فيها أحدًا. لكن مواطنًا كريمًا أخبرهما بأن لهما أن يقضيا الليلة في بيته.

لكن مواطنين آخرين، تملؤهم الشهوات الآثمة، أتوا البيت وطالبوا بأن يُسلّم إليهم المسافر. فقد أرادوا فعل أشياء مخزية معه. أشياء شهوانية وآثمة. لكنها فواحش شريرة وبغيضة لا سيما بين الرجال، لذا قرر كل من الرجل الكريم والمسافر ترك السُرِّيّة خارج الباب.

"حسنٌ، تستحق ما جرى لها، أليس كذلك؟" قالت الخالة فيدالا. "ما كان يجب بها الهروب أصلًا. فكرن بكل المعاناة التي سببتها للأناس من حولها!" على أية حال، مع طلوع الصباح، قالت الخالة فيدالا، فتح المسافر الباب، ووجد السُرِّيّة مطروحة على العتبة. "انهضي،" أمرها الرجل. لكنها لم تنهض لأنها كانت ميتة. فالرجال الآثمون قتلوها.

"كيف؟" سألت رفقة، همسًا بالكاد يسمع؛ تشد على يدي بقوة، دمعتان تسيلان على وجنتيها، "كيف قتلوها؟"

"إن اجتمع رجالٌ كثر وراحوا يفعلون معًا أشياء شهوانية بفتاة فمن شأن هذا أن يقتلها،" قالت الخالة فيدالا. "هذه القصة هي رسالة الرب لنا بأن علينا أن نرضى بنصيبنا من الحياة ولا نثور عليه." يجب على المرأة إكرام الرجل القوّام عليها، قالت لنا. فإن لم تفعل، فهذه هي النتيجة. الرب دائمًا ينزل بعبده العقاب المناسب لجريمته.

لاحقًا عرفت ببقية القصة – كيف قطّع المسافر جسد سُرّيّته إلى اثنتي عشرة قطعة وأرسل كل قطعة إلى عشيرة من عشائر بني اسرائيل، يستحث فيهم الحميّة على الثأر وإعدام القتلة جزاء سوء استعمالهم سريته، وكيف أن عشائر بنيامين رفضت المشاركة في الثأر كون القتلة بنياميّين. وفي حرب الانتقام التي تلت، كادت عشيرة بنيامين أن تمحى عن بكرة أبيها بعد قتل كل الزوجات والأطفال. لكن العشائر الإحدى عشرة وصلت إلى الاستنتاج بأن محو العشيرة الثانية عشرة فكرةٌ سيئة، لذا توقفوا عن القتل. وحرّموا على الناجين من البنياميين الزواج رسميًا وإنجاب الأطفال، إذ أن العشائر الأخرى أقسمت على ذلك، لكن قيل لهم أن بيدهم خطف الفتيات والزواج منهن بشكل غير رسمي، وهو ما فعله البنياميون.

فبقية القصة لم يتسنّ لنا سماعها في الفصل لأن رفقة انفجرت باكية. راحت تصيح "يا له من أمر فظيع، فظيع!" فيما جلس بقيتنا في صمت رهيب.

"سيطري على نفسك، رفقة،" نهرتها الخالة فيدالا. " لكن رفقة ما كانت لتهدأ. راحت تبكي بشدة حدّ كادت تنقطع أنفاسها.

"هل لي أن أعانقها، خالة فيدالا؟" سألتها أخيرًا. فالخالات يشجعننا على الصلاة لأجل الفتيات الأخريات لكن ليس على لمسهن.

"أظن،" قالت الخالة فيدالا على مضض. طوّقتُ رفقة بذراعيّ، وبكت على كتفي.

خالة فيدالا انزعجت من وضع رفقة، لكن القلق ساورها أيضًا. فوالد رفقة ليس برئيس، هو طبيب أسنان وحسب، وطبيب أسنان مهم، وأسنان الخالة فيدالا في حال سيئة. فنهضت وغادرت الفصل.

بعد دقائق عدة، أقبلت الخالة إسْتى. فهي الخالة التي تستدعى متى ما احتجنا نحن الفتيات إلى التهدئة. "لا بأس، رفقة،" قالت لها. "لم تقصد الخالة فيدالا إخافتك." ليست بالحقيقة، لكن رفقة كفّت عن البكاء وبدأت تحوزق. "هناك عبرة أخرى تُعلّمنا اياها هذه القصة. السُرّيّة كانت نادمة على فعلتها، وأرادت أن تكفر عن خطيئتها، لذا ضحّت بنفسها كي تحمي المسافر الطيب من

القتل على يد أولاء الرجال الأشرار." مالت رفقة برأسها جانبًا: كانت تصغي.

"كان تصرفًا شجاعًا ونبيلًا من السرِّيَة، ألا تظنين ذلك؟" وافقتها رفقة في إيماءة صغيرة. وتنهدت الخالة إستى في ارتياح. "علينا جميعًا أن نقدم التضحيات لأجل عون بعضنا البعض،" قالت في نبرة مهدئة. "الرجال يقدمون التضحيات في الحرب، والنساء يقدمن تضحياتهن في سبل أخرى. هي ذي قسمة الرب بيننا. والآن، فلنحظى جميعًا بمكافأة صغيرة تبهجنا. قد أحضرت لكنّ بعض الكوكيز بالشوفان. فتيات، هلمّ تحادثن."

وجلسنا هناك نتناول الكوكيز بالشوفان. "ما بالك تتصرفين مثل الأطفال،" همست شونميّة لرفقة. "فليست سوى قصة."

بدا وكأنّ رفقة لم تسمعها. "أبدًا، أبدًا لن أتزوج،" دمدمت هامسة، كأنما تدمدم لنفسها.

"بل ستتزوجين،" قالت شونميّة. "فالكل يتزوج."

"ليس الكل،" قالت رفقة، لكن لي وحسب.

بعد أشهر قليلة من زفاف بولا وأبي، انضمت جارية إلى أهل البيت. اسمها كان أوفكايل، بما أنّ اسم أبي هو الرئيس كايل. "كان لها اسمٌ آخر،" قالت شونميّة. "اسم رجل آخر. فهن يتنقلن من بيت إلى بيت إلى أن يحملن بطفل. على أي حال كلهن فاسقات، ولا حاجة بهن إلى أسماء حقيقية." شونميّة أخبرتني أن الفاسقة هي المرأة التي تخرج مع أكثر من رجل إلى جانب زوجها. لا هي ولا نحن كنا ندري ما الذي تعنيه حقًا كلمة تخرج.

والجارية أشد فسقًا، قالت شونميّة، لأنها أصلًا لا زوج لها. لكن كان لزامًا علينا ألا نتصرف بوقاحة مع الجارية أو ننعتها بالفاسقة، قالت الخالة فيدالا، تمسح أنفها، لأنها في تكفيرها عن خطاياها تؤدي خدمةً للمجتمع، وعلينا جميعًا أن نكون ممتنين لها.

"لا أرى كيف للتصرف كفاسقة أن يخدم المجتمع،" همست شونميّة.

"بسبب الأطفال،" أجبتها همسًا. "فالجارية بيدها أن تنجب الأطفال."

"هناك نسوة أخريات ينجبن،" قالت شونميّة، "ولسن بفاسقات." صحيح، بعض الزوجات كان بيدهن الإنجاب، وكذلك بعض زوجات الكفاف: فقد رأيناهن يتهادين ببطونهن المنتفخة، لكن العديد من النساء كن عاجزات. وكل امرأة تريد طفلًا، قالت الخالة إسْتى. كل امرأة من ليست بخالة ولا مرثا تريد طفلًا. إذ إن لم تكن المرأة مرثا ولا خالة، قالت الخالة فيدالا، فما الداعي إذن إلى وجودها الأرضي إن لم يكن لأجل طفل؟

قدوم الجارية إلى بيتنا عنى أن زوجة أبي، بولا، أرادت طفلًا لأنها لم تعدّني طفلتها: طَابيثة كانت أمي. لكن ماذا عن الرئيس كايل؟ إذ بدا وكأنما هو الآخر لا يعدّني طفلته. بدا وكأني غدوت خفيةً في عينيهما؛ ينظران إليّ، يخترقاني، ويبصران الحائط خلفي.

لدى دخول الجارية بيتنا، كنت تقريبًا امرأة، وفق مقياس العمر في جلعاد. كنت أطول قامة، وجهي استطال، وأنفي كبر. حاجباي اغمقّا، ما كانا باليرقانة المشعرة مثل حاجبي شونميّة، ولا بالهزيلة مثل حاجبي رفقة، بل مقوستان، ورموشي باتت سوداء. شعري استحال كثيفًا وتبدل من اللون البني الفأري إلى اللون الكستنائي. كل تلك التبدلات أرضتني، وكنت سأتأمل وجهي الجديد على المرآة، أستدير يمنةً ويسرة كيما أتأمله من كل الزوايا رغم كل التحذيرات التي تلقيناها في المدرسة عن مغبة الخيلاء.

لكن تبدلات أخرى منذرة وقعت، فنهداي انتفخا، وشعرٌ شطأ عن جسدي في أماكن ما كان يفترض بنا أن نتفكر فيها: الساقان، الإبطان، وذاك المكان المخزي من جسدنا بأسمائه العديدة المُحيّرة. ما إن تقع تلك التبدلات لفتاة، فلن تعود زهرةً أثيرة، بل مخلوقًا خطرًا.

مدرستنا هيأتنا لهذه التبدلات – الخالة فيدالا عرضت علينا سلسلة من المحاضرات المحرجة والمرفقة بوسائل توضيح يفترض بها تعليمنا دور المرأة وواجبها تجاه جسدها – دور المرأة المتزوجة – لكن لا كانت تلك المحاضرات تثقيفية ولا كانت بالمطمئنة. ومتى ما سألتنا الخالة فيدالا إن كان لدى إحدانا أي سؤال، ولا واحدة منا سألت، إذ من أين عساك أن تبدأ؟ أردت أن أسأل لماذا على الأمر أن يكون هكذا، لكني كنت أعرف الجواب مسبقًا: لأنها مشيئة الرب. تلك كانت الإجابة التي تتملص بها الخالات من كل شيء.

توقعتُ أن عن قريب سينز الدم من بين ساقيّ: فقد حدث أصلًا لعدد من الفتيات في المدرسة. ولماذا لم يدبر الرب الأمر بطريقة أخرى غير هذه؟ لكن للدم محلٌ خاص عند الرب: هذا ما تقوله لنا آيات الكتاب المقدس التي تُتْلى علينا: الدم، الطهارة، المزيد من الدماء، المزيد من الطهارة، دمٌ يسفك كيما يتطهر الآثمون، لكن احذر أن تلطخ يديك بالدم. الدم نجس، لا سيما الدم المتسرب من الفتيات، لكن فيما مضى راق للرب أن يُسْفَك الدم على المذبح قربانًا له. عدا أنه تخلى لاحقًا عن هذه الرغبة – قالت الخالة إسْتى – وصار يفضل قرابين الفاكهة،

الخضروات، المعاناة في صمت، والعمل الصالح.

جسد المرأة البالغ ليس سوى أحبولة في فخ في شرك، هكذا كان في نظري. إن كان هناك من ثقب، فحتمًا شيءٌ سيقحم فيه وآخرٌ سيخرج منه، ينطبق على كل ثقب في الدنيا: ثقب في جدار، ثقب في جبل، ثقب في الأرض. أشياءٌ كثيرة لك أن تفعلها به وخطوبٌ كثيرة لها أن تلمّ به، هذا الجسد الأنثوي البالغ، ما جعلني أوقن بأني سأكون أفضل حالًا من دونه. ارتأيت تقليص جسدي بامتناعي عن الأكل، وقد جربت خطتي هذه، ليوم، لكن الجوع تملكني وما عدت قادرة على التمسك بقراري، وهكذا تسللت في منتصف الليل إلى المطبخ والتهمت بقايا الدجاج من قدر الحساء.

جسدي المهتاج لم يكن وحده مبعث قلقي: فمنزلتي في المدرسة راحت تنخفض على نحو ملحوظ. الفتيات الأخريات ما عدن يذعنّ لي، وما عدن يحاولن التقرب مني والتودد إليّ. كنت ما إن أقترب من مجموعة منهن حتى ينقطعن فجأة عن الحديث ويرمقنني بنظرات غريبة. بعضهن أدرن ظهورهن لي. رفقة ما كانت لتفعل هذا – كانت ما تزال تتحين الفرصة للجلوس جانبي – لكن برأس مرفوع ودون أن تدس يدها أسفل طاولة الدرج حتى تمسك بيدي.

شونميّة كانت ما تزال تدعي صداقتها لي، وأحد أسباب تمسكها بصداقتنا كان عدم شعبيتها أصلًا لدى الأخريات، لكن الآن هي من باتت تتفضل عليّ بصداقتها لا أنا. كم تألمت حينها، رغم أني جهلت السبب وراء هذا التبدل في الأجواء.

لكن الأخريات عرفن. فالأقاويل تناقلتها الألسن، من فم إلى أذن إلى فم – من زوجة أبي، بولا، إلى مرثياتنا، من لا تفوتهن شاردة ولا واردة، ومنهن إلى المرثيات الأخِريات اللواتي يصادفنهن أثناء التسوق، ومن تلكن المرثيات إلى الزوجات، ومن الزوجات إلى بناتهن، زميلاتي في المدرسة.

وما كنه هذه الأقاويل؟ جزء منه، أني ما عدت محبوبة لدى أبي القوي. أمي، طابيثة، هي من كانت حاميتي؛ لكنها رحلت، وتركتني مع زوجة أب لا تتمنى لي الخير. في البيت كانت إما تتجاهلني، أو تصيح في وجهي – **التقطي هذا! لا تتلكئي!** حاولت

قدر استطاعتي تفادي الاحتكاك بها، لكنها رأت حتى في بابي المغلق إهانةً لها. كانت ستعرف أني مختبئة خلفه غارقة في أفكاري المسمومة عنها.

لكن هبوط قيمتي عاد إلى أمر يتجاوز خسارة حظوتي لدى أبي. إذ سرت معلومة في الأرجاء، معلومة تحمل أذىً بالغًا لي.

متى ما كان هناك من سرٍّ يُباح – لا سيما سرٌّ صادم – فشونميّة من تولت بكل سعادة مهمة الرسول الذي يحمل البلاغ.

"خمني ما الذي عرفته الآن؟" قالت يومًا ونحن نتناول شطائر الغداء. كانت ظهيرة مشرقة: سمح لنا بالتنزه فيها خارجًا على مرجة المدرسة. الأرض كانت محاطة بأسوار عالية مدججة بأسلاك شائكة مع ملاكين يحرسان البوابة الرئيسة، والتي كانت مقفلة على الدوام ولا تفتح إلا لدى مرور سيارات الخالات داخلًا وخارجًا، لذا كنا في أمان تام.

"ماذا؟" سألتها. كانت شطائر جبن، جبنة مصنّعة استبدلوا بها الجبن الحقيقي لأن جنودنا في حاجة إليه. ضياء الشمس كان دافئًا، العشب كان ناعمًا، وقد نجحت في الخروج من البيت دون أن تراني بولا، لذا لحظتها كنت شبه راضية عن حياتي.

"أمك ليست بأمك الحقيقية،" قالت شونميّة. " أخذوك من أمك الحقيقية لأنها كانت فاسقة. لكن لا تقلقي، فالخطأ ليس خطأك، فقد كنت صغيرة جدًا كي تعي هذا."

معدتي انقبضت. بصقت ملء فمي من الشطيرة على العشب. "كذب!" كدت أصرخ فيها.

"اهدئي،" قالت شونميّة. "كما قلت، الخطأ ليس بخطئك."

"لا أصدقك."

شونميّة رمقتني بنظرة مشفقة، بابتسامة متشفية. "هي الحقيقة. مرثتنا سمعت القصة بأكملها من مرثتك، وهي سمعتها من زوجة أبيك الجديدة.

الزوجات يعرفن هذه الأمور – فبعضهن حصلن على أطفالهن بهذه الطريقة. ليس أنا، فأنا ولدت بالطريقة الصحيحة."

كم كرهتها ومقتها تلك اللحظة. "إذن أين أمي الحقيقية؟" طالبتها بجواب، "طالما أنك تعرفين كل شيء!" لئيمة! لئيمة! لئيمة! كم أردت أن أصيح في وجهها. إذ أدركت لحظتها أنها هي حتمًا من خانتني: قبل أن تعلمني بسرها هذا، راحت وأعلمت كل الفتيات الأخريات. لهذا كن يتصرفن معي بجفاء: لأني نجسة.

"لا أعرف، ربما هي ميتة،" قالت شونميّة. "كانت تسرقك من جلعاد، كانت تحاول الهروب بك عبر غابة، كانت ستقطع بك الحدود. لكنهم اصطادوها وأنقذوك. من حسن حظك!"

"ومن أنقذني؟" سألتها في نبرة ذليلة. وهي تسرد عليّ القصة، ما كفّت شونميّة عن مضغ شطيرتها. عيناي ما انزاحتا عن فمها، الذي منه كان ينبثق هلاكي. قطعة لزجة من الجبن البرتقالي عالقة بين أسنانها.

"تدرين من أعني، هم، الملائكة والعيون. أنقذوك ومنحوك إلى طابيثة لأنها كانت عاجزة عن إنجاب طفل. قد صنعوا بك معروفًا. فالبيت الذي تعيشين فيه الآن خيرٌ لك ألف مرة من بيت مع تلك الفاسقة."

شعرت بالحقيقة تدبّ فيّ وتشل أوصالي. القصة التي اعتادت طابيثة سردها عليّ، الإنقاذ والفرار من المشعوذات الشريرات – كانت أقرب إلى الحقيقة مما توقعت. عدا أنها لم تكن يد طابيثة التي أمسكت بيدي، بل يد أمي الحقيقية – أمي الحقيقية، الفاسقة. وما كنّ بمشعوذات شريرات من طاردننا، بل رجال. ولكان لدى أولاء الرجال أسلحة، فرجالٌ كهؤلاء دومًا مسلحون.

ومع ذلك، طابيثة اصطفتني. اصطفتني من بين كل الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم وأمهاتهم. هي اصطفتني، وأعزتني. هي أحبتني. هذه الجزئية من القصة تظل حقيقية.

لكني الآن بتّ يتيمة الأم، إذ أين هي أمي الحقيقية؟ وبتّ يتيمة الأب أيضًا – فالرئيس كايل مثله مثل رجل على القمر، لا يقرب لي بأي صلة. هو استحملني فقط

بصفتي مشروع طابيثة، دميتها، حيوانها الأليف.

لا عجب بولا والرئيس كايل أرادا جارية: أرادا طفلًا حقيقيًّا عوضًا عني. فأنا لست بطفلة أحد.

شونميّة واصلت المضغ، تشاهد متلذذة استيعابي معلومتها. "سأدافع عنك،" قالت في صوتها الورع المنافق. "فوزر أمك لا يقع عليك. والخالة إسْتى دومًا تقول لنا إن الأرواح في الجنة متساوية."

في الجنة وحسب، قلت في نفسي. وهذه ليست الجنة. هذه أرض الأفاعي والسلالم، وإن كنتُ في الأمس القريب واقفة أعلى السلم المتكئ على **شجرة الحياة**، فها قد انزلقت الآن على ظهر أفعى. ويا للسرور العظيم الذي بعثه مشهد سقوطي في نفوس الكثيرات! لا عجب شونميّة ما قاومت للحظة نشر هذه الأخبار المبهجة المنذرة بالهلاك. كان لي أن أسمعهن يهلسن من خلف ظهري: **فاسقة، فاسقة، وابنة فاسقة!**

يقينًا الخالة فيدالا والخالة إسْتى بلغهما الخبر. بل دومًا كانتا على علم به. فهو من نوعية الأسرار التي يعرفنها الخالات. إذ هنا تكمن مصدر قوتهن، وفقًا للمرثيات: في معرفتهن بالأسرار.

ويقينًا الخالة ليديا – المؤطرة بالذهب مع ابتسامتها العبوسة وزيها البني القبيح على كل حائط خلفي في فصول المدرسة – هي العليمة بكل الأسرار لأنها أقواهنّ. يا ترى ما كانت ستقول الخالة ليديا عن ابتلائي؟ أكانت ستمد إليّ يد العون؟ أكانت ستتفهم تعاستي؟ أكانت ستنقذني؟ لكن هل الخالة ليديا من الأساس شخصٌ حقيقيّ؟ فأنا لم أرها قط. لربما مثلها مثل الرب – حقيقية وغير حقيقية في ذات الآن. وماذا إن صليت إلى الخالة ليديا في الليل، عوضًا عن الرب؟

وقد حاولت، لاحقًا في ذاك الأسبوع. لكني وجدت الفكرة عصية جدًا على التصديق – فكرة الصلاة لامرأة – ولهذا توقفت.

قضيت بقية تلك الظهيرة المروعة كما السائر في منامه. جلسنا نطرز مجموعة مناديل البيتي بوان لأجل الخالات، نطرز في كل منديل نقش زهرة يتلاءم مع اسم كل واحدة منهن – زهرة "الإكيناسيا" للخالة إليزابيث، "الهايكينثوس" للخالة هيلين، و"الفيوليت" للخالة فيدالا. كنت أطرز الليلك للخالة ليديا، حين وخزت الإبرة عميقًا في إصبعي، ولم أعِ لذلك إلا لدى سماعي شونميّة تقول، "هناك دمٌ على تطريزك." غابريلّا – فتاة هزيلة وقحة اللسان من أخذت محلي واحتلت موقع الفتاة الأكثر شعبية ما إن ارتقى أبوها إلى ثلاث مرثيات – همست، "لعل الدورة الشهرية جاءتها أخيرًا، من إصبعها،" والكل ضحكن لأن معظمهن أتتهن الدورة، حتى رفقة. الخالة فيدالا سمعت الضحك ونظرت إلينا من أعلى كتابها قائلة، "التزمن الصمت."

الخالة إسْتى صحبتني إلى الحمام وشطفنا الدم عن يدي، ثم لفّت شاشًا حول إصبعي، أما منديل البيتي بوان فكان لا بد من نقعه في ماء بارد، الطريقة التي علمونا اياها حتى نتخلص من أثر الدم، لا سيما من القماش الأبيض. فالتخلص من بقع الدم شيءٌ لا بد للزوجات أن يعرفنه، قالت الخالة فيدالا، إذ سيغدو واجبًا من واجباتنا: وسيكون لزامًا علينا الإشراف على مرثياتنا للتيقن من تنظيفها بالشكل الصحيح. فالتخلص من بقع الدم وغيرها من السوائل التي تخرج من الأجساد جزءٌ لا يتجزأ من واجب المرأة في عنايتها بالآخرين، لا سيما الأطفال والمسنين، قالت الخالة إسْتى، والتي من طبيعتها دومًا تفسير الأمور من منظورٍ إيجابي. فتلك موهبة أنعم بها الرب على المرأة لأن لها دماغًا غير اعتيادي، ليس بالدماغ الصلب المتماسك الثاقب كما عقول الرجال بل ناعم ورطب ودافئ وحاضن، مثل ...مثل ماذا؟ لم تنه جملتها.

مثل طين في الشمس، هذا ما تصورته. هو ذا دماغي الذي أحمله في رأسي: طينٌ موحلٌ دافئ.

"هل من خطب ما، آغنس؟" سألتني الخالة إستى بعد تنظيف إصبعي. أجبتها بـ لا.

"إذن علام تبكين، عزيزتي؟" إذ رأت أني أبكي: الدموع تنساب من عينيّ، من رأسي الرطب الطيني، رغم جهودي في حبسها.

"لأني موجوعة!" قلت لها، ورحت أنتحب. لم تسألني عمّا يوجعني، فهي حتمًا كانت مدركة أن وخز إصبعي ليس مبعث وجعي. طوقتني بذراعها وعانقتني عناقًا صغيرًا.

"أشياءٌ كثيرة توجعنا،" قالت لي. "لكن علينا أن نحاول جهدنا أن نكون مسرورين. فالرب يحب السرور. ويريد منا أن نقدِّر النعم وكل ما هو خيرٌ في هذا العالم." كنا قد سمعنا الكثير عما يحبه الرب وعما يكره على لسان الخالات اللواتي علمننا، لا سيما الخالة فيدالا، من بدت على علاقة وثيقة به. شونميّة تحدتنا مرة أنها ستسأل الخالة فيدالا عما يحب الرب تناوله على مائدة الفطور، كانت تهوى ترويع الفتيات الرعديدات بقولها هذا، لكنها أبدًا ما نفذت تحديها.

تساءلت عن رأي الرب في الأمهات، الحقيقيات والزائفات. لكني كنت أعرف ألا جدوى من سؤال الخالة إسْتى عن أمي وكيف اختارتني طابيثة، أو حتى كم كان عمري وقتذاك. فالخالات في المدرسة تفادين الحديث معنا عن آبائنا وأمهاتنا.

لدى وصولي البيت ذاك النهار، حاصرت صِلّة في المطبخ، حيث كانت تعد البسكويت، وكررت عليها كل ما قالته لي شونميّة على الغداء.

"صديقتك فمها كبير،" قالت لي. "ليتها تطبقه." كلمات قاسية غير معتادة منها.

"لكن هل هي الحقيقة؟" سألتها، يحدوني شبه أمل، لحظتها، بأنها قد تنكر القصة بأكملها.

تنهدت. "لم لا تساعديني في صنع البسكويت؟"

لكني بت كبيرة كفاية على تلك الرشى الصغيرة. "فقط أخبريني، أرجوك."

"حسنٌ، وفقًا لزوجة أبيك الجديدة، أجل. تلك القصة حقيقية. أو على

الأقل قريبة من الحقيقة."

"إذن طابيثة ما كانت أمي،" قلت لها، أحبس دموعي الجديدة في عينيّ، أبقي على صوتي ثابتًا.

"يعتمد على ما تعنينه بأم،" قالت صِلّة. " هل أمك هي من أنجبتك أم من تحبك أكثر من أي شيء في الوجود؟"

"لا أدري،" قلت لها. "لربما من تحبني أكثر من أي شيء في الوجود؟"

"إذن طابيثة هي أمك،" قالت صِلّة، تقطع البسكويت. "ونحن المرثيات أمهاتك أيضًا، لأننا نحبك بقدر ما أحبتك. حتى وإن كان الأمر لا يبدو لك هكذا." رفعت قطعة بسكويت دائرية بملعقة البان كيك ووضعتها على صحيفة الخبز. "كلنا نسعى إلى مصلحتك."

قولها هذا ضعضع ثقتي فيها لأن الخالة فيدالا اعتادت أن تقول نفس الشيء فيما يخص مصلحتنا، قبيل أن تنزل علينا العقاب. كانت تفضل ضربنا على سيقاننا بالسوط حيث لا يتسنى لأحد أن يرى آثار الضرب، وأحيانًا على أفخاذنا، تجبرنا على الانحناء ورفع تنانيرنا. وفي بعض الأحيان كانت ترى أن من مصلحتنا إنزال عقابها بفتاة أمام الفصل بأكمله.

"وما الذي جرى لها؟ أمي الأخرى؟ تلك التي جرت بي في الغابة؟ بعد أن أخذوني منها؟"

"صدقًا لا أدري،" قالت صِلّة، تتحاشى النظر إليّ، تدس البسكويت في الفرن الحار – اشتهيت قطعة من البسكويت الساخن – لكن لبدا طلبي تصرفًا طفوليًا في غمرة نقاش جديّ كهذا.

"هل أطلقوا عليها النار؟ هل قتلوها؟"

"أوه لا،" قالت صِلّة. "لما فعلوا ذلك."

"لماذا؟"

"لأن بيدها إنجاب الأطفال. فقد أنجبتك، أليس كذلك؟ وهذا إثباتٌ على قدرتها. وما كانوا ليقتلوا امرأة ثمينة كهذه إلا إن أجبروا على ذلك." تريثتْ للحظة

كي تدعني أستوعب ما تقول. "على الأرجح سيرون إن كانت ... الخالات في دار راحيل وليئة كن سيصلين معها؛ كن سيتحدثن معها أولًا، كي يروا إن كان من سبيل لتغيير رأيها حول الأمور."

في المدرسة سرت إشاعاتٌ عن دار راحيل وليئة للتأهيل لكنها كانت مبهمة: فلا أحد منّا عرف ما يجري في داخله. ومع ذلك، فأن تصلي عليك ثلة من الخالات لهو يقينًا أمرٌ مرعب. فلسن كلهن حنونات مثل الخالة إسْتى. "وإن لم ينجحن في تغيير رأيها؟ هل كانوا سيقتلونها؟ هل هي ميتة؟"

"أوه، أنا على يقين أنهن قد غيرن رأيها،" قالت صِلّة. "فهن بارعات في ذلك. القلب والعقل – يعرفن تمامًا كيف يُغيّرن إثنيهما."

"وأين هي الآن، إذن؟ أمي – أمي الحقيقية – الأخرى؟" تساءلت إن كانت تلك الأم تتذكرني. لا بد أنها تتذكرني. بل حتمًا أحبتني وإلا لما حاولت أخذي معها حين كانت تلوذ بالفرار.

"لا أحد منا يعرف، عزيزتي،" قالت صِلّة. "ما إن يصبحن جاريات لا يعدن يحملن أسماءهن القديمة، وفي تلك الأردية التي يرتدينها فبالكاد لك أن تريْ وجوههن. كلهن يبدون بعضهن مثل بعض."

"هي جارية؟" إذن، ما قالته شونميّة صحيح. "أمي؟"

"هذا ما يفعلونه، هناك في الدار،" قالت صِلّة. "يحولونهن إلى جوار، بطريقة أو بأخرى، أولاء من ينجحون في اصطيادهن. والآن، ما رأيك بقطعة بسكويت لذيذة ساخنة؟ لا زبدة لدي الآن، لكن سأدهنها بقليل من العسل لك."

شكرتها. تناولت البسكويت. إذن أمي جارية. لهذا أصرت شونميّة على نعتها بالفاسقة. إذ من المسلمات اعتبارهن جميعًا فاسقات، كنّ فاسقات فيما مضى. وما زلن فاسقات، وإن في طريقة أخرى.

مذ ذاك، وأنا مفتونة بجاريتنا الجديدة. كنت قد تجاهلتها مع بداية وصولها – كما أُمرتُ أن أفعل – فهو ألطف تصرف تجاههن، قالت روزا، لأنهن إما سينجبن

طفلًا وينتقلن إلى مكان آخر، أو لن يحبلن بطفل وأيضًا في هذه الحال سينقلن إلى مكان آخر، وفي الحالتين لن تبقى في البيت لأمد طويل. لذا كان من السيئ لهن عقد أي ارتباطات، لا سيما مع الصغار من أهل البيت، لأن حينها سيضطررن إلى التخلي عن تلك الارتباطات، وتخيلي كم سيكون مؤلمًا لهن.

لذا تحاشيت أوفكايل وتظاهرت بعدم ملاحظتي وجودها كلما انسلّت إلى المطبخ في ردائها الأحمر حتى تحمل سلة التسوق وتمضي للمشي. كل الجواري مضين للمشي كل يوم في أزواج من اثنتين؛ كنت ستراهن على الأرصفة. لا أحد يزعجهن ويتحادث معهن ويلمسهن، لأنهن كنّ - بطريقة ما - محصنات.

عدا أني الآن، وكلما تسنت لي الفرصة، بت أطيل النظر في أوفكايل من زاويتي عينيْ. كان لها وجهٌ بيضَوي، رتيبٌ وخال من التعبير، أشبه ببصمة إبهام في قفاز. أنا الأخرى أعرف كيف أظهر وجهي رتيبًا خاليًا من التعبير، لهذا لم أصدق للحظة أنها حقًّا رتيبة خلف وجهها ذاك. فهي عاشت حياةً أخرى ومختلفة تمامًا. يا ترى كيف بدت عليه أيّامَ كانت فاسقة؟ فالفاسقات يخرجن مع أكثر من رجل واحد. وكم من رجل آخر خرجت معه؟ وما الذي عناه بالضبط، الخروج مع الرجال، وأي نوع من الرجال كانوا؟ هل سمحت لأجزاء من جسدها أن تبرز من تحت ملابسها؟ هل ارتدت بنطالًا وتشبهت بالرجال؟ إثمٌ عظيم صعب عليّ حتى تخيله! لكن إن كانت فعلت ذلك، فيا لجرأتها! لا بد كانت مختلفة جدًا عما هي عليه الآن. حتمًا كانت مفعمة بالحيوية.

كنت سأذهب إلى النافذة وأراقبها من خلف الزجاج تمضي في مشيها، عبر حديقتنا وأسفل المجاز إلى بوابتنا الأمامية. ثم كنت سأخلع فردتي حذائي، أقطع الردهة على أطراف أصابعي، وأتسلل إلى حجرتها، والتي كانت في مؤخر البيت، في الطابق الثالث. كانت حجرة متوسطة الحجم ومرفق به حمامها الخاص. السجادة كانت مجدولة؛ على الحائط صورة زهور زرقاء في مزهرية كانت تعود إلى طابيثة.

أظن زوجة أبي علقت الصورة هناك حتى تغيبها عن الأبصار، إذ راحت تطهّر

الأجزاء الظاهرة من البيت من أي شيء قد يذكر زوجها الجديد بزوجته الأولى. عدا أنّ بولا لم تفعلها صراحةً، بل في خبث – كانت تحرك الأشياء أو تتخلص منها على حدة، بين الفينة والأخرى – لكني كنت مدركة لنيتها. سببٌ إضافي وراء عدم إعجابي بها.

ولماذا ألطّف الكلمات؟ فما عاد من داع لأفعل ذلك. أنا لست وحسب غير معجبة بها، بل أكرهها. والكره عاطفةٌ سيئة جدًا لأنها تفسد الروح – كذا علمتنا الخالة إسْتي – لكن، ورغم أني لست فخورة باعترافي هذا واعتدت الصلاة طلبًا للمغفرة على خطيئة كراهيتي، لكن الكره صدقًا هو ما شعرت به تجاهها.

كنت ما إن أدخل حجرة الجارية وأغلق الباب بتروٍّ، أبدأ في التنقيب. من هي؟ وماذا إن كانت هي أمي المفقودة؟ كنت واعية إلى أنها مجرد تخيلات، لكني كنت جدّ وحيدة؛ ووجدت شيئًا من السلوان في تخيل الوضع إن صحّت تلك التخيلات. لكنا ارتمينا في أحضان بعضنا البعض، لتعانقنا، ولغمرتنا السعادة بعثور إحدانا على الأخرى ... لكن وبعد؟ ما الذي كان سيحدث؟ ما من تخيلات خطرت لي البتة عما كان سيقع حينها، لكن شعورًا ساورني بأننا كنا سنقع في ورطة.

ما من شيء في حجرة أوفكايل أمدني بدليل عنها. أرديتها الحمراء كانت معلقة في صفٍّ مرتب داخل الخزانة، ثيابها البيضاء الداخلية وقمصان نومها الأشبه بالخياش كانت مطوية بترتيب على الأرفف. كانت تملك زوجًا آخر من حذاء المشي ورداءً إضافيًا وقلنسوة بيضاء احتياطية. كانت لها فرشاة أسنان ذات مقبض أحمر. كانت هناك حقيبة أحضرت فيها كل تلك الأشياء، والحقيبة كانت خاوية.

أخيرًا جارتنا تدبرت أمرها وحبلت. وقد عرفتُ بذلك قبل أن يعلمني أحد، لأن بدلًا عن التعامل معها وكأنها كلبٌ شريد يحتملنه من باب الشفقة، المرثيات رحن يحدثن جلبة حولها ويمنحنها وجبات أكبر، يضعن الزهور في مزهريات صغيرة على صينية فطورها. ولأني كنت مهووسة بها، فقد تتبعت كل تفصيل عنها بقدر المستطاع.

كنت سأسترق السمع على المرثيات يتحدثن بحماس في المطبخ متى ما ظنن أني لست معهن، حتى وإن عجزت عن التقاط حديثهن بالكامل. ومتى ما كنت معهن صِلّة كانت ستبتسم لنفسها كثيرًا، فيرا تخفض من صوتها الأجش وكأننا في كنيسة. وحتى روزا كانت ستعتلي ملامحها نظرة معتدة، كأنما تناولت للتو برتقالة لذيذة وما كانت لتخبر أحدًا عنها.

أما بولا، زوجة أبي، أضحت مشرقة. باتت ألطف معي متى ما اجتمعنا في ذات الغرفة، حدثٌ حرصت ألا يحدث كثيرًا. كنت أزدرد الفطور في المطبخ قبل اصطحاب الوصي لي للمدرسة، أغادر مائدة العشاء بسرعة، بحجة الواجبات المنزلية: تطريز بيتي بوان أو حياكة أو خياطة، رسمةٌ عليّ أن أنهيها، لوحة مائية عليّ أن ألونها. وبولا ما عارضت قط: فهي الأخرى لم تطق رؤيتي.

"أوفكايل حامل، أليست كذلك؟" سألت صِلّة صباح يوم. حاولت أن أبدو لا مبالية في حال كنت مخطئة. صِلّة فوجئت بسؤالي.

"وكيف عرفت؟"

"أنا لست بعمياء،" أجبتها في نبرة متفوقة لا بد أزعجتها. إذ كنت بلغت تلك السن.

"لا يفترض بنا أن ننبس بكلمة عن الموضوع،" قالت صِلّة، "إلى ما بعد الشهر الثالث. فالأشهر الثلاثة الأولى حرجة."

"لماذا؟" سألتها. إذ صدقًا لم أعرف الكثير، رغم محاضرة الأجنة وعرض

الشرائح الذي عرضته علينا الخالة سيالة المخاط فيدالا.

"لأن إن تبين أنه طفلٌ فاسد، فحينئذ ... حينئذ سيولد قبل أوانه بكثير،" قالت صِلّة، "وسيموت." "كنت أعرف بأمر الأطفال الفاسدين: ما كانوا مادة محاضرة، بل موضوعًا يهمس عنه. قيل إن هناك الكثير منهم. جارية رفقة أنجبت طفلة: لكن الطفلة ولدت بلا دماغ. المسكينة رفقة انزعجت كثيرًا لأنها رغبت بشدة بأن يكون لها أخت. "نحن نصلي لأجله. لأجلها،" قالت صِلّة لحظتها. لم تفتني الهاء في **لأجله**[11].

لا بد أن بولا ألمحت إلى الزوجات الأخريات خبر حمل أوفكايل، إذ فجأة عادت وارتفعت منزلتي في المدرسة. شونميّة ورفقة راحتا تتنافسان على نيل اهتمامي، مثلما كان عليه الأمر من قبل، والفتيات الأخريات عدن يذعن لي وكأني محاطة بهالة خفية.

طفلٌ في الطريق يضفي بريقًا على كل من في محيطه. بدا وكأنما سديمٌ ذهبي أحاط بيتنا، والسديم ازداد توهجًا وإشراقًا مع مضي الوقت. ما إن بلغ الحمل عتبة الثلاثة أشهر أقامت المرثيات في المطبخ حفلةً غير رسمية وصِلّة أعدت كعكة. أما أوفكايل، فملامح وجهها ما كانت بملامح بهجة بقدر ما كانت ملامح ارتياح، هذا ما استشفيته من نظراتي الخاطفة إلى وجهها.

في غمرة هذا الابتهاج المكبوت، وجدتني غيمةً حالكة. فهذا الجنين المجهول داخل أوفكايل احتكر كل الحب لنفسه: وبدا ألا شيء من هذا الحب تبقى لي. بت وحدي. والغيرة انتابتني: فذاك الطفل له أم، وأنا أبدًا لن يكون لي أم. حتى المرثيات أدرن ظهورهن لي واستدرن نحو الضوء المشرق المنبعث عن بطن أوفكايل. أنا خجلة باعترافي بهذا – غيرى من جنين! – لكن تلك كانت الحقيقة.

11 في نص اللغة الإنجليزية تشير صِلّة إلى الجنين بالضمير "it" وهو الضمير المعتمد لدى المنظمات المدافعة عن حق المرأة في الإجهاض والاختيار باعتبار أنّ الجنين – حتى يولد - لا يعد به إنسانًا وبذا فإجهاضه لا تعد جريمة إزهاق روح، وحق المرأة بالتصرف في جسدها هو الذي يجب أن يؤخذ به، ومن هنا تتأتى الإشارة إلى الجنين بضمير الإشارة إلى الجماد.

تلك كانت الفترة التي وقع فيها حدثٌ أفضّل تجاوزه لأنّ خيرٌ لي نسيانه، عدا أن الحدث له تأثيره على القرار الذي كنت سأوشك على اتخاذه عن قريب. الآن وقد كبرت واختبرت العالم الخارجي أكثر، فلي أن أرى لم لا يعده الكثيرون بالحدث المهم، لكن في عيني فتاة من جلعاد، من لم تتعرض في حياتها لموقف شبيه بتلك المواقف، فذاك الحدث أبدًا ما كان بالتافه لي. بل كان مرعبًا. وكذلك مخزيًا: إذ متى ما ارتكب أحدهم فعلًا مخزيًا بك، فالخزي يلصق بك. تغدو إنسانًا قذرًا.

مقدمة الحدث بسيطة: احتجت الذهاب إلى طبيب الأسنان لأجل فحصي السنوي. طبيب الأسنان كان والد رفقة، واسمه الدكتور غروف. كان أفضل طبيب أسنان، قالت فيرا: كل الرؤساء وعوائلهم يؤمون عيادته. مكتبه كان في مبنى **بركة الصحة والعافية**، المخصص للأطباء وأطباء الأسنان. اللافتة على المبنى كانت لقلب مبتسم وسنٍّ مبتسم خارجه.

في كل زياراتي السابقة كان لزامًا على مرثا أن ترافقني إلى الطبيب أو طبيب الأسنان وتجلس في ردهة الانتظار، فهذا هو التصرف اللائق، كذا اعتادت طابيثة أن تقول دون أن تشرح لي السبب، لكن بولا قالت إن الوصي سيأخذني وحده إلى هناك، فهناك الكثير من المهام لا بد أن تنجز في البيت إعدادًا للتغييرات المنتظرة – أي قدوم الطفل – وسيكون هدرًا للوقت إرسال مرثا معي.

في الحقيقة، أنا لم أمانع. فذهابي وحدي يعني أني أصبحت شخصًا بالغًا. جلست منتصبة الظهر على المقعد الخلفي في السيارة خلف وصيّنا. دخلت المبنى وضغطت زر المصعد المطبوع عليه ثلاثة أسنان، وجدت الطابق الصحيح والباب الصحيح، وجلست في ردهة الانتظار أتأمل صور الأسنان الشفيفة على الحائط. عندما حان دوري توجهت إلى الغرفة الداخلية، كما طلب مني المساعد، السيد ويليامَ، وجلست على كرسي الفحص. الدكتور غروف دخل والسيد ويليام أحضر ملفي ثم غادر وأغلق الباب، والدكتور غروف ألقى نظرة على الملف، وسألني إن كنت أعاني من أي مشكلة مع أسناني، وأجبته بـ لا.

راح ينخس في فمي بخلاله ومسابيره ومراياه الصغيرة، كما العادة. وكما

العادة، رأيت عينيه عن قرب، ضخمتان من خلف عدستي نظارته – زرقاوان محتقنتان دمًا، مع جفنين أشبه بركبتي فيل – وحاولت جهدي ألا أستنشق لدى زفيره لأن أنفاسه – كما العادة – كانت تفوح برائحة البصل. كان رجلًا في منتصف عمره يفتقر إلى أي ملامح مميزة.

انتزع قفازيه الأبيضين الطبيين وشطف يديه في المغسلة، والتي كانت خلف ظهري.

"أسنانٌ مثالية. مثالية." ثم أردف قائلًا، "ستصبحين فتاة كبيرة، آغنس." ووضع يده على نهدي الصغير النامي. كان صيفًا، لذا كنت في ثوبي المدرسي الصيفي، زهريًا كان ومصنوعًا من القطن الخفيف.

مصدومةً، تجمدت. إذن كل ما قيل لنا صحيح، عن الرجال وشهواتهم المهتاجة، المضطرمة، وها أنا، بمجرد وجودي على كرسي طبيب الأسنان، تسببت بإشعال نارها. خزيٌ جارفٌ اجتاحني – ما الذي كان يفترض بي قوله؟ ما كنت لأعرف، لذا تظاهرت بأنّ ما يحدث لا يحدث.

دكتور غروف كان واقفًا خلفي، وبذا يده اليسرى كانت على نهدي الأيسر، ما كان لي أن أرى بقيته، يده وحسب، يدٌ ضخمة ظهرها مشعر بشعيرات حمراء. كانت دافئة. جثمت هناك على نهدي مثل سلطعون حار ضخم. لم أعرف ما المفترض بي فعله. هل عليّ أن أقبض على يده وأزيحها عن نهدي؟ هل سيلهب تصرفي هذا نار شهوته؟ هل عليّ أن أحاول الخروج من هنا؟ ثم عصرت اليد نهدي. الأصابع وجدت حلمتي وقرصت. بدا أشبه بمسمار يدفعه أحدهم بإبهامه في حلمتي. حركت النصف العلوي من جسدي وملت للأمام –احتجت الخروج من كرسي طبيب الأسنان بأسرع وقت – لكن اليد قيدتني. وفجأة، اليد رفعت، وبقيةٌ من الدكتور غروف تحركت ووقفت في مرمى بصري.

"حان الوقت كي تريه،" قال في صوته الطبيعي الذي يتحدث فيه عن كل شيء. "يومًا ما، وعن قريب جدًا، شيءٌ مثله سيدخل فيك." أمسك بيدي اليمنى ووضعها على ذاك الجزء من جسده.

لا أظن أنّ هناك من داعٍ لإخبارك ما الذي جرى. كانت هناك منشفة في المتناول. مسح نفسه ودسّ عضوه في بنطاله.

"هاك،" قال لي. "فتاةٌ مطيعة. لم أؤذك." وربّت على كتفي تربيتًا أبويًا. "لا تنسي، فرشي أسنانك مرتين في اليوم، ثم نظفيها بالخيط. السيد ويليام سيعطيك فرشاةً جديدة."

غادرت الغرفة، يتملكني غثيانٌ سقيم. السيد ويليام كان في ردهة الانتظار، وجهه الثلاثونيّ مبهمٌ وجامد. رفع أمامي وعاءً مليئًا بفرش أسنان زرقاء وزهرية كيما أختار. كنت واعية كفاية لأختار فرشاةً زهرية.

"شكرًا،" قلت له.

"على الرحب،" قال السيد ويليام. "تسوّس؟"

"لا، لا تسوّس هذه المرة."

"جيد، ابتعدي عن الحلويات ولربما لن تعاني من تسوس أبدًا. هل من أسنان منخورة؟ هل أنت على ما يرام؟"

"أجل. أين الباب؟"

"تبدين شاحبة. بعض الناس يخافون من أطباء الأسنان." هل كانت ابتسامة متصنعة؟ هل كان على علم بما جرى في الداخل؟

"لست شاحبة،" أجبته في غباء – إذ كيف لي أن أعرف إن كنت شاحبة أم لا؟ عثرت على مقبض الباب وخرجت في خطىً مضطربة، وصلت المصعد، وضغطت زر النزول.

وهل سيتكرر ما حدث كل مرة أزور بها طبيب الأسنان؟ إذ ليس بيدي رفض الذهابِ إلى الدكتور غروف دون الإفصاح عن السبب، وإن أفصحت عن السبب فسأقع في ورطة لا محالة. الخالات في المدرسة علمننا أنّ علينا أن نبلغ شخصًا ذا سلطة – أي هُنّ – في حال لمسنا رجلٌ على نحو غير لائق، لكننا كنا أدرى بألا نكون غبيّات حدّ إثارة جلبة، لا سيما حول رجل محترم جدًا مثل دكتور غروف. كذلك، ما الذي سيصنعه برفقة إن قلت شيئًا كهذا عن أبيها؟ كانت ستتعرض

لإذلال شديد، ستتحطم. لكانت خيانةً فظيعة.

سبق أن أبلغت فتيات عن تصرفات كهذه. الأولى ادّعت أنّ الوصيّ مرر يديه على ساقيها. الأخرى قالت إنّ رجل كفاف، جامع قمامة، فكّ سحاب بنطاله أمامها. الأولى تلقت الضرب بالسوط على ساقيها عقابًا على كذبها، والأخرى قيل لها إنّ الفتاة اللطيفة لا تلاحظ تهريج الرجال، بل ببساطة تشيح بنظرها إلى الاتجاه الآخر.

لكن كيف كان لي أن أشيح بنظري، إن لم يكن هناك من اتجاه آخر؟

"لا أرغب في تناول العشاء،" قلت لصِلّة في المطبخ. ورمقتني بنظرة حادة.

"هل سار موعدك مع طبيب الأسنان على نحو جيد، عزيزتي؟ أية تسوّسات؟"

"كلا،" أجبتها، أحاول قدر جهدي تكلف ابتسامة واهنة. "فأسناني مثالية."

"هل أنت مريضة؟"

"ربما سأصاب بنزلة برد، أريد وحسب أن أرقد."

صِلّة أعدّت لي شرابًا ساخنًا مع الليمون والعسل وأحضرته على صينية إلى غرفتي.

"كان يجدر بي الذهاب معك،" قالت لي. "لكنه أفضل طبيب أسنان. بإجماع الجميع."

هي عرفت. أو شكّت. كانت تحذرني من مغبة قول أي شيء. فتلك كانت اللغة المشفرة التي يستخدمنها. أو بالأحرى: اللغة التي جميعنا نستخدمها. هل بولا عرفت هي الأخرى؟ هل تنبأت بأنّ شيئًا كهذا سيقع لي في عيادة الدكتور غروف؟ ألهذا أرسلت بي وحدي إلى هناك؟

لا بد، كذا آمنت في قرارة نفسي. قد فعلتها عن عمد حتى يُقْرص نهدي وذاك الشيء الدّنِس يندفع في وجهي. أرادت أن تصيّرني نجسة. تلك كانت الكلمة في الإنجيل: نجسة. ولربما هي الآن تضحك ضحكتها الخبيثة – على النكتة القذرة التي مارستها عليّ، كنت موقنة أنّ ما حدث لي لا يعدو كونه مزحة في عينيها.

من بعدها توقفت عن الصلاة طلبًا للمغفرة على كراهيتي لها. فأنا محقة في كراهيتي لها. ودومًا كنت سأسيء الظن بها، وهذا تمامًا ما فعلت.

شهورٌ مرّت؛ حياة السير على رؤوس أصابعي واستراق السمع استمرت. عملت جاهدة حتى أرى دون أن أُرى وأَسمع دون أن أُسمع. اكتشفت الشقوق في الأبواب شبه المغلقة، مواقع التنصت في الردهات والسلالم، والأماكن الرقيقة في الجدران. معظم ما تناهى إلى مسامعي كِسَر عبارات ولحظات صمت، لكني مع الوقت بت جيدة في تركيب تلك الكسر وملء الفراغات.

أوفكايل، جاريتنا، انتفخت وانتفخت – أو بالأحرى بطنها انتفخ– وكلما انتفخت أكثر، انتفخت معها بهجة أهل البيت. أعني بهجة نساء البيت. إذ كان من الصعب معرفة شعور الرئيس كايل. فوجهه دائمًا متخشب، وعلى أي حال فالرجال لا يفترض بهم إظهار عواطفهم لا بكاءً ولا ضحكًا؛ رغم أن شيئًا من الضحك كان يسمع من خلف باب غرفة الطعام متى ما استضاف مجموعته من الرؤساء على العشاء، مع وجود النبيذ والكريما المخفوقة - متى ما كانت في المتناول - على طبق الحلويات، والتي أتقنت صِلّة صنعها. لكني أظن أنه هو الآخر وإن باعتدال غمرته البهجة بانتفاخ أوفكايل.

كانت هناك أوقاتٌ تساءلت فيها عمّا كان سيشعر به أبي الحقيقي تجاهي. فعلى الأقل كانت لدي فكرة ولو واهية عن أمي – فهي حاولت الهروب بي، الخالات حوّلنها إلى جارية – لكن لا شيء البتة عن أبي. حتمًا كان لي أب، فالكل له أب. أتصورك تظنني كنت سأملأ الفراغ بصورة مثالية عنه، لكني لم أفعل: تركت الفراغ فراغًا.

أوفكايل صارت من المشاهير. فالزوجات رحن يبعثن بجواريهن إلينا تحت أي عذر – استعارة بيضة، إعادة وعاء – بيد أن الدافع الحقيقي كان السؤال عن حالها. كان سيسمح لهن بدخول البيت؛ وتستدعى أوفكايل للنزول حتى يضعن أيديهن على بطنها الدائري ويشعرن بركلة الجنين. كان مذهلًا تأمل تعابير وجوههن لدى أدائهن هذا الطقس: الانشداه، وكأنما يشهدن على معجزة. الأمل، إذ إن فعلتها أوفكايل، فهن سيفعلنها. الحسد، لأنهن لم يفعلنها بعد. التوق، لأنهن

حقًّا أردن فعله. اليأس، لأن الأمر قد لا يحدث لهن أبدًا. لم أكن على علم بعد بمصير الجارية التي، رغم اعتبارها قادرة، ستخرج عاقرًا من كل مراكز خدمتها، لكني خمنت أن مصيرها لا بد سيئ.

بولا أقامت عدة حفلات شاي للزوجات الأخريات. كن سيهنئنها ويبدين إعجابهن بها ويحسدنها، وكانت ستبتسم لهن بلباقة وتتقبل تهانيهن بكل تواضع، قائلة إن كل النعم هبة من الرب، ثم كانت ستأمر أوفكايل بالظهور في غرفة الجلوس كي يتسنى للزوجات رؤيتها بأنفسهن والتأوه عليها وإثارة الجلبة حولها. حتى أنهن قد يناديها "عزيزتي،" اللقب الذي أبدًا ما كن سينادين به جارية عادية، جارية مسطحة البطن. ثم كن سيسألن بولا عما تنوي تسمية طفلها.

طفلها. لا طفل أوفكايل. تساءلت عمّا تظنه أوفكايل بكل ما يجري حولها. لكن لا امرأة منهن أظهرت أي اهتمام بما يدور في عقلها، اهتمامهن كله انصب على ما يدور في بطنها. كن سيربتن عليه وأحيانًا يستمعن إليه. كنت أقف خلف باب غرفة الجلوس المفتوح وأسترق النظر عبر الشق كيما أراقب وجهها. رأيتها تحاول الحفاظ على ذاك الوجه جامدًا كما الرخام، عدا أنها أحيانًا لم تفلح. وجهها تدوّر أكثر مما كان عليه لدى قدومها – شبه منتفخ – وبدا لي أن انتفاخه هذا مرده إلى كل الدموع التي منعت نفسها عن ذرفها. هل ذرفتها سرًّا يا ترى؟ مع أني تواريت خلف باب غرفتها المغلق وألصقت أذني به مرات عديدة، إلا أني ما سمعتها تبكي قط.

في تلك اللحظات من التواري خلف الباب، غضبٌ عارمٌ كان سيتملكني. فقد كان لي أم، وانتزعت من تلك الأم ووهبت إلى طابيثة، مثلما سينتزع هذا الطفل من أوفكايل ويوهب إلى بولا. على هذا المنوال سارت الأمور، تلك كانت طبيعة الأمور، ولا مفر منها لأجل مستقبل جلعاد وصلاح أمتها: على القلة أن تضحي كرمى الأكثرية. الخالات أجمعن على هذه القاعدة؛ علّمن هذه القاعدة؛ ومع ذلك كنت مدركة أن هذه القاعدة لا صلاح فيها.

لكن قلبي لم يطاوعني على إدانة طابيثة، حتى مع تقبلها طفلًا مسروقًا.

فليست هي من صنعت هذا العالم على ما هو عليه، وقد كانت أمي، وأنا أحبتها وهي أحبتني. ولا أزال أحبها، ولربما هي لا تزال تحبني. ما أدراك؟ لربما روحها الفضية معي، تحوم فوقي، تراقبني. كم أراحني الإيمان في هذا.

كم احتجت إلى الإيمان في هذا.

وحلّ يوم الميلاد. يومها قدمت من المدرسة مبكرًا لأن الدورة الشهرية أخيرًا أتتني وعانيت من مغص مؤلم. صِلّة أعدت لي مطارة ماء حار ودهنتني بمرهم وأعدت لي شايًا مسكّنًا. كنت جاثمة في فراشي أشعر بالأسى على حالي لدى سماعي جرس إنذار الولّادة المتنقلة تدنو من بيتنا. سحبت نفسي عن الفراش وتوجهت إلى النافذة: أجل، العربة الحمراء دخلت بوابة بيتنا وها هن الجواري يثبن منها، درزنٌ منهن أو أكثر. لم أتمكن من رؤية وجوههن، لكن من النحو الذي تحركن به – أسرع من عادتهن – رأيت أنهن متحمسات.

ثم بدأت سيارات الزوجات بالوفود، هن أيضًا تعجلن الدخول إلى بيتنا في أرديتهن الزرقاء. سيارتا خالتين وصلتا أيضًا، وخالتان خرجتا منهما. لم أتعرف على أي منهما. كلتاهما كانتا متقدمتين في العمر، إحداهما تحمل حقيبة سوداء مطرزٌ فيها شارة الجناحين الأحمرين والأفعى الملتفة والقمر ما يعني أنها حقيبة الاستجابة الطبية الأولى، القسم الأنثوي. فعددٌ من الخالات تدربن على الإسعافات الأولية والقبالة، لكن حرم عليهن أن يكن طبيبات حقيقيات.

ما كان مفترضًا بي أن أشهد **الميلاد**. فالفتيات والشابات اليافعات المقبلات على الزواج – وهو ما تحولت إليه مع مجيء دورتي - لا يجوز لهن رؤية أو معرفة ما يجري، لأن مشاهد وأصوات كهذه ليست ملائمة لنا ومن شأنها أن تؤذينا – فقد تقرفنا أو تخيفنا. لذا كتب على تلك المعرفة الحمراء الغليظة أن تكون حكرًا على النساء المتزوجات والجاريات، وبالطبع الخالات، حتى يتسنى لهن تعليمها للخالات القوابل تحت التدريب. لكن مع ذلك كبحت آلام مغصي وارتديت ثوبي ونعلي، وانسليت على درجات السلم المؤدي للطابق الثالث وجلست في منتصفه، متواريةً عن الأنظار.

الزوجات كن في الأسفل مجتمعات في حفل شاي في غرفة الجلوس ينتظرن اللحظة المهمة. لم أعرف تمامًا أي لحظة هذه، لكن كان لي أن أسمعهن يضحكن ويثرثرن. جلسن يحتسين الشمبانيا مع احتسائهن الشاي، كما عرفت لاحقًا من القوارير والكؤوس الفارغة التي رأيتها في المطبخ.

أما الجواري والخالتان القابلتان فكنّ مع أوفكايل. لم تكن في غرفتها – فغرفتها ما كانت لتكفي الجميع – لكن في غرفة النوم الرئيسة في الطابق الثاني. سمعت أنينًا أشبه بأنين حيوان، وسمعت الجواري يترنمن – ادفعي، ادفعي، ادفعي، الهثي، الهثي، الهثي – وبين آن وآخر يصلني صوتٌ مكروب لا أتعرف عليه – صوت أوفكايل بلا شك – يقول إلهي، إلهي، صوتٌ عميقٌ ومظلم كأنما ينبعث من أعماق بئر. صوتٌ مروع. جالسة على درجات السلم حضنت نفسي، وجسدي راح يرتعش. ما الذي يحدث؟ أي عذاب هذا؟ وأي ابتلاء؟ ما الذي يفعلونه بها الآن؟

بدا وكأن تلك الأصوات استمرت أمدًا طويلًا. بعدها سمعت خطىً متعجلة على طول الرواق – خطى المرثيات، يحضرن أيّما يطلب منهن، ويحملن أشياء أخرى خارجًا. لاحقًا، لدى تطفلي مساءً على سلال الغسيل، كنت سأرى أن بعضًا من تلك الأشياء كانت ملاءات ومناشف ملطخة بالدماء. بعدها رأيت إحدى الخالتين تندفع خارجًا للرواق تنبح في فاحوصها الاتصالي. "الآن! بأسرع وقت ممكن! ضغطها انخفض جدًا! قد خسرت الكثير من الدماء!"

صرخةٌ دوّت، تلتها أخرى. إحدى الخالتين نادت من أعلى السلالم على الزوجات: "تعاليْن هنا الآن!" ما كان أبدًا من عادة الخالات الصياح على هذا النحو. حشدٌ من الخطى هرعت صاعدةً السلالم، من ثم صوتٌ قال، "أوه، بولا!"

لاحقًا سمعت صفارة إنذار أخرى، من نوع آخر. تفقدت الرواق – ما من أحد – عدوت إلى غرفتي كي أنظر خارج النافذة. سيارةٌ سوداء، الجناحان الأحمران والأفعى، لكن مع مثلث ذهبيٍّ طويل: طبيبٌ حقيقي. قفز خارج السيارة، صافقًا الباب، وهرع راكضًا على الدرجات.

سمعت ما كان يقوله: اللعنة، اللعنة، اللعنة، الرب اللعين!

في حد ذاته كان أمرًا صادمًا ومثيرًا: إذ ما سبق لي قط أن سمعت رجلًا يقول شيئًا كهذا.

كان صبيًّا، ابنًا موفور الصحة والعافية لبولا والرئيس كايل. سُمّيَ مرقس. لكن أوفكايل ماتت.

جلست برفقة المرثيات في المطبخ بعد مغادرة الزوجات والجاريات والجميع. المرثيات جلسن يأكلن بقايا الطعام من حفل الشاي: شطائر مقصوصة الأطراف، كعك، قهوة حقيقية. عرضن عليّ مشاركتهن الغنيمة، لكني أخبرتهن أني لست جائعة. سألن عن آلام المغص؛ سيتحسن شعوري في الغد، قلن لي، وبعد فترة لن يعود الأمر سيئًا لهذا الحد، وعلى أي حال سأعتاد عليه. لكن لم يكن هذا هو السبب وراء فقدان شهيتي.

لا بد من توفير مرضعة، قلن لبعضهن: لا بد سيخترن جارية من اللواتي فقدن أطفالهن. إما مرضعة، وإلا الحليب الصناعي، رغم أن الجميع يعرف أن الحليب الصناعي ليس بذات الجودة. مع ذلك، سيبقي تلك البضعة الصغيرة حيًّا.

"الفتاة المسكينة،" قالت صِلّة. "أن تخوض كل هذا العناء لأجل لا شيء."

"على الأقل أنقذوا الطفل،" قالت فيرا.

"إما هي أو هو،" قالت روزا. "لذا شقوها."

"سأخلد إلى النوم،" قلت لهن.

أوفكايل كانت لا تزال في البيت. كانت في غرفتها، مكفنة بملاءة، كما اكتشفت لاحقًا لدى صعودي خلسة درجات السلم الخلفي.

رَفعت الغطاء عن وجهها. كان شاحبًا شديد البياض: نزفت حتى آخر قطرة دم فيها. حاجباها كانا أشقرين، ناعمين ورفيعين، مقوسين للأعلى في نظرة متفاجئة. عيناها كانتا مفتوحتين، تنظران إليّ. أظنها المرة الأولى التي رأتني فيها. انحنيت وقبلت جبينها.

"لـن أنسـاك أبـدًا،" قلـت لهـا. "الأخـريـات سينسـينـك، لكـن أعـدك أني لن أنساك."

تصرفٌ ميلودرامي، أدري: كنت ما أزال طفلة. لكن كما ترى، فقد أبقيت على وعدي: ما نسيتها أبدًا. هي، أوفكايل، من لا اسم لها، دفنت أسفل مربع حجري صغير ولما صنع فرقًا لو تركوه خاويًا من اسم. عثرت عليها في مقبرة الجواري، لاحقًا بعد أعوام.

وما إن ملكت القدرة على ذلك، بحثت في أرشيف الأصول والأنساب، وعثرت عليها. عثرت على اسمها الحقيقي. جهدٌ عبثيّ، أدري، لكن ليس بالنسبة لمن أحبوها وانتزعوا منها. أما بالنسبة لي فكان أشبه بالعثور على بصمة يد في كهف: كانت إشارة، رسالة. كنت هنا. كنت موجودة. كنت إنسانًا حقيقيًا.

وما كان اسمها؟ بالطبع ستريد أن تعرف.

كان اسمها كريستال. وباسمها هذا أتذكرها. كريستال.

أقاموا جنازة صغيرة لأجل كريستال. كان مسموحًا لي المجيء: فمذ أتتني الدورة الشهرية الأولى، نُصّبت رسميًا امرأة. الجواري اللواتي حضرن الميلاد سمح لهن أيضًا بحضور الدفن. أهل بيتنا حضروا الجنازة، كلنا، حتى الرئيس كايل حضر، من باب تقديم الاحترام.

أنشدنا ترتيلتين - "إلهي ارفع إليك العبد الصغير" و "مباركةٌ هي الثمرة" - والخالة ليديا الأسطورية هي بنفسها من ألقت التأبين. وقفت أنظر إليها بانشداه، وكأنما صورتها المؤطرة بعثت للحياة: إذن هي حقًا موجودة. وإن بدت أكبر عمرًا من صورتها، وليست مخيفة إلى هذا الحد.

قالت إن أختنا في الخدمة، الجارية أوفكايل، قد قدمت التضحية العظمى، وماتت ميتة المرأة المشرفة، وكفّرت بموتها عن حياة الخطيئة التي عاشتها، وهي الآن مثالٌ ساطع تحتذي به كل الجواري.

صوت الخالة ليديا ارتعش قليلًا لدى قولها هذا. بولا والرئيس كايل بدوا

وقورين ورعين، يومئان من وقت لآخر. بعض الجواري بكين.

أنا لم أبك. كوني بكيت وانتهى الأمر. هم شقوا كريستال حية حتى يخرجوا الطفل منها، وبفعلتهم هذه قتلوها عمدًا. وما كان الخيار أصلًا بخيارها. هي لم تتطوع كي تموت ميتة المرأة المشرفة وتغدو مثالًا ساطعًا يُحتذى به. لكن لا أحد يومها ذكر في تأبينها هذه الحقيقة.

في المدرسة انحدرت منزلتي إلى الحضيض. صرت ملعونة: فجاريتنا ماتت، وموتها في عرف الفتيات يؤول إشارةً على المصير المشؤوم. كن جماعةً متطيرة. ففي مدرسة فيدالا كان هناك دينان: الدين الرسمي الذي تعلمنا اياه الخالات، عن الرب وعالم المرأة، والدين غير الرسمي، الذي تتناقله الفتيات، من فتاة إلى فتاة، عبر الأناشيد والألعاب.

الفتيات الصغيرات كان لهن أكثر من أنشودة أعداد، منها: غرزة أمامية، غرزتان مقلوبتان، هاكِ زوجًا يا فتاة؛ غرزتان مقلوبتان، غرزة أمامية، قتلوا زوجك، هاكِ زوجًا يا فتاة. ففي عين الفتيات الصغيرات، الزوج ليس بإنسان حقيقي. بل قطعة أثاث وحسب، لذا فهو قابلٌ للاستبدال، تمامًا مثلما كان الحال في بيت دماي.

وأكثر تلك الأناشيد شعبية بين الفتيات الصغيرات أنشودة لعبة تدعى "الشنق".

من المشنوقة على الحائط؟ في فاي فيدلي أوه!
إنها جارية، وما اسمها؟ في فاي فيدلي أوه!
كانت (وهنا سنذكر اسم واحدة منا)، والآن ما عادت. في فاي فيدلي أوه!
خبزت طفلًا في فرنها (وهنا كنا سنصفع بطوننا الصغيرة المسطحة). في فاي فيدلي أوه!

الفتيات كن سيقفن في رتل ويسرن أسفل الأيدي المرفوعة لفتاتين أخريين فيما الجميع ينشدن: واحد للجريمة، اثنان للقبلة، ثلاثة لطفل، أربعة لمفقودة، خمسة للحيّة، وستة للميتة، وسبعة اصطدناك، حمراء حمراء حمراء!

الفتاتان كانتا ستقبضان على الفتاة السابعة، ويستعرضانها في دائرة قبل

أن يصفعاها على رأسها. والآن، بما أنها "الميتة"، سيسمح لها باختيار الجلادتين القادمتين. أدري أن اللعبة تبدو لك شريرة وعبثية، لكنها طبيعة الأطفال اختلاق لعبة من أي شيء.

لربما ارتأت الخالات أن اللعبة هذه فيها ما يفي من رسائل التهديد والوعيد النافعة. لكن، مع ذلك، لماذا "واحد للجريمة"؟ لماذا الجريمة تسبق القبلة؟ لماذا لا تأت بعدها، لكان ترتيبًا طبيعيًا للأحداث. لطالما فكرت مليًّا بالأمر، لكني أبدًا لم أعثر على إجابة.

كان مسموحًا لنا اللهو بألعاب أخرى ضمن ساعات المدرسة. لعبنا لعبة الأفاعي والسلالم – إن حط نردك على **صلاة** فسترفعك درجات على سلم **شجرة الحياة**، أما إن حط نردك على **خطيئة** فستهوي بك الأفعى الشيطانية. كذلك منحونا دفاتر تلوين، ولوّنا لافتات المتاجر – ذوات الأجساد، رغيفٌ وسمك – كوسيلة لتعلم أسمائها. لوّنا ملابس الناس – الأزرق للزوجات، المخطط لزوجات الكفاف، الأحمر للجاريات. مرةً وقعت رفقة في ورطة مع الخالة فيدالا لتلوينها الجارية باللون الأرجواني.

أما بين الفتيات الأكبر عمرًا فالخرافات تهمس بدل أن تنشد، وما كانت لهوًا. بل أخذنها على محمل الجدية. أنشودةٌ منها تقول:

إن ماتت جاريتك في فراشك
فدمها على رأسك
وإن طفل جاريتك مات
فحياتك دموعٌ وآهات
إن ماتت جاريتك في الميلاد
فاللعنة ستلاحقك حول كل البلاد

أوفكايل ماتت في الميلاد، وهكذا أصبحتُ ملعونة في عين الفتيات الأخريات؛

لكن أيضًا، بما أن الطفل الصغير مرقس طفلٌ حي وبكامل صحته وأخي، فقد أصبحت أيضًا وعلى نحو غريب مباركة. وهكذا فالفتيات الأخريات لم يضايقنني علنًا، لكنهن تفادينني.

حلدة كانت ستخزر عينيها في السقف متى ما لمحتني قادمة؛ رفقة كانت ستدير ظهرها لي، رغم أنها كانت ستدس في يدي لقيمات من غدائها بعيدًا عن أعين الأخريات. شونميّة انفصلت عني تمامًا، إما خوفًا من نذير الموت أو حسدًا على بركة الميلاد، أو مزيجًا من الاثنين.

في البيت كل الاهتمام انصب على الطفل، والذي ما انفك يطالب به. كان له صوتٌ عال. ورغم أنّ بولا استمتعت بالمنزلة الرفيعة التي أسبغها عليها وجود طفل – وطفل ذكر – ففي القلب من قلبها هي ليست بأم. كانت ستأمر بإظهار مرقس الصغير وعرضه على صديقاتها، لكن حتى الوقت القصير من وجوده مرّ عليها أمدًا طويلًا وسرعان ما كانت ستسلمه إلى المرضعة، جارية ريانة وكئيبة من كانت حتى وقت قريب أوفتكر، لكن بالطبع باتت الآن، أوفكايل.

خارج أوقات نومه وإرضاعه واستعراضه، قضى مرقس جل وقته في المطبخ، حيث كان الأثير العظيم لدى المرثيات. فقد أحببن تحميمه والانشداه على مرأى أصابعه الصغيرة، أصابع قدمه الصغيرة، غمازاته الصغيرة، وعضوه الذكري الصغير، الذي منه تنبثق نافورة مذهلة من البول. يا له من رجل صغير قوي!

كان متوقعًا مني أن أشارك في طقوس التبجيل والعبادة، وحين لم أظهر الحماس الكافي قيل لي أن أكف عن التجهم، لأن عن قريب جدا سيكون لي طفل، ووقتئذ سأصبح سعيدة. ساورني شكٌّ عظيم في هذا – لا جزئية الطفل بل السعادة. وهكذا، قدر المستطاع، صرت أقضي جل وقتي في غرفتي، أتحاشى أجواء الابتهاج في المطبخ، أتفكر مكتئبة في افتقار الكون للعدالة.

الاستاد

سِفْرُ أَرْدوا هول

20

الزعفران ذاب، النرجس البري استوى ورقًا ذابلًا، زهور التوليب رقصت رقصتها المغرية، قلبت باطن تنانير بتلاتها ظاهرًا وطرحتها على الأرض. الأعشاب على حدود أردوا هول التي ترعاها يد الخالة كلوفر وجماعتها المتحمسة من أشباه النباتيات ومحترفات البستنة ها هي تعيش ريعانها. لكن، خالة ليديا، عليك أن تشربي شاي النعنع هذا، سيصنع العجائب بجهازك الهضمي! أبعدي أنفك عن جهازي الهضمي، لكنت زعقت في وجوههن؛ لكني أعود وأذكر نفسي، هن لا يقصدن سوى الخير. أتراه عذرٌ مقنع متى ما تلطخت السجادة بالدم؟

فأنا الأخرى ما قصدت سوى الخير، أتمتمها أحيانًا لنفسي. نويت الخير، أو بالأحرى الخير الممكن، وشتان ما بين الاثنين. ومع ذلك، لي أن أتصور إلى أي حد كان سيسوء الوضع لولاي.

هراء، أجيب نفسي في أيام، وفي أيام أخرى أربت على ظهري. من ذا الذي قال إن الثبات على المبدأ فضيلة؟

ومن التالية التي سيقع عليها الدور في فالس الزهور؟ الليلك. الجديرة بالثقة. المزركشة، العطرية. عن قريب عدوتي اللدود، الخالة فيدالا، ستعطس. عيناها ستنتفخان وستعجز عن التحديق بي من طرف عينيها، على أمل اكتشاف زلة لسان، نقطة ضعف، أو ردّة لاهوتية تعينها على الإطاحة بي.

أبقي على أملك، أهمس لها. فأنا أفاخر نفسي بحقيقة أني أسبقك بقفزة. لكن لماذا قفزة؟ بل قفزات. حاولي إسقاطي وسأهدم الهيكل على رأسك ورؤوس الجميع.

***

منذ قيامها وجلعاد تعاني من معضلة عويصة، قارئي العزيز: كونها ملكوت الله على الأرض فنسبة الهجرة منها عالية إلى حدٍّ محرج. خذ مثلًا، نزف الجواري هذا الذي لا يرقأ: فكثيراتٌ منهن قد هربن. وكما أوضح تحليل الرئيس جود لعمليات الفرار، فما إن يُكتشَف مسربٌ من مسارب الهروب ويقفل، إلا ومسربٌ آخر يظهر.

المنافذ في مناطقنا الحدودية عديدة. المساحات البرية في ماين وفيرمونت متداخلة وبذا لا نملك السيطرة الكاملة عليها، أما السكان الأصليون، إن توانوا عن إبداء عدائيتهم الصريحة، فهم ميالون إلى الهرطقة. كذلك فإنهم، وأعرف ذلك من خبرتي الشخصية، مترابطون في شبكة متحابكة من الزيجات تماثل بتماسكها الغرز في نسيج صوفي سريالي، ولن يتوانوا عن الأخذ بالثأر إن تعرضت لغرزة. لهذا السبب فمن الصعب علينا إغواؤهم إلى خيانة بعضهم بعضا. كذلك ومذ فترة طويلة نشتبه بوجود أدلاء بينهم، إما بدافع الرغبة في التذاكي على جلعاد أو بكل بساطة بدافع حب المال، فقد عرف عن اليوم المايوي الدفع مقابل الخدمة. أحد سكان فيرمونت والذي وقع في قبضتنا أخبرنا بأن قولًا بات دارجًا لديهم: "اليوم المايوي هو يوم الحساب."

التلال والمستنقعات، الأنهر المتعرجة، الشواطئ الصخرية الطويلة تفضي بأمواجها العالية إلى البحر – كلها تعين على ابتداع دروب سرية. فتاريخ هذا الإقليم زاخرٌ بها، هناك مهربو الرّم، مهربو السجائر، مهربو المخدرات، والباعة الجوالون أصحاب البضائع المحظورة والمحرمة بكل أنواعها. أولاء الناس لا تعني لهم الحدود شيئًا: ينسلون داخلًا وخارجًا، يبهّمون مستهزئين في وجوهنا، والمال تتبادله الأيدي.

أحد أعمامي كان نشطًا في التهريب. ولا غرابة في ذلك – فعائلتنا من حثالة قاطني ساحة المقطورات، نهزأ من الشرطة، نعاشر الوجه الآخر من نظام العدالة الجنائي – وأبي كان فخورًا بهذا. بيد أنه ما كان فخورًا بي: فأنا فتاة، بل أسوأ، فتاة متذاكية. لا سبيل لتقويمي إلا بطرد شيطان الخيلاء مني صفعًا ولكمًا، بقبضة

يد أو جزمة أو أيّما يجده في المتناول. أحدهم حزّ عنقه قبل انتصار جلعاد، صنيعة يده. لولا ذلك لتدبرت بنفسي حزها له. لكن كفانا استغراقًا في ذكريات الأقارب المنحطين.

في وقت ليس ببعيد، الخالة إليزابيث، الخالة هيلينا، والخالة فيدالا جئنني بخطة جديدة مفصلة بهدف فرض سيطرة أشد إحكامًا. **عملية الطريق المسدود**، كذا أطلقن عليها. **خطة القضاء على مشكلة هجرة الإناث في الأقاليم الشمالية الشرقية الساحلية**. وفي بنودها العريضة تعرض الخطة الخطوات اللازمة لاصطياد الجواري في طريقهن نحو كندا، تدعو إلى إعلان حالة الطوارئ، ومضاعفة عدد كلاب تقفي الآثار وإقرار نظام تحقيق أكثر فعالية. يد الخالة فيدالا واضحة في البند الأخير: ففي سرها هي تأسى على غياب اقتلاع الأظافر وانتزاع الأحشاء عن قائمة نهج العقاب والتأديب لدينا.

"بوركتن،" قلت لهن. "الخطة شاملة وغطيتن فيها أدق التفاصيل. سأقرؤها بعناية بالغة، وأؤكد لكنّ أن الرئيس جود يشاركنا القلق ذاته، وقد اتخذ خطوات لمعالجة الوضع، لكن في الوقت الحالي، لا يسعني مشاركتكن التفاصيل."

"له الحمد،" عقبت الخالة إليزابيث، وإن ليس في نبرة متحمسة.

"تجارة التهريب هذه لا بد أن تسحق مرةً وللأبد،" أعلنت الخالة هيلينا، ترمق الخالة فيدالا طلبًا للدعم. ضربت الأرض بقدمها توكيدًا على ما قالته، حركةٌ مؤلمة جدًا مع قدمها المسطحة: ففي شبابها أتلفت عظام قدميها بارتدائها المتواصل لأحذية بلانك ذات الكعب العالي. الحذاء وحده لكان دليلًا كافيًا اليوم على ردّتها والتبرؤ منها.

"معك حق،" أجبتها في نبرة دمثة. "هي فعلًا تجارة."

"لا حل سوى أن نبيد الإقليم عن بكرة أبيه!" قالت الخالة إليزابيث. "فالسكان الأصليون وجماعة اليوم المايوي في كندا مثل يد في قفاز."

"هذا رأي الرئيس جود."

"تلكن النسوة عليهن القيام بواجبهن في تحقيق المشيئة الإلهية، مثلهن مثل بقيتنا،" قالت الخالة فيدالا. "فالحياة ليست نزهة."

رغم أنهن ابتدعن خطتهن هذه دون أي تفويض مني – فعل عصيان بالتأكيد – لكني شعرت ملزمة برفع هذه الخطة إلى الرئيس جود؛ لا سيما أنّي إن لم أفعل، فبطريقة أو بأخرى كان سيعرف حتمًا بها ولكان قرأ امتناعي عن رفعها تمردًا.

هذه الظهيرة، ثلاثتهن قدمن إليّ في زيارة جديدة. كن في معنويات عالية: فحصيلة الغارات التي شنت في الإقليم الشمالي من نيويورك نتج عنها خليطٌ من سبعة صاحبيّين، أربعة مندسين، دليليْ صيد أيائل كنديّين، ومهرب ليمون، كل واحدٌ منهم مشبوهٌ به في سلسلة درب النساء السري. وحالما تنتزع منهم أي معلومات إضافية يمتلكونها، سيتم التخلص منهم فورًا، إلا إذا وجد أنّ لهم قيمة تبادلية: فتبادل الرهائن بين اليوم المايوي وجلعاد ما كان بالأمر الخفي.

بالطبع كنت مطلعة على تلك المستجدات. "تهانينا،" قلت لهن. "كل واحدة منكن تستحق جانبًا من الفضل، ولو من تحت الطاولة. إذ، بطبيعة الحال، الرئيس جود من سيحتل المنصة."

"بطبيعة الحال،" قالت الخالة فيدالا.

"نحن سعيداتٌ بتقديم الخدمة،" قالت الخالة هيلينا.

"بدوري لدي أخبارٌ أشاركّن اياها، من الرئيس جود نفسه. لكن احرصن ألا يخرج الخبر عن دائرتنا." انحنين صوبي: فكلنا نعشق الأسرار. "بفضل هذه العملية، تم تصفية اثنين من كبار عملاء اليوم المايوي في كندا."

"تحت عينه،" قالت الخالة فيدالا.

"لآلئنا الكريمة لعبن دورًا محوريًّا،" أردفتُ قائلة.

"له الحمد!" قالت الخالة هيلينا.

"إحداهن وقعت ضحية، الخالة أدريانا."

"ما الذي جرى لها؟" سألت الخالة إليزابيث.

"نحن في انتظار تقرير القنصلية."

"سنصلي لأجل روحها،" قالت الخالة إليزابيث. "وماذا عن الخالة سالي؟"

"أظنها آمنة."

"له الحمد."

"صدقًا، له الحمد،" قلت لهن. "مع ذلك، هناك أخبارٌ سيئة، فقد كشفنا الغطاء عن اختراق في دفاعاتنا. عميلا اليوم المايوي لا بد تلقيا العون من خونة في جلعاد نفسها. أحدهم كان يمرر الرسائل إليهما، من هنا إلى هناك – يزودهما ببيانات عملياتنا الأمنية، حتى أنه أبلغهما بهوية عملائنا ومتطوعينا في كندا."

"ومن سيفعل هذا؟" سألت الخالة فيدالا. "فهذه ردّة!"

"العيون تعمل على الكشف عن هويته، لذا إن لاحظتن أي شيء يثير الشك – أي شيء، من أي شخص، حتى من شخص هنا في أردوا هول – أعلمنني بالأمر."

برهة صمت خيمت عليهن، الواحدة منهن تنظر نحو الأخرى. فـ أي شخص في أردوا هول يشمل ثلاثتهن.

"أوه، بالتأكيد لا،" قالت الخالة هيلينا. "فكري بالخزي الذي سيجلبه علينا!"

"أردوا هول نقية نقاء الثلج من الدنس،" قالت الخالة إليزابيث.

"لكن قلب الإنسان مجبولٌ على الخطيئة،" قالت الخالة فيدالا.

"علينا أن نلتزم اليقظة طوال الوقت،" قلت لهن. "على كلٍّ، بوركتن. أعلمنني بما ستفعلن لاحقًا بالصاحبيّين ومن اتبَعهم."

أُدوِّن، أُدوِّن؛ وأخشى ما أخشاه أن تدويني هذا ليس سوى عبث. حبر الرسم الأسود قد شارف على النفاد: قريبًا سأبدل إلى اللون الأزرق. مصادرة قنينة من مؤونة مدرسة فيدالا لن يكون بالأمر الصعب: فهن يعلمن الرسم هناك. نحن الخالات اعتدنا الحصول على أقلام الحبر الجافة من السوق الرمادية، لكن ليس بعد الآن: فمزودنا في نيوبرنسويك ألقي القبض عليه، كونه استنفد حظه في الإفلات من عين الرادار.

كنت أخبرك عن عربة النقل ذات النوافذ المعتمة – لا، بالنظر للصفحة السابقة، أرى أننا وصلنا الاستاد.

ما إن بلغنا الموقع، نخسونا أنا وأنيتا يمينًا، وضمونا إلى قطيع من النساء: أقول قطيع لأنهم ساقونا كما يسوقون القطيع. مجموعتنا دُفع بها نحو قسم من المدرج المكشوف مطوّق بشريط مواقع الجريمة الأصفر. كنا حوالي أربعين امرأة. ما إن أودعونا حتى أزالوا عنّا الأصفاد. أظنهم احتاجوها للقطيع الجديد.

أنيتا وأنا جلسنا جنبًا إلى جنب. على يساري امرأةٌ لم أعرفها قالت إنها محامية؛ وعلى يمين أنيتا محامية أخرى. من خلفنا أربع قاضيات؛ من أمامنا، أربع قاضيات أخريات. كلنا كنّا إما محاميات أو قاضيات.

"لا بد أنهم يصنفوننا وفق المهنة،" قالت أنيتا.

وكانت محقة. ففي غفلة من الحراس، امرأة على طرف الصف تمكنت من التواصل عبر الممر مع امرأة من القسم المجاور لنا. هناك، كلهنّ كنّ طبيبات.

لم نكن قد تناولنا أي غداء، ولم نمنح أي وجبة. وعلى مرِّ الساعات القادمة، ما انفكت عربات النقل تصل وتفرغ شحنات حمولتها من الإناث الراكبات فيها كُرْهًا.

ولا واحدة منهن لك أن تصفها باليافعة. نساء مهنيّات في منتصف العمر، في بدل رسمية وتصفيفة شعر مرتبة. لكن لا حقائب يد: لم يسمحوا لنا بإحضارها. لا مشط، لا أحمر شفاه، لا مرآة، لا تلك العلب الصغيرة من حلوى المص، ولا محارم ورقية. لأمرٌ مذهل شعور العري الذي ينتابك دونها. أو، بالأحرى، الشعور الذي انتابنا فيما مضى.

الشمس كانت حارقة: لا قبعات لدينا ولا كريمات واقية للشمس، تصورت كيف سيغدو وجهي مقرّحًا أحمر مع مغيب الشمس. على الأقل المقاعد كانت لها ظهور. لاعتبرناها مقاعد مريحة لو كنا جالسات عليها بغرض التسلية. لكن لا ترفيه عرض علينا، وما كان مسموحًا لنا بالنهوض والتمدد: أي محاولة وكانت الصيحات ستنهال علينا. وبالتأكيد الجلوس دونما حركة يثير السأم ويجهد

عضلات الردفين، الظهر، والفخذين. ألمٌ جانبيّ، أدري، لكن يبقى ألمًا.

حتى أضيع الوقت رحت أوبخ نفسي: **غبية، غبية، غبية**: صدقتُ كل هذا الهراء عن الحياة، عن الحرية، عن الديموقراطية، وحقوق الفرد التي تشربتها طوال دراستي في كلية الحقوق. تلك كانت الحقيقة الأبدية التي كنا سنذود عنها دومًا. وضعت إيماني فيها، ثقتي فيها، اعتمدت عليها، ولم أدرِ أني أعتمد على تعويذة سحرية.

لطالما فاخرت نفسك بكونك واقعية، قلت في نفسي، لذا واجهي الوقائع. قد وقع انقلاب، هنا، في الولايات المتحدة الأميركية، مثلما وقع في بلدان أخرى وأزمنة ماضية. أي تغيير في القيادة يأتي بالقوة سيستتبع لا محالة خطوة سحق المعارضة. والمعارضة تقودها الطبقة المثقفة المتعلمة، لهذا هي من يتم تصفيتها أولًا. أنت قاضية، يعني متعلمة، راق الأمر لك أم لا، لن يرغبوا أبدًا بوجودك.

قضيت مراحل حياتي الأولى أفعل أشياء قيل لي أن من المستحيل عليّ تحقيقها. لا أحد في عائلتي التحق بالجامعة، وقد احتقرتني عائلتي لالتحاقي، فعلتها بالمنح الدراسية والعمل ليلًا في وظائف وضيعة. من شأن حياة كهذه أن تشد عودك. تصيرك عنيدًا. وما كنت لأقبل أبدًا بتصفيتي، ليس إن كان بيدي الحؤول دون ذلك. لكن ولا سمة مكتسبة في مظهري الجامعي الصقيل كانت ستنفعني. إن أردت النجاة فعليّ الارتداد إلى نفسي القديمة، الطفلة المعدمة العنيدة، الكادحة قوية الشكيمة، من تتفوق بذكائها على الآخرين، واضعة الخطط الاستراتيجية التي صعدت بي السلالم من بين الأفاعي وأوصلتني المنزلة الرفيعة التي اللحظة أطاحوا بي منها وهويت. كان عليّ استغلال الوضع لصالحي، متى ما عرفت أصلًا ما هو الوضع.

سبق أن حشرت في الزاوية، مرات عديدة. وفي كل مرة الغلبة كانت لي. تلك كانت القصة التي رويتها لأقنع نفسي.

مع دنو بعد الظهيرة ظهرت قناني الماء، فرقٌ رجاليّة ثلاثية وزعتها علينا: الأول

يحمل القناني، الثاني يمررها، والثالث يسدد سلاحه نحونا في حال وثبنا، تخبطنا، وانقضينا عليه، مثل التماسيح التي يروننا عليها.

"لا يحق لكم حبسنا هنا!" امرأة صاحت. "فلم نرتكب أي خطأ!"

"لا يجوز لنا تبادل الحديث معكن،" قال من يمرر القناني.

لم يسمحوا لأي منا بالذهاب إلى الحمام. قطرات البول بدأت تظهر، وراحت تسيل عبر المدرج المكشوف وتقطر على أرض الملعب. كان يفترض بهذه المعاملة أن تهيننا وتذلنا، تحطم روح المقاومة فينا؛ لكن أية مقاومة، تساءلت، وضد ماذا؟ فما كنا بجواسيس، ولا معلومات سرية لدينا نحتفظ بها، وما كنا بجنود جيش معاد، أو هل كنا؟ إن نظرتُ مليًا في عين أحد أولاء الرجال، فهل سيبادلني إنسانٌ النظر؟ وإن لا، فما العمل؟

حاولت أن أضع نفسي في موقع الذين زربونا في المدرج. ما الذي يجول في فكرهم؟ ما الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه؟ وكيف أملوا تحقيقه؟

أخيرًا، مع حلول الرابعة مساءً، عرضوا علينا المشهد الترفيهي. عشرون امرأة، من مختلف الأحجام والأعمار، غير أنّ جميعهن في ملابسهن الرسمية، قادوا بهن إلى منتصف أرض الملعب. أقول قادوا بهن لأنهن كن مصفدات معصوبات الأعين. أياديهن مقيدة أمامهن. رتبوهن في صفين، عشرة وعشرة. نساء الصف الأمامي أجبرن على الركوع، بدا كأنما يتجهزن لصورة جماعية.

رجلٌ في زيٍّ رسميٍّ أسود خطب في الميكروفون عن الآثمين، كيف أن **العين الإلهية** دومًا تراهم وخطاياهم ستشهد عليهم لا محالة. همهمةٌ من التصديق سرت متذبذبة من أفواه الحراس والمرافقين. مممم ... مثل محرك في حال إحماء.

"والنصر يومئذ لله،" ختم الخطيب كلمته.

جهيرٌ رجاليٌّ من **آمين**. الرجال مرافقو النساء المصفدات معصوبات الأعين رفعوا أسلحتهم وأطلقوا الرصاص عليهن. تصويبهم كان ممتازًا: النساء جثين على الأرض.

أنينٌ جماعي انبعث منا نحن الجالسات على مقاعد المدرج المكشوف. سمعت صراخًا ونحيب. بعضهن وثبن صارخات – لم أستطع تبين الكلمات – لكن سرعان ما كتم الحراس أصواتهن بضربة من أعقاب بنادقهم على مؤخر رؤوسهن. ضربة ولا أكثر: فالضربة الواحدة كانت كافية. مرة أخرى، التصويب كان ممتازًا. أولاء الرجال كانوا مدربين.

مهمتنا اقتصرت على المشاهدة لا الكلام: تلك الرسالة باتت واضحة. لكن لماذا؟ إن كانوا ينوون قتلنا جميعًا، فعلام كل هذا الاستعراض؟

مع المغيب ظهرت الشطائر، شطيرة لكل امرأة. شطيرتي كانت سلطة بيض. وكم أنا خجلة للاعتراف لك بأني ازدردتُها بتلذذ. تناهى إليّ من بعيد أصوات تقيؤ، لكن مع وضع الظروف في الاعتبار، فحالات التقيؤ كانت، وبشكل مفاجئ، محدودة.

بعد ذلك أمرونا بالوقوف. ثم صفونا في أرتال، صفًّا صفًّا – العملية جرت في صمت مخيف، وعلى نحو جدِّ منظم – اقتادونا إلى الأسفل حيث حجر تغيير الملابس والأروقة المؤدية لها. وهناك قضينا ليلتنا.

ما كان هناك من وسائل راحة، لا فرش نوم ولا وسائد، لكن على الأقل كانت هناك حمامات، قذرة أصلًا وازدادت قذارة. لا حراس تواجدوا معنا حتى يمنعونا عن الكلام، وإن يتوه عني الآن لماذا افترضنا أنّ لا أحد كان يسترق السمع إلينا. لكن وقتذاك، من منا كان لها ذهنٌ صاف تفكر فيه؟

تركوا الإنارة مضاءة، رحمةً بنا.

لا، لم تكن رحمة. بل تسهيلًا لأولئك القابضين على مقاليد الأمور.

فالرحمة في ذاك المكان استحالت صفةً إلهية معطلة.

كارنارفون

محضر أقوال الشاهدة "369B"

21

كنت جالسة في سيارة آدا، أحاول استيعاب ما أخبرتني به. ميلاني ونيل. قتلا في تفجير سيارة. خارج الملابس الطريدة. مستحيل.

"أين نحن ذاهبون؟" سألتها. كان سؤالًا أخرقًا، إذ بدا طبيعيًّا جدًّا؛ لكن لا شيء كان طبيعي. ولماذا يا ترى لم أصرخ زاعقة؟

"لا أزال أفكر،" أجابتني آدا. نظرتُ إلى المرآة الجانبية، ثم ركنت السيارة في مدخل بيت. كانت هناك لافتة منصوبة أمام البيت مكتوبٌ عليها بالفرنسية تحت الترميم. تقريبًا كل بيت في حينا هو دومًا تحت الترميم؛ يشتريها أحدهم ويعيد ترميمها من جديد، ما أثار جنون نيل وميلاني. علام إنفاق كل هذا المال على تمزيق أحشاء بيوت جيدة وصالحة للسكنى؟ كذا كان سيقول نيل. فتلك الترميمات لم تفض إلا إلى رفع الأسعار بشكل جنوني وطرد الفقراء من سوق شراء البيوت.

"هل سندخل هنا؟" إذ فجأة انتابني إعياءٌ شديد. ولكان من الجيد لو تسنى لي دخول البيت والاستلقاء.

"لا،" قالت آدا. تناولت مفتاح ربط صغير من حقيبتها الجلدية السوداء وحطمت هاتفها. تأملته يتصدع ويتشظى: الغطاء تحطم، الأحشاء المعدنية انفتلت وهوت متفرقة.

"ما بالك تحطمين هاتفك؟"

"الوقاية خيرٌ من العلاج،" وجمعت البقايا في كيس بلاستيكي صغير. "انتظري إلى أن تتجاوزنا تلك السيارة، ثم اخرجي وارمي بها في حاوية القمامة."

هذا ديدن تجار المخدرات - يستعملون هواتف مؤقتة. بدأ الندم يساورني على

قدومي معها. فهي لم تكن وحسب متجهمة، بل مخيفة. "شكرًا على التوصيلة، لكن يجدر بي العودة الآن إلى مدرستي. هناك سأخبرهم عن التفجير، وسيعرفون ما العمل في ظروف كهذه."

"من الطبيعي قولك هذا، فأنت مصدومة."

"أنا بخير،" أخبرتها، رغم أنها لم تكن الحقيقة. "لا بأس. اتركيني هنا وسأتدبر الذهاب هناك."

"افعلي ما يحلو لك،" قالت لي. "لكن المدرسة ستجبر على إبلاغ الخدمة الاجتماعية بشأنك، وأولاء الناس سيودعونك في بيت رعاية، ومن يدري ما الذي سيحصل لك هناك؟" تلك الفكرة لم تخطر لي. "لذا، ما إن تتخلصي من هاتفي،" أردفت قائلة، "اركبي السيارة معي أو واصلي السير. الخيار خيارك. فقط لا تعودي إلى بيتك. ليس بأمر، بل نصيحة."

فعلتُ كما قالت. إذ وقد عرضت عليّ البدائل، أي خيار هذا الذي تبقى لي؟ ما إن عدت إلى السيارة رحت أتنشق، عدا عن مناولتي محارم ورقية، لم يصدر عن آدا أي ردة فعل. استدارت عند الالتفاف واتجهت جنوبًا. كانت قائدة ماهرة وسريعة. "أعرف أنك لا تثقين بي،" قالت لي بعد برهة، "لكن لزامٌ عليك أن تثقي بي. فعلى الأرجح الأشخاص عينهم من لغّموا السيارة يبحثون عنك الآن. لست جازمة، فأنا لا أدري، لكنك حتمًا في خطر."

في خطر – هذا ما يقولونه في الأخبار عن الأطفال الذين يعثر عليهم مضروبين حتى الموت رغم كل البلاغات العديدة التي تقدم بها الجيران إلى الشرطة، أو النسوة اللواتي يرفعن أياديهن في الشارع طلبًا لتوصيلة من سيارة شخص غريب لأن لا محطة باص في الجوار وإذ بكلب أحدهم يعثر عليهن لاحقًا في قبر ضحل مكسورات الأعناق. أسناني راحت تصطك، رغم أن الطقس كان حارًا ودبق.

لم أصدقها تمامًا، لكني كذلك لم أكذبها. "فلنتصل بالشرطة،" اقترحت مذعورة.

"لا نفع منهم." سبق أن سمعت بعدم جدوى الشرطة – فكثيرًا ما عبر نيل

وميلاني عن هذا الـرأي. أدارت مذياع السيارة: موسيقى هادئة يصاحبها رنين قيثارة. "لا تشغلي بالك بشيء، ليس بعد" قالت لي.

"هل أنت شرطية؟"

"كلا."

"إذن ما أنت؟"

"كلما قل الكلام، برأ الجرح أسرع."

توقفنا أمام مبنىً كبير مربع الشكل. على اللافتة مكتوب **بيت الملتقى والمجمع الديني للأصدقاء (الصاحبيّون)**. آدا ركنت السيارة في الخلف إلى جانب عربة نقل رمادية. "تلك توصيلتنا التالية،" قالت لي.

دخلنا من الباب الجانبي. آدا أومأت للرجل الجالس إلى مكتب صغير. "إلايجا، لدينا مهمةٌ بين أيدينا."

لم ألق نظرة عليه. لحقت بها بكل انضباط عبر بيت الملتقى، بسكونه الخاوي وصداه الراجع ورائحته الباردة التي تثير القشعريرة، إلى أن وصلنا حجرةً أكبر، كانت أكثر إشراقًا ومزودة بأجهزة تكييف. كان هناك صفٌّ من الأسرّة – بل أشبه بالأسرّة النقالة – ورأيت نسوة مستلقيات على بعضها، متدثرات باللحف، لحف من مختلف الألوان. وفي زاوية أخرى كانت هناك خمس مقاعد من ذات الذراعين وطاولة قهوة. عدة نساء جلسن هناك يتحادثن في صوت خفيض.

"لا تحدقي،" نهرتني آدا. "نحن لسنا في حديقة حيوان."

"ما هذا المكان؟"

"**راعية الملاذ**، منظمة لاجئات جلعاد. ميلاني كانت متعاونة معهم، وكذلك نيل بطريقة أخرى. والآن أريد منك أن تجلسي على ذاك المقعد مثلك مثل الذبابة على الجدار. لا حركة ولا همسًا. أنت آمنة هنا. أحتاج إلى إعداد بعض الترتيبات لأجلك. على الأرجح سأعود في غضون ساعة. سيحرصن على إطعامك شيئًا، فأنت في حاجة إلى الطاقة." توجهت نحو إحدى النساء المسؤولات وتحدثت إليها،

ثم غادرت الحجرة على عجالة. بعد برهة، أحضرت لي المرأة شايًا ساخنًا ومحلّى مع قطعة كوكيز بالشوكولا، وسألتني إن كنت أشعر بخير وإن كنت في حاجة إلى شيء آخر، وأجبتها بـ لا. لكنها عادت على كل حال تحمل معها لحافًا من تلك اللحف، لحافًا أخضر وأزرق، وغطتني به.

تدبرت احتساء رشفات من الشاي، وأسناني ما عادت تصطك. جلست هناك أرقب حركة مرور الأقدام، كما اعتدت أن أفعل في الملابس الطريدة. عدة نساء دخلن، إحداهن تحمل طفلًا. بدَوْن محطمات القوى، ومفزوعات. نساء الملاذ نهضن واستقبلنهن قائلات، "لا بأس، لا بأس، أنتن هنا الآن،" ونساء جلعاد انهمرن في البكاء. آنذاك تساءلت في نفسي، وعلام البكاء، عليكن أن تكنّ سعيدات، فقد نفذتنّ بأرواحكن من الجحيم. لكن بعد كل ما جرى لي مذ ذاك اليوم، بتّ أفهم لماذا. فأنت تحبسه في داخلك، مهما يكن ذاك الشيء، إلى أن تتجاوز الجزء الأصعب. من ثم، ما إن تغدو آمنًا، فلك أن تذرف كل الدموع التي ما كان بيدك هدر ثانية في ذرفها.

الكلمات صدرت عن أفواه النسوة نتفًا ولهاثًا:

إن أخبروني بأن عليّ العودة...

اضطررت إلى ترك ابني، أليس من طريقة ...

خسرت الجنين. ما كان هناك من أحد ...

النساء المسؤولات ناولنهن محارم ورقية. أخبرن نساء جلعاد أشياء لطيفة من مثل عليك أن تكوني قوية. كن يحاولن التخفيف عليهن والشد من أزرهن. لكن يا له من نير ثقيل تلقيه على الشخص بقولك له إن عليه أن يكون قويًا. شيءٌ آخر كنت عن قريب سأتعلمه.

بعد ساعة ونيف، عادت آدا. "لا تزالين على قيد الحياة،" قالت لي. إن كانت مزحة، فمزحتها سمجة. اكتفيت وحسب بالتحديق فيها. "اطرحي عنك البليديّ."

"ماذا؟" بدا لي وكأنها تحادثني بلغة أخرى.

"أدرك أن الوضع صعبٌ عليك،" قالت لي، "لكن لا وقت لدينا نهدره، علينا أن نتحرك بسرعة. لا أريد أن أكون نذير شؤم، لكن الوضع غير آمن. والآن دعنا نحضر لك ملابس أخرى." قبضت على ذراعي ورفعتني عن المقعد: فاجأتني بقوتها.

غادرنا متجاوزتين كل النساء، ومضينا نحو غرفة خلفية حيث توجد طاولة عليها قمصانٌ قطنية وكنزاتٌ صوفية مع حاملات ملابس وعلّاقات. بعض تلك القطع تعرفت عليها: إذن هنا مآل صدقات الملابس الطريدة.

"اختاري قطعًا ما كنت أبدًا لترتديها في حياتك الحقيقية،" قالت لي آمرة. "عليك أن تبدين شخصًا آخر مختلفًا تمامًا عنك."

عثرت على قميص قطني أسود موشى بجمجمة بيضاء، وطماق أسود موشى بالجماجم. تناولت حذاءً رياضيًّا عالي القبة، أبيض وأسود، وجوارب. كلها مستعملة. خطر لي القمل وبق الفراش: إذ دومًا ما حرصت ميلاني على سؤال الناس الذين يحاولون بيع ملابسهم عليها إن كانت مغسولة أم لا. فمرةً انتشر البق في المتجر وعيّشنا في كابوس.

"سأدير ظهري،" قالت آدا. لم يكن هناك حجرة لتبديل الملابس. تلوّيْتُ وأنا أنزع عني زي المدرسة وأرتدي ملابسي الجديدة المستعملة. حركة جسدي بدت لي بطيئة جدًا. ورحت أسأل نفسي، مترنحة، أتراها تخطفني؟ تخطفني. هذا تمامًا ما يحدث للفتيات اللواتي يهربونهن ويحولوهن قسرًا إلى رقيق جنس – هذا ما علمونا اياه في المدرسة. عدا أنّ الفتيات مثلي لا يخطفن، وإن كن سيخطفن فسيخطفن على يد رجل يتظاهر بكونه سمسارًا عقاري ويبقي عليهن حبيسات في قبو بيته. وفي بعض الحالات هناك نساء يساندن الخاطف من أمثاله. فهل آدا امرأة من ذاك النوع من النساء؟ ماذا لو أن القصة التي سردتها عليّ عن مقتل ميلاني ونيل في انفجار سيارة ما هي إلا محض كذبة احتالت بها عليّ؟ لعلهما الآن في هذه اللحظة مهتاجين ذعرًا على غيابي. لربما الآن يتصلان بالمدرسة أو حتى الشرطة، حتى مع اعتقادهما ألا نفع أصلًا من الاتصال بالشرطة.

آدا كانت لا تزال تدير ظهرها لي، لكني استشعرت بأني إن فكرت حتى في الفرار – خارج الباب الجانبي لبيت الملتقى – فحدسها سينبئها قبل أن أقدم حتى على خطوتي الأولى. وفرضًا تمكنت من الفرار، فإلى أين سأفر؟ المكان الوحيد الذي أريد الوصول إليه هو بيتي، لكن في حال آدا كانت تقول الحقيقة فيجب عليّ ألا أذهب هناك. على أي حال، إن كانت آدا محقة فبيتي ما عاد بيتي لأن ميلاني ونيل ما عادا فيه. وما عساني كنت سأفعل وحدي في بيت خاو.

"انتهيت."

آدا استدارت نحوي، "ليس بالمظهر السيئ." خلعت سترتها السوداء ودستها في حقيبة محمولة، وارتدت سترةً خضراء تناولتها من على الحامل. ثم رفعت شعرها وثبتته بدبوس وأضافت نظارةً شمسية. "أسدلي شعرك،" أمرتني، فنزعتُ الرباط وهززت شعري. اختارت لي نظارة شمسية: عدستاها برتقاليتان. ناولتني أحمر شفاه، وصنعتُ لنفسي شفاهً حمراء جديدة.

"تقمصي دور الجانحة،" أمرتني.

لم أعرف كيف، لكني حاولت. عبست وبوّزت شفتيّ المضرجتين بالشمع الأحمر.

"أحسنت،" قالت لي، "ليس لأحد أن يتعرف عليك. سِرّنا في أمان."

وما عساه يكون سرّنا هذا؟ أني رسميًا ما عدت موجودة؟ تبيّن أنه شيءٌ من هذا القبيل.

صعدنا عربة النقل الرمادية وانطلقنا، قضينا وقتًا نجول وحسب في الأرجاء، آدا متيقظة لكل شاردة وواردة في حركة المرور خلفنا. ثم شقّينا طريقنا في متاهة من الطرق الجانبية، إلى أن ركنّا العربة أمام بيت ضخم مشيد من الحجر الرمليّ. في المدخل نصف الدائري، والذي لربما ضمّ يومًا حديقة أزهار إذ كانت لا تزال فيه بقايا من أزهار التوليب بين الحشائش الطويلة والهندباء، لافتةٌ منصوبة مع صورة لمبنى شقق مفروشة جديد.

"أين نحن؟"

"باركدايل،" أجابتني آدا. ما كان سبق لي قط الذهاب إلى باركدايل، لكني سمعت عنها: بعض الفتيان المسطولين من مدرستنا اعتبروه مكانًا رائعًا، صفة الأحياء المتهالكة التي تُبعَث الآن من جديد أحياءً سكنية للأثرياء. كان فيها عدة ملاه ليلية، مناسبة لمن يرغب في الكذب بشأن عمره.

البيت كان مشيّدًا على باحة كبيرة ورثّة تحيطها عدة أشجار ضخمة. مذ أمد طويل ما نظف أحدهم الأرض من الأوراق المتساقطة؛ خرقٌ ضالة من البلاستيك الملون، حمراء وفضيّة، كانت تلمع في أكوام النشارة.

آدا مضت نحو البيت، ترمقني من خلف كتفها كي تتأكد من لحاقي بها. "هل أنت بخير؟" سألتني.

"أجل." كنت أشعر بدوار خفيف. مشيت خلفها على الرصيف غير المتساوي؛ بدا لي اسفنجيًا، وكأنّ قدمي قد تغوص فيه أية لحظة. العالم ما عاد متماسكًا وموثوقًا به، بل غدا مساميًا ومخادع. أي شيء قد يختفي. لكن في الآن ذاته كل شيء تجلى أمام عينيّ بمنتهى الوضوح. مثل تلك اللوحات السريالية التي درسناها العام الماضي. ساعاتٌ ذائبة في الصحراء، حقيقية وغير حقيقية.

درجاتٌ حجرية ثقيلة أفضت بنا نحو شرفة الردهة الأمامية. الشرفة كانت مسقوفة بقنطرة حجرية مع اسم منقوش عليها بالأحرف السلتية التي تراها أحيانًا

تعلو المباني القديمة في تورنتو – "كارنارفون" – تحيطه أوراق شجر حجرية ووجوه أقزام الجنّ؛ لربما قصد صاحبها بتلك الوجوه أن تبدو عابثة، لكني وجدتها حقودة تنذر بالهلاك. كل شيء بدا لي حقودًا ينذر بالهلاك.

الشرفة كانت تفوح برائحة بول القطط. الباب كان عريضًا وثقيلًا، مسمّرًا بمسامير سود. فنان الغرافيتي مارس فنه على الباب بالطلاء الأحمر: بذاك النمط المدبب من الكتابة، وكلمة واحدة كانت الأوضح بينها وعلى الأرجح كانت "Barf".

رغم المظهر القذر للباب، فالقفل كان يفتح بمفتاح مغناطيسي. أرضية الردهة كانت مفروشة بسجاد أحمر عتيق والسلالم المتعرجة للأعلى كانت عريضة، تطوقها انحناءات جميلة من الدرابزين.

"أصحابه حولوه إلى نزل لفترة،" قالت آدا. "واستحال الآن شققًا مفروشة."

"وماذا كان عليه في الأصل؟" كنت متكئة على الجدار.

"بيتًا صيفيّ،" قالت آدا. "لأناس أثرياء. فلنصعد بك إلى الأعلى، فأنت في حاجة إلى الاستلقاء."

"وما الذي يعنونه بـ كارنارفون؟" كنت أجاهد في ارتقائي الدرج.

"مكانٌ ويلزيّ،" قالت آدا. "لا بد أن أحدهم راوده الحنين إلى بيته." تناولت ذراعي، "تعاليْ، حاذري في خطواتك." وخطر لي بيتي. كنت سأبدأ بالتنشق مرة أخرى. حاولت جهدي ألا أفعل.

وصلنا مبسط السلم. بابٌ ثقيلٌ آخر، مفتاحٌ مغناطيسي آخر. في الداخل غرفة معيشة مع أريكة ومقعدين مريحين وطاولة قهوة وطاولة عشاء.

"هنالك غرفة نوم لك،" قالت آدا، لكني ما كنت متعجلة على رؤيتها. هويت على الأريكة. إذ فجأة أعياني التعب وما عاد فيّ من قوة؛ ظننت أني لن أنهض أبدا.

"عدت ترجفين من جديد،" قالت آدا. "سأخفض التكييف." أحضرت لي لحافًا من إحدى غرف النوم، لحافًا جديدًا أبيض.

كل شيء حولي بدا واقعيًا جدًا. كانت هناك نبتة منزلية على الطاولة، على الأرجح بلاستيكية؛ فأوراقها مطاطية، لامعة. الجدران كانت مغطاة بورق زهري

موشى بتصاميم داكنة للأشجار. رأيت ثقوب المسامير حيث عُلّقت صورٌ فيما مضى. تلك التفاصيل كانت ساطعة حدّ أني رأيتها تترأرأ، وكأنما ضوءٌ قويٌّ يشعّ من خلفها.

أغمضت عينيّ حتى أحجب الضوء عني. لا بد أنّ النعاس غلبني إذ ما إن فتحت عينيّ حتى وجدت الشمس قد غربت، وآدا فتحت التلفاز المسطح. أظنها فعلت ذلك لمصلحتي – كي أوقن أنها كانت تقول الحقيقة – لكن تظل فعلةً قاسية. حطام الملابس الطريدة – النوافذ المهشمة، الباب المشرّع وسع شدقيه. خرقٌ من الأقمشة منثورة على الرصيف. ومن أمام المتجر، هيكل سيارة ميلاني، متجعد مثل قطعة مارشميلو محروقة. سيارتا شرطة ظاهرتان في المشهد، والشريط الأصفر الذي يطوقون به موقع الكارثة. لا أثر لميلاني أو نيل، وكم كنت ممتنة لذلك: إذ انتابني الرعب من احتمال رؤية جسديهما المتفحمين، رماد شعريهما، عظامهما المسفوعة.

جهاز التحكم كان على الطاولة الجانبية. تناولته وأطفأت الصوت: إذ لم أرغب في سماع مقدم الأخبار يتحدث عما جرى بذات النبرة التي ينقل فيها خبرًا عن سياسي يستقل طائرة. ما إن اختفى المتجر والسيارة وقفز رأس مقدم الأخبار للواجهة كما البالون، أطفأت التلفاز.

آدا قدمت من المطبخ. أحضرت لي شطيرة على طبق: سلطة دجاج. أخبرتها أني لست جائعة.

"هناك تفاح، أتريدين واحدة؟"

"كلا، شكرًا لك."

"أعرف أنّ الوضع غريبٌ عليك،" قالت لي. لم أنطق بكلمة. غادرت وعادت مرة أخرى. "قد أحضرت لك قطعة كعك لأجل عيد ميلادك. بالشوكولا. بوظة الفانيلا. المفضلة لديك." كانت على طبق أبيض؛ وإلى جانبها شوكة بلاستيكية. كيف عرفت بأنها المفضلة لدي؟ لا بد أن ميلاني أخبرتها. لا بد أنهما تبادلتا الحديث عني. الطبق الأبيض كان باهرًا. شمعة واحدة كانت مغروسة في قطعة

الكعك. لو كنت أصغر عمرًا لتمنيت أمنية. لكن ما عساني أتمنى الآن؟ أن تعود عقارب الساعة إلى الوراء؟ أن يستحيل اليوم البارحة؟ أتساءل كم من أناس تمنوا أمنيةً كهذه.

سألتها، "أين الحمام؟" وأخبرتني. دخلته وتقيأت. ثم عدت واستلقيت على الأريكة أرجف من جديد. برهة وأحضرت لي جعة بالزنجبيل، "علينا أن نرفع معدل السكر فيك." ثم غادرت الغرفة، بعد أن أطفأت الأضواء.

بدا أشبه بالبيت متى ما عدتَ من المدرسة وقد أصبتَ بالانفلونزا. أناسٌ آخرون كانوا سيدثرونك ويناولونك أشياء تشربها؛ لكانوا هم من سيتعامل مع واقع الحياة نيابةً عنك كي لا تضطر أنت لمواجهتها. من الرائع لو يتسنى للمرء أن يعيش أبدًا هكذا: حينها لما كنت سأضطر للتفكير في أي شأن آخر.

من بعيد تناهت لي أصوات المدينة: حركة السير، صافرات الإنذار، تحليق طائرة. ومن المطبخ تناهى لي حفيف حركة آدا: حركةٌ رشيقة، خفيفة، كأنما تخطو على رؤوس أصابعها. سمعت همهمة صوتها، تتحدث على الهاتف. هي كانت المسؤولة، لكن مسؤولة عن ماذا، ما كنت لأدري؛ مع ذلك فتلك الأصوات هدهدتني وعانقتني. ومن خلف عيني المغمضتين سمعت باب الشقة يُفْتح، لحظة تريث، ثم أوصد.

المرة التالية التي فتحت بها عينيّ، كان الصباح. لم أعرف الوقت. هل أطلت في النوم، هل تأخرت على المدرسة؟ ثم تذكرت: انتهى أمر المدرسة. لن أعود أبدًا هناك، أو إلى أي مكان أعرفه.

كنت في إحدى غرف نوم كارنارفون، متدثرة باللحاف الأبيض، في القميص القطني والطماق الضيق، أما الجوربان والحذاء فكانا منزوعين عني. كانت هناك نافذة، ستارتها الرأسية مسحوبة للأسفل. نهضت في تأن. لمحت لطخة حمراء على الوسادة، ما كانت سوى أثر أحمر الشفاه من شفتي الحمراوين. ما عدت أشعر بالغثيان ولا الدوار، لكني كنت مشوشة. حككت رأسي بأكمله وشددت شعري. فمرةً أصابني صداع وقيل لي على لسان ميلاني أن شد الشعر يزيد من دوران الدم في الدماغ. أخبرتني أن هذا هو السبب وراء شد نيل شعره.

ما إن وقفت، تيقظت أكثر. تفحصت نفسي على مرآة الحائط الكبيرة. لم أكن الشخص ذاته الذي كنته قبل البارحة، وإن كنت ما أزال أشبهها. فتحت الباب وسرت عبر الردهة نحو المطبخ حافية القدمين.

آدا لم تكن في المطبخ. كانت في غرفة المعيشة، جالسة على أحد المقعدين المريحين مع كوب قهوة في يدها. وعلى الأريكة كان الرجل الذي مررنا به لدى دخولنا راعية الملاذ من الباب الجانبي.

"استيقظتِ،" قالت آدا. هي عادة البالغين التصريح بما هو بديهي – استيقظتِ كان شيئًا ستقوله لي ميلاني وكأنما حققتُ إنجازًا عظيمًا – وكم خاب أملي لمعرفتي أنّ آدا ليست الاستثناء لهذه القاعدة.

نظرت إلى الرجل والرجل نظر إليّ. كان يرتدي بنطال جينز وقميصًا قطني رمادي مكتوبٌ عليه: **كلمتان، إصبعٌ واحد**. على رأسه قبعة بيسبول زرقاء. تساءلت إن كان مدركًا معنى الكلمات على قميصه.

لا بد أنه كان على مشارف الخمسين، لكن شعره كان كثيفًا وأسود، لذا لربما

كان أصغر عمرًا. وجهه بدا أشبه بجلد متجعد، مع ندبة أعلى وجنته. تبسّم لي، كاشفًا أسنانه البيض مع ضرس طاحن مفقود جهة اليسار. ضرسٌ مفقودٌ كهذا يوحي بملامح شخص خارج على القانون.

آدا أومأت بذقنها تجاه الرجل: "تتذكرين إلايجا، من راعية الملاذ. صديقٌ لنيل. هو هنا كي يقدم لنا العون. هناك حبوب إفطار في المطبخ."

"بعدها سنتحدث،" عقّب إلايجا.

حبوب الإفطار كانت من النوع المفضل لديّ، الدوائر على شكل "O" المصنوعة من الفاصوليا البيضاء. أحضرت الوعاء إلى غرفة المعيشة وجلست على المقعد المريح الآخر، وانتظرتهما يستهلان الحديث.

لا أحد منهما نطق بكلمة. راحا يرمقان بعضهما البعض. تناولت ملء ملعقتين، مترددة، في حال كانت معدتي لا تزال متقلبة. في أذنيّ سمعت جرش حروف الـ O.

"بأي عقدة نبدأ؟" سأل إلايجا.

"من العقدة الأصعب." أجابت آدا.

"حسنٌ،" قال ونظر مباشرةً إليّ. "البارحة لم يكن عيد ميلادك."

"بل كان!" أجبته متفاجئة. "الأول من مايو، وبلغت السادسة عشرة."

"في واقع الأمر، أنت أصغر بأربعة أشهر،" قال إلايجا.

كيف لك أن تثبت يوم ميلادك؟ لا بد أن هناك شهادة ميلاد، لكن يا ترى أين احتفظت بها ميلاني؟ "على بطاقتي الصحية، أجل، على بطاقتي الصحية تاريخ ميلادي."

"حاول مرة أخرى،" قالت آدا. وأطرق رأسه يتأمل السجاد.

"ميلاني ونيل ما كانا والديك،" قال لي.

"أجل كانا!" صحت به. "ما بالك تقول شيئًا كهذا؟" شعرت بالدموع تحتشد في عينيّ. وها هو الواقع ينفتح على عدم آخر: نيل وميلاني يضمحلان، يتبدلان. وأدركت أني لا أعرف الكثير عنهما، ولا عن ماضيهما. لا هما تحدثا عنه، ولا أنا

سألت. فلا أحد يكترث حقًّا لسؤال أبويه عن حياتيهما، أليس كذلك؟

"أعرف أنّ ما قلته موجعٌ لك، لكن الأمر بالغ الأهمية، لذا سأعود وأقوله من جديد. نيل وميلاني ما كانا والديك. آسفٌ لاضطراري إلى أن أبدو فظًّا عديم الحس، لكن لا نملك الكثير من الوقت أمامنا."

"إذن من كانا؟" عيني طرفت. دمعةٌ فرّت، ومسحتها.

"لا علاقة قربى تجمعك بهما. وقت كنتِ رضيعة أُودعت لديهما أمانةً كي يحافظا عليك."

"ليس صحيحًا ما تقوله،" قلت له. لكني بتّ أقل اقتناعًا بحقيقتي.

"كان يتوجب بهما إخبارك في وقت أبكر،" قالت آدا. "لكنهما تمنيا أن يجنبانك القلق. كانا على وشك إخبارك يومَ ..." صوتها خفت وزمّت شفتيها. حتى اللحظة كانت قد التزمت الصمت بشأن وفاة ميلاني، وكأن لا صداقة جمعتهما يومًا، لكني الآن رأيت كم الأمر آلمها. ما دفعني إلى الإعجاب بها أكثر.

"كان جزءًا من مهمتهما، رعايتك والحفاظ عليك آمنة،" قال إلايجا. "يؤسفني أن أكون الرسول الذي حمل لك البلاغ."

فوق رائحة الأثاث الجديد الذي كانت تفوح بها الغرفة، كانت هناك أيضًا رائحة إلايجا: رائحة متعرقة، نفاذة، من صابون غسيل ملابس عمليّ. صابون ملابس عضويّ. النوع الذي تستخدمه ميلاني. كانت تستخدمه. "إذن فمن هما؟" سألت هامسة.

"نيل وميلاني كانا عضوين فاعلين جدًا وخبيرين جدًا في."

"لا،" قاطعته. "أقصد والديّ الآخريْن، والديّ الحقيقيين. من كانا؟ هل هما الآخران ميتان؟"

"سأعد لنا المزيد من القهوة،" قالت آدا. نهضت وتوجهت إلى المطبخ.

"ما زالا على قيد الحياة،" أجابني، "أو على الأقل حتى البارحة."

حدقت فيه. تساءلت إن كان يكذب، لكن لم عساه يكذب كذبة كهذه؟ لو أراد أن يبتدع شيئًا، لابتدع هراءً أفضل. "لا أصدق أيًّا مما تقول،" قلت له. "حتى

أني لا أدري ما الذي يدفعك إلى التفوه بأشياء كهذه."

آدا عادت إلى الغرفة مع كوب قهوة وقالت إن أراد أحدٌ المزيد فليتفضل ويصب لنفسه، ولربما من الأجدر بي أن أختلي إلى نفسي لفترة كي أستوعب ما سمعته.

أستوعب؟ أستوعب ماذا؟ أنّ والديّ قتلا، أنهما ليسا بوالديّ الحقيقيين، ووالدان آخران مختلفان ظهرا محلهما.

"أستوعب ماذا؟" سألتها. "حتى أني لا أعرف ما يكفي لاستيعاب أي شيء."

"ما الذي تريدين معرفته؟" سأل إلايجا، في نبرة لطيفة وإن مجهدة.

"كيف حدث هذا؟ أين هما والداي الحقيقـ...والداي الآخران؟"

"هل تعرفين ما يكفي عن جلعاد؟" سألني.

"بالطبع. فأنا أشاهد الأخبار. ودرسناها في المدرسة،" أجبته متجهمة. "حتى أني شاركت في مسيرة التظاهرة الأخيرة." لحظتها تمنيت لو أن جلعاد تتبخر وتدعنا في سلام.

"هناك ولدتِ، في جلعاد."

"أنت تمزح."

"أمك واليوم المايوي هربوك إلى هنا. خاطروا بحياتهم لأجلك. جلعاد أثارت ضجة كبيرة؛ إذ طالبوا بعودتك. ادّعوا أن ما يسمى بـ والديك القانونيين يملكان كامل الحق بالمطالبة بك. اليوم المايوي خبأتك؛ فأناسٌ كثر انطلقوا يبحثون عنك، وأثاروا عاصفةً إعلامية حولك."

"تعني مثل الرضيعة نيكول،" قلت له. " فأنا كتبت مقالًا عنها في المدرسة."

إلايجا عاد وأطرق رأسه من جديد. ثم رفع عينيه ونظر مباشرةً إليّ. "أنتِ الرضِيعة نيكول."

حُجَيْرة الشّكْر

24

ظهيرة اليوم وصلني استدعاءٌ آخر من الرئيس جود، أحضره إليّ عينٌ شاب. كان بيد الرئيس جود أن يرفع الهاتف بنفسه ويناقش الشأن الذي يود محادثتي فيه - فهناك خط مباشر بين مكتبه ومكتبي، مع هاتف أحمر – لكن مثلي أنا، هو غير موقن أنّ أحدهم لا يسترق السمع. كذلك، أظنه يستمتع بخلوتنا الخاصة، لأسباب معقدة ومنحرفة. فهو يظنني صنيعة يديه: التجسيد الحيّ لمشيئته.

"عساك بخير، خالة ليديا،" قال وأنا أجلس مقابله.

"في نعمة، له الحمد. وأنت؟"

"عن نفسي أنا في صحة جيدة، لكني أخشى أن زوجتي متوعكة. ومرضها يثقل روحي."

لم أفاجأ. فآخر مرة رأيتها، زوجة جود الحالية، كانت في حال رثة. "خبرٌ محزن. وما علّة مرضها؟"

"ليس واضحًا،" أجابني. ولا مرةً كان. "مرضٌ في الأعضاء الداخلية."

"أتود لأحد من عيادة البلسان والسكينة أن يتفحصها؟"

"ربما ليس بعد. فعلى الأرجح المسألة بسيطة، أو لربما حتى متخيلة، مثل حال الكثير من تلك الشكاوى الأنثوية."

توقفنا عن الكلام للحظة وتأملنا بعضنا البعض. أخشى أنه، عن قريب، سيغدو أرملًا مرةً أخرى، وسيبحث في السوق عن عروس قاصر جديدة.

"أنا عونٌ لك."

"أشكرك خالة ليديا. أنت تفهمينني جيدًا،" قال مبتسمًا. "لكن هذا ليس

بالسبب الذي طلبتك المجيء لأجله. فقد خلصنا إلى نتيجة بشأن موت اللؤلؤة الكريمة التي فقدناها في كندا."

"وما الذي خلصت إليه الحقائق؟" كنت أعرف الجواب مسبقًا، لكن ما كان لدي من نية لمشاركته.

"التصريح الكندي الرسمي أعلن الوفاة انتحارًا."

"يؤلمني سماع هذا،" أجبته. "فالخالة أدريانا كانت واحدة من أكثر الفتيات إخلاصًا وفعالية ... وضعت ثقتي الكبيرة فيها. فقد كانت شجاعة على نحو استثنائي."

"تصريحنا الرسمي أن الكنديين يلفقون الأمر، وأن إرهابيي اليوم المايوي المستقوين بسياسة كندا المتسامحة مع وجودهم غير القانوني فيها هم من قتلوا الخالة أدريانا. لكن بيني وبينك، فنحن مرتبكون. من منا يدري ما الذي حصل لها فعلًا؟ لربما مقتلها لا يعدو كونه جريمة عشوائية مرتبطة بالمخدرات المتفشية في ذاك المجتمع المنحط. الخالة سالي كانت في الجوار تشتري بيضًا. لدى عودتها واكتشافها المأساة، قررت بحكمة أن العودة السريعة إلى جلعاد هو خيارها الأفضل."

"قرارٌ بمنتهى الحكمة."

مع عودتها المفاجئة، الخالة سالي قدمت إليّ مباشرة، ترجف فزعًا. ووصفت لي كيف لقيت أدريانا مصرعها. "هاجمتني. هكذا، بغتة، لحظات قبل خروجنا إلى القنصلية. لا أدري لماذا! وثبت عليّ وحاولت خنقي، وأنا بدوري هاجمتها. كان دفاعًا عن النفس،" وراحت تنتحب.

"انهيارٌ عصبيٌّ لحظيّ، فالإجهاد المتأتي عن الوجود في بيئة غريبة محبطة، مثل كندا، له هذا التأثير على النفس. قد فعلتِ الصواب. ما كان لديك من خيار. ولا أرى داع لأن يعرف شخصٌ آخر بما حدث، أليس كذلك؟"

"أوه، شكرًا لك، خالة ليديا. أنا آسفة جدًا على ما حصل."

"صلّي لروح أدريانا، ثم انسي الأمر تمامًا،" قلت لها. هل لديك شيءٌ آخر تخبرينني به؟"

"حسنٌ، كنت طلبتِ منا أن نكن متيقظات لأي دلالة تخص الرضيعة نيكول. الزوجان اللذان كانا يديران متجر الملابس الطريدة لهما ابنة يوافق عمرها عمر نيكول."

"هذا افتراضٌ مثيرٌ للاهتمام. أظنكما نويتما إرسال تقرير بهذا الشأن إلى القنصلية؟ عوضًا عن الانتظار ومحادثتي مباشرةً لدى عودتك؟"

"ارتأيت أنك أول من يجب أن يعرف. الخالة أدريانا قالت إن الأمر سابقٌ لأوانه – عارضت الأمر بشدة. حتى أننا تخاصمنا حوله. فقد أصررتُ على أهمية الإبلاغ،" قالت الخالة سالي في نبرة دفاعية.

"معك حق، الأمر مهم." قلت لها، "لكن بالغ الخطورة. فتقريرٌ كهذا قد يطلق إشاعات لا أساس لها من الصحة، ووخيمة العواقب. إذ سبق أن تلقينا أخبارًا كاذبة، وكل من يعمل في القنصلية هو عينٌ في الأساس. والعيون في العادة يتصرفون بصلافة؛ يفتقرون إلى الفطنة والدقة. هناك دائمًا سبب وراء إرشاداتي الصارمة لكنّ أوامري الحازمة. ليس من مهام اللآلئ الكريمة القيام بمبادرات غير مصرح بها."

"أوه لم أدرك ذلك – لم أفكر في الأمر. لكن، ومع ذلك، ما كان يجدر بالخالة أدريانا."

"كلما قلّ الكلام، برأ الجرح أسرع. أعرف أن نيتك كانت طيبة،" أخبرتها في نبرة مهدئة.

وانهمرت الخالة سالي في البكاء. "صدقًا نيتي كانت طيبة، صدقًا."

الطريق إلى جهنم مرصوفٌ بالنوايا الطيبة، كنت على وشك أن أقول لها، لكني امتنعت. "وأين تلك الفتاة؟" سألتها. "فلا بد أنها انتقلت إلى مكان آخر بعد إزالة والديها من المشهد."

"لا أدري. ربما ما كان يجدر بهم التعجل وتفجير الملابس الطريدة. لو منحونا الوقت الكافي لكنّا."

"أتفق معك، قد أشرت عليهم بعدم التعجل. للأسف إدارة العيون المراقبة في كندا يافعة ومتحمسة، ويهوون التفجيرات. لكن كيف كان لهم أن يعلموا؟" وهنا تريثت، سمّرت عينيّ عليها ورمقتها بنظرتي الثاقبة. "فأنت لم تشاركي شكوكك بشأن الرضيعة نيكول المحتملة مع أحد؟"

"لا. أنت وحسب، خالة ليديا. والخالة أدريانا، قبل ..."

"فلنبق على الأمر بيننا، حسنٌ؟" طمأنتها. "لا داع لأن نخوض في محاكمة. والآن، أراك في حاجة إلى وقت للراحة والتعافي. سأتدبر لك أمر الإقامة لفترة في بيت مارجيري كيمب[12] للنقاهة في والدن. بيتٌ لطيف. وعن قريب ستغدين امرأة مختلفة. السيارة ستقلك إلى هناك في نصف ساعة. وإن أثارت كندا موضوع الحادث المؤسف في مبنى الشقق المفروشة – إن رغبوا في مقابلتك والتحقيق معك لإلصاق تهمة بك – فبكل بساطة سنعلن أنك مفقودة." ما كنت لأتمنى الموت للخالة سالي: تمنيت وحسب أن تكون مشوشة، وهي بالفعل مشوشة. وطاقم الموظفين في بيت مارجيري كيمب للنقاهة طاقمٌ كتومٌ ومتحفظ.

المزيد من عبارات الشكر الدامعة من الخالة سالي. "لا تشكريني،" قلت لها. "أنا من يجدر بها أن تشكرك."

"تضحية الخالة أدريانا لم تذهب سدىً،" راح الرئيس جود يقول لي. "لآلئك الكريمة صوّبن عملياتنا في اتجاه مثمر: فأمورٌ أخرى تكشّفت لنا."

قلبي انقبض. "سعيدة بأن فتياتي كنّ نفعًا لكم."

"هنّ كذلك على الدوام، والشكر لك على مبادرتك. فمنذ عمليتنا المتعلقة بمتجر الملابس المستعملة التي أطلقتها إخبارية لآلئك الكريمة، بتنا متيقنين من وسائل نقل المعلومات التي تواصلت عبرها اليوم المايوي ولأعوام مع حلقة الاتصال

---

12 "Margery Kempe": متصوفة مسيحية من القرون الوسطى. بعد ولادتها طفلها الأول، عانت ثمانية أشهر من "اكتئاب ما بعد الولادة" والتي فسرتها وقتئذ بمس شيطاني وغضب الرب عليها، إذ انتابتها نوبات هلوسة وأفكار انتحارية، ما دفعها إلى سلوك طريق التصوف والزهد وتكريس حياتها لحب الرب.

المجهولة في جلعاد."

"وما هي تلك الوسائل؟"

"في عملية السطو – العملية الأمنية الخاصة – صادرنا كاميرا ميكروسكوبية، وأجرينا اختبارات عليها."

"كاميرا ميكروسكوبية؟ وما هذه؟"

"تقنية قديمة ما عاد أحد يستخدمها، لكنها ما تزال صالحة. الوثائق تُصوّر بكاميرا منمنمة تقلصها إلى حجم ميكروسكوبي. من ثم تطبع في نقاط بلاستيكية دقيقة، وهذه النقاط بالإمكان لصقها على أي سطح وتقرأ من المستلم بمنظار معدّ خصيصًا لهذا الغرض وصغير كفاية لحجبه، على سبيل المثال، في قلم."

"مذهل،" قلت متعجبة. "إذن لم نكن مخطئات في أردوا هول بقولنا أنّ القلم حسد."

قهقه ضاحكًا، "بالفعل." ثم أردف، "نحن أصحاب القلم يتوجب بنا دومًا مخافة إلهنا. لكنه لتصرفٌ ذكي من اليوم المايوي اللجوء إلى هذه الوسيلة: فقلة قليلة من الناس في وقتنا الحاضر مدركٌ لها. كما يقولون: إن كنت لا تبحث عنه، فلن تراه."

"إبداع."

"أجل، لكننا أمسكنا بطرف واحد من الخيط وحسب – طرف اليوم المايوي. لكن هناك، كما سبق أن ذكرت، طرف جلعاد – من يستلم الوثائق الميكروسكوبية ويبادلها بوثائق جديدة. ما زلنا لم نتعرف على ذاك الفرد، أو الأفراد."

"قد أوصيت زميلاتي في أردوا هول بإبقاء أعينهن وآذانهن مفتوحة."

"ومن خيرٌ من الخالات لتولي هذه المهمة؟ فأنتن تملكن حرية الدخول إلى أي بيت تخترنه، ومع حدسكن الأنثوي البارع ستلتقطن ما لن نعيه نحن الرجال متبلدو الحس."

"سنفوق ثعالب اليوم المايوي دهاءً، سترى،" قلتُ مطبقةً قبضة يدي، رافعةً فكّي.

"تعجبني حماستك خالة ليديا، أنا وأنت نشكل معًا فريقًا رائعًا!"

"راية الحقّ ستعلو." أملت أن يرى رجفة القشعريرة في جسدي دلالةً على ورعي الفطري.

"تحت عينه،" قال مودعًا إياي.

بعدها، قارئي العزيز، وجدتني في حاجة إلى استجماع نفسي. فشددت الرحال إلى مقهى شلافلي[13] واحتسيت كوبًا من الحليب الدافئ. ثم عدت أدراجي إلى مكتبة هلدغارد حتى أواصل رحلتي معك. تصوّرني دليلًا. وتصوّر نفسك هائمًا في غابة مظلمة. والظلام على وشك أن يغدو حالكًا.

على آخر صفحة حيث افترقنا كنت وصلت بك حتى الاستاد، ومن هناك سنستأنف رحلتنا. مع مرور الوقت علينا بطيئًا متثاقلًا، استحال الوضع نمطًا روتينيًا. نمْ في الليل، إن استطعت. طِقْ النّهار. وعانِق المنتحبات. لكن عليّ أن أقر أن النحيب بات مملًّا. وكذلك الولولة.

الأماسي الأولى شهدت محاولة النساء اللجوء إلى الموسيقى – مجموعة من النسوة الأكثر تفاؤلًا والأكثر نشاطًا نصّبْن أنفسهن قائدات فرقة غنائية، ابتدعن نسختهن من نشيدة "وسننتصر" وغيرها من الأناشيد العتيقة المبتذلة من أيام مخيم البنات الكشفي البائدة. وجدن صعوبة في تذكر الكلمات، لكن على الأقل أضفن تنويعًا على مسار اليوم.

ولا حارس أوقف هذه المحاولات. لكن، مع اليوم الثالث، المرح الغنائي بدأ يخبو، عددٌ أقل وأقل من النساء شاركن، وعددٌ أكثر وأكثر من النساء بدأن يتذمرن – "رجاءً اصمتن!" "لأجل الرب، اسكتن!" – وهكذا فقائدات الفرقة الكَشفية المتحمسات، بعد الاعتراضات المؤلمة التي تلقينها – "كنت أحاول وحسب

13 فيليس شلافلي "Phyllis Schlafly": الأم الروحية للحركة المناهضة للنسوية وحق الإجهاض، والتي نجحت في إدارة حملة سياسية في السبعينيات أعاقت بها إقرار بند المساواة في الحقوق بين الجنسين في الدستور الأميركي.

المساعدة" – سددن أفواههن وانقطعن عن الغناء.

ولا مرة شاركتهن الغناء. إذ لم عساك تهدر طاقتك؟ ومزاجي ما كان طربيًّا. بل أشبه بمزاج فأر في متاهة. هل من مخرج؟ وأيّ طريق يدل إليه؟ ولماذا أنا هنا؟ هل هذا امتحان؟ وما الذي يحاولون بالضبط معرفته؟

ولا يخفى عليك، أنّ بعض النساء راودتهن الكوابيس. كنت ستسمع أنينهن وتخبطهن، أو كن سينتصبن فجأة يصرخن فزعًا. لستُ في صدد انتقادهن: فأنا الأخرى راودتني الكوابيس. هل تريدني أن أسرد عليك تفاصيل كابوس منها؟ كلا، لن أفعل. فأنا مدركة تمامًا كيف لأعصاب الواحد فينا أن ترهق بسهولة لدى سماعه كوابيس الآخرين تتلى عليه. إذ متى ما اشتدت الشدائد، كوابيسك وحدها التي تحمل قيمةً في عينيك.

في الصباح، كنا نستيقظ على صوت صافرة الإنذار. والنسوة اللواتي لم تؤخذ منهن ساعاتهن – فسلب الساعات جاء عشوائيًا – أعلمننا أن الصافرة تنطلق السادسة صباحًا. الخبز والماء كانا وجبة الإفطار. ولن تتخيل إلى أي حد باتت قطعة الخبز لذيذة! بعضهن التهمن وعببن، أما أنا فقسّمت حصتي إلى لقيمات حتى تدوم لأطول وقت ممكن. فالمضغ والبلع يلهيان عن الجري العبثي على عجلة التفكير. وأيضًا هي تزجية وقت.

بعدها، الوقوف في طوابير أمام الحمامات النتنة، وليكن الحظ معك إن دخلت على مرحاض مسدود، فلا أحد هناك سيزيل لك الانسداد. نظريتي؟ أن الحراس كانوا يجولون في الحمامات ليلًا ويتعمدون سد المراحيض بمختلف الأشياء كي يفاقموا الوضع علينا. بعض النساء من أصحاب ذهنية الترتيب حاولن تنظيف المراحيض، لكن ما إن وعين إلى أي حد جهودهن ميؤوسٌ منها استسلمن. الاستسلام بات التصرف الطبيعي، وعليّ أن أقول، أن عدواه انتشرت.

هل ذكرت لك أنّ لا ورق حمام كان هناك؟ إذن ما العمل؟ استخدم يديك، ثم حاول تنظيف أصابعك القذرة أسفل الماء المتقطر الذي ينصب أحيانًا من الصنبور وأحيانًا لا. أنا واثقة أنهم تعمدوا ذلك أيضًا، يرفعوا معنوياتنا ويحبطوها

على فترات عشوائية. كان لي أن أتصوّر البهجة على ملامح القميء معذب الهررة الذي أوكلوه مهمة تشغيل وإطفاء نظام الماء المرة تلو المرة.

قيل لنا ألا نشرب الماء من تلك الصنابير، لكن بعض الحمقاوات فعلن. التقيؤ والإسهال هلّ علينا، كيما يزيد من بهجتنا.

وما كان هناك من محارم ورقية. ولا مناشف من أي نوع. مسحنا أيدينا بتنانيرنا، سواء كانت تلك الأيدي مغسولة أم لا.

اعذرني على إسهابي في الحديث عن الخدمات، لكنك ستذهل كيف لأشياء كهذه أن تغدو شديدة الأهمية – أشياء أساسية أخذتها في حياتك أمرًا مسلمًا به، ونادرًا ما فكرت بها إلى أن سلبت فجأة منك. في معظم أحلام يقظتي – وكلنا استغرقنا في أحلام اليقظة، إذ ما بيد العقل فعله أمام هذا الركود الإجباري الخاوي من الأحداث سوى إشغال نفسه بنفسه – تصورت مرحاضًا نظيفًا أبيض. أوه، وحوض مغسلة مرفق به، يندفق من صنبوره ماءٌ نقيٌ صاف.

بطبيعة الحال النتانة فاحت منا. فعدا المحنة التي عشناها مع المراحيض، نمنا كل تلك الليالي في بدلنا الرسمية، ملابسنا الداخلية لم تتبدل. كان البعض منا قد انقطع لديها الطمث، لكن البعض الآخر لا، وبذا فرائحة الدم المتخثر امتزجت برائحة العرق والدموع والخراء والقيء. الغثيان كان سيصيبك مع كل شهيق تأخذه.

كانوا يحطون من شأننا، يقلصوننا إلى حيوانات – بهائم الزريبة – إلى طبيعتنا الحيوانية. ما برحوا يمرغون وجوهنا في هذه الطبيعة، كيما نقنع أنفسنا أننا أدنى قدرًا من الرجل، شبه إنسان.

بقية اليوم كان سينبسط مثل زهرة مسمومة، بتلةً بتلة، بطيئًا حدّ الوجع. أحَيانًا كانوا يصفدوننا، وأحيانًا لا، ثم يسوقون بنا في صف ويقحموننا في المدرجات حيث كنا سنجلس في الشمس الحارقة، أو كما حدث مرةً – ويا لها من نعمة كانت – في طقس ماطر خفيف. ثيابنا تلك الليلة كانت ترشح بالماء، لكنها على الأقل غمرت شيئًا من رائحة أجسادنا.

ساعةً بعد ساعة جلسنا نراقب وصول عربات النقل، تفرغ نصابها من شحنة النساء، وتغادر خاوية. العويل ذاته من القادمات الجدد، النباح ذاته من الحراس. كم الطغيان مضجرٌ في مخاض الدولة الجديدة. هي هي ذات الحبكة لا يستغنون عنها.

ظلت الشطائر هي وجبة الغداء، وفي يوم – اليوم ذي الطقس الماطر- أضافوا جزرة.

"لا شيء مثل وجبة متوازنة،" قالت أنيتا. كنا قد حرصنا جهدنا على الجلوس معًا معظم الأيام، وعلى الخلود للنوم على مقربة بعضنا من بعض. ما كانت بالصديقة المقربة قبل ذاك الوقت، زميلة في العمل وحسب، لكن وجودي مع شخص أعرفه منحني السلوان؛ شخص يجسد إنجازاتي السابقة، حياتي السابقة. لك أن تقول أننا ترابطنا.

"كنتِ قاضيةً مذهلة،" همست لي في اليوم الثالث.

"شكرًا، وأنت كذلك،" همست لها. كنتِ أرعدت أوصالي.

عن الأخريات في قسمنا لم أعرف إلا القليل. أسماؤهن، أحيانًا. أسماء مؤسساتهن. بعض تلك المؤسسات كانت متخصصة في الأحوال الشخصية – الطلاق، الحضانة، وما شابه – فإن كانت المرأة الآن هي العدو فلي أن أرى لماذا تم استهدافهن؛ غير أنّ حتى تخصصات القانون العقاري والملكية والشركات لم يوفر أي حماية للقانونيات من هذا الاستهداف. كان يكفيهم أن تكون المرأة حائزة على شهادة في القانون وتملك رحمًا: مزيجٌ فتّاك.

فترة الظهيرة كانت مخصصة للإعدام. الاستعراض ذاته نحو وسط أرض الملعب، مع النسوة المحكومات معصوبات الأعين. ومع كل إعدام بت ألاحظ تفاصيل أكثر: كيف أن البعض منهن بالكاد تمشي، كيف أنّ بعضهن بدَوْن بالكاد واعيات لما يجري. ما الذي جرى لهن؟ وعلى أي أساس تم انتقاؤهن للموت؟

الرجل عينه في لباسه الرسمي الأسود يعظ نذيره في الميكروفون:
والنصر يومئذ لله!

يعقبه دويّ إطلاق النار، السقوط، الأجساد الخاملة. من ثم التنظيف. كانت هناك شاحنة معدة للجثث. هل دفنوهن؟ هل حرقوهن؟ أم يا ترى وجدوا في الخيارين عناءً غير مستحق، فارتأوا الرمي بهن في مكب القمامة وتركهن للغربان.

اليوم الرابع شهد تنويعًا في العرض: ثلاثٌ من مطلقي النار كنّ نساء. لم يكنّ في بدلهن الرسمية، بل في أكسية بنية أشبه برداء الحمام، مع أوشحة معقودة أسفل أذقانهن. هذا لفت انتباهنا.

"وحوش!" همست إلى أنيتا.

"كيف جرؤن؟" همست لي.

في اليومِ الخامس كان هناك ست نساء في الأكسية البنية بين مطلقي النار. واهتياجٌ عظيم وقع يومها، فإحداهن، بدل أن تصوب سلاحها على النسوة معصوبات الأعين، استدارت وأطلقت النار على الرجال في الزي الأسود. فورًا ضربوها بالهراوة وأوقعوها أرضًا، مزقوها إربًا بوابل من رصاص. شهقةٌ جمعيّة انطلقت من المدرجات.

إذن، قلت في نفسي، هذا مخرج.

***

على مرِّ الأيام دفعاتٌ جديدة من المحاميات والقاضيات أضيفت إلى مجموعتنا. رغم ذلك فالمجموعة بقيت على حجمها، إذ كل ليلة عدد من النساء غادرننا. الواحدة منهن تغادر منفردة، بين حارسين. لم نعرف السبب وراء اختيارهن، ولا إلى أين أخذوهن. فلا واحدة منهن عادت.

في الليلة السادسة خطفوا أنيتا. الأمر وقع بكل هدوء. أحيانًا المستهدفات كنّ سيصرخن ويقاومن، لكن أنيتا لم تفعل. وأنا خجلة من الاعتراف لك بأني كنت

نائمة لحظة حذفها من الوجود. نهضت الصباح التالي على صوت الصافرة وبكل بساطة لم أجدها جانبي.

"يؤسفني ما جرى لصديقتك،" روحٌ لطيفة همست لي لدى وقوفنا في طابور الحمامات المزدحمة.

"ويؤسفني أنا أيضًا،" همست ردًّا عليها. لكن وقتها قلبي بدأ يقسى، بإرادتي، استعدادًا لما كنت موقنة أن الأيام القادمة ستحمله لنا. الأسف لا يحل شيئًا، قلت لنفسي. وعلى مرِّ الأعوام – الأعوام العديدة – أثبت قولي هذا صحته.

في الليلة السابعة حلّ الدور عليّ. أنيتا انتزعت بكل هدوء – هذا الهدوء الذي يترك في النفس أثرًا بالغًا، إذ بدا أن للمرء منا أن يتلاشى، هكذا، دون أن يلاحظ أحدٌ اختفاءه ولا يثير حتى أنّة – لكن في حالتي أنا، فالهدوء لم يكن ما نووا عليه.

أيقظوني بضربة جزمة على وركي. "أصمتي وانهضي،" نبح أحد الصوتين. وقبل أن أعي ما يجري وجدتني مرفوعة عن الأرض ومدفوعة بعنف أمامهما. غمغماتٌ من حولي تناهت إليّ، لا، وأخرى، اللعنة، وأخرى، الرب معك، وأخرى، كويدا موتشو[14].

"أستطيع أن أمشي وحدي!" قلت لهما، لكن لا فرق صنعه كلامي مع اليدين القابضتين على زنديّ، يدٌ على كل زند. حانت اللحظة: سيطلقون النار عليّ. لكن لا، صححت نفسي: ذاك نشاطٌ مخصص لبعد الظهيرة. غبية، رددت على حجتي: إطلاق النار نشاطٌ يقع في أي مكان وزمان، ومن قال أنّ الرمي بالرصاص هي وسيلة القتل الوحيدة.

طوال ذاك الوقت حافظت على رباطة جأشي، وهو ما قد يبدو لك عصيًّا على التصديق، أنا نفسي ما عدت أصدق: لم أكن هادئة وحسب، بل هادئة هدوء الأموات: ما دمت أعتبر نفسي ميتة أصلًا، لا هواجس عن المستقبل تقلقني، إذًا سأتقبل مصيري بشكل أيسر.

---

14 "Cuidate mucho": اعتني بنفسك بالإسبانية

ساقوني عبر الممرات، ثم خارجًا عبر باب خلفي وأقلوني في سيارة. لم تكن بعربة نقل هذه المرة بل سيارة فولفو. تنجيد المقعد الخلفي كان ناعمًا وصلبًا، هواء التكييف كان هبة نسيم من الجنة. للأسف الهواء العليل ذكرني بروائحي المتراكمة. ومع ذلك تلذذت بهذه الرفاهية، رغم واقع جلوسي محشورة بين الحارسين، كلاهما ضخم البنية. لا أحد منهما نطق بكلمة. فأنا لست سوى رزمة ينقلانها.

السيارة ركنت أمام مخفر شرطة. غير أنه ما عاد مخفر شرطة: الأحرف جرى تغطيتها، وعلى الباب الأمامي علقوا صورة: عينٌ مجنحة. شعار العيون، بالطبع لم أكن أعرف ذلك بعد.

ارتقينا درجات المدخل الأمامي، مرافقاي يسيران في خطىً واسعة، وأنا قدماي تزلّان، قدماي تؤلمانني: فقد أدركت إلى أي حد فقدتا حيويتهما، وإلى أي حد فردتا حذائي باتتا تالفتين، بعد تبللهما بالمطر، جلوسهما في الشمس الحارقة، وكل تلك القاذورات التي التصقت بهما.

مشينا عبر الممر. دمدمة رجالية جهورية تناهت إليّ من خلف الأبواب؛ رجالٌ في بزات رسمية مثل زي مرافقيّ تجاوزونا على عجل، أعينهم تومض عزمًا، وأصواتهم متقطعة. هناك شيءٌ ما في الزي الرسمي يجمد الأوصال، في شارة السلطة، في الدبوس اللامع. عالمٌ محرمٌ على الأخرق دخوله!

أدخلاني إحدى تلك الغرف. هناك، خلف مكتب كبير، جلس رجلٌ أشبه ببابا نويل: سمين، لحية بيضاء، وجنتان متوردتان، وأنفٌ محمر. رمقني بنظرة ثاقبة. "اجلسي،" قال لي.

"شكرًا،" أجبته. أصلًا ما كان لدي من خيار: فرفيقا رحلتي وضعاني على كرسي وثبتاني عليه بأربطة بلاستيكية، من الذراع للذراع. ثم غادرا الغرفة، وأغلقا الباب من خلفهما بهدوء. تولد لدي انطباع بأنهما تراجعا للخلف دون أن يديرا ظهريهما وكأنهما في حضرة ملك-إلهي عتيق، لكن ما كان بيدي النظر خلفي.

"سأعرِّف عن نفسي،" قال لي. "أنا الرئيس جود، من أبناء يعقوب." كان ذاك لقاؤنا الأول.

"أظنك تعرف من أنا." أجبته.

"أجل، أعرف،" أجابني في ابتسامة لا مبالية. "أعتذر عن الإزعاج الذي تعرضت له."

"لا شيء يذكر،" قلت له، في وجه خال من التعبير.

من الحماقة المزاح مع أولئك من يملكون سلطة مطلقة عليك. لا يروق لهم هذا؛ إذ سيظنون أنك غير مقدر للمدى الحقيقي لسلطتهم. الآن وقد بت أملك السلطة، فلا أشجع أبدًا هذا النوع من الصفاقة بين أتباعي. كنت طائشة وقتذاك. لكني تعلمت درسي.

ابتسامته تلاشت. "هل أنت شاكرة نعمة بقائك على قيد الحياة؟"

"أجل، بالتأكيد."

"هل أنت شاكرة أنّ الربّ خلقك امرأة؟"

"أظن، فلم أفكر أبدًا في الأمر."

"لست واثقًا أنك شاكرة كفاية."

"وكيف سأبدو لك شاكرةٍ كفاية؟"

"شاكرة كفاية حدّ التعاون معنا."

هل ذكرت لك نظارة القراءة مستطيلة العدسات التي يملكها؟ خلعها عنه وراح يتأملها. عيناه من دونها بدتا أخفّ بريقًا.

"وما الذي تعنيه بالتعاون؟"

"نعم أم لا."

"قد امتهنت سلك المحاماة، أنا قاضية. لا أوقع عقودًا على بياض."

"أنت لست بقاضية،" قال لي، "ليس بعد اليوم." ضغط على زر في جهاز الاستدعاء. "حجيرة الشكر[15]." ثم التفت إلَيّ: "فلنأمل أنك ستتعلمين فضيلة

15 "Thank Tank": مصطلحٌ ابتدعته آتوود من "Think Tank" والذي يشير إلى مؤسسة أو فريق بحثي يجمع خيرة العقول من اختصاصات مختلفة بهدف البحث والدراسة واستخلاص الحلول ووضع السياسات والقوانين.

الشكر. سأصلي لأجل تلك النتيجة."

وهكذا وجدت نفسي في حجيرة الشكر. زنزانة الحبس الانفرادي في المخفر سابقًا والتي أعيد استخدامها لهذا الغرض، مساحتها لا تزيد عن أربعة أقدام في أربعة أقدام. كان فيها رفٌّ للمنام، لكن لا فرشة. كان هناك سطل، والذي فورًا استنتجت أنه مخصص للحصيلة الثانية عن طعام الإنسان، كتلٌ منها كانت لا تزال في السطل، الرائحة شهدت على وجودها. كانت مزودة بإنارة فيما سبق، لكن ليس بعد الآن: لا شيء دل على وجود الإنارة سوى مقبس، وهذا المقبس فصلوا عنه التيار. (بالتأكيد بعد مرور برهة من الوقت أقحمت إصبعي فيه. لكنت فعلتَ ذلك أنت الآخر.) أي شعاعة نور لديّ وصلتني من الممر خارجًا، عبر الشقب الذي لاحقًا كانت ستصلني عبره الشطائر المحتومة. القضم وحدي في العتمة الحالكة، تلك كانت خطتهم لي.

تلمست طريقي في العتمة، وعثرت على لوح الفراش، وجلست عليه. أنا قادرة، قلت في نفسي. أنا قادرة على تجاوز الأمر.

وتجاوزته، لكن على النفس الأخير. إذ ستفاجأ بالسرعة التي ينهار بها العقل في غياب الآخرين. شخصٌ وحيد ليس بشخص كامل: فوجودنا يتجلى في علاقتنا بالآخر. كنت شخصًا وحيدًا: قاب قوسين أو أدنى من أن أصبح لا أحد.

قضيت ردحًا من الدهر في حجيرة الشكر، وقتًا لا أعرف مداه. بين الفينة والأخرى عينٌ تنظر إليّ عبر المصراع المنزلق. بين الفينة والأخرى يصدح صراخٌ وزعيقٌ متواصل من حجيرة بالقرب مني: الوحشية تستعرض عضلاتها. وأحيانًا يتناهى إليّ أنينٌ لا يتوقف؛ وأحيانًا أصواتٌ متقطعة من النخير واللهاث بدت لي جنسية، وعلى الأرجح كانت جنسية. فمسلوبات القوة مغريات.

ما كان لديّ من طريقة أعرف بها إن كانت تلك الأصوات حقيقية أم مجرد تسجيلات هدفها تحطيم أعصابي والفتّ من عزيمتي. أيًا تكن هذه العزيمة: فبعد مرور عدة أيام تهت عن الخطة. خطة الإبقاء على عزيمتي قوية.

بقيت مركونة في زنزانتي الشفقيّة أمدًا أجهله، لكن لا أظنني بقيت تلك الفترة الطويلة التي تخيلتها باعتبار طول أظافري لدى خروجي منها. عدا أنّ الوقت يمرّ مختلفًا متى ما أقفلوا عليك في الظلمة وحدك. يغدو أطول. لن تعرف حتى إن كنت نائمًا أم مستيقظًا.

هل كان من حشرات هناك؟ أجل، كان هناك حشرات. لم تقرصني، لذا أخمن أنها كانت صراصير. شعرت بأقدامها الصغيرة جدًا تمشي بحذر على وجهي، في خطوات حنونة، مترددة، وكأنما جلدي طبقة جليد رقيقة. لم أصفعها. فبعد فترة كنتَ ستمتنّ لأي لمسة.

وفي نهار، إن كان نهارًا، ثلاثة رجال اقتحموا زنزانتي دون تحذير مسبق، وسلطوا كشاف الضوء الساطع على عينيّ شبه العمياوين، طرحوني أرضًا، وأكرموا وفادتي بسلسلة من الرفس المصوّب بدقة، وغيرها من المجاملات. الأصوات الصادرة عني كانت مألوفة لديّ: فقد سمعتها من الحجيرات القريبة مني. لن أخوض في التفاصيل، عدا أنّ المسدس الصاعق كان ضمن الضيافة.

لا، لم أتعرض للاغتصاب. أظنهم اعتبروني مسنة وناشفة لهذا الغرض. أو لربما فاخروا أنفسهم بمعاييرهم الأخلاقية العالية، وإن أشك كثيرًا في هذا.

دورة الرفس والصعق تكررت لاحقًا مرتين. ثلاثة هو الرقم السحري.

هل بكيت؟ أجل: الدموع انهمرت من عينيّ المرئيتين، عينيّ الرطبتين الإنسانيتين المنتحبتين. لكن كانت لي عينٌ ثالثة، في منتصف جبيني. كان لي أن أشعر بها: عينٌ باردة، كما الحجر. وتلك العين ما ذرفت دمعة واحدة: بل أبصرت. ومن خلفها شخصٌ ما انفك يقول: يومًا ما سأثأر لنفسي. ولن أكترث كم من الوقت سيمر وكم من الخراء سأبتلع، لكني حتمًا سأثأر.

لاحقًا، بعد مرور وقت مجهول وبلا سابق إنذار، باب حجيرة الشكر فتح على مصراعيه، والضوء اندفق، ورجلان في الزي الأسود حملاني خارجًا. لا أحد منا نطق بكلمة. كنت حطامًا رثًا، وأكثر نتانة من ذي قبل. قطعنا الممر – سيرًا أو جرًا – ذاته

الذي قطعته، عبر الباب الأمامي ذاته الذي دخلته، وحملوني إلى عربة نقل مكيفة.

وإذ أجد نفسي في فندق – أجل، فندق! لم يكن أحد تلك الفنادق الفاخرة، بل أقرب إلى الهوليداي إن، إن كان هذا الاسم يعني لك شيئًا، وأظنك لن تعرفه. أين ولّت تلك الأسماء من الأيام الخوالي؟ ذهبت مع الريح. أو بالأحرى ذهبت مع فرش الطلاء وفرق الهدم، إذ فيما راحا يجرّاني عبر الردهة لمحت عمالًا من فوقي، كانوا يطمسون الحروف.

لم يكن في الردهة من موظفي استقبال مبتسمين يرحبون بي. بدلًا عنهم وقف رجلٌ يحمل قائمة. نقاشٌ دار بينه وبين مرشديّ السياحيّين، وبعدها دفعا بي نحو المصعد، قطعنا ممرًا مفروشًا بالسجاد بدأت تظهر عليه علامات غياب خادمات التنظيف. إن لم يتدارك أحدهم الأمر ففي شهرين سيغزو العفن الفطري السجاد، هذا ما خطر إلى دماغي الموحل وأنا أرى أحدهما يفتح بابًا ببطاقة.

"استمتعي بإقامتك،" قال أحد حارسيّ. لم يقلها في نبرة ساخرة.

"ثلاثة أيام من الراحة والاستجمام،" قال الآخر. "أيّ شيء تحتاجينه، اتصلي على مكتب الاستقبال."

الباب أقفل من خلفهما. على الطاولة الصغيرة كانت هناك صينية تحمل كأسًا من عصير البرتقال وموزة، سلطة خضراء، وطبقًا من السلمون المسلوق! سريرٌ مع ملاءات! عدة مناشف، بيضاء وشبه بيضاء! دشًّا! وأروعها كلها، مرحاضٌ بورسلاني جميل! خَرَرْتُ على ركبتيّ ساجدة، أردد من قلب قلبي صلاة شكر، صلاة حمد، لكن شاكرة لمن؟ حامدة لمن؟ ليس بيدي أن أقول لك.

بعد أن التهمت الطعام كله – وما اكترثت إن كان مسمومًا، فبهجتي به كانت عارمة – قضيت الساعات التالية أستحم كرةً تلو الكرة، فاستحمامٌ واحد ما كان ليكفي: فعلى جسدي تراكمت طبقاتٌ من القذارة رحت أشطفها وأشطفها عني. تفحصت آثار السحج الماثلة للشفاء، رضوضي الصفراء الأرجوانية. وزني فقدت منه الكثير: بتّ أرى أضلعي، وقد عاودت الظهور بعد عقد من الاختفاء إثر وجبات الغداء السريعة. على مرّ مسيرتي المهنية في القانون لم أر جسدي سوى

مركبة تنقلني من إنجاز إلى إنجاز، لكن الآن تولدت لديّ عاطفةٌ حنونة تجاهه. أظافر قدميّ الزهرية! نقش العروق المتحابكة على يديّ! غير أني عجزت عن تفحص وجهي جيدًا على انعكاس مرآة الحمام. إذ من ذا الشخص الذي كنت أراه؟ ملامحه بدت مبهمة.

بعدها استغرقت في النوم ساعات طويلة. ما إن استيقظت، وجدت وجبةً أخرى شهية في انتظاري، ستروغانوف باللحم مع طبق جانبيّ من الهليون، والحلوى طبقٌ من ميلبا الخوخ، ويا لبهجتي العظيمة! فنجان قهوة! لكنت أحببت كأسًا من المارتيني، لكني خمنت أن الكحول لا مكان له على قوائم طعام النساء في هذا العصر الجديد.

ملابسي السابقة النتنة أزالتها أياد خفية: بدا لي أني سأعيش في هذا الفندق مرتدية وحسب رداء الحمام الأبيض الوبريّ.

كنت لا أزال في حالة عقلية مشوشة. أحجية صور ألقوا بها على الأرض. لكن مع الصباح الثالث، أو لعلها بعد الظهيرة، استيقظت في ذهن أكثر صفاءً. بدا لي أني استعدت قدرتي على التفكير؛ بت قادرة على التفكير بـ أنا.

وكأنما كان هناك إقرارٌ بصحة تفكيري، وجدت كساءً جديدًا موضوعًا لي. ما كان بقلنسوة راهب وما كان مِسْحًا بنيّ[16]، لكن شبيهٌ بهما. كنت رأيته من قبل، في الاستاد، على أجساد النساء مطلقات النار. قشعريرةٌ سرت في عروقي.

ارتديته. إذ ما الذي كنت سأفعله عدا ذلك؟

16 المسح: كساءٌ من وبر الإبل يُلبَس ندمًا.

أخضرٌ ربيعيّ

25

والآن سأصف لك التحضيرات المؤدية إلى زواجي المقترح، إذ لمست اهتمامًا فضوليًّا بمعرفة الطريقة التي تسير عليها تلك الأمور في جلعاد. إثر المنعطف الذي أخذته في حياتي، تسنى لي مراقبة إجراءات الزواج من وجهتيْ النظر: العروس الجاري تحضيرها، والخالات المسؤولات عن التحضير.

الترتيبات المرافقة لزفافي لم تخرج عن الأعراف. طبيعة الأطراف ذات العلاقة، الموقع الاجتماعي في جلعاد، كان لهما بعض التأثير على تحديد الخيارات المتوفرة. لكن ظل الهدف الأساسي وراء كل زيجة هو هذا: لزامٌ على الفتيات من كل الأنواع – من العائلات الجيدة والعائلات الأقل حظًّا – الزواج في عمر مبكر، قبل أن يتعرضن للقاء صدفة مع رجل غير مناسب فيفضي إلى شيء كان يسمى بالـ الوقوع في الحب، أو الأسوأ، فقدان العذرية. والعار الأخير يجب تفاديه بأي ثمن، لأن عواقبه وخيمة. فالموت رجمًا ليست بالطريقة التي يتمنى بها أي والدين الموت لأطفالهم، كذلك فلطخته متى ما التصقت بعائلة فلن تمحى أبدًا.

مساء يوم استدعتني بولا إلى غرفة المعيشة – كانت قد بعثت إليّ بروز كي تنتزعني من قوقعتي، كذا وصفت الأمر – وأمرتني بالوقوف أمامها. فعلت كما أُمِرت، إذ ما الجدوى من العصيان. الرئيس كايل كان هناك هو الآخر، وكذلك الخالة فيدالا. كانت هناك خالة أخرى – خالة لم أرها من قبل – عرّفوا عنها بالخالة غابانا. قلت إني سررت للقائي بها، لكن لا بد أني قلتها في نبرة نكدة إذ فورًا قالت بولا، "أترين ما أعني؟"

"طبيعيٌّ في عمرها،" قالت الخالة غابانا. "حتى الفتيات اللواتي اعتدن أن يكن لطيفات مطيعات يمررن بهذه المرحلة."

"بالتأكيد هي بالغة كفاية،" قالت الخالة فيدالا. "قد علمناها كل ما بيدنا تعليمها إياه. إن بقيت في المدرسة لوقت أطول ستصبح مثيرة للفوضى."

"وهل حقًّا هي امرأة؟" سألت الخالة غابانا، ترمقني بنظرة ماكرة.

"بالطبع هي امرأة،" قالت بولا.

"لا شيء من هذا حشوات؟" سألت الخالة غابانا، تومئ تجاه صدري.

"بالتأكيد لا!"

"ستذهلين بما قد تفعله بعض العائلات. وركها جميلٌ وواسع، لا يشبه تلك الأحواض الضيقة. دعيني ألقي نظرة على أسنانك، آغنس."

وكيف كنت سأفعل ذلك؟ أفتح فمي بالواسع، كما أفعل عند طبيب الأسنان؟ بولا لاحظت حيرتي. "ابتسمي،" قالت لي، "على سبيل التغيير." سحبتُ شفتيّ وكشّرت.

"أسنانٌ مثالية،" قالت الخالة غابانا. "صحتها ممتازة. حسنٌ إذن، سنبدأ في البحث."

"فقط ضمن عائلات الرؤساء، ولا درجةٍ أدنى."

"مفهوم،" قالت الخالة غابانا. ثم راحت ترسم رموزًا على لوح مشبكي. اعترتني الرهبة وأنا أراقبها تحرك أصابعها الممسكة بقلم رصاص. يا ترى ما الرموز العظيمة التي دونتها التو؟

"أليست صغيرة بعد؟" سأل الرئيس كايل، من ما عدت أعتبره أبي. ولأول مرة مذ زمن طويل ساورني شعورٌ بالامتنان تجاهه.

"الثالثة عشرة ليست بالسن المبكرة." قالت الخالة غابانا. "لا تتخيل النفع العظيم الذي يعود به الزواج عليهن إن عثرنا على الزوج المناسب. يستقررن فورًا." ثم نهضت ووجهت حديثها لي، "لا تقلقي، آغنس." ثم وجهت حديثها إلى الرئيس كايل، "سيكون لك حرية الاختيار بين ثلاثة مرشحين على الأقل. سيعتبرونه شرفًا عظيمًا."

"أعلمينا إن كان هناك من أي شيء آخر تحتاجينه،" قالت بولا في نبرة دمثة. "وخير البر عاجله."

"مفهوم،" قالت الخالة غابانا. "بالطبع هناك التبرع المعتاد إلى أردوا هول، ما إن تنال النتيجة رضاكم؟"

"بالطبع،" قالت بولا. "سنصلي لأجل نجاح مهمتك. فليفتح الله علينا."

"تحت عينه،" قالت الخالة غابانا. الخالتان غادرتا، تتبادلان الابتسامات والإيماءات مع والديّ اللذين ليسا بوالديّ.

"لك أن تذهبي الآن آغنس، سنبقيك على اطلاع بتطورات الأمور،" قالت بولا. "فدخول المرأة جنة الزواج المباركة يتطلب الكثير من الحيطة، وأنا وأبوك سنحتاط لكل شيء نيابةً عنك. أنت فتاةٌ تملك كل الامتيازات. وآمل أن تقدري يومًا هذه الحقيقة." وابتسمت لي ابتسامتها المتكلفة الماكرة: فهي تعرف أن كل ما تقوله ليس سوى هراء. ففي الواقع لستُ سوى ورم لا بد أن يستأصل من حياتها بالطريقة المقبولة اجتماعيًا.

عدت إلى غرفتي. كان يجدر بي توقع هذا: فأمورٌ كهذه قد حصلت مع فتيات في عمر ليس أكبر بكثير من عمري. الفتاة منهن تحضر المدرسة اليوم واليوم التالي تختفي: فالخالات لا يطقن الجلبة والعواطف التي يستدرها الوداع. لاحقًا كانت ستصلنا إشاعات الخطوبة، من ثم الزفاف. وما كان جائزًا لنا حضور الزفاف حتى إن كانت الفتاة صديقتنا المقربة. فمتى ما بدأوا يهيؤون الواحدة منا للزواج، سيخفونها عن حياتها السابقة. والمرة القادمة التي تظهر فيها للعيان ستظهر في رداء الزوجة الأزرق الوقور، وعلى الفتيات غير المتزوجات حينها فسح الطريق لها حتى تعبر الباب.

وهذا سيغدو واقعي الآن. سأطرد خارج بيتي – بيت طابيثة، بيت صِلّة وفيرا وروزا – لأن بولا ما عادت تطيقني.

"لن تذهبي إلى المدرسة اليوم،" قالت بولا ذات صباح، وهكذا كان. لأسبوع لم

يحدث الشيء الكثير عدا مسح الدموع والاستغراق في غيظي، لكن بما أني مارست تلك الأمور في خلوة غرفتي، فما كان لها أي تأثير.

كان يفترض بي أن أنتهي من تطريز بيتي بوان حقودة، أشغل بها عقلي – التصميم أخذ شكل وعاء فاكهة مناسب لتنجيد مسند قدمين، هدية إلى زوجي المستقبلي، أيًّا تكن هويته. في المربع من زاوية مسند القدمين طرزت جمجمة صغيرة: تمثل جمجمة زوجة أبي، بولا، لكن إن سألني أحدهم عنها فكنت أنوي القول إني قصدت بها تذكرة الموت، أننا جميعًا سنلقى حتفنا يومًا.

لا أظن أحدًا كان سيعترض على ذكر الموت، كونه ثيمة ورعة: فهناك جماجم كهذه منقوشة على شواهد القبور في فناء الكنيسة القديمة قرب مدرستنا. زيارة القبور محرّمة علينا عدا في مراسم الدفن: فأسماء الأموات منقوشةٌ في الحجر، وقد تغوينا الزيارة إلى قراءتها، فتضل بنا إلى طريق الفسوق والانحلال. القراءة ليست للفتيات: الرجال وحسب القادرون على التعامل مع قوة عظيمة كهذه؛ وبالطبع الخالات، لأنهن لسن مثلنا.

كنت بدأت أتساءل كيف للمرأة أن تتحول إلى خالة، فالخالة إسْتي قالت مرة أن نداءً من الرب سيصطفيك ويختارك لمساعدة كل النساء وليس عائلة واحدة وحسب؛ لكن كيف للخالات أن تلقّيْن هذا النداء الرباني؟ ومن أين استمددن قوتهن؟ هل يملكن دماغًا خاصًا بهن، دماغًا لا أنثوي ولا ذكوري؟ هل هن أصلًا نساء أسفل زيهن الرسمي؟ هل يعقل أنهن في الحقيقة رجالٌ متنكرون؟ مجرد الشك في ذلك لا يقبله عقل، لكن يا للفضيحة إن تبين أنها الحقيقة! ويا ترى كيف سيبدون الخالات إن أجبرتهن على ارتداء الزهري؟

في اليوم الثالث من تبطّلي، بولا أمرت المرثيات بإحضار عدة كراتين ورقية إلى غرفتي. فقد حان الوقت لتوضيب أغراضي الطفولية، كذا قالت. مقتنياتي ستخزن بما أني في القريب العاجل لن أعود أعيش هنا. من ثم، ما إن تستقر أموري في بيتي الجديد، سأقرر أي من تلك المقتنيات سأتبرع بها للفقراء. فمثلًا،

فتاة أقل حظوةً مني، من عائلة كفاف، ستبتهج أيما ابتهاج ببيت دماي؛ حتى وإن كان في حال رديئة، فشيءٌ من الطلاء هنا وهناك يصنع العجائب.

بيت دماي ظل قائمًا قرب نافذتي على مدى أعوام، الساعات السعيدة التي قضيتها برفقة طابيثة لا تزال محفوظة فيه. وها هي دمية الزوجة جالسة إلى مائدة الطعام؛ وها هن الفتيات الصغيرات يحسنّ التصرف؛ وها هنّ المرثيات واقفاتٌ في المطبخ، يصنعن الخبز؛ وها هو الرئيس، آمنًا يجلس في مكتبه المقفل عليه. ما إن غادرت بولا الغرفة، اقتلعت دمية الزوجة من كرسيها ورميت بها على الحائط.

الخطوة التالية التي أخذتها الخالة غابانا كان إحضار فريق جهاز العروس، كما وصفتهم بولا، بما أني عاجزة عن اختيار ما يناسبني من ملابس إلى أن يحل موعد الزفاف، لا سيما ما سيناسبني في الزفاف نفسه. عليك أن تعي شيئًا، ألا وأني في أعين الجميع لم أكن شخصًا في حد ذاته – إذ حتى مع انتمائي إلى الطبقة النخبوية، ففي النهاية ما كنت سوى فتاة حبيسة في انتظار عقد القِران. عقد القِران: كم رنتها معدنية باهتة، رنة أصفاد مشدودة الوثاق.

فريق جهاز العروس تولى مسؤولية إعداد ما لك أن تسميه المسرح: الأزياء، المشروبات، والديكورات. ولا واحدة منهن امتلكت شخصية طاغية، وهو ما يفسر السبب وراء إحالة تلك المهام الوضيعة نسبيًا إليهن؛ وبذا ورغم أنّ كل الخالات ينتمين إلى مقام عال، فبولا – صاحبة الشخصية الطاغية – راحت تتأمر على فرقة خالات الزفاف، ضمن الحدود طبعًا.

ثلاثتهن صعدن إلى غرفتي، بولا ترافقهن، حيث – وقد فرغت من مشروع مسند القدمين – كنت أسلي نفسي قدر المستطاع بلعبة سوليتير.

مجموعة ورق اللعب التي لديّ كانت اعتيادية في جلعاد، لكن في حال كانت هذه المجموعة مجهولة للعالم الخارجي فدعني أصفها لك. بطبيعة الحال لم يكن هناك من أحرف على أوراق الآص، الملك، الملكة، والولد، وما كان هناك من أرقام على أوراق العد. الآص كان عينًا ناظرة من خلف غمامة. الملك كان الرئيس في زيه الرسمي، الملكة كانت الزوجة، والولد كان الخالة. أوراق الوجوه هي أقوى الأوراق. ومن بين أوراق الحاشية، فالبستوني هو الملاك، الإسباتي هو الوصي، الديناري هي المرثا، والقلوب هي الجارية. كل ورقة وجه كانت مؤطرة بأشكال أصغر: فزوجة الملاك الزرقاء مؤطرة بملائكة مدرعة سود، ورئيس الجواري مؤطر برسوم صغيرة جدًا للجواري.

لاحقًا، ما إن نلت تصريح دخول مكتبة أردوا هول، بحثت في شأن تلك

الأوراق. في التاريخ القديم، القلوب كانت طاسًا مقدسة. ربما لهذا السبب الجواري كنّ القلوب: لأنهن أوعية ثمينة.

الخالات الثلاث من فرقة جهاز العروس تقدمن نحو غرفتي. بولا قالت، "آغنس، ضعي اللعبة عنك وانهضي، رجاءً،" في أرق نبرات صوتها وأكثرها عذوبة ـ صوتها ذاك الذي أمقته بشدة لأني وحدي أسمع الاحتيال فيه. قمت بما أمرت به، وعرّفت بولا عن الخالات الثلاث: الخالة لورنا، ريانة الوجه ومتبسمة؛ الخالة سارة لي، محدودبة الكتفين وصموتة؛ والخالة بيتي، مرتبكة ومتأسفة.

"قد قدمن لأخذ قياساتك،" قالت بولا.

"ماذا؟" سألت متعجبة. فلا أحد تكلف إعلامي بأي شيء مسبقًا؛ إذ لم يروا الداعي إلى ذلك.

"لا تقولي ماذا، بل عفوًا،" قالت بولا. "القياسات لأجل ملابسك التي سترتدينها في المدرسة الإعدادية للزواج."

بولا أمرتني بخلع ثوب المدرسة الزهري عني، إذ كنت لا أزال أرتديه بما أني لا أملك ملابس من نوع آخر، عدا ثوبي الأبيض المخصص للكنيسة. وقفت في منتصف الغرفة، في خفيّ. الهواء ما كان باردًا، لكن جلدي اقشعرّ، مع كل تلك الأعين تنظر إليّ وتتفحصني. الخالة لورنا أخذت قياساتي، والخالة بيتي دونتها على مفكرتها الصغيرة. رحت أمعن النظر فيها؛ إذ دومًا ما أسرني منظر الخالات وهن يدونّ أسرارهن الصغيرة إلى أنفسهن.

ثم قيل لي أن بإمكاني ارتداء ثوبي، ففعلت.

دار نقاشٌ حول احتياجي إلى ملابس داخلية أثناء فترة انتظار القران. الخالة لورنا ظنت أن من اللطيف أن أحصل على مجموعة جديدة، لكن بولا اعترضت بذريعة أن فترة الانتظار ستكون قصيرة وملابسي الداخلية الحالية تلائمني. بولا انتصرت.

الخالات الثلاث رحلن. وبعد عدة أيام عدن مع ثوبين، أحدهما للربيع والصيف والآخر للخريف والشتاء. ثيمة الثوبين اللون الأخضر: أخضرٌ ربيعيّ

موشى بالأبيض – زركشة الجيب والياقة – للربيع والصيف، وأخضرٌ ربيعيّ موشى بالأخضر الغامق للخريف والشتاء. كنت قد رأيت فتيات في عمري يرتدين أثوابًا كهذه، وكنت مدركة لمغزاها: فالأخضر الربيعيّ يرمز إلى ورق الشجر النضر، أي أن الفتاة مستعدة للزواج. غير أنّ تبذيرًا كهذا كان محرّمًا على فتيات الكفاف.

الثوبان كانا مستعملين، لكن ما كانا رثّين، إذ لا فتاة ارتدت الأثواب الخضراء لفترة طويلة. تم تعديل الثوبين على مقاسي. حاشية التنورة أعلى من الكاحل بخمس بوصات، طرف الكمين يصل المعصم، الخصر مهلهل، والياقة عالية، وكل ثوب جاء مع قلنسوة مطابقة، ذات حافة وشريط معقود. كرهت الثوبين، لكن لم أمقتهما: إن كنت سأجبر على ارتداء ملابس، فهذان الثوبان ليسا بأسوأ الموجود. كما أني وجدت بارقة أمل في منحي ثوبين للمواسم كلها: فلربما سيتسنى لي اجتياز الخريف والشتاء دون زواج.

أما أثوابي الخوخية والزهرية القديمة فالخالات أخذنها كيما ينظفنها ويعدن منحها إلى فتيات أصغر. فجلعاد في حرب؛ وفي جلعاد لا نحب هدر أي شيء.

ما إن تحصلت على طقم لباسي الأخضر، التحقت بمدرسة أخرى – مدرسة الياقوت الإعدادية للزواج، مدرسة للنساء اليافعات من العوائل الرفيعة يتعلمن فيها ما يلزمهن استعدادًا للزواج. شعارها مقتبسٌ من الإنجيل: "امرأةٌ فاضلةٌ من يجدها؟ لأن ثمنها يفوق الياقوت."

الخالات هنّ من أدرن هذه المدرسة أيضًا – ورغم أنهن ارتدين نفس الزي الرسمي الكئيب – لكن تلكن الخالات كنّ نوعًا ما أكثر تأنقًا. إذ كان يفترض بهن أن يعلمننا كيف نؤدي دورنا الزوجي بصفتنا ربات بيوت عالية المقام. أقول "نؤدي دورنا" قاصدةً معنييه: فنحن لسن سوى ممثلات على مسرح بيوتنا المستقبلية.

شونميّة ورفقة من مدرسة فيدالا كنّ معي في ذات الفصل: ففتيات فيدالا غالبًا ما يلتحقن بمدرسة الياقوت. لم يكن قد مرّ وقتٌ طويل على رؤيتي إياهما آخر مرة، لكنهما بدتا أكبر عمرًا. شونميّة صارت تلف ضفيرتيها السوداوين خلف رأسها وحفّت حاجبيها. ما كنت لتصفها بالجميلة، لكنها بالتأكيد ظلت مفعمة بالحيوية كما عهدتها دومًا. ودعني أشر هنا إلى أنّ مفعمة بالحيوية في قاموس الزوجات صفةٌ تقال في نبرة استهجان: بمعنى طائشة ووقحة.

ما برحت شونميّة تقول كم هي متشوقة للزواج. كان الموضوع الوحيد الذي ما انفكت تتحدث فيه – أي نوع من الأزواج يخضعون للتدقيق لأجلها، وأي نوع تفضل، إلى أيّ حدٍّ لا تطيق الانتظار. رغبت في أرمل يبلغ الأربعين، لا يكنّ أي حبٍّ لزوجته الأولى ولا أطفال لديه، عالي المنزلة ووسيم. لم ترغب في أحمق لم يسبق له ممارسة الجنس من قبل لأنّ الوضع سيغدو غير مريح – ماذا إن لم يعرف أين يضع شيئه؟ لطالما كانت متهورة اللسان، لكن فلتاتها استفحل. أظنها التقطت تلك التعابير الجديدة والبذيئة من المرثا في بيتها.

رفقة ازدادت نحولًا. عيناها الخضراوان البنيتان، واللتان دومًا كانتا كبيرتين بالتناسب مع تقاسيم وجهها، صارتا أكبر. أخبرتني أنها سعيدة بوجودها في

ذات الفصل معي، لكنها ليست سعيدة بوجودها في هذا الفصل بالذات. رجت وتوسلت عائلتها ألا يزوجوها بعد – فهي لا تزال يافعة جدًا، ليست مستعدة ـ إلا أن العائلة تلقت عرضًا ممتازًا: الابن البكر لرئيس من أبناء يعقوب، والابن في طريقه إلى أن يغدو رئيسًا. أمها أخبرتها بأن تكف عن التصرف بسخافة، فلن تتلقى عرضًا آخر كهذا طيلة حياتها، وإن لم تقبل بهذا العرض فالعروض ستسوء وتسوء كلما تقدمت بالعمر. وإن بلغت الثامنة عشرة ولم تتزوج ستعتبر بضاعةً بائرة وستخرج من قوائم اختيار الرؤساء: ستكون محظوظة إن قبل بها وصيّ. أبوها، الدكتور غروف طبيب الأسنان، قال إن ليس من المعتاد أن يفكر رئيس في اختيار فتاة مثلها من طبقة أدنى، ورفضها له سيعد إهانةً بالغة، وهل سيرضيها التسبب لأبيها بالأذى؟

"لكني لا أريد!" كانت ستصيح منتحبة متى ما غادرت الخالة ليز الفصل. "أن يزحف رجلٌ على سائر جسدك، مثل، مثل، مثل دودة! كم أكرهه!"

وخطر لي كيف أنها لم تقل إنها ستكرهه، بل أنها أصلًا تكرهه. يا ترى ما الذي جرى لها؟ ما الفعل الشائن الذي ارتكب في حقها وتعجز عن البوح به؟ تذكرتُ انزعاجها لدى سماعها قصة السّريّة التي تقطعت اثنتي عشر قطعة. لكني لم أرغب في سؤالها: فعار فتاة أخرى قد تلصق لطخته بك إن اقتربت كثيرًا منها.

"لكن لن يؤلمك إلى هذا الحد،" حاولت شونميّة طمأنتها، "فكري في كل الأشياء التي ستملكينها! بيتك، سيارتك أوصياؤك، ومرثياتك! وإن عجزت عن إنجاب طفل سيمنحونك كل ما يلزمك من الجواري!"

"ما همتني السيارات ولا المرثيات، ولا حتى الجواري،" قالت رفقة. "هو ذاك الشعِور الفظيع، المقرف، الرطب."

"مثل ماذا؟" سألت شونميّة ضاحكة. "أتعنين ألسنتهم؟ لن يكون أسوأ من لعقة كلب!"

"بل أسوأ بكثيرا!" قالت رفقة. "فالكلبُ يلعقك حبًّا."

عن نفسي لم أفصح بكلمة عن شعوري تجاه تزويجي. إذ استحال عليّ

مشاركة قصة موعدي في عيادة الأسنان مع دكتور غروف: إذ يظل والد رفقة، وتظل رفقة صديقتي. وعلى أي حال، ردة فعلي كانت أقرب إلى القرف والاشمئزاز، ومقارنةً بالرعب الحقيقي الذي كانت تعيشه رفقة، فردة فعلي بدت تافهة. فهي آمنت حقًّا أن الزواج سيطمسها، سيسحقها، سيلغيها، وكما الثلج ستذوب ولن يبقى لها من أثر.

بعيدًا عن سمع شونميّة، سألتها لماذا لا تطلب المساعدة من أمها. وإذ دموعها تسيل: أمها ليست بأمها الحقيقية، المرثا في بيتها أعلمتها بالحقيقة. من المخز لها أن تقر بهذا، لكن أمها الحقيقية جارية – "مثل أمك، آغنس." وأمها الرسمية استغلت هذه الحقيقة ضدها: لم عساها تخاف مضاجعة الرجال، مع أنّ أمها الزانية، أمها الجارية، ما اعتراها خوفٌ كهذا؟ بل على العكس تمامًا.

تلك اللحظة عانقتها، وهمست لها، "أفهمك."

كان يفترض بالخالة ليز أن تعلمنا آداب السلوك والأعراف: أي شوكة نستخدم، كيف نصب الشاي، كيف نكون رؤومات لكن حازمات مع المرثيات، وكيف نتفادى التورط العاطفي مع جوارينا، في حال اتضح أننا في حاجة إلى جارية. كلّ امرأة لها مكانها في جلعاد، وكلٌّ تخدم في موقعها، والكل متساويات في عين الرب، لكن كلٌّ وهبها الرب نعمة تختلف عن الأخرى، قالت الخالة ليز. فإن قُدِّر لتلك النعم أن تختلط بعضها ببعض وكل واحدة منا حاولت أن تكون كل شيء، فالفوضى والأذى هي العاقبة الوحيدة. فلا أحد يتوقع من البقرة أن تكون عندليبًا!

علمتنا مبادئ البستنة، لا سيما زراعة الورد – فالبستنة هي الهواية المناسبة للزوجات – وكيف نحكم على نوعية الطعام الذي يطهى لنا ويقدم على مائدتنا. ففي هذه الأيام التي نعيشها من ندرة الموارد الوطنية فمن المهم جدًا ألا نهدر الطعام أو نقصر في الاستفادة منه بالكامل. فحيواناتٌ ماتت لأجلنا، ما برحت تذكرنا الخالة ليز، وخضراواتٌ أيضًا، لأردفت في نبرة فاضلة. لذا وجب علينا أن نكن شاكرات، حامدات للرب على هبة محصوله. ولكان تصرفًا ينم عن قلة احترام – بل حتى إثمًا عظيما – في عين العناية الإلهية إذا ما أسأنا إلى الطعام بطهيه على نحو سيئ إذ سيرمى دون أن يتناوله أحد.

وهكذا تعلمنا كيف نسلق البيضة على النحو الصحيح، على أي درجة حرارة يجب أن نقدم فطيرة الكيشة، والفرق بين الحساء الخفيف والحساء الغليظ. ما عدت أتذكر الكثير من تلك الدروس، إذ لم أحتل الموقع الذي يتطلب مني تطبيقها.

كذلك راجعت معنا الصلوات الملائمة التي يجب أن نستهل بها وجباتنا. الزوج، بصفته رب البيت، هو من سيتلو تلك الصلوات متى ما كان حاضرًا، لكن في حال غيابه – وسيغيب كثيرًا، لاضطراره العمل لساعات طويلة، ولا يتوجب بنا أبدًا إبداء أي انتقاد على تأخره – وقتها سيغدو واجبنا نحن تلاوة تلك الصلوات نيابةً

عن، أملت الخالة ليز، أطفالنا الكثيرين. وهنا كانت ستبتسم لنا ابتسامةً صغيرة مشدودة.

في رأسي ظلت تتردد الصلاة المختلقة التي ابتدعناها أنا وشونميّة كيما نسلي أنفسنا أيام كنا صديقات مقربات في مدرسة فيدالا:

ربِّ بارك كوبي الفائض
الذي فاض على الأرض:
فاض لأني تقيأته كله
فهلّا منحتني الآن كوبًا آخر.

أصوات قهقهتنا كانت ستخبو في المدى. إلى أي حدٍّ ظننا أننا نسيء التصرف وقتذاك! إلى أي حدٍّ بدت لي أعمال التمرد تلك بريئة لا جدوى منها الآن وأنا أعد نفسي لحياتي الزوجية.

مع مرور الصيف بطيئًا متثاقلًا، علمتنا الخالة ليز مبادئ التصميم الداخلي، مع الأخذ في الاعتبار أنّ القرار الأخير في تصميم بيوتنا سيعود بالطبع إلى أزواجنا. ثم علمتنا تنسيق الزهور، على النمط الياباني والنمط الفرنسي.

مع بلوغنا النمط الفرنسي، تملّك رفقة اكتئابٌ عميق. فزفافها تقرر موعده في نوفمبر. والرجل الذي اختير لها أدى زيارته الأولى إلى عائلتها. استقبلوه في غرفة المعيشة، حيث دخل في أحاديث جانبية مع أبيها فيما جلست هي في صمت – فهذا هو البروتوكول، ومتوقعٌ مني أن أطبقه أنا الأخرى. قالت إن منظره أقرفها. فوجهه مبثر مع شارب هزيل، ولسانه كان أبيض.

شونميّة ضحكت وقالت إنه ربما معجون أسنان، لا بد قد فرّش أسنانه قبل مجيئه لأنه تمنى أن يترك انطباعًا جيدًا لديها، وأليس ما فعله تصرفًا لطيفًا؟ لكن رفقة تمنت المرض لنفسها، مرضًا لا مستعصيًا وحسب بل معديًا، لأن وقتذاك لن

يكون لديهم من خيار آخر سوى إلغاء الزفاف.

في اليوم الرابع من درس تنسيق الزهور على النمط الفرنسي، وبينما كنا نتعلم إعداد مزهريتين متناظرتين في تشكيل متباين ومتكامل، رفقة شقت معصمها الأيسر بالمقراض ونقلوها إلى المستشفى. الجرح لم يكن مميتًا، لكنها نزفت الكثير من الدماء. مما أفسد تنسيق زهور أقحوان المروج البيضاء.

شاهدتها وهي ترتكب فعلتها. ولن أنسى أبدًا تعابير وجهها: ضراوةٌ ما رأيتها قط تجلت بغتة في ملامحها، ما أثار فيّ قلقًا عظيمًا. وكأنما تحولت إلى شخص آخر – شخص همجيّ – وإن للحظة. إذ ما إن وصل المسعفون وأخذوها بعيدًا، ملامحها استحالت صافية وهادئة.

"الوداع، آغنس،" قالت لي، ولم أعرف بم أجيبها.

"تلك الفتاة ليست ناضجة،" قالت الخالة ليز. كانت تصفف شعرها في تسريحة شنيون، تصفيفة شعر جدّ أنيقة. نظرت إلينا من لحظ عينها، من أعلى أنفها الارستقراطيّ. "على عكسكن بناتي،" أردفت قائلة.

وأشرق وجه شونميّة – فهي كانت على أهبة الاستعداد للنضوج – أما أنا فتدبرت ابتسامة صغيرة. أظنني تعلمت مبادئ حسن التصرف في تلك المدرسة؛ أو بالأحرى، كيف أصبح ممثلة. أو على الأصح، كيف أصبح ممثلة أفضل من ذي قبل.

المِسْح

سِفْرُ أَرْدوا هول

29

ليلة البارحة راودني كابوس. كابوسٌ سبق أن راودني.

في بدايات هذا التدوين كنت قد ذكرت لك أني لن أضجرك بسرد أحلامي عليك. لكن وبما أنّ هذا الحلم ذو صلة بما أوشك على قوله لك، سأستثنيه. وبالطبع أنت تملك كامل السيطرة في اختيار ما تقرأ، ولعلك ستختار تجاوز حلمي هذا.

أنا واقفة في الاستاد، في الكساء البني الشبيه بالمسح الذي تركوه لي في غرفة الفندق المعاد تأهيلها حيث قضيت نقاهتي من حجيرة الشكر. واقفاتٌ في الصف معي نساء أخريات يرتدين ذات الكساء التكفيريّ، ومعنا يقف عدة رجال في الزي الرسمي الأسود. كل واحدة منا تحمل بندقية. ونعرف أن بعض تلك البنادق ملقمة بالرصاص الحي وأخرى ملقمة بطلقات فارغة؛ ومع ذلك فكلنا قتلة، لأن النية هي التي تحاسب عليها.

قبالتنا صفان من النساء: صفٌ واقفات، وصفٌّ راكعات. لسن معصوبات الأعين. أرى وجوههن. أعرفهن كلهن، كل واحدة منهن. صديقاتٌ سابقات، عميلاتٌ سابقات، زميلاتٌ سابقات؛ ومن العهد القريب، النسوة والفتيات اللواتي مررن عبر يديّ. الزوجات، البنات، الجاريات. بعضهن مبتورات الأصابع، بعضهن مبتورات الأقدام، بعضهن عوراوات. أعناق بعضهن مطوقة بالحبال. أنا من حكم عليهن، وفيهن نفذت حكمي: فمتى ما كنت قاضيًا، تظل دومًا قاضيًا. عدا أنّ جميعهن مبتسمات. ويا ترى ما الذي ألمحه في أعينهن؟ الخوف، الازدراء، التحدي؟ الشفقة؟ يستحيل عليّ أن أعرف.

النساء منّا من يحملن البنادق يرفعنها. نطلق النار. شيءٌ ما يخترق رئتيّ. أعجز عن التنفس. أختنق، وأقع.

أستيقظ من الكابوس أتصبب عرقًا باردًا، خفقات قلبي متسارعة. يقولون أنّ الكابوس قد يرعبك حدّ الموت، يوقف قلبك حرفيًّا عن الخفقان. هل لحلم سيئ أن يقتلني، في ليلة ما؟ قتلي سيتطلب أكثر من هذا.

كنت قد سردت عليك عزلتي الإجبارية في حجيرة الشكر والرفاهية التي عشتها تاليًا في غرفة الفندق. التجربة كانت أشبه بوصفة إعداد شريحة لحم قاس: اطرقها جيدًا، ثم خللها وطرّيها.

بعد مضيّ ساعة على ارتدائي الكساء التكفيريّ الذي وفروه لي سمعت طرقةً على الباب؛ موكبٌ من حارسين وقفا في انتظاري. قادا بي عبر الممر إلى غرفة أخرى. محاوري ذو اللحية البيضاء من وقت ما قبل حجيرة الشكر كان في انتظاري، عدا أنه لم يكن جالسًا خلف مكتب، بل جالسًا بأريحية على مقعد ذي ذراعين.

"تفضلي بالجلوس،" قال الرئيس جود. هذه المرة لم أجبر على الجلوس في كرسي، بل جلست بكامل إرادتي.

"آمل أنّ نظامنا البسيط الصارم لم يأت عسيرًا جدًا عليك." قال لي، ثم أردف، "لم نطبق عليك سوى المستوى الأول." ما كان من شيء لديّ أقوله، لذا لم أنبس بكلمة. "هل وجدته تنويريًّا؟"

"ما الذي تعنيه؟"

"هل أبصرت النور؟ النور الإلهي؟" وما الإجابة الصحيحة على هكذا سؤال؟ فهو سيعرف إن كنت كاذبة.

"كان تنويريًّا." أجبته. بدت لي إجابةً وافية.

"ثلاثٌ وخمسون؟"

"تعني عمري؟ أجل."

"كان لك عشّاق." تساءلت كيف عرف بذلك، وشعرت بالإطراء على تعنيه

البحث.

"لوقت قصير،" أجبته. "عدة عشاق. لا ارتباطًا طويلًا." يا ترى هل وقعت مرةً في الحب؟ لا أظن. فتجاربي مع الرجال في عائلتي لم تترك فيّ الكثير من الثقة. لكن الجسد له رعشاته، والانصياع له إما مذل أو مرض. لم أتعرض لأذىً دائم، ومثلما تلقيت المتعة منحتها، ولا أحد من عشاقي اعتبر صرفي السريع له من حياتي إهانةً بالغة. فلماذا أتوقع المزيد؟

"أجهضتِ؟" إذن كانوا ينقبون في السجلات.

"مرة واحدة وحسب،" أجبته بحماقة. "كنت يافعة جدًا."

نخر مستنكرًا. "هل أنت مدركة أن إزهاق الروح بهذا الشكل هي الآن جريمة تعاقب بالموت؟ والقانون سار بأثر رجعي؟"

"لم أكن مدركة." قشعريرة سرت فيّ. لكن إن كانوا ينوون قتلي لا محالة، فعلام هذا الاستجواب؟

"زواجٌ واحد؟"

"قصير الأمد. كانت غلطة."

"الطلاق الآن جريمة،" عقّب قائلًا. أنا لم أقل شيئًا.

"لم تنعمي ببركة الأطفال؟"

"كلا."

"هدرت جسدك الأنثوي؟ حرمته وظيفته الطبيعية؟"

"لم تتسن الفرصة،" قلت له، أحاول جهدي ألا يشوب صوتي أي انفعال.

"للأسف،" أجابني قائلًا. "في ظل قيادتنا كل امرأة فاضلة سيتسنى لها أن تحظى بطفل، بطريقة أو بأخرى، كما انتوى الرب. لكن أظنك كنت منشغلة جدًا في، آه، ما تسمينه مستقبلك الوظيفي."

تجاهلت نبرة الازدراء. "أجل، جدول عملي كان ضاغطًا."

"كنت معلمة مدرسة لفصلين دراسيين؟"

"أجل. لكني عدت إلى ممارسة القانون."

"قضايا منزلية؟ الاعتداء الجنسي؟ مجرمات؟ مومسات يقاضين الدولة لأجل الحصول على حماية أكثر؟ قضايا الملكية في الطلاق؟ سوء الممارسة الطبية، لا سيما أطباء النسائية؟ انتزاع أطفال من الأمهات غير اللائقات؟" كان قد تناول لائحة وراح يقرأ منها.

"أجل، متى ما وجدتُ الأمر ضروريًا."

"خدمتِ فترة قصيرة كمتطوعة في مركز طوارئ الاغتصاب؟"

"حين كنت طالبة."

"ملاذ الشارع الجنوبي، أليس كذلك؟ وتوقفت عن التطوع لأن...؟"

"انشغلت كثيرًا،" أجبته. ثم أردفت حقيقةً أخرى، إذ لم أر الجدوى في عدم التزام الصدق: "أحبطني كثيرًا."

عيناه لمعتا. "معك حق، لهو أمرٌ يحبط الروح. كل هذا العناء العبثي الذي يعرضون له النساء. نحن ننوي التخلص من كل تلك المراكز. موقن أنك تتفقين معي." تريث، وكأنما يمنحني لحظة أتفكر مليًا فيما قال. ثم ابتسم مرة أخرى. "حسنٌ، أيهما؟"

نفسي القديمة لكانت سألت، "أيهما ممّ؟" أو شيئًا عابرًا من هذا القبيل. لكني قلت، "تعني نعم أم لا؟"

"صحيح. ها قد اختبرت عواقب الـ لا، بعضًا منها. أما الـ نعم ... دعيني فقط أقول لك أنّ من ليسوا معنا فهم ضدنا."

"حسنٌ،" قلت له. "إذن هي نعم."

"عليك إثباتها،" قال لي. "أنك تعنينها. هل أنت مستعدة لفعل ذلك؟"

"نعم،" قلتها مرةً أخرى. "كيف؟"

ووجدتني في ابتلاء. ولعلك شككت مسبقًا في وقوعه. كان أشبه بكابوسي، عدا أنّ النساء كنّ معصوبات الأعين وحين أطلقت النار لم أقع. هذا كان امتحان الرئيس جود لي: إن سقطتِ فيه، فالتزامك بطريق الصواب الوحيد سيبطل.

اجتازيه، ويداك ستتلطخان بالدم. كما سبق وقال أحدهم، إما نَغْلَق ببعض أو نُعلّقَ منفصلين[17].

لكني أظهرت وهنًا: تقيأت بعد فعلتي.

أنيتا كانت إحدى النساء المستهدفات. لماذا اختاروها للموت؟ لا بد أنها قالت لا بدلًا عن نعم، حتى بعد حجيرة الشكر. لا بد أنها آثرت المخرج السريع. لكني في الواقع لا أملك فكرة عن سبب اختيارهم لها. لربما السبب بكل بساطة هو هذا: لم يروا فيها نفعًا للنظام الجديد، على خلافي أنا.

هذا الصباح استيقظت أبكر من المعتاد بساعة كي أختلس لحظات معك، قارئي العزيز. فقد غدوتَ هوسًا – خِلّي الوحيد، المؤتمن على أسراري – إذ لمن عساي أقول الحقيقة إلا لك؟ من لي في هذه الحياة أثق فيه إلاك؟

لكن حتى أنت لا أملك أن أثق فيك، من على الأرجح سيغدر بي في النهاية. ستتركني مهملة في زاوية مغبرة عثة ومعنكبة أو مدسوسة أسفل سرير وتذهب أنت للنزه والرقص – أجل، الرقص سيبعث من جديد، فمن العصيّ وأده إلى الأبد – أو في مواعيد غرامية مع جسد دافئ، يفوق جاذبية وفتنة رزمة الورق المجعدة التي سأضحو عليها. لكني منذ الآن أسامحك. فأنا الأخرى، فيما مضى، كنت مثلك: مدمنة حتى الموت على الحياة.

وما بالي أتعامل مع وجودك على أنه أمرٌ مسلمٌ به؟ فلربما لن يأتي اليوم أبدًا الذي تتجسد فيه: فأنت لا شيء سوى أمنية، احتمال، طيف. وهل عساني أجرؤ وأصفك أملًا؟ حتى أنا، الأمل مسموحٌ لي. لم أبلغ بعد ساعة منتصف الليل في حياتي؛ الجرس لم يقرع بعد، ومفيستوفيليس[18] لم يتجلّ بعد كي يقبض مني

17 "WE must all hang together or we will all hang separately": مقولة تنسب إلى بنجامين فرانكلين لدى توقيع وثيقة الاستقلال ردًا على الأصوات المعارضة من بعض ممثلي المستعمرات، إذ بمجرد الحضور الكل وقع في شبهة الخيانة العظمى والتي عقوبتها الشنق موتًا، فإما تجاوز الخلافات الجانبية والحفاظ على الوحدة أو الشنق منفصلين في حال الهزيمة.

18 "Mephistopheles": أحد الشياطين السبعة الرئيسيين في القرون الوسطى والشخصية الرئيسة

الثمن الذي اتفقنا عليه في صفقتنا.

إذ أجل عقدت صفقة. بالطبع عقدت صفقة. عدا أني لم أعقدها مع الشيطان: بل مع الرئيس جود.

لقائي الأول بإليزابيث، هيلينا، وفيدالا أخذ محله اليوم التالي لامتحان القتل في الاستاد. الحراس واكبونا أربعتنا إلى غرفة من غرف الفندق. وقتذاك بدونا مختلفات: أصغر عمرًا، أجسادنا أكثر تناسقًا، وأقل نكدًا. إليزابيث وهيلينا وأنا كنا ما نزال في أكسيتنا البنية الشبيهة بالمسح التي وصفتها لك، لكن فيدالا كانت أصلًا في زيٍّ رسمي لائق: لم يكن بزي الخالات الذي صمم لاحقًا، بل زيٍّ أسود.

الرئيس جود كان في انتظارنا. وبطبيعة الحال، كان جالسًا على رأس طاولة الاجتماعات. قبالته صينية تحمل إبريق قهوة وأكواب. صب القهوة وفق الرسميات، مبتسمًا.

"مباركٌ لكنّ،" استهل حديثه. "قد اجتزتن الامتحان. أنتن الشعلة المنتشلة من النار[19]." صبّ قهوته، أضاف الحليب، وارتشفها. "لعلّكن تتساءلن لم رجلٌ مثلي، ناجحٌ كفاية تحت إدارة الحكم السابق والفاسد، تصرّف تصرفي هذا. لا تظنن أني غير مدرك لخطورة تصرفي. فالبعض قد يسمي الانقلاب على حكومة غير شرعية خيانةً عظمى؛ بلا شك، الكثير أخذوا هذه الفكرة عني. والآن، بانضمامكن إلينا، فالفكرة ذاتها ستراود الآخرين عنكن. لكن الإخلاص إلى حقيقة أعلى ليس بخيانة، إذ أنّ سبل الرب ليست هي ذاتها سبل الرجل، ويقينًا ليست هي بسبل المرأة."

فيدالا جلست تراقبنا نتلقى هذه المحاضرة منه، تبتسم ابتسامةً صغيرة: أيًا يكن ما يحاول إقناعنا به، فهو سلفًا عقيدةٌ راسخة لديها.

في فاوست.

19 سفر زكريا (3:2): فقال الرب للشيطان: "زجرك الرب، يا شيطان، زجرك الرب الذي اختار أورشليم. أليس هذا شعلةً منتشلة من النار؟"

حرصت على ألا أبدي أي ردة فعل. هي مهارةٌ مكتسبة، عدم إبداء ردة فعل. راح يجول بنظره من وجه خال من التعبير إلى آخر. "اشربن قهوتكن،" قال لنا. "بضاعةٌ ثمينة ويومًا بعد يوم سيصعب أكثر الحصول عليها. لهي خطيئة في حق الرب رفض ما ينعم به على خاصته." وهنا رفع الكلّ كوبه، وكأننا نتشارك القربان المقدس على مائدة العشاء الرباني.

ثم واصل عظته: "ها نحن شهدنا عواقب الانحلال الزائد، هذا الجوع النهم للرفاهية المادية، وغياب البنى الأخلاقية الهادفة التي تقود إلى مجتمع متوازن ومستقر. فمعدل الولادة لدينا – لأسباب مختلفة، لكن بالذات نتيجة الخيارات الأنانية التي اتخذتها النساء – قد هوى إلى الحضيض. أنتنّ معي أن الإنسان لن يجد السعادة في خضم الفوضى؟ أن القوانين والحدود هي التي تعزز الاستقرار وبذا تفضي إلى السعادة؟ هل تعين ما قلته حتى الآن؟"

أومأنا جميعًا بالإيجاب.

"هل تعنين أجل؟" أشار إلى إليزابيث.

"أجل،" أجابت مذعورة في صرير حاد. فهي كانت الأصغر بيننا وما تزال جذابة؛ إذ لم تكن قد سمحت بعد لجسدها أن يلتهم بلا شعور. ولطالما لاحظت أن هناك ضربًا من الرجال يهوون التنمر على النساء الجميلات.

"أجل، الرئيس جود،" قال في نبرة تأنيبية. "فالألقاب لا بد أن تحترم."

"حاضر، الرئيس جود." شممتُ خوفها من عبر الطاولة؛ وتساءلت إن كان لها أن تشم خوفي. فللخوف رائحةٌ حمضية. تنخر اللحم.

هي، الأخرى، أقامت في الظلمة وحدها. هي الأخرى امتحنت في الاستاد. هي، الأخرى، تمعنت في صورتها على المرآة، ولم تر شيئًا سوى العدم.

"مصلحة المجتمع تتحقق بالفصل بين عالميْ الرجل والمرأة،" واصل الرئيس جود في نبرة أكثر صرامة. "فقد رأينا النتائج الكارثية لاختلاط هذين العالمين. ألدى إحداكنّ أي سؤال؟"

"أجل، الرئيس جود،" قلت له. "أنا لديّ سؤال."

تبسم، وإن لم تكن بالابتسامة الودودة. "اسألي."

"ما الذي تريده؟"

عاد وابتسم. "شكرًا. ما أريده منكنّ أنتن على وجه الخصوص؟ حسنٌ، نحن قائمون الآن على تأسيس مجتمع متناغم مع الشريعة الإلهية – مدينةٌ على جبل، منارةٌ لكل الشعوب[20] – ومهمتنا هذه نابعة عن الإحسان والمعروف. ونحن مؤمنون أنكن، مع كل امتيازات التعليم والتدريب العالي الذي تلقيتموه، مؤهلات لمساعدتنا على التخفيف من مصير المرأة المؤلم الذي تسبب به المجتمع المنحل والفاسد الذي نقوم الآن على إبادته." تريث للحظة، ثم أردف، "هل تودين المساعدة؟" إصبعه هذه المرة انتقت هيلينا.

"أجل، الرئيس جود." أجابت شبه هامسة.

"حسنٌ، كلكن نساءٌ ذكيات. وعبر ماضيكن ..." لم يشأ أن يقول المهني. "إثر خبراتكن السابقة، حياة النساء باتت مألوفة لديكن. أنتن الأقدر على معرفة كيف سيفكرن، أو بصياغة أصح – كيف سيستجبن للمؤثرات، الإيجابية والأقل إيجابية. بهذا لكنّ أن تخدمن – خدمة تؤهلكن لامتيازات معينة. إذ نتوقع منكن أن تكن المرشدات الروحيات والقدوة التي يحتذى بها – فلنقل القائدات – ضمن عالمكن النسائي. المزيد من القهوة؟" صبّ القهوة. مزجناها، احتسيناها، وانتظرنا.

"الخلاصة،" واصل قائلًا، "ما نريده منكن هو مساعدتنا على تنظيم العالم المنفصل – عالم المرأة. عالمٌ الهدف منه تحقيق القدر الأمثل من التناغم، مدنيًّا ومنزليّا، والقدر الأمثل من التناسل. أي سؤال آخر؟" ورفعت إليزابيث يدها.

"أجل؟"

"هل سيتوجب علينا ...الصلاة، وما شابه؟" سألته.

"الصلاة وِرْدٌ لا ينقطع،" أجابها. "ستفهمن هذا متى ما وعيتنّ الأسباب العديدة التي تستلزم منكن الشكر والحمد لقوة أعلى منكن. آه، زميلتي" – يشير

20 إنجيل متى (5:14 – 5:15): "أنتم نور العالم. لا تخفى مدينةٌ قائمة على جبل. ولا يوقد سراجٌ ويوضع تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت."

إلى فيدالا – "قد تطوعت أن تكون مرشدتكن الروحية، كونها جزءٌ من حركتنا مذ نشأتها."

توقف عن الكلام كيما يمنحني، وإليزابيث، وهيلينا الفرصة لاستيعاب المعلومة الجديدة. بحديثه هذا عن القوة الأعلى هل يا ترى كان يشير إلى نفسه؟ "أنا واثقة أننا سنكون عونًا لكم،" قلتُ أخيرًا. "لكن الأمر سيستلزم جهدًا عظيمًا. فعلى مرِّ عقود طويلة قيل للنساء أنّ بيدهن تحقيق المساواة في العالمين المهني والاجتماعي. لن يرحبن الآن بـ ..." توقفت بحثًا عن الوصف، "منع الاختلاط."

"لطالما كانت وحشية بالغة تقديم هكذا وعود بالمساواة لهن، إذ ليس في طبيعتهن ولا فطرتهن تحقيقها. وقد بدأنا بالفعل تنفيذ المهمة الرحيمة بتخفيض توقعاتهن."

لم أرد الاستفسار عن الوسائل التي ينوون فيها تحقيق هذه الغاية. هل يا ترى شبيهة بالوسائل التي طبقوها عليّ؟ جلسنا ننتظر فيما راح يصب مزيدًا من القهوة لنفسه.

"بالطبع سيتوجب عليكن تشريع قوانين جديدة وما شابه،" قال لنا. "سنخصص لكن ميزانية، مركز عمليات، ومهجع. قد خصصنا مبنى سكن الطلاب لكنّ، يقع ضمن المجمّع المسوّر لجامعة صادرناها. لن تستلزم الكثير من التعديلات. أنا واثقٌ أنكن ستجدن الترتيبات مريحةً كفاية."

وهنا خاطرت. "إن كنت تريد منا أن نخلق عالمًا نسائيًّا منفصلًا،" قلت له، "فعليه أن يكون حرفيًّا منفصل. بين جدرانه، نساءٌ من يمسكن مقاليد الأمر والسيطرة. وعدا عن حالات الضرورة القصوى، يحرم على الرجال تجاوز عتبة الملكية المخصصة لنا، ولا لأحد أن يشكك في طرقنا. سيحكم علينا وفق النتيجة وحسب. وبالتأكيد سنعلم السلطات بأي شيء متى ما حكمت الضرورة."

رمقني بنظرة متفحصة، ثم بسط يديه ورفع راحتيه للأعلى. "على بياض،" قال لي، "لكن ضمن المنطق، وضمن الميزانية. وخاضعٌ، بالطبع، إلى موافقتي النهائية."

نظرتُ نحو إليزابيث وهيلينا، ورأيت إعجابهما الحسود، فقد سعيتُ

للحصول على سلطة أكبر مما كانتا ستجرؤان على طلبه، وها قد حظيت بها.
"بالطبع،" أجبته.

"لست مقتنعة أنّ من الحكمة بمكان،" قالت فيدالا، "تركهن يدرن أمورهن إلى هذا الحد من الاستقلالية. فالنساء قوارير هشة. حتى القوية فيهن يجب ألا يسمح لها بـ..."

وهنا قاطعها الرئيس جود. "نحن الرجال عندنا مشاغل أهم بكثير من إزعاج أنفسنا بتفاصيل عالم المرأة التافه. لا سيما مع وجود نساء قادرات كفاية على تولي الأمر." هنا أومأ لي، وفيدالا رمقتني بنظرة كارهة. "في يوم ما نساء جلعاد سيحتفين بكن ويحمدن الرب عليكن، فأنظمةٌ كثيرة حاولت تحقيق هذا على نحو سيئ. على نحو بغيض، على نحو مدمر! إن أخفقتن، فستخذلن كل النساء وتلقين بهن في التهلكة. كما فعلت حواء من قبل. والآن سأترك لكنّ المجال لبدء مشاوراتكن."

وهكذا بدأنا.

أثناء تلك الجلسات التشاورية الأولية، رحت أقيّم رفيقاتي المُؤسِّسات – إذ بصفتنا المُؤسِّسات ستوقرنا جلعاد، بذا وعدنا الرئيس جود. إن كنتَ معتادًا على أجواء ساحة المدرسة في المناطق الفقيرة، أو حظائر الدجاج مألوفة لديك، أو عشت أي موقف حيث المكاسب ضئيلة لكن التنافس عليها شديدٌ وشرس، ستفهم موازين القوى التي نلعب عليها. فرغم تظاهرنا بالصداقة، وحتى الزمالة، ففي الأعماق أمواجٌ من العدائية تهتاج وتتقلب. فإن كنا حقًّا في حظيرة دجاج، قلت في نفسي، سأسعى إلى احتلال موقع الدجاجة المسيطرة. وحتى أحقق ذلك، عليّ أولًا أن أرسّخ حقّي الحصري في نقر الأخريات.

فيدالا صيّرتها عدوتي. فهي رأت نفسها القائدة الطبيعية في هذه المهمة، بيد أنّ المنظور تغير بغتة. وكانت ستعارضني بكل طريقة ممكنة – لكني كنت أملك أفضليةً عليها: فلا عقيدة لديّ تعمي بصيرتي. وهذه الحقيقة كانت ستمنحني مرونة تفتقر هي إليها، في تلك اللعبة الطويلة أمامنا.

من بين الأخرين، هيلينا ستكون الأسهل في الانقياد، كونها الأكثر قلقًا وشكًّا في نفسها. كانت ريانة آنذاك، لكنها مذ ذاك تضاءلت وتقلصت؛ أخبرتنا أنّ إحدى وظائفها السابقة كانت في شركة مربحة لفقدان الوزن. كان ذلك قبل انتقالها بسلاسة إلى مجال العلاقات العامة في شركة أزياء عالمية للثياب النسائية الداخلية والتي منها استحصلت على مجموعتها الوافرة من الأحذية. "كم كانت أحذية جميلة،" قالت ترثيها قبل أن تخرسها فيدالا بتقطيبها العابس. أيقنت في نفسي أنّ هيلينا ستجري حيث الريح الغالبة تشاء؛ ولا بأس في ذلك، شرط أظل أنا الريح الغالبة.

إليزابيث كانت تنحدر من طبقة اجتماعية رفيعة، أي، بوضوح، أرفع مني بكثير. وهذا من شأنه أن يدفع بها إلى الاستخفاف بي. فهي خريجة فاسار، وقد عملت معاونًا تنفيذيًّا لعضوة كونغرس في واشنطن – ومرشحة رئاسية محتملة، أسرّت إلينا. غير أنّ حجيرة الشكر حطمت شيئًا فيها؛ فلا أصولها ولا تعليمها أنقذاها، ما صيّرها مرتبكة وسريعة الاهتياج.

فرادى، بيدي التعامل معهن. لكن إن اجتمعن الثلاثة في عصبة ضدي سأقع في مشكلة. **فرّق تسد** أصبح شعاري.

إلزمي مسارك، قلت لنفسي. لا تفصحي الكثير عنك، فكل ما ستقولينه سيستخدم ضدك. أصغي جيدًا. احفظي كل الأدلة. وإياك ثم إياك أن تظهري ذرة خوف.

وأسبوعًا بعد أسبوع ابتدعنا: قوانينًا، أزياء رسمية، شعارات، تراتيل، أسماء. أسبوعًا تلو أسبوع رفعنا تقاريرنا إلى الرئيس جود، من صار يتعامل معي بصفتي الناطق الرسمي للمجموعة. وعلى كل المفاهيم التي وافق عليها، نال هو الفضل عليها. الاستحسان والتقدير انهالا عليه من أقرانه الرؤساء، يا له من إنجاز مذهل!

هل كرهتُ النظام الذي ابتدعناه؟ على مستوىً ما، أجل: فقد كان خيانة لكل ما علمونا إياه في حيواتنا السابقة، ولكل ما حققناه. هل كنت فخورة بالعمل

الذي أنجزناه، رغم محدودية الإمكانات؟ أيضًا، على مستوىً ما، أجل. فالحياة ليست أبدًا بالبسيطة.

هناك وقتٌ كدت أؤمن فيه بما كان يفترض بي الإيمان فيه. أعددت نفسي ضمن أمة المؤمنين للسبب ذاته الذي لأجله آمن العديد في جلعاد: لأنه الخيار الأقل خطورة. فأين الخير في رمي نفسك أمام مدحلة دفاعًا عن مبادئك إن كانت حتمًا ستسحقك وتصيرك جرابًا خاويًا من قدمه؟ خيرٌ لك أن تبهت في الحشود، في الحشود المرائية، المنافقة، المثيرة للكراهية. خيرٌ لك أن ترمي بالحجر على أن تُرْمَى. أو آمِن، لأنها الفرصة الوحيدة أمامك كي تبقى على قيد الحياة.

وهم على علم بذلك، بُناة جلعاد. طينتهم دائمًا على علم بذلك.

سأدون هنا، أنّ بعد سنوات لاحقة – بعد أن أحكمت قبضتي على أردوا هول ورفعتُ مكانتها إلى أن تحصلتُ على سلطتي الواسعة وإن الصامتة في جلعاد – فالرئيس جود، مستشعرًا التبدل في ميزان القوى، سعى إلى استرضائي. "أرجو أن تغفري لي، خالة ليديا،" قال لي.

"علام، الرئيس جود؟" سألته في نبرة دمثة. هل يعقل أنه بات خائفًا مني بعض الشيء؟

"على التدابير المشددة التي أُجْبرتُ على تعريضك لها في مستهل علاقتنا،" قال لي، "كيما نغربل القمح عن التبن."

"أوه، أنا واثقة أن نواياك كانت نبيلة."

"صدقًا كانت،" قال لي، "لكن مع ذلك، فالتدابير كانت قاسية." ابتسمت ولم أقلِ شيئًا. "فأنا رأيت فيك قمحة، منذ البداية." واصلت الابتسام. "بندقيتك كانتَ ملقمة بطلقات فارغة،" أخبرني، "ظننتك ستودين معرفة ذلك."

"لطفٌ منك أن تخبرني،" قلت له، عضلات وجهي تؤلمني. إذ في ظروف معينة، مجرد الابتسام يتطلب من المرء جهدًا عظيمًا.

"ذنبي مغفورٌ إذن؟" سألني. لو لم أكن مطلعة عن قرب على إيثاره الفتيات

القاصرات من بالكاد بلغن، لظننته يغازلني. وجدتني أنتزع قصاصةً من كيس محتويات الماضي البائد:

"أن تخطئ فعلٌ بشري، أن تعفو فعلٌ إلهي[21]. كذا قال أحدهم."

"كم أنت واسعة الاطلاع، خالة ليديا."

مساء أمس، بعد أن فرغت من الكتابة، ودسست مخطوطتي في جوف الكاردينال نيومان، وفي طريقي نحو مقهى شلافلي، اعترضت طريقي الخالة فيدالا. "الخالة ليديا، هل لي بكلمة معك؟" سألتني. طلبٌ لا أملك الرد عليه إلا بـ نعم. ودعوتها إلى مرافقتي إلى المقهى.

عبر الفناء، مقام العيون الأبيض القائم على عمد كثيرة كان مضاءً بأنوار ساطعة: هم مخلصون للاسم الذي سموا تيمنًا به، عين الرب التي لا جفن لها، العين التي أبدًا لا تنام. ثلاثةٌ منهم كانوا واقفين على درجات المدخل الأبيض خارج مبناهم الرئيس، يدخنون سيجارة. ما التفتوا إلينا. ففي نظرهم، الخالات لسن سوى ظلال – ظلال أنفسهن، قد ينزلن الرهبة في قلوب البعض، لكن بالتأكيد ليس في قلوبهم.

ما إن مررنا بتمثالي تفقدت القرابين: بيضٌ وبرتقالٌ أقل من المعتاد. هل يا ترى شعبيتي في انحدار؟ قاومت الرغبة في انتشال برتقالة ودسها في جيبي: ارتأيت أن آتي لها لاحقًا.

الخالة فيدالا عطست، دلالة استهلالها حديثًا مهمًا. تنحنحت ثم قالت، "سأغتنم هذه الفرصة وألفت انتباهك إلى أن تمثالك بدأ يشيع أجواءً من عدم الارتياح."

"حقًّا؟ من أي ناحية؟"

"القرابين: البرتقال. البيض. الخالة إليزابيث ترى بأنّ هذا الإعجاب المبالغ

21 "To err is human, to forgive divine": المقولة تعود إلى الشاعر الانجليزي ألكسندر بوب والمذكورة في "مقال حول النقد."

فيه يتاخم على نحو خطر حدود العبادة. أي الشرك." ثم أردفت، "والشرك كبيرةٌ عظيمة."

"بالفعل،" قلت لها، "ملاحظة تنير البصيرة."

"كذلك فهو هدرٌ للطعام الثمين. حتى أنها وصفته بالتخريب المتعمد."

"وأنا أتفق معها، فلا أحد أحرص مني على النأي بنفسي عن أي صفة تظهرني بشخصية المعبودة. فكما تعرفين، أنا أدعم القوانين الصارمة بشأن الموارد الغذائية. فنحن قائدات أردوا هول يتوجب بنا أن نكن القدوة التي يحتذى بها، حتى في تلك المسائل البسيطة مثل حصص الطعام، لا سيما البيض المسلوق." وهنا تريثت: إذ في يدي تصوير فيديو للخالة إليزابيث في قاعة الطعام، تهرب حصصًا من الطعام في كمّيها، لكن هذه ليست باللحظة المناسبة للمشاركة. "أما بالنسبة للقرابين، فتجلياتٌ كهذه لمشاعر أناس آخرين لا أملك السيطرة عليها. فليس بيدي منع شخص مجهول من ترك تقدمات المحبة والاحترام، الإخلاص والحمد، من مخبوزات وفواكه، عند قدميّ تمثالي. حتى وإن كنت بالطبع لا أستحقها."

"قد لا نستطيع منعهم مسبقًا،" قالت الخالة فيدالا. "لكن بيدنا ترصدهم ومعاقبتهم."

"لكن لا قانون لدينا حول أفعال كهذه،" قلت لها، "وبذا فهم لم يتجاوزوا أي قانون."

"إذن يجدر بنا تشريع قانون،" قالت الخالة فيدالا.

"بالتأكيد سأنظر في الأمر،" أجبتها. "وتحديد العقاب الملائم. فهذه الأمور يجِب أن تدرس جيدًا قبل تطبيقها." سيكون من المؤسف خسارة كل هذا البرتقال، فكرت متأملة: فوجوده متقطع، نظرًا لخطوط الإمداد غير المستقرة. "أظن لديك ما تضيفينه؟"

كنا قد وصلنا مقهى شلافلي حينها. جلسنا على طاولة من الطاولات الزهرية. "كوبٌ من الحليب الدافئ؟" سألتها. "على حسابي."

"لا أطيق شرب الحليب،" قالت في نبرة نكدة. "يزيد من المخاط."

دائمًا ما أدعو الخالة فيدالا إلى كوب من الحليب الدافئ على حسابي، دعوةٌ تظهر كرمي – كون الحليب ليس ضمن حصص التموين بل صنفٌ اختياري، يدفع مقابله بالقسائم التي تمنح إلينا كلٌّ حسب منزلته. وكل مرة تردّ دعوتي حانقة.

"أوه، اعذريني. قد نسيت. شايٌ بالنعنع إذن؟"

ما إن وصل كوبا الشاي إلى طاولتنا، دخلتْ مباشرةً في الموضوع. "الحقيقة هي،" استهلت حديثها، "أني رأيت بأم عيني الخالة إليزابيث تضع تقدمات الطعام عند قدمي تمثالك. لا سيما البيض المسلوق."

"مذهل،" قلت لها. "ولم عساها تفعل شيئًا كهذا؟"

"كي تخلق دليلًا ضدك، هذا هو رأيي."

"دليلًا؟" كنت أظن إليزابيث تهرب البيض كي تأكله. لكنها استغلته على نحو أكثر إبداعًا: صدقًا كنت فخورة بها.

"أظنها تتهيأ للتبليغ عنك. حتى تصرف الانتباه عن نفسها وأنشطتها الغادرة. فعلى الأرجح هي الخائنة بيننا، هنا في أردوا هول – المتعاونة مع إرهابيي اليوم المايوي. لطالما شككتُ في هرطقتها."

صعقةٌ من الحماس سرت في عروقي. فهذا تطورٌ في الأحداث لم أتوقعه البتة: فيدالا تشي بإليزابيث – تشي إليّ أنا من بين كل الناس، من ناصبتني العداء مذ لقائنا الأول! صدقًا، معجزات الرب أبدًا لا تنقطع.

"خبرٌ صادم، إن ثبت حقيقته. شكرًا لك لإعلامي،" قلت لها. ثم أردفت، "ستكافئين على هذه الخدمة. حتى وإن لم يكن لدينا في الوقت الحالي دليلٌ دامغ، سأحرص من باب الوقاية على نقل شكوكك إلى الرئيس جود."

"شكرًا،" ردت الخالة فيدالا بدورها. "أعترف بأني فيما مضى، ساورتني الشكوك بشأن أهليتك لقيادتنا، هنا في أردوا هول، لكني استخرت ربي. كان خطأً مني السماح لشكوك كهذه بأن تراودني. أعتذر منك."

"كلنا نرتكب الأخطاء،" أجبتها في رحابة صدر. "ففي النهاية لسنا سوى بشر."

"تحت عينه،" قالت لي، وأحنت رأسها.

أبق أصدقاءك قربك وأبق على أعدائك أقرب. وبما أنّ لا أصدقاء لي، فلأرضى بأعدائي.

كارْبِتز

محضر أقوال الشاهدة " 369B"

30

كنت أخبرتك عن اللحظة التي كشف فيها إلايجا أني لست من أظن. لا أحب تذكر ذاك الشعور. كان أشبه بأرض انشقت وبلعتك – ولم تبلعك أنت وحدك، بل بيتك، غرفتك، ماضيك، كل شيء تعرفه عن نفسك، حتى ملامح وجهك – كان سقوطًا، كان اختناقًا، كانت ظلمةً حالكة، كلها في الآن ذاته.

لا بد أني جلست في صمت مطبق، على الأقل لدقيقة. فقد انقطع نفسي. شعرت بالدم في عروقي يتجمد.

الرضيعة نيكول، صاحبة الوجه الطفولي الدائري والعينين الغافلتين. كل مرة كنت أنظر فيها إلى تلك الصورة الشهيرة كنت أنظر فيها إلى نفسي. تلك الرضيعة تسببت بالكثير من العناء للكثير من الناس فقط بكونها ولدت. فكيف أكون أنا ذاك الشخص؟ في عقلي رحت أنكر تلك الحقيقة، أصرخ بأعلى صوتي لا. لكن لا أنّة صدرت عني.

"لا أقبل بهذا،" أخيرًا قلت في صوت خفيض.

"لا أحد منا يقبل بهذا،" قال إلايجا في لطف. "كلنا نتمنى لو كان الواقع أمرًا مختلفًا."

"أتمنى لو لم يكن لجلعاد وجود،" قلت لهما.

"هذا هدفنا،" قالت آدا. "محو جلعاد عن الوجود." قالتها في تلك النبرة العملية التي تمتاز بها، وكأنما محو جلعاد مهمة سهلة مثلها مثل تصليح صنبور مكسور.

"هل ترغبين في المزيد من القهوة؟"

هززت رأسي. إذ كنت لا أزال أحاول استيعاب ما سمعته للتو. إذن فأنا

لاجئة، مثلي مثل تلك النسوة المذعورات اللواتي رأيتهن في راعية الملاذ؛ مثلي مثل كل اللاجئين الذين يتجادل حولهم العالم. بطاقتي الصحية، إثبات هويتي الوحيد، كان مزورًا. إذن وضعي في كندا ليس أبدًا بالقانوني. ومعرضة للإبعاد في أية لحظة. أمي كانت جارية؟ وعليه فأبي ... "إذن أبي هو أحد أولاء الناس؟ رئيس؟" فكرة أن جزءًا منه مدموغٌ فيّ – في جسدي – أثار فيّ القشعريرة.

"لحسن الحظ لا،" أجابني إلايجا. "على الأقل ليس وفقًا لأمك، فهي لم ترد تعريض أبيك الحقيقي للخطر بذكر اسمه، إذ هناك احتمال أنه ما زال موجودًا في جلعاد. عدا أنّ جلعاد تعتمد على نسبك الرسمي في ادعائها بأحقيتها الحصول عليك. هي هذه الأرضية التي يقفون عليها في مطالبتهم الدائمة بعودتك. أعني عودة الرضيعة نيكول،" أردف موضحًا.

جلعاد ما يئست يومًا من فكرة العثور عليّ، أخبرني إلايجا. ما كفّوا يومًا عن البحث؛ ظلوا على إصرارهم وعنادهم. إذ وفق تفكيرهم أنا أنتمي إليهم، وهم يملكون مطلق الحق في تقفي أثري وجرّي عبر الحدود بأي وسيلة ممكنة، قانونية أو غير قانونية. فأنا قاصر، ورغم أن ذاك الرئيس الذي أنتمي إليه قد اختفى من المشهد السياسي – على الأرجح في موجة تطهير – أظل أنا ملكه، وفق نظامهم القانوني. لديه أقرباء أحياء، وإن وصل الأمر للمحاكم في كندا فعلى الأرجح سيمنحون حق الحضانة. ولن يكون بيد اليوم المايوي الدفاع عني كونها صُنّفت عالميًا منظمة إرهابية. عملياتها كلها تجري في الخفاء.

"كنا قد زرعنا عبر السنوات أدلةً كاذبة عن مكان وجودك،" قالت آدا. "تم التبليغ عن رؤيتك في مونتريال، وكذلك في وينيبيغ. ثم قيل إنك موجودة في كاليفِورنيا، وبعدها في المكسيك. حرصنا على نقلك في مختلف الأرجاء."

"هل لهذا السبب عارض نيل وميلاني ذهابي للمسيرة؟"

"إلى حدٍّ ما، أجل،" قالت آدا.

"إذن أنا من فعلها. الذنب كله ذنبي، أليس كذلك؟"

"ما الذي تعنينه؟" سألتني آدا.

"لم يرغبا لأحد أن يراني، قُتلا لأنهما خبآني."

"ليس بالضبط،" قال إلايجا. "هما وحسب لم يرغبا في وجود صور لك تتناقلها الأخبار على شاشات التلفاز. إذ من المرجح جدًا أن تبحث جلعاد في صور المسيرة، وتحاول مطابقتها بالصورة التي يملكونها لك وأنت رضيعة؛ إذ لا بد يملكون تصورًا تقريبيًا لما ستبدين عليه الآن. لكن كما تبين لاحقًا، فشكوك جلعاد في كون نيل وميلاني عضوين في اليوم المايوي لا علاقة لها البتة بك."

"لربما كانوا يلاحقونني،" قالت آدا. "لعلهم ربطوا بيني وبين **راعية الملاذ**؛ ومن ثم بميلاني. إذ سبق أن دسوا مخبرين في اليوم المايوي من قبل – على الأقل جارية هاربة زائفة، ولربما أكثر."

"ولربما حتى داخل **راعية الملاذ**،" قال إلايجا. فكرت في كل أولاء الناس الذين اعتادوا حضور تلك الاجتماعات في بيتنا. أصابني الغثيان بمجرد التفكير في أن أحدهم كان يخطط لقتل نيل وميلاني بينما هو جالسٌ يتشارك معهما تناول العنب وقطع الجبن.

"ما يعني أن هذه الجزئية من الأحداث لا علاقة لها بك،" قالت آدا. تساءلت إن كانت تقول هذا حتى تخفف عني وحسب.

"أمقت كوني الرضيعة نيكول. لم أطلب يومًا أن أكونها."

"الحياة مقرفة، نهاية القصة،" قالت آدا. "الآن علينا أن نفكر في خطوتنا القادمة، إلى أين سنواصل من هنا."

إلايجا غادر، قائلًا إنه سيعود بعد ساعتين. "لا تغادرا المبنى، ولا تطلا من النافذة. ولا تستخدما الهاتف. سأذهب الآن وأدبر لكما سيارةً أخرى."

آدا فتحت علبة من حساء الدجاج؛ أخبرتني أن عليّ أن أتناول شيئًا، لذا حاولت. "ماذا سنفعل إن أتوا؟" سألتها. "كيف يبدون؟"

"مثلهم مثل أي شخص آخر،" أجابتني آدا.

مع حلول الظهيرة، عاد إلايجا. جاء برفقة جورج، المشرد المسن الذي ظننته

يترصد ميلاني. "الأمر أسوأ مما توقعناه،" قال إلايجا. "فجورج شهد الأمر برمته."

"شهد ماذا؟" سألت آدا.

"أولًا لمحتُ لافتة مغلق على الباب، وهو ما استغربته كون المتجر لا يغلق أبدًا في النهار،" قال جورج. "لاحقًا ثلاثة رجال غادروا المتجر ووضعوا نيل وميلاني في السيارة. بدا الأمر وكأنهم يساعدونهما على المشي، كأنهما ثملان. حديثٌ دار بينهم، حرصوا على أن يبدو حديثًا وديًا، ثرثرة عادية انتهت بتبادل الوداع. ميلاني ونيل جلسا وحسب في السيارة. الآن بعد ما جرى – أتذكر أنهما كانا مسترخيين، وكأنما كانا نائمين."

"أو ميتين،" قالت آدا.

"أجل، احتمال،" قال جورج. "الرجال الثلاث غادروا. وبعد دقيقة السيارة انفجرت."

"الأمر أسوأ بكثير مما اعتقدناه،" قالت آدا. "بم اعترفا، داخل المتجر؟"

"لما اعترفا بشيء،" قال إلايجا.

"ليس بوسعنا التيقن،" قالت آدا. "يعتمد على تكتيك الاستجواب. فالعيون قساة."

"علينا أن ننتقل من هنا حالًا،" قال جورج. "لا أدري إن كانوا قد رأوني. لم أرد المجيء إلى هنا، لكني لم أعرف ما العمل فاتصلت براعية الملاذ وإلايجا قدم وصحبني. لكن ماذا إن كانوا يراقبون هاتفي؟"

"فلنحطمه،" قالت آدا.

"أي نوع من الرجال؟" سأل إلايجا.

"بدل رسمية. رجال أعمال. مظهرٌ محترم،" قال جورج. "يحملون حقائب مستندات."

"بالتأكيد سيحملونها. ولا بد دسوا إحداها في السيارة." قالت آدا.

"يؤسفني ما جرى،" قال جورج لي. "نيل وميلاني كانا من الأخيار."

"عليّ أن أذهب،" قلت لهم لأني كنت على وشك البكاء؛ لذا ذهبت إلى غرفتي

وأوصدت الباب.

لم يدم وجودي في الغرفة طويلًا. بعد عشر دقائق سمعت طرقًا، وفتحت آدا الباب. "سننتقل من هنا الآن،" قالت لي. "فانهضي حلوتي."

كنت في فراشي مدثرة باللحاف حتى أنفي. "إلى أين؟" سألتها.

"الفضول قتل القطة، ألا تعلمين؟ هيّا، فلنذهب."

نزلنا السلالم الكبيرة، لكن عوضًا عن الذهاب خارجًا توجهنا نحو إحدى الشقق في الطابق السفلي. آدا كانت تملك المفتاح.

الشقة في الطابق السفلي كانت شبيهة بالشقة في الطابق العلوي: مؤثثة بأثاث جديد، لا غرض منها شخصي. بدت مسكونة، لكن بالكاد أحدٌ يقيم فيها. كان هناك لحاف، مطابق للحاف في الطابق العلوي. في غرفة النوم كانت هناك حقيبة ظهر سوداء. في الحمام كانت هناك فرشاة أسنان، لكن لا شيء في خزانة الأدوية. أعرف هذا لأني بحثت فيها. ميلاني اعتادت أن تقول أنّ تسعين في المئة من الناس يبحثون في خزائن الأدوية في حمامات الآخرين، لذا إياك أن تحفظي سرًا فيها. ووجدتني أتساءل، يا ترى أين خبأت هي أسرارها، لأنها حتمًا كانت تملك الكثير منها في جعبتها.

"من يعيش هنا؟" سألتُ آدا.

"غارث،" أجابتني. "هو وسيلة نقلنا. والآن، إلزمي الصمت كما الفأر."

"ما الذي ننتظره؟" سألتها. "ومتى سيحدث؟"

"انتظري كفاية ولن يخيب أملك،" قالت آدا. "شيءٌ ما سيحدث. لكن لا أظنه سيعجبك."

حين استيقظت، كان الظلام قد حل ورجلٌ كان في الشقة. على الأرجح كان في الخامسة والعشرين، طويلٌ وممشوق. كان يرتدي بنطال جينز أسود، قميصًا قطنيًّا أسود، خاوي من الشعارات. "غارث، أعرفك بديزي." قالت آدا.

"أهلًا،" قلت له.

نظر إليّ في اهتمام ثم قال، "الرضيعة نيكول؟"

"رجاءً، لا تناديني بهذا الاسم."

"معك حق. لا يفترض بي النطق به."

"هل نحن جاهزون للرحيل؟" سألت آدا.

"عن نفسي أنا مستعد،" قال غارث. "لكن عليها أن تتغطى. وكذلك أنت."

"بماذا؟" قالت آدا. "فأنا لم أحضر معي خمار جلعاد. سنبقى في الخلف. لا خيار أفضل أمامنا."

عربة النقل التي جئنا بها اختفت، وبدلًا عنها وجدنا عربة نقل أخرى – شاحنة توصيل صغيرة مطبوعٌ على جانبها **أفعى البالوعة السريعة**، مع صورة لأفعى لطيفة تنسل من خارج بالوعة. آدا وأنا ركبنا في الخلف حيث معدات السباكة، وكانت هناك فرشة أيضًا جلسنا عليها أنا وهي. كان المكان معتمًا والهواء راكد، لكن على الأقل، وعلى حد علمي، كنا نتحرك في سرعة بالغة.

"كيف هربوني من جلعاد؟" سألت آدا بعد برهة. "وقت كنت الرضيعة نيكول؟"

"لا ضرر في إخبارك،" قالت لي. "فقد دمروا تلك الشبكة قبل عدة سنوات، جلعاد أقفلت الطريق؛ والمنطقة باتت مأهولة بكلاب الحراسة والتقفي."

"بسببي؟" قلت لها.

"ليس كل شيء بسببك. على أي حال هذا ما حدث. أمك أعطتك إلى أصدقاء

تثق فيهم؛ وبدورهم انتقلوا بك إلى الشمال عبر الطريق السريع، ثم عبر الغابات نحو فيرمونت."

"هل كنت أحد الأصدقاء الموثوق فيهم؟"

"ادعينا أننا صائدو غزلان. فقد اعتدت أن أكون دليلًا للصيد، وأعرف أهل المنطقة. حملناك في حقيبة ظهر؛ أعطيناك حبة كي لا تصرخي."

"خدرت رضيعة؟ كدت تقتلينني!" اعترضت في نبرة ساخطة.

"من الواضح أني لم أقتلك،" قالت آدا. "حملناك عبر الجبال، ثم انحدرنا إلى كندا عبر الأنهار الثلاثة - "Troi – Rivières". كان دربًا أساسيًا في تهريب الناس، في سالف العصر."

"وأي عصر هذا؟"

"أوه، حوالي 1740، وقتذاك اعتادوا خطف الفتيات من نيوانغلند والاحتفاظ بهن رهينة، فإما يبادلونهن بالمال أو ينتهي الأمر بالزواج منهن. وما إن تنجب الفتاة منهن أطفالًا، فلن تعود راغبة في العودة. هكذا تحصّلت على إرثي المختلط."

"مختلط كيف؟"

"جزءٌ سارق، وجزءٌ مسروق،" قالت لي. "أنا امرأة ذات وجهين."

تفكرت مليًا في الأمر، جالسة في العتمة بين معدات السباكة. "إذن أين هي؟ أمي؟"

"وثيقة مختومة،" قالت آدا. "كلما قل الناس الذين يملكون المعلومة، كان أفضل."

"إذن هي أدارت ظهرها وتركتني؟"

"هي خاطرت بعنقها لأجلك، دبرت كل تفصيل،" قالت آدا. "أنت محظوظة ببقائك على قيد الحياة، وهي الأخرى محظوظة ببقائها على قيد الحياة، فعلى حد علمنا حاولوا قتلها على الأقل مرتين. إذ لم ينسوا أبدًا كيف تفوقت بذكائها عليهم في قصة الرضيعة نيكول."

"وماذا عن أبي؟"

"ذات القصة. هو متخفٍ جدًا في الأعماق حدّ يحتاج أنبوب تنفس."

"أظنها لا تتذكرني،" قلت في نبرة كئيبة. "لا تكترث البتة."

"لا أحد يملك سلطة تقرير ما يشعر به الآخرون،" قالت آدا. "هي نأت بنفسها عنك لأجل مصلحتك. إذ لم ترد تعريضك إلى أي خطر. لكنها حاولت قدر المستطاع الاطلاع على أخبارك، متى ما سمحت الظروف."

كنت سعيدة بسماع هذا، عدا أني لم أرغب في التخلي عن غضبي.

"كيف؟ هل أتت إلى بيتنا؟"

"لا، ما كانت أبدًا لتخاطر باستهدافك. لكن ميلاني ونيل بعثا بصورك إليها."

"لكنهما أبدًا ما التقطا صورة لي، كان اعتقادًا لديهما – لا صور."

"بل التقطا الكثير من الصور،" قالت آدا. "ليلًا، وأنت نائمة." تصرفٌ مخيف، وعبرت لها عن رأيي هذا.

"المخيف هو من يثير الخوف،" قالت آدا.

"إذن هما أرسلا الصور إليها؟ كيف؟ إن وصل التصوير لهذا الحد من السرية، أما خشيا أن ..."

"عبر الساعي،" قالت آدا.

"الكل يعرف أن خدمة البريد كما المنخل تنسرب منه الرسائل هنا وهناك."

"لم أقل ساعي بريد، بل ساعي."

فكرت لوهلة. "أوه، أجل، أنت من أخذ الصور إليها."

"لم آخذها، ليس مباشرةً. بل تدبرت إيصالها لها. أمك أحبت جدًا تلك الصور. الأم دومًا تحب صور أطفالها. كانت ستتأمل الصور ثم تحرقها، إذ مهما كان الثمن، حرصت ألا تقع أي صورة في يد جلعاد وتراها."

بعد قضائنا حوالي الساعة على الطريق وصلنا إلى متجر جملة يبيع السجاد في إيتوبيكوك. الشعار أخذ هيئة السجادة الطائرة، وكان يدعى "كاربتز".

"كاربتز" كان متجر سجاد حقيقي، في الظاهر، مع صالة عرض حيث الكثير

من قطع السجاد معروضة للبيع، لكن في الباطن، خلف منطقة التخزين، كانت هناك قاعة ضيقة مع ست حجيرات منفصلة على امتداد جانبيها. بعضها ضمت أكياس نوم أو لحف. رجلٌ يرتدي بنطالًا قصيرًا كان نائمًا في إحداها، باسطًا ذراعيه وقدميه.

كانت هناك منطقة عمليات في الوسط مع مكاتب وكراس وحواسيب، وأريكة بالية قبالة الحائط. وكانت هناك خرائطٌ على الحوائط: أميركا الشمالية، نيوانغلند، كاليفورنيا. عدة رجال وثلاث نساء كانوا منشغلين على حواسيبهم؛ بدوا أشبه بالأشخاص الذين نراهم خارجًا في الصيف يشربون اللاتيه المثلج. رمقونا بنظرة عجلى، ثم عادوا إلى أعمالهم.

إلايجا كان جالسًا على الأريكة. نهض وقدم نحونا وسألني إن كنت على ما يرام. أجبته بأني بخير، وإن كان لي أن أحصل على كأس ماء، رجاءً، إذ فجأة انتابني عطشٌ شديد.

"لم نأكل لقمة منذ أمد، سأمضي الآن،" قالت آدا.

"أنتما الاثنتان عليكما البقاء هنا،" قال غارث. ومضى خارجًا نحو مدخل المبنى الأمامي.

"لا أحد هنا يعرف من أنت، عدا غارث،" أسرّ إلايجا إليّ همسًا. "هم لا يعرفون أنك الرضيعة نيكول."

"وسنبقي الأمر هكذا،" قالت آدا. "فالألسن الفالتة تغرق السفن."

غارث جاء مع كيس ورقي يحمل فيه وجبات فطور من شطائر الكرواسون الذاوية، مع أربع أكواب ورقية من القهوة السيئة. مضينا نحو إحدى الحجيرات وجلسنا على كراس مكتب مستعملة، وأدار إلايجا التلفاز المسطح الصغير الموجود هناك حتى نشاهد الأخبار بينما نأكل طعامنا.

متجر الملابس الطريدة كان لا يزال حديث الأخبار، غير أنهم لم يلقوا القبض على أحد. خبيرٌ ألقى اللوم على الإرهابيين، وهو قولٌ مبهم مع وجود أنواع مختلفة من الإرهابيين. آخرٌ قال، "عملاءٌ مندسون." الحكومة الكندية صرحت بأنهم

سيبحثون في كل الاحتمالات، وآدا قالت أنّ الشيء الوحيد الذي سيبحثون فيه هو سلة المهملات. جلعاد أصدرت بيانًا رسميًّا تنفي فيه أي علاقة لها بحادث التفجير. كانت هناك مظاهرة خارج قنصلية جلعاد في تورنتو، لكنها لم تجذب جمهرة كبيرة: فميلاني ونيل ما كانا مشهورين، وما كانا بشخصيتين سياسيتين.

لم أعرف إن كان يجدر بي أن أحزن أم أغضب. مقتل ميلاني ونيل أثار غضبي، وكذلك تذكر كل الأشياء اللطيفة التي فعلاها لي في حياتهما. لكن الأشياء التي كان يجدر بها أن تغضبني، مثل سماحهم لجلعاد بالتملص من جريمتها، أثارت حزني.

الخالة أدريانا عادت على نشرات الأخبار – المبشرة من اللآلئ الكريمة التي وجدت مشنوقة من مقبض الباب في شقة. تحقيقات الشرطة خلصت إلى استبعاد الانتحار وإلى وجود شبهة جنائية. سفارة جلعاد في أتاوا قدمت شكوى رسمية، تنص فيها على أنّ منظمة اليوم المايوي الإرهابية هي من ارتكبت هذه الجريمة وأنّ السلطات الكندية تتستر على مجرى التحقيقات كيما تغطي على عملياتها، وأنّ الوقت قد حان لاقتلاع اليوم المايوي الإرهابية من جذورها وتقديمها للمحاكمة.

لا ذكر البتة في الأخبار عن كوني مفقودة. أما كان يجدر بمدرستي التبليغ عن غيابي؟ سألتهم.

"إلايجا تدبر الأمر،" قالت آدا. "فهو يعرف أناسًا هناك في المدرسة، عن طريقه سجلناك فيها. أخفيناك عن الأضواء. كان الخيار الآمن."

نمت تلك الليلة في ملابسي، على فرشة من تلك الفرشات. في الصباح، إلايجا دعا أربعتنا إلى اجتماع.

"لسنا في أفضل وضع،" قال إلايجا. "سيكون علينا مغادرة هذا المكان في أقرب وقت ممكن. فالحكومة الكندية ترزح تحت ضغط كبير من جلعاد كي تفكك اليوم المايوي وتصفيها. ففي نهاية اليوم جلعاد من تملك الجيش الأقوى وإصبعها هي الذي على الزناد."

"الكنديون، يا لهم من رجال كهف،" قالت آدا، "العطسة ترعبهم."

"الوضع أسوأ، فقد سمعنا أن كاربتز هو الهدف التالي على قائمة جلعاد."

"وكيف نعرف هذا؟"

"مصدرنا الداخلي،" قال إلايجا، "غير أنّ المعلومة وصلتنا قبل عملية السطو على الملابس الطريدة، والتي على إثرها فقدنا الاتصال به أو بها، وفقدنا الاتصال مع معظم المتخفين في خط إنقاذ الناس في جلعاد. لا نملك أدنى فكرة عما جرى لهم."

"إذن أين لنا أن نضعها؟" سأل غارث، يومئ تجاهي. "في مأمن من الجميع؟"

"ماذا عن المكان حيث أمي؟" سألتهم. "أنت قلت إنهم حاولوا قتلها مرتين وفشلوا، فإذن لا بد أنها في أمان، أو على الأقل أكثر أمانًا من هنا. فلم لا أذهب إليها؟"

"الأمان بالنسبة لأمك هي مسألة وقت،" قال إلايجا.

"إذن لم لا أذهب إلى دولة أخرى؟"

"لربما كان بيدنا فعل ذلك قبل عامين، تهريبك عبر سانت بيير،" قال إلايجا. "لكن السلطات الفرنسية أقفلت الباب تمامًا على هذا الطريق. ومن بعد أحداث شغب اللاجئين في إنجلترا فبابها أوصد هي الأخرى، هي وإيطاليا، وألمانيا – وكذلك الدول الأوروبية الصغيرة. فلا أحد يريد إثارة المتاعب مع جلعاد. عدا بالطبع غليان الغضب الداخلي من شعوب تلك الدول ضد اللاجئين، فالمزاج العام تبدل وما عاد

كما كان عليه. حتى نيوزيلندا أوصدت الباب."

"هناك دول صرحت بأنها مستعدة لاستقبال اللاجئات من جلعاد، لكنك لن تنجي يومًا في معظمها، إذ سرعان ما سيستعبدونك في تجارة الرقيق الأبيض،" قالت آدا. "وانسيْ دول أميركا الجنوبية، الكثير من الحكومات الديكتاتورية. كاليفورنيا من الصعب جدًا الوصول إليها بسبب الحرب، وجمهورية تكساس على أعصابها. فقد خاضت حربًا مع جلعاد وأجبرتها على هدنة جامدة بينهما، لكن بالتأكيد لن تخاطر باستفزاز جلعاد إلى اجتياحها بالكامل."

"إذن لم لا ننه الأمر برمته ونستسلم طالما أنا مقتولة في كل الأحوال؟" لم أكن حقًّا قد استسلمت، لكن اليأس وقتها تملكني.

"أوه، لا،" قالت آدا. "يقينًا لا رغبة لدى جلعاد في قتلك."

"قتل الرضيعة نيكول يسيء إلى صورتهم. ما يريدونه هو أنت في جلعاد، حية ومبتسمة." قال إلايجا. "وإن للأسف ما عاد لدينا من فكرة عما ينوون عليه."

فكرت في الأمر. "وكان لديكم فكرة في السابق؟"

"مصدرنا في جلعاد،" أجابت آدا.

"أحدهم في جلعاد كان يساعدكم؟"

"لا نعرف هويته. حذرنا من الغارات، أخبرنا عن طرق التهريب التي يعترضونها، أرسل إلينا بالخرائط. والمعلومات كانت دائمًا صحيحة."

"لكنه لم يحذركم بشأن ميلاني ونيل."

"من الواضح أنه ليس مخولًا بالاطلاع على تنظيم العمليات الداخلية في جهاز العيون المراقبة،" قال إلايجا. "لذا أيًا يكن، فهو ليس في الطبقة العليا من الهِرم الغذائي، هو موظف أدنى رتبة. لكنه بالتأكيد يخاطر بحياته."

"ولم عساه يخاطر بحياته؟"

"لا فكرة لدي، لكن بالتأكيد ليس مقابل المال،" قال إلايجا.

وفقًا لإلايجا، فالمصدر استخدم الوثائق الميكروسكوبية، تقنيةٌ عتيقة – عتيقة جدًا حدّ أن جلعاد لم تفكر أبدًا في البحث عنها. تلك الوثائق كانت تُصوّر

بكاميرا خاصة، وتصبح بالغة الصغر حدّ الاختفاء. نيل كان يقرأها بالمنظار الموضوع في قلمه الفاونتن. جلعاد كانت حريصة أشد الحرص في تدقيقها البحث في كل غرض يقطع الحدود، لكن اليوم المايوي استخدمت كتيبات اللآلئ الكريمة وسيلةً للنقل. "كانت وسيلة مضمونة، لبعض الوقت،" قال إلايجا. "مصدرنا كان سيصور الوثائق لأجل اليوم المايوي ويلصقها على كتيبات الرضيعة نيكول. واعتمدنا على حرص اللآلئ الكريمة على زيارة الملابس الطريدة: فميلاني كانت على قائمة المهتدين المحتملين، كونها تقبلت دائمًا استلام الكتيبات. نيل كان لديه كاميرا ميكروسكوبية، وكان سيلصق رسائل الرد على ذات الكتيب، وميلاني كانت ستعيده إلى اللآلئ الكريمة. إذ كانت لديهن أوامر باستلام أي كتيبات زائدة وإعادتها إلى جلعاد لإعادة إرسالها إلى دول أخرى."

"لكن الوثائق الميكروسكوبية لن تنفع بعد اليوم،" قالت آدا. "نيل وميلاني ماتا، وجلعاد عثرت على كاميرتهما. وقد ألقوا القبض على كل مساهم في خط التهريب عبر نيويورك الشمالية. مجموعة صاحبيّين، عدة مهربين، ودليليْ صيد. عملية شنق جماعية على الأبواب."

مع كل كلمة، اليأس تملكني أكثر وأكثر. جلعاد هي من تملك في يدها كل القوة. قتلوا ميلاني ونيل، وسيقتفون أثر أمي المجهولة ويقتلونها، وسيمحون اليوم المايوي عن الوجود. وبطريقة أو بأخرى سيصطادونني ويجرونني إلى جلعاد، حيث النساء لا يفرقن في شيء عن قطط البيت والكل يعيش حياته في سعار دينيّ.

"وما الذي بيدنا فعله الآن، إذ يبدو أنّ لا شيء بيدنا فعله،" سألتهم.

"سأقول لك الآن،" قال إلايجا. "اتضح أنّ هناك فرصة. أملٌ واه، لك أن تسميه."

"والأمل الواهي خيرٌ من الأمل الميؤوس منه،" قالت آدا.

المصدر كان قد وعد منذ فترة بإيصال وثيقة ضخمة ومهمة في ذاكرة فلاشية إلى اليوم المايوي، وثيقة من شأنها هز كيان جلعاد من أساسه، أو هكذا ادعى المصدر. لكن للأسف هو أو هي لم ينته من تجميع تلك الوثيقة قبل عملية الملابس

الطريدة وانقطاع الصلة.

عدا أنّ المصدر رسم خطةً بديلة في حال انهيار الخطة الأصلية، وهو أو هي شاركا تلك الخطة مع اليوم المايوي في وثيقة ميكروسكوبية قبل فترة. من شأن أي امرأة يافعة تدّعي الاهتداء إلى دين جلعاد على يد إرسالية اللآلئ الكريمة دخول جلعاد بكل سهولة – إذ سبق لكثير من النساء أن فعلن هذا. وأفضل امرأة يافعة يمكن اصطفاؤها لتنفيذ مهمة نقل الذاكرة الفلاشية – بل المرأة اليافعة الوحيدة المقبولة لدى المصدر – هي الرضيعة نيكول. والمصدر لا يساوره أدنى شك أن اليوم المايوي على علم بمكانها.

المصدر كان واضحًا بلا أي لبس: لا الرضيعة نيكول، لا ذاكرة فلاشية؛ وبدون تلك الوثيقة، فجلعاد ستواصل وجودها. اليوم المايوي سينفد منها الوقت، وموت ميلاني ونيل سيضيع عبثًا. عدا بالطبع حياة أمي التي على المحك. لكن إن انهارت جلعاد، فالأمور ستغدو مختلفة.

"ولم أنا بالذات؟"

"المصدر كان حازمًا في تلك النقطة. قال إنك خير فرصة نملكها. على الأقل لهذا السبب: إن وقعوا عليك بالجرم المشهود فلن يجرؤوا على قتلك. فقد استثمروا الكثير في صنع أيقونة منك."

"ليس بيدي تدمير جلعاد،" قلت لهم، "أنا مجرد شخص واحد."

"لست وحدك، بكل تأكيد لست وحدك،" قال إلايجا. "كل ما ستفعلينه هو نقل الذخيرة."

"لا أظنني سأستطيع،" قلت له. "الادعاء بأني مهتدية. لن يصدقوني أبدًا."

"سندربك،" قال إلايجا. "على الصلاة والدفاع عن النفس." بدا أشبه بمشهد مبتذل في مسلسل تلفزيوني.

"الدفاع عن النفس؟ ضد من؟"

"هل تذكرين اللؤلؤة الكريمة التي وجدت مقتولة في الشقة المفروشة؟" قالت آدا. "كانت تعمل لدى المصدر."

"اليوم المايوي لم تقتلها،" قال إلايجا. "بل اللؤلؤة الكريمة الأخرى، شريكتها. لا بد أنّ أدريانا حاولت إثباط شكوك شريكتها حول مكان تواجد الرضيعة نيكول. لا بدّ أنّ عراكًا وقع بينهما. وأدريانا خسرت."

"كثيرٌ من الناس ماتوا وما زالوا يموتون لأجلي، الصاحبيّون، نيل وميلاني، وتلك اللؤلؤة الكريمة."

"جلعاد لا تخجل من جرائمها،" قالت آدا. "فهم متطرفون." قالت إنهم ادعوا أنّ الحياة في كيانهم الجديد ستقوم على أسس الفضيلة الإلهية، عدا أنّ بيدك أن تعيش حياة فاضلة وتقتل الناس متى ما كنت متطرفًا. فالمتطرف يرى في قتل الناس فضيلة، أو بالأحرى قتل فئة معينة من الناس. وأنا أعرف ذلك لأنهم في المدرسة علمونا عن التطرف.

كنت قد وافقت نوعًا ما على الذهاب إلى جلعاد دون أن أصرح أبدًا بموافقتي هذه. إذ قلت لهم أني سأفكر في الموضوع، وما إن استيقظت صباح اليوم التالي راح الكل يتعامل معي وكأني بالفعل قلت نعم، إلايجا أخبرني كم هو تصرفٌ شجاعٌ مني والفرق الكبير الذي سأصنعه، والأمل الذي سأحمله إلى الكثير من الأناس العالقين؛ لذا لك أن تتخيل كيف أنّ طريق الرجعة سُدّ من خلفي. على أي حال، شعرت بأني أدين لنيل وميلاني ولكل من مات على درب حمايتي. فإن كنتُ الخيار الوحيد المقبول لدى المدعوّ بالمصدر، فلا بد لي أن أحاول.

آدا وإلايجا قالا إنهما سيهيئاني قدر المستطاع ضمن الوقت المحدود أمامنا. أقاما صالة رياضية مصغرة في إحدى الحجيرات، مع كيس ملاكمة، حبل قفز، وكرة تريض جلدية. غارث تولى مهمة التدريب الرياضي. في البداية لم يتبادل إلا القليل من الكلام معي، كله فيما يخص التدريب: القفز على الحبل، اللكم، وتقاذف الكرة. لكن بعد فترة بدأ يلين تجاهي. أخبرني بأنه من جمهورية تكساس. أنهم أعلنوا الاستقلال مع بداية قيام جلعاد، وجلعاد لم تقبل بالاستقلال؛ وهكذا اشتعلت الحرب بينهما، والتي انتهت بالتعادل ورسم حدود جديدة بينهما.

وهكذا صارت جمهورية تكساس رسميًا دولة حياد، وأي عملية تقوم أو تشارك بها ضد مواطني جلعاد ستعتبر اعتداءً غير قانوني يجر عواقب وخيمة. ليس أنّ كندا ليست على الحياد هي الأخرى، لكنها محايدة خرقاء. خرقاء، وصفه وليس وصفي، وحين استشعر إحساسي بالإهانة أخبرني أنّ كندا خرقاء بالمعنى الجيد للكلمة. هو ومجموعة من أصدقائه قدموا إلى كندا للانضمام إلى لواء لنكولن في اليوم المايوي، والمخصص لمقاتلي الحرية الأجانب. كان صغيرًا جدًا على المشاركة في حرب جلعاد ضد تكساس، كان فقط في السابعة من عمره. لكن أخويه الأكبرين قُتلا فيها، وابنة عم له اختطفت وأخذت إلى جلعاد، ومذ ذاك لم

يسمع أحدٌ عنها شيئًا.

رحت أحسب الأرقام في رأسي حتى أعرف عمره بالضبط. أكبر مني، لكن ليس بكثير. هل يا ترى يراني أكثر من مهمة ينفذها؟ ولماذا أهدر وقتًا أفكر في تلك الأمور؟ فأنا في حاجة إلى التركيز على المهمة بين يديّ.

في الأيام الأولى كنت أتمرن مرتين في اليوم على مدى ساعتين، كي أزيد من قدرة الاحتمال لديّ. غارث قال إنّ لياقتي ليست بالسيئة، وهو محق – فقد كنت لاعبة جيدة في المدرسة، في ماض بدا بعيدًا جدًا. من ثم أراني بعضًا من حركات الصدّ والركل، كيف أضرب رجلًا بين فخذيه بركبتي، وكيف أسدد **الضربة الصاعقة** – بجمع كفي في قبضة محكمة، إبهامي ملتف حول البرجم الثاني لكل من السبابة والإصبع الأوسط، ثم أسدد اللكمة بذراع مستقيم. تمرنّا كثيرًا على هذه اللكمة: أنتِ من عليه أن يسدد الضربة الأولى إن أردت فرصة في النجاة، قال لي، هكذا ستستفيدين من عنصر المفاجأة.

"اضربيني،" كان سيقول لي. فأهمّ بالتسديد وإذ سرعان ما يزيحني جانبًا ويلكمني في بطني – ليس بقوة، لكن بما يكفي حتى أشعر بها. "شدي عضلاتك،" كان سينهرني. "أتريدين لطحالك أن يتمزق؟" وإن بكيت – ألمًا أو إحباطًا – ما كان ليتعاطف معي البتة. بل كان سيشمئز مني. "هل تريدين التدرب أم لا؟".

آدا أحضرت رأس دمية بلاستيكي مع عينين من الجل، وغارث حاول تعليمي كيف أفقأ عيني أحدهم؛ لكن مجرد التفكير بسحق مقلتين بإبهاميّ أرعدت أوصالي. كان أشبه بالدوس على الدود حافي القدمين.

" سحقًا. لا أدري، سيؤلمهم كثيرًا. إبهامٌ في عينهم."

"أنت في حاجة إلى إيذائهم،" قال غارث، "بل لا بد أن ترغبي في إيذائهم. إذ كوني واثقة أنهم سيرغبون في إيذائك دون تردد."

"يا للخراء،" قلت لغارث حين أراد مني التمرن على حركة فقء الأعين. إذ تصورتهم بوضوح، تلك الأعين. مثل حبات العنب المقشور.

"هل تتوقعين منهم التشاور بعقلانية معك حول أحقية موتك؟" قالت آدا، إذ حضرت جلسة التدريب. "كما ترين، فالرأس ليس حقيقي. هيا، اطعني!"

"إخخ."

"إخخ لن تغير العالم. سيتوجب عليك تلطيخ يديك. إصلبي عودك وقوّي قلبك. والآن، حاولي مرة أخرى. هكذا." لم تتورع للحظة.

"لا تيأسي، القوة تكمن فيك،" قال غارث.

"شكرًا!" قلتها في صوتي الساخر، لكني عنيتها: إذ أردته أن يظن أن هناك فعلًا قوةً تكمن فيّ. فقد تولعت به، ولعًا صبيانيًا وميؤوس. لكن مهما استغرقت في أحلام اليقظة، فالجزء الواقعي من عقلي لم ير أي مستقبل في علاقتنا. ما إن أرحل إلى جلعاد، فعلى الأرجح لن أراه مرةً أخرى في حياتي.

"كيف أداؤها؟" كان سؤال آدا اليومي لغارث بعد نهاية جلسة التدريب.

"أفضل."

"هل هي قادرة على القتل بإبهاميها؟"

"في طريقها إلى هناك."

الصلاة كانت الجزء الآخر من تدريبي اليومي. آدا حاولت تعليمي، وكانت جد بارعة فيه. لكن أنا من كنت الطالب الميؤوس منه.

"كيف تعرفين كل تلك الصلوات؟" سألتها.

"من حيث نشأت، فالكل هناك يعرفها."

"أين؟"

"في جلعاد، قبل أن تغدو جلعاد،" أجابتني. "أبصرتُ دلائل قيامها فخرجت في الوقت المناسب. للأسف الكثير من الناس الذين أعرفهم لم يبصروها."

"ألهذا السبب انضممت إلى اليوم المايوي؟" سألتها. "بدافع شخصي؟"

"في المحن، كل شيء يغدو شخصيًّا."

"وماذا عن إلايجا؟ هل دافعه شخصي هو الآخر؟"

"كان مدرسًا في كلية الحقوق، واسمه كان على القائمة. أحدهم وشى به. قطع الحدود لا يحمل شيئًا سوى الملابس التي عليه. والآن دعينا نحاول مرة أخرى. أبانا الذي في السماوات، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، وبارك ... رجاءً كفي عن القهقهة."

"آسفة، لكني دومًا سمعت نيل يقول إن الرب ليس سوى صديق خياليّ، وإن كنت ستؤمن به فالأجدر أن تؤمن أيضًا بجنية الأسنان اللعينة. عدا أنه ما قال اللعينة."

"عليك أن تأخذي الأمر بجدية،" قالت آدا. "إذ كوني واثقة أنّ جلعاد تأخذه على محمل الجدية. وأمرٌ آخر: كفّي عن اللعان."

"لكني بالكاد ألعن." قلت لها.

المرحلة التالية من الخطة، أخبروني، تتطلب مني التشبه بأطفال الشوارع ملبسًا وتصرفات، التسكع واستجداء المال حيث اللآلئ الكريمة يتواجدن. ومتى ما بدأن بالتقرب مني ومحادثتي، فعليّ أن أتركهن يقنعنني بالذهاب معهن إلى جلعاد.

"ولماذا أنت واثق أن اللآلئ الكريمة سيرغبن في اصطحابي؟"

"لأنه الاحتمال الأرجح،" قال غارث. "فهذا الهدف من مهمتهن."

"لكن ليس بيدي أن أتشبه بأطفال الشوارع، لا أعرف كيف أتصرف مثلهم."

"فقط تصرفي على طبيعتك،" قالت آدا.

"المشردون وأطفال الشوارع سيرون أني محتالة – ماذا إن سألوني كيف وصلت هناك، وأين هما والداي – ما المفترض بي أن أقول؟"

"غارث سيكون برفقتك هناك. سيقول إنك لا تتحدثين كثيرًا لأنك في حال صدمة،" قالت آدا. "أنك هاربة من بيت عنيف. والكل سيتفهم." تخيلت ميلاني ونيل عنيفين معي: الفكرة في حد ذاتها بدت سخيفة.

"ماذا إن لم يعجبوا بي؟ أطفال الشوارع والمشردون؟"

"طُز،" قالت آدا. "فليكرهوك ومن يكترث؟ ليس لزامًا على كل من في حياتك أن يحبك."

طُز. من أين خطر لها هذا التعبير؟ "لكن أليس منهم ...أليس من ضمنهم مجرمون؟"

"بائعو مخدرات، مدمنو هيروين، مدمنو كحول،" قالت آدا، "معظمهم من هذا الصنف. لكن غارث سيبقي عينه عليك طوال الوقت. سيدعي أنه حبيبك، وسيتدخل إن حاول أحدهم التعرض إليك. وسيظل معك إلى أن يلتقطنك اللآلئ الكريمة."

"وحتام سننتظر؟"

"لا أظن لوقت طويل،" قالت آدا، "ما إن يغرفنك اللآلئ الكريمة عن الشارع، لن يعود بمقدور غارث البقاء معك. لكنهن سيحملنك برفق على كفوف الراحة مثلما يحملن بيضة. ستكونين اللؤلؤة الثمينة في مسبحتهن."

"لكن ما إن تدخلي جلعاد، فالأمر سيختلف،" قال إلايجا. "ستجبرين على ارتداء الملابس التي سيأمرونك بارتدائها، التزام الحذر في كل كلمة تصدر عنك، والتنبه لكل عاداتهم."

"لكن إن شعروا بأنك أصلًا تعرفين الكثير عنهم،" قالت آدا، "سيشكون في تلقيك التدريب على يد اليوم المايوي. لذا عليك أن توازني بين الأمور."

فكرت بما قالت: هل أنا أصلًا ذكية كفاية لأفعل كل هذا؟

"لا أدري إن كان بيدي."

"متى ما وقعتِ في الشك، تظاهري بالغباء." قالت آدا.

"هل سبق أن أرسلتم مهتديات عميلات من قبل؟"

"مرتين أو ثلاث،" قال إلايجا. "النتائج مختلطة. لكن ولا واحدة منهن حظيت بالحماية التي تحظين بها."

"تعني حماية المصدر؟" المصدر – الصورة الوحيدة التي تخيلته عليها هو شخصٌ يغطي رأسه في كيس. ومن عساه يكون حقيقةً هذا المصدر؟ كلما سمعت عنه أكثر، بدا لي أغرب وأغرب.

"مجرد تخمين، لكننا نظن أنها واحدة من الخالات،" قالت آدا. اليوم المايوي

لا تملك معلومات كثيرة عن الخالات: فهن لا يظهرن في الأخبار، ولا حتى في أخبار جلعاد؛ الرؤساء وحسب هم من يلقون الأوامر، من يشرعون القوانين، من يتولون الكلام. الخالات يعملن من خلف الكواليس. هذا ما قيل لنا في المدرسة.

"يقال إنهن يملكن نفوذًا،" قال إلايجا. "لكنها مجرد أقاويل. في الحقيقة لا نملك عنهن الكثير من التفاصيل."

كان لدى آدا صورٌ لهن، صورٌ قليلة. الخالة ليديا، الخالة إليزابيث، الخالة فيدالا، الخالة هيلينا: كنّ الخالات المؤسسات. "ثلة خطّافات[22] خبيثات."

"روعة! من الواضح أن رفقتهن ممتعة."

غارث أخبرني أنّ متى ما نزلنا الشارع فلزامٌ عليّ اتباع الأوامر بحذافيرها، لأن من بيننا نحن الاثنين فهو صاحب الخبرة في التعامل مع أبناء الشوارع. ولن أريد أبدًا استفزاز أحدهم وتوريطه في عراك معه، لذا التلفظ بأشياء مثل، من كانت عبدتك العام الماضي، وأنت لست أبي، لن يجر سوى عواقب سيئة عليهما.

"لم أتلفظ بأشياء كهذه مذ كنت في الثامنة،" قلت له مستنكرة.

"كلتا العبارتين قلتهما البارحة!"

ثم أخبرني أنّ عليّ اختيار اسم آخر. فلربما هناك أناس يبحثون عن ديزي، وبالتأكيد لن أختار نيكول. لذا أخبرته أني سأسمي نفسي جايد. إذ أردت اسمًا أصلب من الزهرة[23].

"المصدر أخبرنا بأنّ عليها أن ترسم وشمًا على ساعدها الأيسر،" قالت آدا. "مطلبٌ رئيسي لم يقبل التنازل عنه."

كنت قد جربت الحصول على وشم في الثالثة عشرة، لكن ميلاني ونيل عارضاني بقوة. "رائع، لكن لماذا؟" سألتها. "فلا ذراع مكشوفة في جلعاد، فمن سيراه؟"

22 الخطاف "harpy": مخلوق خرافي خبيث نصفه امرأة ونصفه طير.

23 "Jade": تعني اليشم، وهو حجرٌ كريم أخضر، وبذا يكون أصلب من اسم "Daisy" زهرة الربيع.

"نظن أنّ الوشم مقصودٌ به أن تراه اللآلئ الكريمة،" قالت آدا. "كي يتعرفن عليك. ستكون لديهن توجيهات بالبحث عنه."

"هل سيعرفن من أنا، أعني، قصة نيكول؟"

"هنّ يتبعن الأوامر وحسب،" قالت آدا. "على نظام لا تسأل، لا تفصح[24]."

"وما الوشم الذي سأحصل عليه، فراشة؟" كانت مزحة. لكن لا أحد ضحك.

"المصدر أخبرنا بأنّ على الوشم أن يبدو هكذا،" قالت آدا، ورسمته:

L

God

V

E

"مستحيل، لن أشم هذا على ذراعي، سيكون خطأً مني إن فعلت."

إذ رأيته نفاقًا: لصعق نيل على مرآه.

"ربما خطأٌ في وجهة نظرك،" قالت آدا، "لكنه الصواب في هذا الوضع."

آدا أحضرت امرأة من معارفها حتى تشم ذراعي وتصمم مظهري الشوارعيّ. شعرها كان أخضر شمعيًا، وأول ما فعلته صبغ شعري بذات اللون. كنت سعيدة: إذ تصورت نفسي أشبه ببطلة ألعاب فيديو خطيرة.

"بداية جيدة،" قالت آدا، تقيم نتائج التغيير.

الوشم ما كان وشمًا وحسب، بل شقًّا في الجلد: نقش أحرف في الجسد[25]. والنقش اللعين آلمني. لكني حاولت التصرف وكأن الألم لا يعنيني لأني أردت أن أري غارث أني على قدر المهمة، أنّ هناك قوة كامنة فيّ.

---

24 "Don't ask, don't tell": سياسة أقرها الجيش الأميركي عام 1994 بأن لا يسأل الجيش إن كان الجندي مثلي الجنس، وفي المقابل لا يفصح الجندي عن ميوله الجنسية علنًا. واستمر العمل بالسياسة حتى إلغائها عام 2011.

25 "scarification" نوع من الوشوم القبلية والتي لا يستخدم فيها الحبر، بل يرسم الشكل بالدق على الجلد وكشط الطبقة العليا منه بما سيتسبب بندبة دائمة.

* * *

في منتصف الليل راودني خاطرٌ مزعج. ماذا إن كان المصدر مجرد طعم، والمقصود به خداع اليوم المايوي؟ ماذا إن لم يكن هناك أصلًا من وثيقة ضخمة في ذاكرة فلاشية؟ ماذا إن كان المصدر شريرًا؟ ماذا إن كانت القصة بأسرها مصيدة - حيلةٌ ذكية لخداعي إلى الذهاب إلى جلعاد بقدميّ؟ إذ ما إن أدخل فيها فلن أخرج منها. من ثم ستقام مسيراتٌ أخرى، مسيراتٌ كثيرة، وأعلامٌ كثيرة، وغناءٌ كثير وصلوتٌ كثيرة، مسيراتٌ ضخمة مثل تلك التي نراها على شاشات التلفاز، وأنا المحتفى بها. الرضيعة نيكول، وأخيرًا عادت إلى موطنها، حمدًا للرب. ابتسمي، فأنت على شاشة جلعاد.

في الصباح، بينما كنت أتناول فطوري المنقوع في الدهون مع آدا، إلايجا، وغارث، شاركتهم خاطري المخيف.

"لا تظني أننا لم نأخذ كل هذه الاحتمالات في الاعتبار،" قال إلايجا. "في النهاية هي مقامرة."

"الحياة مقامرة، أنت تقامرين كل صباح تستيقظين فيه،" قالت آدا.

"هذه مقامرة أكثر جدية،" قال إلايجا.

"عن نفسي، فأنا أراهن عليك،" قال غارث، "وكم سيكون مذهلًا إن فزتِ."

المِقْراض

سِفْرُ أَرْدوا هول

34

قارئي العزيز، أحمل لك مفاجأة. كانت مفاجأةً حتى لي.

في جنح الظلام، بمساعدة مثقاب حجريّ، بعض الرقائق الخشبية، القليل من التمليط، خبأت كاميرتيْ مراقبة تعملان بالبطارية في قاعدة تمثالي. فلطالما كنت ماهرة في استخدام الأدوات. أعدت الطحالب مكانها على القاعدة، أتفكر في ضرورة تنظيفها لاحقًا. فالطحالب النامية على التماثيل تضفي هالة من الوقار إلى حد معين وحسب. أما على وضعها الحالي فقد صيّرتني مشعرة.

انتظرت في نفاد صبر ظهور النتيجة. إذ سينفعني وجود رزمة من الصور الدامغة للخالة إليزابيث تدس أدلة البيض المسلوق والبرتقال عند قدميّ الحجريتين في محاولة منها لتشويه سمعتي. إذ حتى إن لم أكن أنا من يمارس تلك الطقوس الوثنية، حقيقة أن آخرين يمارسونها سينعكس بصورة سيئة عليّ: إذ سيقال إني تسامحت مع تلك الطقوس، ولربما حتى شجعت عليها. وكِبْرٌ كهذا ستستغله الخالة إليزابيث كي تطيح بي من قمة سلطتي. كما أني لست واهمة على الإطلاق فيما يخص ولاء الرئيس جود لي: إن توفرت الوسيلة الآمنة – الآمنة له – فلن يتردد لحظة في التبرؤ مني. فالرجل تراكمت لديه خبرة طويلة في مجال التبرؤ.

لكن هنا تكمن المفاجأة. على مرٍّ أيام لم يحدث أي شيء – أو بالأحرى شيءٌ يذكر، إذ أسقطتُ من حسابي حضور الزوجات الثلاث اليافعات الدامعات، من مُنحن التصريح بدخول أردوا هول لأنهن زوجات رؤساء بارزين في العيون، واللواتي وضعن عند قدميّ بمجملهن قطعة موفين، رغيفًا صغيرًا من دقيق الذرة، وليمونتين – والليمون قيمته من قيمة الذهب هذه الأيام، إثر الكوارث التي

أصابت فلوريدا وعجزنا عن تثبيت وجودنا في كاليفورنيا. كم أنا سعيدة بحصولي عليهما، وسأحسن استغلالي لهما: إن أعطتك الحياة ليمونًا، اصنع ليمونادة. وسأبحث في الكيفية التي استحصلوا فيها على الليمون. إذ ثبت أنّ من العبث إحكام قبضة القانون على أنشطة السوق الرمادية – لا سيما أنّ الرؤساء أنفسهم لهم مباهجهم الصغيرة – لكني بطبيعة الحال أحرص دومًا على معرفة من يبيع ماذا، وكيف هربوه. فالنساء بضاعة واحدة وحسب من تلك البضائع المهربة التي تنقل في الخفاء – لا يريحني وصفهن بالبضاعة، لكن متى ما تبادلت الأيدي المال، فهنّ بضاعة. إذن أهذه هي الصفقة: الليمون داخلًا والنساء خارجًا؟ سأستشير مصادري في السوق الرمادية: فهم لا يرحبون بالمنافسة.

تلكن الزوجات الدامعات تمنين تجنيد قواي السرية في سعيهن إلى الخصوبة، يا لهن من مسكينات. رحن يرنّمن بير أردوا كم إسترس، وكأنما الدعاء باللاتينية أبلغ وقعًا على أذن الرب من الدعاء باللغة الانجليزية. سأرى ما الذي بيدي فعله لهن، أو بالأحرى من بيده فعل شيء لهن - بما أنّ كلّ زوج من أزواجهن قد أثبت بما لا يدع مجالًا للشك وهنه في هذه المهمة.

لكن عودًا إلى مفاجأتي. في اليوم الرابع، خمن ما الذي لاح في عدسة الكاميرا مع انفلاق الفجر سوى الأنف الأحمر الكبير للخالة فيدالا، متبوعًا بعينيها وفمها. الكاميرا الثانية التقطت مشهدًا رأسيًّا: كانت ترتدي قفازين – براعةٌ منها – ومن جيبها تناولت بيضة، ومن بعد البيضة برتقالة. ما إن تلفتت حواليها كي تتأكد ألا أحد يراها، وضعت تلك التقدمات النذريّة عند قدميّ، ومعهما وضعت رضيعًا بلاستيكيًّا. من ثم، على الأرض جانب التمثال – أوقعت منديلًا مطرزًا بزهور الليلِك: دلالةٌ واضحة عليّ، من مشروع الخالة فيدالا المدرسي قبل عدة أعوام حيث طُلِب من الفتيات أن يطرزن مناديل الخالات المؤسسات بزهور تدل على أسمائهن. الليلك زهرتي، الإكيناسيا زهرة إليزابيث، الهايكينثوس زهرة هيلينا، والفيوليت زهرة فيدالا؛ خمس مناديل لكل واحدة منا – تطريزٌ كثير كان ينتظر الطالبة المسكينة. لكن الفكرة وُئِدت لاحقًا إذ رأوا فيها ميلًا خطيرًا إلى بدعة القراءة.

والآن، كونها أسرّت إليّ بأن إليزابيث هي من تحاول تجريمي، فها هي فيدالا نفسها من تدس الأدلة ضدي: هذه القطعة البريئة من الحرف اليدوية. ومن أين تحصلت عليها؟ اختلستها من سلال الغسيل ولا شك. سيبدو الأمر وكأني أنا من يشجع على بدعة الشرك. ويا له من حساب عظيم كنت سألقاه يومها! لذا لك أن تتخيل مدى سعادتي بلقيتي.

أي زلة من خصمي في المبارزة هي عطيةٌ لي من القدر. خبأت تلك الصور إلى أن يحين وقتها – فمن حسن التدبير ادخار كل فتات يقع في يدك، في المطبخ مثلما في أي مكان آخر – وعقدت عزمي على انتظار التطورات.

عن قريب لا بد أن أبلغ إليزابيث، زميلتي الموقرة في التأسيس، أنّ فيدالا قد وجهت لها تهمة الخيانة. هل أضيف هيلينا على لائحة المتّهمات؟ فمن منهما الأكثر استغناءً عنها إذا ما دعت الحاجة إلى كبش فداء؟ ومن منهما الأسهل تطويعًا إذا ما احتجتُ إلى حليف؟ كيف لي أن أؤلب عضوات الثالوث المتحمس للانقلاب عليّ بعضهن على بعض، هل سيكون من الأفضل التعامل معهن فرادى؟ وأين بالضبط موقع الخالة هيلينا مني؟ فهي من طينة من يتماشون مع روح العصر، ولن يهمها أي عصر هذا. فلطالما كانت هي الأضعف شخصيةً بيننا.

أجدني واقفة على مفترق طرق. عجلة الحظ تدور، متقلبة كما وجوه القمر. عن قريب أذلة القوم سيصبحون أعزتها. والعكس صحيح، والعكس صحيح.

سأبلغ الرئيس جود عن الرضيعة نيكول – الآن فتاةٌ يافعة – بأنها تقريبًا في متناول قبضتي، ولربما عن قريب سنغريها بالعودة إلى جلعاد. سأقول تقريبًا ولربما حتى أبقيه متشوقًا. الحماسة ستغلبه، إذ هو واع لمكاسب البروباغندا التي ستصاحب عودة الرضيعة نيكول. سأخبره أن خطتي قيد التنفيذ، لكني أفضل عدم مشاركتهم اياها في هذه المرحلة: إذ يعتمد نجاحها على حسابات دقيقة، وأي زلة لسان في المكان الخطأ ستدمر كل شيء. اللآلئ الكريمة هن المعنيات في التنفيذ، وهنّ تحت إشرافي المباشر؛ وبما أنهن جزءٌ من عالم المرأة، فلا يحق للرجال الغلاظ التدخل فيه، كذا سأقول له، أهز إصبعي في وجهه على نحو خبيث.

"عن قريب ستنال الثواب. ثق بي،" سأقول له في نبرة بهيجة.

"الخالة ليديا، يا لك من امرأة خيّرة،" سيقول مشرق الأسارير.

خيّرةٌ على نحو لا يقبل التصديق، سأقول في نفسي. وخيري مهدورٌ على هذه الأرض. أيها **الخير**، كُنْ أنتَ شَرّي[26].

حتى تفهم جيدًا تطورات الأمور، عليّ أن أفيك بعرض تاريخي بسيط. حادثةٌ مرّت وتقريبًا لم يلاحظها أحد.

قبل تسع سنوات أو ما شابه – في ذات العام الذي رفعوا فيه الستار عن تمثالي، وإن ليس في ذات الموسم – كنت جالسة في مكتبي، أتقفى خطوط النسب لأجل زواج مقترح، وإذ يقاطعني ظهور الخالة ليز في مكتبي، مع رموش عينيها المرفرفة وتصفيفة شعرها المدعية – نسخة مخففة من الشنيون الفرنسي. لدى دخولها مكتبي، كانت تلوي يديها المتشابكتين بعصبية؛ كنت خجلة نيابةً عنها على تصرفها مثل بطلة روائية بائسة.

"خالة ليديا، آسفة جدًا على مجيئي، أعلم أنّ وقتك ثمين،" كذا استهلت حديثها. كلهن يستهللن حديثهن معي هكذا، لكن ما منعهن مرة من أن يضيعن وقتي الثمين. ابتسمتُ لها ابتسامة أملت ألا تبدو متجهمة.

"ما المشكلة؟" سألتها، متوقعةً سماع شيء من مجموعة عروضنا الدرامية المتكررة: حرب الزوجات، بناتٌ عاصيات، رؤساء غير راضين بالزوجة المختارة، جوار هاربات، ولاداتٌ ساءت. هناك أيضًا الاغتصاب المعتاد، والذي ننزل فيه أشد العقاب إن اخترنا فضحه للعلن. أو القتل: هو يقتلها، هي تقتله، هي تقتلها، وبين الفترة والأخرى، هو يقتله. ضمن طبقة الكفاف، إن تملكت الغيرة الهائجة أحدهَم فسيغمد سكينه في القلب، لكن ضمن الطبقة النخبوية، فالرجل يقتل

26 "Good be thou my evil": تلاعب على اقتباس من ملحمة الفردوس المفقود، على لسان إبليس: لذا وداعًا للأمل، ومع الأمل وداعًا للخوف، وداعًا للندم: كل الخير عندي صار مفقودًا. أيها الشر كن أنت خيري.

الرجل مجازيًا: بطعنة في الظهر.

في الأيام البطيئة، أجدني أتوق إلى قضية أصيلة مبتكرة – أكل لحوم البشر، مثلًا – لكني سرعان ما أؤنب نفسي: احذري مما تتمنين. إذ سبق وتمنيت في الماضي وحصلت على ما تمنيت. إن أردتَ إضحاك الرب شاركه خططك، كذا يقول مثلٌ بائد؛ عدا أنّ هذه الأيام مجرد التفكير برب يضحك يوقع عليك حكم الردة. فالرب صار يمينيًّا متطرف.

"قد وقعت لدينا محاولة انتحار أخرى في مدرسة الياقوت الإعدادية للزواج،" قالت الخالة ليز، تدس خصلةً هائمة من شعرها. كانت قد نزعت عن رأسها غطاء البيشك البشع المجبرات على ارتدائه خارجًا كيما نتفادى إثارة شهوات الرجل، رغم أنّ مجرد تصور أي رجل يحترق بنار الرغبة على مرأى الخالة ليز، التي بروفايل وجهها مذهل لكنها مجعدة الوجه إلى حدٍّ مخيف، أو على مرآي، مع شعري الأشيب وجسدي الشبيه بخيش البطاطا، لهو تصورٌ سخيف لا يستحق حتى شرحه.

قلت في نفسي، لا، ليس مرةً أخرى. لكن الخالة ليز قالت محاولة، ما يعني أنّ الانتحار لم يفضِ إلى الموت. فالتحقيق يفتح في حال الموت، وحينها ستوجه الأصابع إلى أردوا هول. اختيارنا غير اللائق للزوج هو الاتهام المعتاد – كوننا في أردوا هول المسؤولات عن الاختيار بين المرشحين، بما أننا نحن من يملك معلومات الأصول والأنساب. غير أنّ الآراء تختلف حول ما يعد اختيارًا لائقًا.

"وما الوسيلة هذه المرة؟ جرعة زائدة من مضادات الاكتئاب؟ أتمنى على الزوجات ألا يتركن تلك الحبوب مبعثرة في كل مكان حيث لأي شخص أن يتناولها. تلك الحبوب، والأفيون: كلاهما إغراءٌ لا يقاوم. أو هل حاولت شنق نفسها؟"

"ليس شنقًا" قالت الخالة ليز. "حاولت شقّ معصميها بالمقراض. المقراض الذي أستخدمه في تنسيق الزهور."

"إيذاءٌ مباشر،" قلت لها. "وبعد؟"

"حسنٌ، الشق لم يكن عميقًا. رغم أن دمًا كثيرًا نُزِف، مع قدر معين من... الإزعاج."

"آه،" بالإزعاج كانت تعني الصراخ: تصرفٌ لا يليق بسيدة. "وبعد؟"

"اتصلت بالإسعاف، خدروها ونقلوها إلى المستشفى. من ثم أعلمت السلطات المختصة."

"أحسنت. الأوصياء أم العيون؟"

"الاثنين."

أومأت لها. "يبدو أنك تناولت الموقف على أفضل نحو ممكن. فما الذي تبقى حتى تستشيريني به؟" الخالة ليز بدت سعيدة بإطرائي إياها، لكن سرعان ما تبدلت ملامحها إلى القلق الشديد.

"تقول إنها ستعيد الكرّة ... إلا إن حدث تغييرٌ في الخطة."

"تغييرٌ في الخطة؟" كنت أعرف ما تعنيه، لكني أوثر الاستيضاح.

"إلا إن أُلغِي الزفاف."

"لدينا أخصائياتٌ اجتماعيات، هل قمن بعملهن؟"

"حاولن كل الوسائل المعتمدة معها، لا فائدة."

"هل هددتها بالعقوبة القصوى؟"

"تقول إنها لا تمانع الموت. بل تمانع الحياة، تحت الظروف الحالية."

"هل هي معترضة على شخص المرشح أم الزواج عمومًا؟"

"الزواج عمومًا،" قالت الخالة ليز. "رغم كل المزايا."

"ولا حتى ميزة تنسيق الزهور؟" قلت لها في نبرة جافة. إذ لطالما أولت الخالة ليز تنسيق الزهور أهميةً كبيرة.

"هل تخشى إنجاب الأطفال؟" ولكنت تفهمت خوفها، مع نسبة الوفيات العالية: في المقام الأول بين المواليد الجدد، ومن بعدهم الأمهات. فالتعقيدات تبدأ مع يوم الحمل الأول وتتفاقم، لا سيما مع المواليد المشوهين. قبل عدة أيام ولد طفلٌ بلا ذراعين، وأوّلوه توبيخًا من الرب على خطيئة لا بد ارتكبتها الأم.

"كلا، هي لا تخشى الإنجاب،" قالت الخالة ليز. "تقول إنها تحب الأطفال كثيرًا."

"ماذا إذن؟" أحببت إجبارها على التلفظ بما في جعبتها: هزّة من وقت لآخر تنفع الخالة ليز وتجبرها على مواجهة الواقع. فتلك المرأة تقضي وقتًا طويلًا بين بتلات الزهور.

عادت تفتل خصلة شعرها المنسدلة. "لا أرتاح لقولها." وأطرقت رأسها.

"انطقي بها، فلا شيء تقولينه سيصدمني."

تريثت، احمر وجهها، وتنحنحت. "حسنٌ، القضيب. أشبه بخوف مرضيّ."

"القضيب،" قلت متأملة. "ها هو يطل علينا من جديد." ففي حالات الانتحار بين الفتيات، القضيب في الغالب هو السبب. لربما نحن في حاجة إلى إجراء تعديل على منهجنا الدراسي: نخفف من جرعة التخويف، نلطف من صورة البعبع الذي سيفترسهن بعضوه الذكوري المتفجر. لكن إن تحدثنا عن متع الجنس نظريًا، ولو أقل القليل، فلن يؤدي إلا إلى الفضول والرغبة في التجريب، متبوعًا بالانحلال الأخلاقي والرجم العلنيّ. "أما من مجال لإقناعها بأنه مجرد وسيلة لتحقيق غاية؟ الاستهلال الضروري لإنجاب الأطفال؟"

"جربنا كل شيء، لا فائدة."

"خضوع المرأة قدرٌ إلهي مذ بدء الخليقة؟"

"جربناه وجربنا كل شيء خطر لنا."

"هل جربتم الحرمان من النوم وجلسات الصلاة لأربع وعشرين ساعة متواصلة، مع تناوب المشرفات؟"

"كل شيء. صدقيني، تلك الفتاة أقسى من الحجر. هي أيضًا تدّعي أنها تلقت نداءً يدعوها إلى تكريس نفسها إلى خدمة أعلى، ورغم أننا سمعنا هذا العذر من قبل، فأنا آمل...أنك..."

تنهدت. "لا فائدة من تدمير حياة فتاة يافعة هدرًا. حسنٌ، هل ستكون قادرة على تعلم القراءة والكتابة؟ هل هي ذكية كفاية؟"

"أوه، أجل. ذكية زيادة عن اللزوم،" قالت الخالة ليز. "فخيالها واسع. وأظن أنه السبب فيما حدث، فيما يخص القـ...تلك الأشياء."

"معك حق، فغالبًا ما تفلت القضبان المتخيلة خارج السيطرة، وتروح تتصرف بمشيئتها،" قلت لها هذا وصمتّ للحظة؛ فالخالة ليز بُهِتت.

"سنودعها تحت الملاحظة،" أخيرًا قلت لها. "فلنمنحها ستة أشهر ونرى إن كان بيدها التعلم. فكما تعرفين، نحن في حاجة إلى سد النقص العددي في أردوا هول. فجيلنا الأول لن يعيش إلى الأبد. لكن علينا أن نأخذ الأمر بروية. حلقةٌ واحدة ضعيفة ..." فأنا معتادة على تلكن الفتيات الحساسات الموسوسات. لا فائدة ترجى من إجبارهن. فلن يتقبلن أبدًا واقعهن الجسدي. حتى إن أتممن ليلة الزفاف، فعاجلًا سيعثر عليهن متدليات من ثريا أو واقعات في غيبوبة أسفل شجرة ورد، بعد ابتلاعهن كل حبة وقعن عليها في البيت.

"شكرًا،" قالت الخالة ليز. "لكان من المؤسف حقًّا."

"تعنين خسارتها."

"أجل،" قالت الخالة ليز. هي امرأة رهيفة القلب؛ لهذا وقع الاختيار عليها كي تعطي دروس تنسيق الزهور وما شابه. ففي حياتها الماضية كانت بروفيسورة في أدب القرن الثامن عشر الفرنسي، أدب ما قبل الثورة. توليها التعليم في مدرسة الياقوت الإعدادية للزواج هو أقرب ما يكون إلى حصولها على صالون أدبي.

أحاول قدر استطاعتي مطابقة المواقع الشاغرة بالمؤهلات من باب أفضل الممكن. فأنا نصيرةٌ عظيمة لسياسة أفضل الممكن، لا سيما مع غياب الأفضل.

السياسة التي جميعنا نعيش عليها اليوم.

وهكذا وجدتني متورطة في قضية الفتاة رفقة. إذ من المستحسن إظهار اهتِمامي الشخصي في البداية مع تلكن الفتيات الانتحاريات من يدّعين رغبتهن بالانضمام إلينا.

الخالة ليز أحضرتها إلى مكتبي: فتاةٌ نحيلة، ملامحها رقيقة وجميلة، عيناها واسعتان مشرقتان ورسغها الأيسر مضمد بالشاش. كانت لا تزال في زي عروس المستقبل الأخضر. "تعاليْ،" قلت لها. "لن أعضك."

جفلت وكأنها لا تصدقني. "يمكنك الجلوس على ذاك الكرسي، الخالة ليز ستجلس على الكرسي جانبك." جلست مترددة، الركبتان مضمومتان في تواضع، اليدان مضمومتان على حجرها، عيناها تحدقان في نظرة مرتابة.

"إذن تريدين أن تصبحي خالة؟" سألتها، وهي أومأت. "هو امتيازٌ، وليس حق. وأظنك تفهمين هذا. كذلك فهو ليس مكافأة على محاولتك السخيفة إنهاء حياتك. فتلك كانت خطيئة، إهانة عظيمة للرب. وأثق أنك لن تكرريها، بالطبع على افتراض قبولنا بك."

هزة رأس. دمعةٌ واحدة لم تمسحها. هل يا ترى كانت دمعةً استعراضية، هل كانت تحاول إثارة إعجابي؟

طلبت من الخالة ليز الخروج. ثم اندفعت في خطبتي: ما أمنحك إياه الآن هي فرصة ثانية في الحياة، قلت لها. لكن علينا أنا وهي أن نصل إلى قناعة كاملة بأن هذا الطريق هو الطريق المناسب لها، بما أنّ حياة الخالة ليست بالحياة المهيأة للجميع. عليها أن تعد بطاعة الخالات الأعلى مرتبة منها، عليها أن تنكب في منهج تعليمي صعب وكل ما يرافقه من واجبات روتينية شاقة، عليها أن تصلي طلبًا للهداية كل ليل وكل صباح؛ من ثم، بعد فترة الستة أشهر، إن ظلت مقتنعة باختيارها هذا الطريق ونحن بدورنا كنا راضيات بتقدمها، فستقسم قسم أردوا هول وتنكر كل طرق الحياة الدنيوية الأخرى، وحتى حينئذ، لن تكون سوى خالة مبتهلة إلى أن تكمل بنجاح مهمتها في إرسالية اللآلئ الكريمة خارجًا، وهو ما لن يحدث إلا بعد أعوام من الآن. فهل هي مستعدة للقيام بكل هذا؟

أوه أجل، قالت رفقة. كانت ممتنة جدًا! ستفعل كل ما هو مطلوبٌ منها. فقد أنقذناها من، من ...تلعثمت واحمر وجهها.

"هل وقع لك حادثٌ مؤسف في حياتك المبكرة، طفلتي؟" سألتها. "حادثٌ يتعلق برجل؟"

"لا أريد التحدث في الموضوع،" أجابتني. وجهها ازداد شحوبًا.

"هل تخشين العقاب إن تحدثتِ؟" أجابتني بإيماءة. "لك أن تخبريني، فقد

سمعت الكثير من القصص البغيضة. لذا أيًّا يكن ما تعرضت له سأفهمه." لكنها ظلت على موقفها، ولم أشأ الضغط عليها. "طواحين الآلهة تسحق الحَبّ على أقل من مهلها،" قلت لها، "عدا أنها تسحق الكل حتى أصغر حبة منها."

"عذرًا؟" بدت مرتبكة.

"أعني أنّ أيًّا ما حدث لك، فمن أساء إليك حتمًا سينال عقابه مهما طال الزمن. لذا اطرحيه من حياتك. ستكونين آمنة معنا. ولن يسيء إليك أبدًا بعد اليوم." في حالات كهذه، نحن الخالات لا نتصرف في العلن، لكن حتمًا نتصرف. "والآن، آمل أن تثبتي لي أنك على قدر الثقة التي وضعتها فيك."

"أوه أجل،" قالت لي. "أعدك سأكون على قدرها!" مثلها مثل كل الفتيات متى ما ابتدأن: يتنفسن الصعداء، ذليلات، ساجدات. لكن بالطبع، موقفهن هذا سيتغير مع الوقت: فهناك المرتدات، والمتسللات من الباب الخلفي للقاء روميو، ولا ننسى الفارّات العاصيات. ولا داع لأقول لك أن نهايتهن ما كانت أبدًا بالنهاية السعيدة.

"الخالة ليز ستصحبك لاستلام زيك،" قلت لها. "وفي الغد ستأخذين درسك الأول في القراءة، وتبدئين تعلم قوانيننا. لكن أولًا عليك أن تختاري اسمك الجديد. هناك قائمة من الأسماء المناسبة. والآن اذهبي. فاليوم هو اليوم الأول من بقية حياتك،" قلت لها في نبرة حاولت جهدي أن تبدو مبهجة.

"أعجز عن شكرك كفاية، خالة ليديا!" قالت رفقة. عيناها تشرقان. "أنا جدّ ممتنة لك!"

ابتسمت لها ابتسامتي الشتوية الباردة. "سعيدة بسماعي هذا." وصدقًا كنت سعيدة. فالامتنان عملةٌ ثمينة: ويهمني دومًا ادخارها إلى اليوم الماطر. إذ لا تعلم متى ستحتاج إلى إنفاقها.

كثُرٌ يسمعون النداء والقلة يقع عليهم الاصطفاء، قلت في نفسي. رغم أنّ هذا القول لا ينطبق على أردوا هول: فمن اضطررنا إلى إقصائهن ممن سمعن النداء لا يتعدى أصابع اليدين. وبالتأكيد رفقة ستكون ممن يقع عليهن الاصطفاء. فهي

نبتةٌ منزلية متضررة، لكن مع العناية الجيدة ستزهر.

"أغلقي الباب خلفك،" قلت لها. كادت تثب مرحًا خارج المكتب. كم هن يافعات، مرحات! براءتهن تمس القلب. هل يا ترى كنت يومًا مثلهن؟ حاولت التذكر، لكني عجزت.

أردوا هول

محضر أقوال الشاهدة "369A"

35

بعد أن شقّت رفقة رسغها بالمقراض ونزفت على زهور أقحوان المروج البيضاء ونقلت إلى المستشفى، اعتراني قلقٌ عارمٌ عليها: هل ستشفى؟ هل ستعاقب؟ لكن مرّ الخريف ومن بعده الشتاء وما سمعنا خبرًا عنها. حتى مرثياتنا لم يسمعن شيئًا عما جرى لها.

شونميّة قالت إنّ رفقة كانت تحاول لفت الانتباه. عارضتها، وأخشى أن فتورًا ساد بيننا استمر حتى نهاية وجودنا في المدرسة.

مع حلول الربيع، أعلنت الخالة غابانا أنّ الخالات أعددن قائمة من ثلاثة مرشحين لعرضها على بولا والرئيس كايل كي يتفحصانها. زارتنا في بيتنا حيث أرتنا الصور وتلت علينا السير الذاتية والمؤهلات، هي تقرأ من مفكرتها، وبولا والرئيس كايل يصغيان ويومئان. كان متوقعًا مني أن أنظر إلى الصور وأستمع إلى التلاوة، وألا أنطق بحرف. لديّ أسبوعٌ واحد للاختيار. ميولي الشخصية ستؤخذ في الاعتبار، قالت الخالة غابانا. بولا ابتسمت لدى سماعها هذا.

"بالطبع،" قالت مؤكدة. أنا لم أقل شيئًا.

المرشح الأول كان من كبار الرؤساء، أكبر عمرًا حتى من الرئيس كايل. كان أحمر الأنف، مع عينين منتفختين – دلالة الشخصية القوية، قالت الخالة غابانا، الرجل القوّام المعتمد عليه في حماية زوجته والتكفل بها. كانت له لحية بيضاء ومن أسفلها شيءٌ أشبه بالزوائد اللحمية، أو لعلها اللغد: طياتٌ من الجلد متدلية من عنقه. كان أحد أوائل أبناء يعقوب ما يضفي عليه هالةً توقيرية استثنائية، كذلك فقد كان في طليعة المحاربين في الصراع الأولي الذي أدى إلى قيام جمهورية جلعاد.

في الواقع، يشاع عنه أنه كان عنصرًا فعالًا في المجموعة التي خططت الهجوم على الكونغرس الفاسد المنحط في الولايات المتحدة البائدة. سبق وأن كان له عدة زوجات – للأسف كلهن ميتات – وعُيّن في بيته خمس جوار لكن حتى اليوم لم يرزق بأطفال.

كان اسمه الرئيس جود، وإن لست واثقة أنّ هذه المعلومة ستفيدك كثيرًا في محاولتك التعرف على هويته الحقيقية، فأبناء يعقوب الأوائل قد بدلوا أسماءهم مرات عديدة في مراحل التخطيط السري لقيام جلعاد. حينها بالطبع لم أعرف شيئًا عن مسألة تبديل الأسماء: عرفت بها لاحقًا، بفضل نزهاتي العديدة في أرشيف الأصول والأنساب في أردوا هول. لكن حتى هناك، اسم جود الأصلي كان مطموسًا.

المرشح الثاني كان أصغر عمرًا وأنحف. رأسه كانت مدببة وأذناه كبيرتان على نحو غريب. كان بارعًا في الأرقام، قالت الخالة غابانا، ومفكّرًا، ليست بالصفة المرغوبة – لا سيما في النساء – لكن يمكن احتمالها في الزوج. تدبر إنجاب طفل من زوجته السابقة، من ماتت في المصح النفسي إثر معاناة عقلية، لكن الرضيع المسكين لفظ نفسه الأخير قبل بلوغه العام الأول.

لا، قالت الخالة غابانا، لم يكن طفلًا فاسدًا. إذ لم يعانِ من أي خطب لدى ولادته. سبب الوفاة هو ورمٌ سرطاني، الآخذ في الانتشار بين الرضّع بشكل مخيف.

الرجل الثالث، أصغر أبناء رئيس أدنى مرتبة، كان وحسب في الخامسة والعشرين. كثيف الشعر وغليظ العنق، وعيناه قريبتان جدًا من بعضهما. ليس بالمرشح المثالي مثل المرشحين السابقين، قالت الخالة غابانا، لكن العائلة متحمسة جدًا لهذه المصاهرة، ما يعني أن عائلة زوجي ستقدرني أكثر. وهي ميزة يتوجب أخذها في الاعتبار، فعائلة الزوج قد تتصرف بعدائية وتُصيّر حياة الفتاة عذابًا وبؤسًا: لن يبرحوا ينتقدونها، وسيقفون دومًا في صف الزوج.

"لا تتعجلي في الاختيار بعد، آغنس،" قالت الخالة غابانا. "تمهلي وخذي وقتك. فوالداك يريدان السعادة لك." تلك كانت فكرةً لطيفة، بيد أنها كذبة: هما

لا يريدان السعادة لي، هما يريدان أن أكون في مكان آخر.

تلك الليلة استلقيت في فراشي مع صور الخُطّاب الثلاثة تطفو في العتمة أمام عينيّ. رحت أتصور كل واحد منهم أعلاي – إذ هناك سيكونون – يحاولون إقحام عضوهم الزائد الكريه في جسدي البارد كما الحجر.

ولماذا تصورت جسدي باردًا كما الحجر؟ سألت نفسي. ثم أدركت: سيكون باردًا كما الحجر لأني سأكون ميتة. شاحبة خاوية من قطرة دم واحدة مثلها، مثل المسكينة أوفكايل – من شقوا جسدها كي يخرجوا الجنين منها، ثم تركوها مستلقية هناك جامدة، مدثرة بملاءة، تحدق فيّ بعينيها الصامتتين. وفيها رأيتُ قوةً كامنة، كامنة في الصمت، كامنة في السكون.

فكرت مليًّا في الهروب من البيت، لكن كيف كنت سأهرب وإلى أين كنت سألجأ؟ فحينذاك ما كان لديّ أدنى فكرة عن الجغرافيا: لم نتعلم شيئًا عنها في المدرسة، بما أنّ حيّنا هو كل العالم الذي نحتاج، ولم عساها الزوجة تحتاج أكثر منه؟ لم أعرف شيئًا عن مساحة جلعاد. إلى أين تمتد، وأين تقع حدودها؟ وهناك العوائق العملية، كيف سأتنقل، ماذا سآكل، وأين سأنام؟ وإن فررت من البيت، فهل سيكرهني الرب؟ هل سيطاردونني؟ هل سأتسبب في الكثير من المعاناة للآخرين، مثلما فعلت السّريّة التي تقطعت اثنتي عشر قطعة؟

فالعالم موبوءٌ بالرجال الذين سيرون في فتاة ضلت عن حدود بيتها إغواءً عظيمًا: فهكذا فتيات سينظر إليهن أنهن حتمًا فالتات أخلاقيًّا. ولا أتصورني كنت سأمضي أبعد من مربع سكنيّ إلا وأكون تمزقتُ إربًا، تدنّست، وما تبقى مني إلا كومة ذاوية من مزق البتلات الخضراء.

الأسبوع الذي مُنِحته كي أختار زوجي مضى وولّى. بولا والرئيس كايل فضّلا الرئيس جود: كونه الأقوى نفوذًا بين الثلاثة. الاثنان تظاهرا بمحاولة إقناعي، إذ خيرٌ للجميع أن توافق العروس بمحض إرادتها. فقد سرت إشاعات عن مراسيم زفاف في الطبقة العليا سارت على نحو سيئ – نحيب، إغماء، صفعاتٌ من أم العروس. كنت قد استرقت السمع مرة على حديث بين المرثيات يصفن فيه كيف أن هناك عددًا من مراسيم الزفاف سبقها تخدير العروس، حقنًا. وكان لزامًا عليهم الحذر في تحديد الجرعة المستخدمة: فقد يعزو الحضور الترنح البسيط والجِمجمة في الكلام إلى العاطفة الغامرة، كون الزفاف لحظة مهمة جدًا في حياة الفتاة، لكن أن تكون العروس فاقدة للوعي فمن شأن ذلك إفساد الزفاف بأسره.

كان واضحًا أني سأتزوج الرئيس جود سواءً أحببت أم لا. سواءً كرهت أم لا. لكني أبقيت نفوري وبغضي لنفسي وتظاهرت باتخاذ قراري. إذ كما سبق أن أخبرتك: تعلمت أداء الأدوار.

"فكري بالموقع الذي ستحتلينه،" كانت ستقول بولا لي. "لن تحلمي بموقع أفضل منه." فالرئيس جود أبعد ما يكون عن الشاب اليافع ويقينًا لن يعيش للأبد، ورغم أنها لا تتمنى أي سوء له، لكن على الأرجح سأعيش عمرًا أطول منه بكثير، ومع موته سأغدو أرملة، وسيكون لي هامشٌ أوسع في اختيار الزوج التالي. فكري بكل تلك المزايا! بطبيعة الحال، أي قريب ذكر لزوجي المرحوم، ومن ضمنهم الأقرباء بالمصاهرة، سيكون لهم القول الفصل في اختياري زوجي الثاني.

ثم كانت بولا ستمر على مؤهلات المرشحين الآخرين، تذم شكليهما، تحط من قدرهما، وتنتقص من موقعهما في الحياة. ما كان من داع لها أن تبذل كل هذا العناء: كنت أصلًا أمقت كليهما.

في غضون ذلك، جلست أتأمل خياراتي الأخرى المتاحة لديّ. هناك مقراض تنسيق الزهور على النمط الفرنسي، مثل الذي استخدمته رفقة – بولا تملك أكثر من واحد – عدا أنها تحتفظ بها في سقيفة الحديقة، والسقيفة مقفلٌ عليها. كنت قد سمعت بفتاة شنقت نفسها بنطاق ثوب حمامها كي تتفادى الزواج. فيرا من سردت قصتها قبل عامين، فيما المرثتان الأخريان تظهران وجهًا حزينًا وتهزان رأسيهما.

"الانتحار سقوطٌ في امتحان الإيمان،" قالت صِلّة.

"وفوضى عارمة،" قالت روزا.

"ولطخة عار على جبين العائلة،" قالت فيرا.

هناك المبيّض، لكنهن احتفظن به في المطبخ، وكذلك السكاكين؛ والمرثيات، كونهن لسن حمقاوات ويملكن عيونًا في مؤخر رؤوسهن – كن متيقظات ليأسي. وفي خضم أي حديث كن سيلقين بأقوال وحكم مأثورة، من مثل، "كل غمامة سوداء تنقشع عن ضوء،" أو "كلما ازدادت صلابة القشرة، ازدادت حلاوة الجوز،" وحتى "الألماس أعزّ صديق للفتاة." حتى أنّ روزا بالغت حدّ قولها، وكأنما تقول المثل لنفسها، "إن كنت أصلًا ميتًا، ما ضرّك الضرب." حين قالتها كانت ترمقني بلحظ عينها.

لم أجد جدوى في طلب المعونة من المرثيات، ولا حتى من صِلّة. إذ مهما شعرن بالأسف عليّ، ومهما تمنين الخير لي، فهن لسن سوى عاجزات لا حول لهن ولا قوة.

في نهاية الأسبوع أعلن عن خطبتي: على الرئيس جود، كما كان مقررًا من اللحظة الأولى. ظهر في بيتنا مرتديًا بزته الرسمية المكللة بأوسمته، صافح الرئيس كايل، انحنى لبولا، وابتسم إلى قمة رأسي. بولا تحركت جانبًا وطوقت ظهري بذراعها، يدها تمسك برفق خصري: ما سبق لها قط أن فعلت هذا. هل تراها ظنت أني اللحظة سأحاول الفرار بجلدي؟

"مساء الخير، عزيزتي آغنس،" خاطبني الرئيس جود. سمّرت عينيّ على أوسمته: فرؤيتها كانت أسهل عليّ من رؤيته.

"لا تخجلي، قولي له مساء الخير،" قالت بولا في صوت خفيض، تقرص ظهري قرصةً خفيفة. قولي، "مساء الخير، سيدي."

"مساء الخير،" وبشق الأنفس أجبرت نفسي على همسها، "سيدي."

الرئيس تقدم مني، سحنته اللغديّة تقمصت ملامح ابتسامة، وألصق فمه على جبيني في قبلة محتشمة. شفتاه كانتا دافئتين على نحو مقرف؛ أصدرا صوت شفط ما إن سحبهما عني. تصورت بضعةً بالغة الصغر من دماغي شُفِطت عبر جلد جبيني نحو فمه. ألفُ قبلة كهذه وجمجمتي ستفرغ من كل خلايا دماغي.

"آمل أن أجعلك سعيدة جدًا، عزيزتي."

كان لي أن أشم رائحة أنفاسه، مزيجٌ من الكحول، غسول بنكهة النعناع مثل الذي لدى طبيب الأسنان، وأسنان ناخرة. وبلا استحضار مني، تجلى مشهد ليلة الزفاف في مخيلتي: فقاعةٌ ضخمة، كامدة بيضاء، تتحرك تجاهي في عتمة غرفة مجهولة. لها رأس، لكن لا وجه: فقط ثقبٌ أشبه بفم علقة. ومن مكان ما أسفل الجذع الأوسط مجسٌّ يتطوح في الهواء. وها هي الفقاعة تصل الفراش حيث أستلقي مشلولةً رعبًا، وعارية – إذ عليكِ أن تكوني عارية، أو على الأقل عارية

كفاية، كذا أخبرتني شونميّة. ومن ثمّ؟ من ثمّ ماذا؟ أغمضت عينيّ، محاولةً محو المشهد المتخيّل، ثم عدت وفتحتهما.

الرئيس جود تراجع للوراء، يتصفح وجهي بنظرة ماكرة. هل تراني ارتجفت لدى تقبيله إياي؟ فقد حاولت جهدي ألا أرجف. بولا عادت تقرصني، قرصةً أقوى، أعرف أنه كان يفترض بي أن أقول شيئًا، من مثل، شكرًا، أو، وأنا أيضًا أرجو إسعادك، أنا موقنة أنك ستسعدني، لكني عجزت عن النطق بأيٍّ منها. فقد تملكني الغثيان: ماذا سيحدث إن تقيأت الآن، هنا وأمام الجميع، على السجاد؟ لكان مشهدًا مخز.

"هي شديدة الحياء،" قالت بولا في شفتين مزمومتين، ترمقني شزرًا بنظرة غضبى.

"الحياء ميزةٌ فاتنة،" قال الرئيس جود.

"لك أن تذهبي الآن، آغنس يمامة،" قالت بولا. "أبوك والرئيس جود لديهما أمورٌ يتناقشان فيها." وهكذا مضيتُ مغادرةً نحو الباب، إحساسٌ بالدوار يعتريني.

"تبدو مطيعة،" سمعت الرئيس جود يقول لدى مغادرتي.

"أوه أجل،" قالت بولا. "لطالما كانت طفلةً مؤدبة."

يا لها من كاذبة. فهي كانت على علم بالغضب العارم المستعر في صدري.

منسقات الزفاف الثلاث، الخالة لورنا، الخالة سارة لي، والخالة بيتي، عاودن زيارة بيتنا، هذه المرة كي يأخذن مقاساتي لفستان الزفاف: كن قد أحضرن معهن عدة تصاميم. طلب مني إبداء رأيي في الفستان الذي أفضله منها، فأشرت إلى فستان منها بشكل عشوائي.

"هل هي بخير؟" سألت الخالة بيتي بولا في صوت رقيق. "تبدو لي متعبة."

"هي فترةٌ عاطفية في حياتهن،" أجابتها بولا.

"أوه، معك حق،" قالت الخالة بيتي. "عاطفيةٌ جدًا!"

"يجدر بك أن تطلبي من المرثيات إعداد شراب مهدئ لها،" قالت الخالة لورنا.

"مع بابونج، أو حبة مسكن."

علاوةً على فستان الزفاف، كنت سأحصل على طقم ملابس داخلية جديد، وقميص نوم خاص بليلة الزفاف، مع شرائط معقودة في الأسفل – كيما يسهل فتحه، مثلما يسهل فتح هدية مغلفة.

"لا أدري لم نزعج أنفسنا بالكشاكش،" قالت بولا للخالات، متجاوزةً إياي. "فهي لن تقدرها."

"ليست هي من ستراها،" قالت الخالة سارة لي في نبرة جلفة غير متوقعة. والخالة لورنا ساندتها بشخير مكتوم.

أما ما يتعلق بفستان الزفاف ذاته، فالتصميم سيكون "كلاسيكي"، قالت الخالة سارة لي. برأيها، فالكلاسيكي هو الخيار الأفضل: الخطوط الملساء ستضفي آيًا من الأناقة. خمارٌ مع إكليل بسيط من زهور اللبن الثلجية وزهور "لا- تنسيني". فالزهور الاصطناعية هي إحدى الحرف اليدوية التي تشجعها جلعاد بين زوجات الكفاف.

بعدها دار نقاشٌ مُلطّف بينهن حول زركشة الدانتيلا – إضافته، وهو ما نصحت به الخالة بيتي كونه سيبدو فاتنًا، أو حذفه، وهو الخيار المفضل لدى بولا، بما أنّ الفتنة ليست المغزى من الأمر برمته. المعنى الضمني: أنّ المغزى من الأمر برمته هو إنهاء الأمر بأسرع وقت وإيداعي في ماضيها، حيث سأدس بعيدًا مثل الرصاص، معدنًا غير متفاعل، غير قابل للاحتراق. ولا أحد كان سيجرؤ على اتهامها بأنها لم تؤد واجبها المناط بها بصفتها زوجة رئيس ومواطنة ملتزمة بأعراف وقوانين جلعاد.

الزفاف نفسه سيقام ما إن يجهز الفستان – ما يعني أنّ من الآمن التخطيط لإقامته بعد أسبوعين من اليوم. هل لدى بولا أسماء الضيوف الذين تود دعوتهم؟ سألتها الخالة سارة لي. كلتاهما نزلتا للطابق السفلي حتى تعدا القائمة: بولا تتلو الأسماء، والخالة سارة لي تدونها. الخالات كن سيرتبن المسألة ويتولين بأنفسهن توصيل الدعوات شفهيًا: إذ من ضمن المهام المناطة بهن، أن يكنّ

حاملات الرسائل المسمومة.

"ألست متحمسة؟" قالت الخالة بيتي فيما هي والخالة لورنا راحتا توضبان التصاميم وأرتدي أنا ثيابي. "ففي غضون أسبوعين سيكون لك بيتك الخاص!"

نبرةٌ من الكآبة شابت صوتها – هي نفسها لن تحظى أبدًا ببيت – لكني ما اكترثت لحزنها. أسبوعان إذن، قلت في نفسي. أربعة عشر يومًا وحسب هي الأيام الشحيحة المتبقية لدي من حياتي على هذه الأرض. فيم عساني سأنفقها؟

مع دفع الأيام بعقارب الوقت قدمًا، تملكني اليأس أكثر وأكثر. أين المخرج يا ترى؟ لا مسدس لديّ، ولا حبوب قاتلة. وما برحت أتذكر تلك القصة – قصة أشاعتها شونميّة في المدرسة – عن جارية أحدهم والتي تجرعت مطهّر الأحواض.

"النصف السفلي من وجهها تفسّخ عنها،" همست شونميّة مبتهجة. "بكل بساطة ...ذاب! كان أشبه بـ...بشراب فوّارا" لم أصدقها حينذاك، لكني بتّ أصدقها اليوم.

حوض استحمام مغمور بالماء؟ سألهث وأتخبط وأرفع رأسي كي ألتقط أنفاسي، ولن ينفعني ملء جيوبي بالحجارة، كان سينفعني لو كنت في بحيرة أو نهر أو بحر. لكن من أين لي السبيل للوصول إلى البحيرة والنهر والبحر؟

لربما سأقرر المضي قدمًا في الطقوس وأقتل الرئيس جود ليلة الزفاف. أغمد سكينًا مسروقًا في عنقه ثم في عنقي. الشراشف ستغرق بالدماء. لكن ما همني، فلست أنا من سينظف المكان. تصورت الفزع على وجه بولا ما إن تدخل حجرة الذبح. يا له من مسلخ. وسترى بأم عينها منزلتها الاجتماعية تهوي نحو الحضيض.

كل تلك السيناريوهات ما كانت إلا محض خيال. إذ من أسفل هذا الغزل المتشابك للأحداث، كنت مدركة تمام الإدراك أني لا أملك الجرأة على قتل نفسي ولا على قتل أحد. ملامح رفقة حين شقت رسغها ظلت محفورةً في ذاكرتي: هي كانت جدية، كانت مستعدة حقًا للموت. كانت قوية على نحو لم أكنه. ما كنت أبدًا لأتحلى بقوة عزيمتها.

ليلًا كلما خلدت إلى النوم، استغرقت في خيالاتي عن هروب عجائبيّ، بيد أنّ كل خيال منها تطلب العون من أناس آخرين، ومن ذا الذي سيساعدني؟ لكان شخصًا لا أعرفه: مُخلِّصًا، حارس بوابة سحرية، الأمين على كلمة سر. ومتى ما فتحت عينيّ صباحًا أدركت ألا خيال منها محتمل التنفيذ. وحدي تجرفني الدوامة في رأسي: ما العمل؟ ما العمل؟ بالكاد كنت أفكر، بشقِّ الأنفس آكل.

"توتّر الزفاف، بارك الرب روحها،" قالت صِلّة. وكم أردت لروحي أن تُبارَك، لكني ما رأيت لهذا سبيلا.

مع ثلاثة أيام وحسب على إقامة الزفاف، زارني ضيفٌ غير متوقّع. صِلّة صعدت إلى غرفتي كي تطلب مني النزول. "الخالة ليديا هنا كي تراك،" أخبرتني في صوت مكتوم. "حظًّا طيّبًا. كلنا نتمناه لك."

الخالة ليديا! المؤسسة العظيمة، الصورة المؤطرة بالذهب على الحائط الخلفي في كل فصل، الخالة الأقوى – جاءت كي تراني؟ ما الذي ارتكبته؟ نزلت السلم، جسدي يرجف من رأسي إلى أخمص قدمي.

بولا كانت خارج البيت، لحسن حظي، وإن كنت سأعي لاحقًا بعد معرفتي بالخالة ليديا أنّ الحظ لا علاقة به البتة. الخالة ليديا كانت جالسة على الأريكة في غرفة المعيشة. كانت أصغر حجمًا مما أتذكرها عليه في جنازة أوفكايل، لكن لربما بدت هكذا لأني أنا من كبرت. في الواقع هي ابتسمت لي، ابتسامةً مجعدة، ابتسامةً تكشف عن أسنانها الصفر.

"آغنس، عزيزتي،" رحبت بي قائلة، "ظننتك ستودين سماع خبر عن صديقتك رفقة." الرهبة تملكتني حدّ صعب علي النطق بكلمة.

"هل هي ميتة؟" سألتها همسًا، بقلب مخلوع.

"على العكس تمامًا. هي آمنة وسعيدة."

"وأين هي؟" سألتها متلعثمة.

"هي في أردوا هول، معنا. فهي ترغب في أن تصبح خالة وهي الآن تحت التدريب كخالة مبتهلة."

"أوه،" أجبتها. شعاعةُ ضوء انبلجت، بابٌ فُتِح.

"ليس كل الفتيات مهيآت للزواج،" واصلت حديثها معي. "بالنسبة إلى بعضهن فالزواج لن يكون سوى هدر لإمكانياتهن. هناك سبلٌ أخرى قدّرها الرب للفتاة والمرأة كيما تخدمه وتساهم في تنفيذ مشيئته. عصفورٌ صغير أسرّ إليّ أنك قد

توافقيني الرأي." ومن ذا الذي أخبرها؟ صِلّة؟ لا بد أنها صِلّة، فهي استشعرت بؤسي الشديد.

"أجل،" أجبتها. لربما تلك الصلوات التي رفعتها منذ زمن بعيد إلى الخالة ليديا أُستجيبَت، وإن بطريقة مختلفة عمّا توقعت.

"رفقة تلقّت نداءً يدعوها إلى تكريس نفسها لخدمة أعلى. إن تلقيت أنت أيضًا نداءً كهذا، فما زال لديك الوقت كي تعلمينا."

"لكن كيف...لا أدري كيف..."

"أنا نفسي لا يُسمَح لي بأن أعرض عليك مباشرةً هذا المسار الآخر، إذ سينتهك حق الأب الشرعي في ترتيب زواج ابنته. لكن تلبية النداء الربّاني يتجاوز الحق الأبوي، لكن حتى يتحقق هذا، فأنت من يتوجب بك القدوم إلينا ومفاتحتنا في الأمر. أظن الخالة إسْتى ستقبل الاستماع إليك. إن ثبت أن النداء قويٌّ كفاية، فستتدبرين طريقة التواصل معها."

"وماذا عن الرئيس جود؟" سألتها مرعوبة. فهو واسع السلطة والنفوذ: إن تملصت من الزفاف، لا بد أنه سيهتاج غضبًا.

"أوه، لا تقلقي بشأن الرئيس جود، فبين يديه خياراتٌ عديدة،" قالت لي، على ملامح وجهها تعبيرٌ عجزت عن قراءته.

مهمتي التالية كانت العثور على سبيل الوصول إلى الخالة إسْتى. ما كان بيدي البوح بنيّتي: فبولا كانت ستمنعني. لأقفلت عليّ باب غرفتي، ولجأت إلى المهدئات. فروحها كانت محروقة على إتمام هذا الزواج. وأستخدم التعبير روحها محروقة عمدًا: لأنها بالفعل كانت تخاطر بروحها؛ لكن، وكما كنت سأعرف لاحقًا، فروحها كانت أصلًا تحترق في النار الأبدية.

اليوم التالي لزيارة الخالة ليديا، سألت بولا طلبًا. أردت الحديث مع الخالة لورنا حول فستان زفافي، والذي قسته مرتين وجار تطبيق التعديلات عليه. أريد لكل شيء أن يبدو مثاليًا في ليلة عمري، قلت لها، مبتسمة. عن نفسي رأيت

الفستان أشبه بظلة مصباح، لكن خطتي اقتضت أن أبدو مبتهجة وممتنة.

بولا رمقتني بنظرة حادة. أشك أنها صدقت وجهي الباسم؛ لكن إن كنت أُمثّل فهذا خيرٌ لها وأفضل، شرط أؤدي الدور الذي تريده مني.

"سعيدة باهتمامك،" قالت في نبرة جافة. "على ما يبدو زيارة الخالة ليديا نفعتك." بطبيعة الحال هي عرفت بزيارتها، وإن لم تعرف مضمون حديثنا.

غير أنّ زيارة الخالة لورنا بيتنا ستسبب لها إزعاجًا، قالت بولا. فهناك الكثير من الترتيبات، كما يجدر بي أن أعرف – إعداد الطعام، تنسيق الزهور- ولا تملك بولا الآن التعامل مع هذه المضيعة من الوقت.

"الخالة لورنا لدى شونميّة،" قلت لها. عرفت ذلك من صِلّة: فزفاف شونميّة كان سيقام أيضًا عن قريب. في هذه الحالة، الوصي سيقود بي إلى هناك، قالت بولا. شعرت بخفق قلبي يتسارع: يتسارع ارتياحًا، وخوفًا: فالآن لا خيار أمامي سوى المضي قدمًا في مجازفتي الخطرة.

كيف للمرثيّات أن يعرفن من موجودٌ أين؟ إذ لا يجوز لهن استعمال الفاحوص الاتصاليّ ولا استلام الرسائل. لا بد أنهن يعرفن من المرثيات الأخريات، ولربما أيضًا من الخالات، ولربما حتى بعض الزوجات. فالخالات، المرثيات، الزوجات: رغم حقيقة حسد بعضهن بعضًا، وامتعاض بعضهن من بعض، ولربما حتى كراهية بعضهن بعضًا، فالأخبار تنساب بينهن وكأنما تنساب على خطوط شبكة عنكبوتية خفية تصلهن ببعضهن البعض.

بولا استدعت السائق الوصيّ وأعطته التعليمات. أتوقعها تنفست الصعداء بخروجي من البيت: لا بد أنّ بؤسي يفوح برائحة حامضة تزعجها. شونميّة ذكرت أكثر من مرة أن الفتاة المقبلة على الزواج يدسون حبة السعادة في كأس حليبها الدافئ، لكن لا أحد دسّ حبة السعادة في حليبي.

ركبت المقعد الخلفي في سيارتنا حيث فتح الوصيّ لي الباب. أخذت نفسًا عميقًا، نشوى، ومرعوبة: ماذا إن فشلت خدعتي؟ وماذا إن نجحت؟ ففي كلتا

الحالتين، المجهول ينتظرني.

وشاورتُ الخالة لورنا، من كانت فعلًا في بيت شونميّة. وشونميّة ما إن رأتني أبدت فرحتها بمجيئي، وأننا متى ما تزوجنا سيتسنى لنا زيارة بعضنا كثيرًا! هرعت بي داخلًا حتى تريني فستان زفافها، وكي تخبرني كل شيء عن زوجها المستقبلي، من (تهمس لي، في قهقهة) بدا مثل سمكة الشبّوط، مع ذقنه المتقلص وعينيه الجاحظتين، لكن يشفع له انتماؤه إلى الطبقة الوسطى العليا من الرؤساء.

أليس أمرًا مثيرًا، قلت لها. كنت قد أعجبت حقًّا بفستانها، إذ بدا – كما قلت لشونميّة – أجمل بكثير من فستاني. شونميّة ضحكت، وقالت إنها سمعت بأني فعليًّا سأتزوج الرب، فزوجي الجديد على هذا القدر العظيم من الأهمية، وألستُ محظوظة به؛ أطرقت رأسي وقلت لها أنّ على أي حال فستانها هو الأجمل. كانت سعيدة بقولي هذا، وأخبرتني أنها موقنة أنّ كلتينا سنتجاوز مسألة الجنس دون أن نثير أية جلبة. سنتبع تعليمات الخالة ليز ونفكر في تنسيق الزهور في مزهرية إلى أن ينتهي الأمر برمته وقبل أن ندرك سنجده قد انتهى سريعًا، ومن يدري ربما سنحظى بأطفالنا الحقيقيين، بأنفسنا دونما حاجة إلى جوار. سألتني إن كنت أرغب في قطعة كوكيز بالشوفان، وأرسلت مرثتها كي تحضر عددًا منها. تناولت واحدة ورحت أقضمها، رغم أني لم أكن جائعة.

لا أستطيع المكوث طويلًا، قلت لشونميّة، فلدي مهامٌ كثيرة أنجزها لكن هل لي أن أرى الخالة لورنا؟ وجدناها عبر الرواق في إحدى الغرف الإضافية مستغرقة في قراءة مفكرتها. سألتها أن تضيف شيئًا أو آخر على فستان زفافي – عقدةٌ بيضاء، كشكشة بيضاء، لا أتذكر حقًّا. ودّعت شونميّة وأخبرتها مرةً أخرى كم فستانها جميل. غادرت من الباب الأمامي، ألوح لها مبتهجةً مثلي مثل أي فتاة حقيقية، ومضيت نحو سيارتنا.

بعدها، قلبي يخفق بقوة، سألت سائقنا إن كان لا يمانع المرور على مدرستي القديمة، إذ أرغب في شكر معلمتي الخالة إسْتى على كل شيء علمتني اياه.

كان واقفًا إلى جانب السيارة، يمسك باب المقعد الخلفي لي. عبس في وجهي

مشكِّكًا. "تلك ليست التعليمات التي لديّ."

ابتسمت له ابتسامة رجوت أن تبدو فاتنة. شعرت بوجهي متيبسًا، وكأنما مدهونٌ بصمغ. "الأمر آمنٌ تمامًا،" قلت له. "زوجة الرئيس كايل لن تمانع. والخالة إسْتى خالة! من واجبها الاعتناء بي!"

"حسنٌ، لا أدري،" قال متردّدًا.

نظرت إليه. ما كان سبق لي قط التمعن في ملامحه، بما أني دومًا كنت أراه من الخلف. جسده كان أشبه بهيئة الطوربيد، رأسه مستدقٌ صغير، وجذعه غليظ. ذقنه لم تكن حليقة جيدًا، ويعاني من الطفح الجلدي.

"سأتزوج عن قريب،" قلت له. "من رئيس نافذ جدًّا – أقوى سلطةً بكثير من بولا – من زوجة الرئيس كايل." تريثت لحظة كي أتركه يستوعب ما قلت، من ثم - وأنا خجلة من فعلتي هذه - وضعت يدي برفق على يده، تلك التي تمسك بالباب مفتوحًا لي. "وسأحرص على أن تكافأ."

جفل قليلًا وتوردت وجنتاه. "حسنٌ، إذن،" قال لي، دون أن يبتسم.

إذن هكذا تحصل المرأة على مرادها، قلت في نفسي. إن لم تمانع التملق، الكذب، وخلف وعودها. شعرت بالقرف من نفسي، لكن كما ترى فقرفي لم يمنعني. عدت وابتسمت له، ورفعت تنورتي قليلًا، أستعرض كاحلي، بينما أرفع ساقيّ وأدخلهما السيارة. "شكرًا لك،" قلت له. "لن تندم على هذا."

قاد بي نحو مدرستي القديمة كما طلبت، تحدث مع الملائكة الذين يحرسون المدرسة، شرعوا البوابة المزدوجة، وقاد بي داخلًا. أخبرت السائق بأن ينتظرني: فلن أبقى طويلًا. ثم مشيت في خطىً رصينة نحو مبنى المدرسة، والذي بدا أصغر بكثير مما كان عليه حين غادرته.

اليوم الدراسي كان قد انتهى؛ وكنت محظوظة بعثوري على الخالة إستى ما تزال موجودة هناك، ولربما ما كان للحظ يدٌ أيضًا في هذا. كانت جالسة إلى مكتبها في فصلها المعتاد، تكتب شيئًا على مفكرتها. رفعت رأسها ما إن دخلت.

"أوه آغنس، أصبحت امرأةً يافعة!"

لم أكن قد خططت لأي خطوة أبعد من هذه اللحظة. كل ما أردته أن أرتمي على الأرض أمامها وأنفجر باكية. إذ لطالما كانت طيبة القلب معي.

"ينوون إجباري على الزواج من رجل مريع، رجل مقرف!" قلت لها. "لكني سأقتل نفسي أولًا!" وإذ بي أنفجر فعلًا بالبكاء وأنهار على مكتبها. كان أشبه بأداء مسرحي، ولربما حتى أداء سيئ، لكن كان أداءً حقيقيًا إن فهمت ما أعني.

الخالة إستى رفعتني وأجلستني على كرسي. "اجلسي، عزيزتي، وأخبريني كل شيء."

وجهت إليّ كل الأسئلة التي يلزمها الواجب بطرحها. هل أخذت في الاعتبار كيف لهذا الزواج أن يؤثر إيجابًا على مستقبلي؟ أخبرتها بأني مدركة للمزايا، لكني لا أكترث لها لأن أصلًا لن يكون من مستقبل لي، مستقبل من هذا القبيل. وماذا عن المرشحين الآخرين، هل أحدهما مفضلٌ لديّ؟ ليسا بأفضل منه، أجبتها، وعلى أي حال فبولا عاقدة العزم على الرئيس جود. وهل أنا جادة بشأن قتل نفسي؟ أخبرتها أني جادة، وأني إن لم أتدبر قتل نفسي قبل الزفاف فسأحرص على فعلها بعده، وسأقتل الرئيس جود ما إن يضع إصبعًا عليّ. سأفعلها بسكين، قلت لها. سأنحر عنقه بيدي.

قلتها في اقتناع تام كي ترى أني قادرة على تنفيذ وعيدي، حدّ أني أنا الأخرى اقتنعت تلك اللحظة بقدرتي. شعرت بالدم يندفق منه. وبدمي. حتى أني رأيته: سديمٌ من الأحمر.

الخالة إستى لم تنعتني بالشريرة الآثمة كما كانت ستفعل الخالة فيدالا. بل قالت إنها تتفهم محنتي. "لكن هل تشعرين بوجود سبيل آخر تساهمين به في تحقيق الصالح الأعظم؟ لربما تلقيت نداءً؟"

كنت قد نسيت تمامًا هذا الجزء من الخطة، لكني عدت وتذكرت. "أوه، أجل،" قلت لها. "أجل تلقيت نداءً إلى تكريس نفسي لخدمة أعلى."

أمعنت الخالة إستى النظر فيّ وتفحصت ملامحي. ثم طلبت مني أن أتركها تصلي لدقائق في صمت: فهي في حاجة إلى أن تستخير الرب كي تعرف ما الذي

ينبغي فعله. جلست أراقبها تشبك يديها، تغمض عينيها، وتحني رأسها. حبست أنفاسي ورحت أنا الأخرى أصلي: ربي، أرجوك ربي، ابعث لها بالرسالة الصحيحة.

أخيرًا فتحت عينيها وتبسمت لي. "سأتحدث مع والديك،" قالت لي. "ومع الخالة ليديا."

"شكرًا لك." ورحت أبكي من جديد. هذه المرة ارتياحًا من همٍّ ثقيل.

"هل تريدين المجيء معي،" سألتني. "كي نحادث والديك؟"

"لا أستطيع،" قلت لها. "سيقبضان عليّ ويقفلان عليّ في غرفتي ويخدراني. أنا موقنة أنهما سيفعلان ذلك."

لم تنكر. "أحيانًا من الأفضل وجود الابنة،" قالت لي. "لكن ليس في حالتك. غير أنّ ليس بيدك البقاء في المدرسة. فأنا لا أملك سلطة إيقاف العيون من الدخول وإخراجك وإجبارك على تغيير رأيك. صدقيني لا تريدين للعيون أن يتولوا هذه المهمة. لذا من الأفضل لك أن تأتي معي."

لا بد أنها قيّمت بولا، وحكمت عليها بأنها قادرة على فعل أي شيء. حينها لم أكن أعرف كيف للخالة إستى أن عرفت عنها تلك المعلومة، لكني أعرف الآن. فالخالات لديهن طرقهن، ومعلوماتهن: فلا جدران سميكة على آذانهن، ولا أبواب موصدة في وجوههن.

ذهبنا خارجًا وأخبرتُ سائقي بأن ينقل إلى زوجة الرئيس كايل اعتذارها عن إبقاء آغنس يمامة كل هذا الوقت لديها، وأملت أنها لم تتسبب لها بأي قلق. كذلك، فلينقل إليها أنها، الخالة إستى، ستزور زوجة الرئيس كايل لاتخاذ قرار حول موضوع مهم جدًا.

"وماذا عنها؟" سألها، قاصدًا إياي.

الخالة إستى أخبرته بأنها ستتولى مسؤوليتي، لذا ما من داع له كي يقلق. رمقني بنظرة موبخة – بالأحرى نظرة قذرة: فقد أدرك أني خدعته، وأنه الآن واقعٌ في مشكلة. لكن في كل الأحوال ركب سيارته وغادر عبر البوابة. فالملائكة هم ملائكة مدرسة فيدالا: والخالة إستى من يحملون لها واجب الطاعة.

بعدها استخدمت الخالة إستى جهاز المناداة واتصلت بسائقها الوصيّ، وركبنا سيارتها. "سآخذك إلى مكان آمن،" قالت لي. "لا بد أن تبقي فيه إلى أن أحادث والديك. ما إن نصل المكان الآمن، عديني بأنك ستأكلين شيئًا. وعد؟"

"لن أكون جائعة،" أخبرتها. دموعي كنت ما أزال أحبسها.

"ستجوعين، ما إن تستقري. على الأقل كأسًا من الحليب الدافئ." تناولت يدي وشدت عليها. "كل شيء سيصبح على ما يرام،" قالت لي. "كل شيء في النهاية يصبح على ما يرام." أفلتت يدي وربتت عليها برقة.

كان مطمئنًا لي سماعها تقول هذا، لكني وجدتني على حافة البكاء مرة أخرى. فالطيبة أحيانًا لها هذا الأثر على النفس. "كيف؟" سألتها. "كيف ستصبح الأمور على ما يرام؟"

"لا أدري،" قالت الخالة إستى. "لكنها ستصبح. فأنا مؤمنة بهذا." تنهدت، من ثم قالت، "هناك أوقاتٌ، أن تكون مؤمنًا، يتطلب منك جهدًا شاقًا."

الشمس كانت في أفول. نسيم الربيع كان مفعمًا بالسديم الذهبي الذي غالبًا ما يتجلى في ذاك الوقت من العام: إما غبارًا، أو لقاحًا. أوراق الشجر كانت برّاقةً نضرة، ريّانةً متفتحة؛ كأنها هدايا، كل ورقة منها، تفض الغلاف عن نفسها، وكأنها تبرعمت للمرة الأولى. كأنما الرب خلقها للتو، كذا اعتادت أن تقول لنا الخالة إستى في درس **تقدير الطبيعة**، تستحضر صورةً للرب يلوح فيها بيده على أشجار الشتاء الميتة، فتتبرعم الأوراق بمشيئته وتنبسط. لا ورقة تشبه الأخرى، كانت ستردف الخالة إستى، مثلكن تمامًا! كانت خاطرةً جميلة.

السيارة قادت بنا عبر الشوارع الذهبية. هل سيكتب لي أن أرى تلك البيوت، تلك الشوارع، تلك الأرصفة من جديد؟ الأرصفة الخاوية، الشوارع الهادئة. بدأوا يضيئون الأنوار داخل تلك البيوت؛ لا بد أن ساكنيها أناسٌ سعداء، أناسٌ عرفوا إلى أين ينتمون. شعرت بأني منبوذة؛ لكني أنا من نبذت نفسي بنفسي، لذا لا أملك أي حق في رثاء حالي.

"إلى أين نحن ذاهبون؟" سألتُ الخالة إستى.

"أردوا هول،" أجابتني. "ستبقين هناك ريثما أزور والديك."

كنت قد سمعت بأردوا هول من قبل، دائمًا تذكر همسًا لأنها المكان الخاص بالخالات. وأيًّا ما تفعله الخالات بعيدًا عن أعيننا فهو ليس البتة من شأننا، قالت صِلّة. هن متحفظاتٌ وكتومات ولا يجدر بنا دس أنوفنا في عالمهن. "لكن ما كنت لأتمنى لنفسي أن أصبح واحدة منهن،" كانت ستردف.

"ولم لا؟" سألتها مرة.

"عملهن قذر،" قالت فيرا، تدس لحم الخنزير في المفرمة كيما تعد فطيرة. "فغالبًا ما يلطخن أيديهن."

"كي لا تتلطخ أيدينا نحن،" قالت صِلّة في نبرة فاترة، ترقّ عجينة الفطيرة.

"ويوسخن عقولهن أيضًا،" قالت روزا. "سواء بإرادتهن أم لا." كانت تفرم

البصل بساطور كبير. "يقرأن!" وضربت بساطورها البصل في دوي عال. "القراءة! ما طقتها يومًا."

"ولا أنا،" قالت فيرا. "من يدري ما الذي يجبرن على التنقيب فيه! قذارةٌ في قذارة."

"هنّ ولا نحن،" قالت صِلّة.

"لن يحظين أبدًا بأزواج،" قالت روزا. "ليس أني أريد زوجًا بدوري، لكن يظل الزواج مهم. ولا حتى أطفال. لا يحق لهن الحصول عليهم."

"على كل حال هن مسنات،" قالت فيرا. "عصفٌ يابس."

"العجينة جاهزة،" قالت صِلّة. "هل لدينا كرفس؟"

رغم فكرة المرثيات المحبطة عن الخالات، وجدتني مأسورة بفكرة أردوا هول. فمذ علمت بأن طابيثة ليست أمي، بتّ منجذبة إلى كل ما هو سري. حين كنت أصغر عمرًا، شيدت صورةً متخيلة ومزخرفة عن أردوا هول، شيدتها عظيمة، باعتبارها سحرية: فقوىً سرية غير مفهومة كهذه لا بد أنها محفوظة في بناء مهيب. هل يا ترى كانت قصرًا ضخمًا، أو أقرب إلى سجن؟ هل كانت أشبه بمدرستنا؟ أيًا تكن فعلى الأرجح ضمّت العديد من الأبواب الموصدة بأقفال نحاسية ضخمة، والخالات وحسب من يملكن مفاتيحها.

أينما تكن فسحةٌ من فراغ، العقل ينزع إلى ملئه. الخوف متأهبٌ على الدوام لملء أي فراغ، وكذلك الفضول. ولي مع الاثنين خبرةٌ واسعة.

"هل تعيشين هناك؟" سألتُ الخالة إستى. "في أردوا هول؟"

"كل خالات هذه المدينة يعشن فيها، وإن ليس على الدوام."

مع توهج أعمدة إنارة الشوارع، تُصيّر الأجواء برتقاليّةً معتمة، بلغنا بوابةً في حائط قرميدي أحمر وعال. البوابة الحديدية كانت مغلقة. سيارتنا توقفت؛ ثم البوابة شُرّعت. كانت هناك أضواءٌ كاشفة؛ وأشجار. في المدى، لمحت مجموعةً من الرجال في زي العيون الرسمي واقفين على الدرج الأمامي الواسع أمام قصر

قرميدي ذي أعمدة بيضاء ومُضاء بأنوار ساطعة، أو بالأحرى بدا قصرًا. إذ كنت سأعلم لاحقًا أن القصر فيما مضى كان مكتبةً عامة.

سيارتنا ركنت وتوقفت، والسائق فتح الباب، باب الخالة إستى أولًا، ثم بابي.

"شكرًا،" قالت الخالة إستى. "أرجوك انتظر هنا. سأعود بعد قليل."

تناولت ذراعي، ومشينا الدرب حيث مررنا جانب مبنىً حجريٍّ رماديّ، وتجاوزنا تمثالًا لامرأة مع نساء أخريات متموضعات حولها. لم يكن من المعتاد رؤية تماثيل لنساء في جلعاد، فقط للرجال.

"هذه الخالة ليديا،" قالت الخالة إستى. "أو تمثالها." هل تخيلتُ ما رأيت للتو، أم أنّ الخالة إستى فعلًا أومأت احترامًا لها؟

"التمثال مختلف عن صورتها الحقيقية،" قلت لها. لم أكن أعرف حينها إن كان يفترض بزيارة الخالة ليديا أن تكون سرًّا، لذا أردفت قائلة، "رأيتها في جنازة. هي ليست على هذه الضخامة، أليس كذلك؟" امتنعت الخالة إستى عن التعليق لوهلة. وبعودتي الآن في الذاكرة أرى أنه كان سؤالًا صعبًا: إذ ما كنت لتريد لأحد أن يقع عليك وأنت تصف إنسانًا قويًّا بالضئيل.

"كلا،" أخيرًا قالت. "لكن التماثيل ليست بأناس حقيقيين."

استدرنا نحو درب مرصوف. على أحد جانبيه كان هناك مبنىً قرميدي أحمر وطويل من ثلاثة طوابق ومقسّم إلى عدة مداخل متماثلة، كل مدخل أمامه مرقاة ومن أعلاه مثلثٌ أبيض. وداخل كل مثلث كتابةٌ ما، والتي كنت عاجزة وقتها عن قراءتها. مع ذلك فوجئت برؤية الكتابة معروضة في مكان عام.

"هذه هي أردوا هول،" قالت الخالة إستى. وخاب أملي: فقد توقعت شيئًا أكثر فخامة. "هيّا، تعاليّ. ستكونين آمنة هنا."

"آمنة؟"

"في الوقت الحالي،" قالت لي. "وآمل لبعض الوقت، في المستقبل القريب." ابتسمت بحنان. "لا رجل مسموحٌ له الدخول دون إذن من الخالات. هذا هو القانون. بإمكانك أن تستريحي هنا إلى أن أعود." قد أكون في أمان من الرجال،

لكن ماذا عن النساء؟ فبولا ستقتحم المكان وتجرني خارجه، عودًا إلى المكان حيث يتواجد الأزواج.

الخالة إستى رافقتني إلى غرفة متوسطة الحجم تضم أريكة. "هذه غرفة الجلوس المشتركة. ستجدين الحمام عبر ذاك الباب." ثم صعدت بي السلالم إلى غرفة صغيرة تضم سريرًا صغيرًا ومكتبًا. "خالةٌ من الخالات ستحضر لك كأسًا من الحليب الدافئ. اشربيه ثم اخلدي للنوم. أرجوك لا تقلقي. الرب قد أخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام." لم أحمل في نفسي ذات الثقة التي أظهرتها الخالة إستى، لكني مع ذلك اطمأننت.

انتظرَتْ معي إلى أن وصل كأس الحليب، تحمله خالةٌ صامتة. "شكرًا لك خالة سيليويت،". الخالة الأخرى أومأت وانسلّت خارجًا. الخالة إستى ربتت على ذراعي، ثم غادرت، وأغلقت الباب عليّ.

احتسيت رشفةً وحسب من الحليب: إذ لم أطمئن إليه. هل كانت نية الخالات تخديري قبل اختطافي وإعادتي إلى يديّ بولا؟ لم أظن أن الخالة إستى قد تفعل شيئًا كهذا، لكن الخالة سيليويت بدت لي قادرة. فالخالات في صف الزوجات، أو هذا ما اعتدن الفتيات قوله في المدرسة.

رحت أذرع الغرفة الصغيرة جيئةً وذهابًا؛ ثم استلقيت على سريري الضيق. لكني كنت مجهدة جدًا حدّ عجزت فيه عن النوم، لذا عدت ونهضت. كانت هناك صورة معلقة على الحائط: الخالة ليديا، تبتسم ابتسامتها المبهمة. وعلى الحائط المقابل صورة الرضيعة نيكول. ذات الصورتان المألوفتان المعلقتان في كل فصول مدرسة فيدالا، وفي كلتيهما وجدت إحساسًا غريبًا من الارتياح.

علِى المكتب كان يوجد كتاب.

كنت قد فكرت وارتكبت ما يكفي من الأمور المحرمة في ذاك اليوم، حدّ وجدتني مستعدة لارتكاب فعل محرم آخر. سرت نحو المكتب وحدقت أسفلًا في الكتاب. يا ترى ما كنه الشيء الذي يحمله في قلبه فصيّره خطرًا عظيمًا على الفتيات مثلي؟ جحيمًا مستعرًا؟ هلاكًا أبدي؟

مددتُ يدي. ورفعتُ الكتاب.

فتحتُ الغلاف الأماميّ. لا لهب حارقة انبثقت منه.

كانت في داخله الكثير من الصفحات البيضاء، تحمل عددًا مهولًا من العلامات. بدت أشبه بحشرات صغيرة، حشرات سود متكسرة ومرتبة في صفوف. وبدا لي أني أعرف سلفًا أنّ لتلك العلامات أصواتًا ومعان، لكني عجزت عن تذكر كيف وأين تولدت معرفتي هذه.

"ستجدينه صعبًا جدًا في البداية،" قال صوتٌ خلفي.

لم أكن قد سمعت الباب يفتح. جفلت واستدرت. "رفقة!" آخر مرة رأيتها فيها كان في حصة تنسيق الزهور مع الخالة ليز والدم ينبجس من رسغها المشقوق. وجهها كان شديد الشحوب آنذاك، عاقد العزم، ويائسًا. لكنها بدت أفضل بكثير الآن. كانت ترتدي ثوبًا بنيًّا، مهلهلًا عند الصدر، ومحزّمًا عند الخصر؛ شعرها كان مفروقًا من الوسط ومشدودًا للوراء.

"اسمي ما عاد رفقة،" قالت لي. "اسمي الآن الخالة إمّورتيل؛ خالةٌ مبتهلة. لكن لك أن تناديني رفقة متى ما كنا وحدنا."

"إذن ها أنت لم تتزوجي، الخالة ليديا أخبرتني بأنك لبيت النداء الربّاني لخدمة أسمى."

"أجل، لن أجبر على الزواج من رجل، أبدًا. لكن ماذا عنك؟ سمعت بأنك ستتزوجين رجلًا من علية القوم."

"يفترض بي،" قلت لها، ورحت أبكي. "لكن لا أستطيع. لا أستطيع!" ومسحت أنفي بكمّي.

"أعرف، أخبرتهن إني أوثر الموت. لا بد أنك أخبرتهن بذات الشيء." أومأت لها. "هل أخبرتهن بأنك تلقيت نداءً ربّانيًّا؟ تكريس نفسك خالةً؟" أومأت مرة أخرى. "هل صدقًا تلقيت نداءً ربانيًّا؟"

"لا أدري."

"ولا أنا،" قالت رفقة. "لكني اجتزت امتحان الستة أشهر. وبعد تسع سنوات من الآن – ما إن أبلغ السن المناسب – سيتسنى لي الانضمام إلى العمل مع إرسالية اللآلئ الكريمة، ومن بعدها سأصبح خالةً كاملة. ربما حينها سأشعر بالنداء الربّاني. ما أبرح أصلي لأجل هذا."

كنت قد فرغت من البكاء. "وما الذي عليّ فعله؟ كي أجتاز الامتحان؟"

"أولًا سيتوجب عليك غسل الصحون وفرك الأرضيات وتنظيف المراحيض والمساعدة في غسيل الملابس والطهي، تمامًا مثل المرثيات. وكذلك سيتوجب عليك تعلم القراءة. وصدقيني القراءة أصعب بكثير من تنظيف المراحيض. لكن بات بيدي أن أقرأ القليل الآن."

ناولتها الكتاب. "أريني!" قلت لها. "هل هذا الكتاب شرير؟ هل هو مليءٌ بالمحرمات، كما تقول الخالة فيدالا؟"

"هذا؟" قالت مبتسمة. "ليس هذا. هذا الكتاب ليس سوى **قواعد أردوا هول**، يتضمن تاريخ المكان، النّذر، والترانيم. إضافةً إلى جدول غسيل الملابس."

"هيّا إذن! اقرأي لي!" أردت أن أرى إن كان بإمكانها حقًّا ترجمة تلك الحشرات السود إلى كلمات. لكن كيف كنت سأعرف أنها تنطق بالكلمات الصحيحة، إن كنت أنا أصلًا عاجزة عن قراءتها؟

فتحَتْ الكتاب. "هنا، على الصفحة الأولى. أردوا هول. النظرية والتطبيق، البروتوكولات والإجراءات، بير أردوا كم استرس." أدنت الكتاب مني وأرتني. "أترين هذا؟ هذا حرف الـ"A"."

"وما حرف الـ"A"؟"

تنهدت تنهيدة عميقة. "لن يسعنا فعل هذا اليوم لأنّ عليّ الذهاب إلى مكتبة هلدغارد، دوري في المناوبة الليلية، لكن أعدك أني سأساعدك لاحقًا إن سمحن لك بالبقاء. يمكننا الطلب من الخالة ليديا أن تسكني هنا، معي. فلدينا هنا حجرتان شاغرتان."

"هل تظنين أنها ستقبل؟"

"لست متأكدة،" قالت رفقة، تخفض صوتها. "لكن إياك أن تقولي شيئًا سيئًا عنها، حتى إن ظننت أنك في مكان آمن، حتى هنا في هذه الغرفة. فلديها طرقها في معرفة كل ما يقال عنها." من ثم همست، "هي صدقًا الأكثر ترويعًا من بينهن!"

"أكثر ترويعًا من الخالة فيدالا" همستُ ردًّا عليها.

"الخالة فيدالا تتحين أخطاءك وتتشفى بها،" قالت رفقة. "لكن الخالة ليديا... لا أدري كيف أصف لك. يساورك الإحساس أنها تريد منك أن تكوني أفضل مما أنت عليه."

"يبدو ملهمًا،" قلت لها. ملهمًا كانت الكلمة المفضلة لدى الخالة ليز: الصفة التي ما تنفك تستخدمها في صف تنسيق الزهور.

"هي تنظر إليك وكأنما حقًّا تراك."

أناسٌ كثر نظروا إليّ دون أن يروني. "أظن سيروق لي هذا،" قلت لها.

"كلا،" قالت رفقة. "لهذا هي الأكثر ترويعًا."

بولا قدمت إلى أردوا هول كي تحاول إقناعي بتغيير رأيي. الخالة ليديا قالت إن مقابلتها هو التصرف اللائق حتى أطمئنها شخصيًّا إلى صحة وقداسة قراري، لذا قابلتها.

بولا كانت جالسة إلى طاولة زهرية في مقهى شلافلي، المكان الوحيد حيث يسمح لنا باستقبال الزوار. كانت مستشيطة غضبًا.

"هل لديك أي فكرة عن العناء الذي تحملناه أنا ووالدك كي نؤمن هذه الصلة مع الرئيس جود؟" قالت لي. "قد جلبت العار على أبيك."

"الانضمام إلى الخالات أبعد ما يكون عن العار،" قلت لها في نبرة ورعة. "قد سمعت النداء الربانيّ يدعوني إلى تكريس نفسي لخدمة أسمى. وما كنت أبدًا لأرفض تلبيته."

"أنتِ! يا لك من كذابة. لست بالفتاة التي ينظر إليها الرب فيصطفيها له. آمرك اللحظة بالعودة إلى البيت."

نهضتُ فجأة وهشّمتُ كوب الشاي على الأرض. "كيف تجرئين على التشكيك في المشيئة الإلهية؟" قلت لها صارخة. "خطيئتك ستنال منك![27]" صحت في وجهها دون أن أعرف حتى أي خطيئة أعني، لكن أليس لدى كلٍّ منا خطيئةٌ ستنال منه؟

"تصرفي بجنون،" كانت رفقة قد أوصتني. "هكذا لن يخاطروا بتزويجك من أحد: إذ هم من سيتحملون المسؤولية في حال ارتكابك فعلًا عنيفًا."

بولا بهتت. وللحظة عجزت عن الرد. غير أنها قالت، "الخالات يحتجن موافقة الرئيس كايل، ولن يمنحك إياها أبدًا. لذا وضبي أغراضك فأنت عائدة معَي، الآن!"

عدا أنّ في تلك اللحظة، دخلت الخالة ليديا المقهى. "هل لي بكلمة معك؟"

27 سفر الأعداد (32:23): "وإن لم تصنعوا هكذا، فقد خطئتم إلى الرب، واعلموا أنّ خطيئتكم تنال منكم."

قالت لبولا. كلتاهما توجهتا إلى طاولة بعيدة عني. حاولت جهدي استراق السمع إلى ما كانت تقوله الخالة ليديا، غير أني عجزت. لكن ما إن نهضت بولا، بدا عليها الشحوب. غادرت المقهى وما بادلتني بكلمة، ولاحقًا في تلك الظهيرة وقع الرئيس كايل الإذن الرسمي الذي يمنح فيه الولاية عليّ إلى الخالات. أعوامٌ عديدة كانت ستمر قبل أن أعرف فحوى ما قالته الخالة ليديا لبولا والذي أجبرها على عتقي.

تاليًا توجب عليّ اجتياز المقابلة الشخصية مع الخالات المؤسسات. رفقة كانت قد نصحتني بالطريقة المثلى لاتباعها مع كل خالة: الخالة إليزابيث نصيرة تكريس النفس لصالح الخير الأعظم، الخالة هيلينا ستود الانتهاء من الأمر بسرعة، والخالة فيدالا يعجبها التذلل واحتقار النفس، لذا كنت مستعدة.

المقابلة الأولى جرت مع الخالة إليزابيث. سألتني إن كنت رافضة مبدأ الزواج، أم الزواج من الرئيس جود بالذات؟ أجبتها أني رافضة لمبدأ الزواج، وجوابي على ما يبدو أرضاها. هل أخذت في الاعتبار كيف لقراري هذا أن يجرح الرئيس جود – يجرح مشاعره؟ كدت أقول إن الرئيس جود لا يبدو لي من أصحاب المشاعر، ولا يملك حتى ذرة منها، لكن رفقة كانت قد حذرتني من مغبة التلفظ بأي شيء ينم عن عدم احترام لأن الخالات ما كنّ أبدًا ليتسامحن معه.

أخبرتها بأني صليت لأجل سلامة الرئيس جود العاطفية وأنه يستحق كل السعادة، والتي أنا واثقة أنّ زوجةً أخرى ستحققها له، لكن العناية الإلهية أخبرتني بأني سأعجز عن تأمين تلك السعادة له، ولأي رجل، وإني أوثر تكريس نفسي لخدمة كل نساء جلعاد على خدمة رجل واحد وعائلة واحدة.

"إن كنتِ حقا تعنين ما تقولين، فأنت مهيئة، روحيًّا، للبقاء لدينا في أردوا هول والاندماج معنا." قالت لي، ثم أردفت، "سأصوت لصالح بقائك المشروط. بعد ستة أشهر من الآن سنرى إن كانت هذه الحياة هي فعلًا الطريق المقدّرة لك." شكرتها بكل احترام، وأخبرتها كم أني ممتنة، وبدت لي راضية.

مقابلتي مع الخالة هيلينا لم تكن بالشيء الذي يذكر. كانت مستغرقة في

الكتابة في مفكرتها ولم ترفع عينيها مرة لرؤيتي. أخبرتني بأن الخالة ليديا عقدت عزمها وانتهى الأمر، وبذا بالطبع ستجبر هي على الموافقة. كذلك ألمحت إلى أنني مملة وهدرٌ لوقتها الثمين.

مقابلتي مع الخالة فيدالا كانت الأصعب، فهي كانت إحدى معلماتي، ولم تعجب بي كثيرًا حينها. أخبرتني بأني كنت أتهرب من أداء واجبي، وأنّ أي فتاة وُهِبَت جسد المرأة هي ملزمة شرعًا بوهب هذا الجسد قربانًا مقدسًا لأجل الرب ولأجل مجد جلعاد والبشرية، وملزمة كذلك بالإيفاء بوظيفة هذا الجسد الذي ورثته مذ بدء الخليقة، وأنّ هذا هو قانون الطبيعة.

أجبتها بأن الرب قد وهب المرأة نعمًا أخرى، مثل النعم التي وهبها إياها. وما عساها تكون تلك النعم؟ سألتني. فقلت نعمة القراءة مثلًا، فكل الخالات وهبهن الرب هذه النعمة. فقالت إن القراءة التي يمارسنها الخالات هي قراءةٌ مقدسة وفي خدمة كل ما سبق أن ذكرته – وعادت ذكرتها كلها عليّ من جديد – وهل تراني أعتبر نفسي طاهرة الروح كفاية لتحمل هكذا مسؤولية؟

أجبتها بأني مستعدة للقيام بأي عمل شاق في سبيل أن أصبح خالةً مثلها، فهي القدوة الساطعة التي نحتذي بها، ويقينًا لستُ طاهرة الروح بعد، لكن لعلّي بالصلاة وببركة من الرب سأتطهر كفاية، وإن كنت أرى في الوصول إلى مرحلة الطهارة التي هي نفسها قد بلغتها أملًا مستحيلًا.

الخالة فيدالا قالت إني أظهرت لها القدر اللائق من الخنوع، دلالةٌ تبشر على اندماجي الناجح في مجتمع الخدمة الكنسية في أردوا هول. حتى أنها وهبتني ابتسامةً من ابتساماتها الشحيحة قبل مغادرتي.

مقابلتي الأخيرة كانت مع الخالة ليديا. كنت قلقة جدًا بشأن المقابلات الأخرى، لكن بمجرد وقوفي عند باب الخالة ليديا انتابني الرعب. ماذا لو أنها أعادت التفكير في الأمر؟ فمعروفٌ عنها أنها ليست وحسب مخيفة بل وغير متوقعة. وفيما رفعت يدي أخيرًا كي أطرق الباب، صوتها من الداخل سبقني: "لا

تقفي هناك اليوم بطوله. أدخلي."

هل كانت تراقبني عبر كاميرا صغيرة خفية؟ رفقة أخبرتني بأنها وزعت الكثير من تلك الكاميرات في كل مكان، أو هذا ما يشاع. إذ كنت عاجلًا سأكتشف أنّ أردوا هول أشبه بحجيرة صدى: الإشاعات تتردد على الألسن وتتضخم حدّ تعجز معه عن معرفة مصدرها.

فتحت الباب ودخلت. الخالة ليديا كانت جالسة خلف مكتبها، حيث تتكدس كومةٌ عالية من الملفات. "آغنس،" رحبت بي قائلة. "لا بد أن أهنئك. فرغم كل العوائق أمامك، نجحت في شق طريقك إلى هنا، ولبيت النداء الربّاني في الانضمام إلينا." أومأت لها في صمت. إذ خشيت أن تسألني عن ماهية النداء الرباني – هل سمعت هاتفًا؟ وكيف بدا؟ - لكنها لم تسأل.

"هل أنت واثقة تمامًا أنك لا تتمنين الزواج من الرئيس جود؟" هززت رأسي.

"قرارٌ حكيم."

"ماذا؟" قلت مصدومةً: إذ توقعت أن تلقي عليّ عظةً أخلاقية عن واجبات المرأة الحقيقية وما شابه.

"أعني، عذرًا؟"

"أنا واثقة أنك ما كنت لتكوني زوجةً صالحة له."

تنفست الصعداء وقلت، "لا، خالة ليديا. ما كنت لأكون. وأتمنى ألا يخيب أمله كثيرًا."

"قد اقترحت عليه اختيارًا أصلح له،" قالت لي. "زميلتك السابقة في المدرسة، شونميّة."

"شونميّة؟ لكنها ستتزوج شخصًا آخرا!"

"ترتيبات الزواج دومًا قابلة للتبديل. هل برأيك شونميّة سترحب بتبديل الأزواج هذا؟"

وتذكرت الحسد الذي بالكاد أخفته شونميّة لدى حديثها عن زواجي وحماستها البالغة في الامتيازات المالية التي سيؤمنها زفافها. وزفافها من الرئيس جود سيهبها

عشرة أضعاف ما كانت ستحصل عليه. "أنا موقنة بأنها ستشعر ببالغ الامتنان لهذا التبديل."

"أتفق معك،" وتبسمت لي. بدت أشبه بلفت قديم يبتسم: من نوع اللفت الجاف الذي تضيفه المرثيات في مرق الحساء. ثم أردفت، "أهلًا بك في أردوا هول، قبلنا بك بيننا. أرجو أن تكوني ممتنة صدقًا لهذه الفرصة، للمساعدة التي قدمتها إليك."

"بالطبع، خالة ليديا،" بالكاد تدبرتُ قولها. "أنا صدقًا ممتنة."

"سعيدة بسماعي هذا،" قالت لي. "لربما يومًا ما ستكونين قادرة على مساعدتي مثلما ساعدتك. فالخير لا يكافأ إلا بالخير. هي ذي شريعتنا هنا، في أردوا هول."

الثعلب والقطة

سِفرُ أَرْدوا هول

41

من تأنّت نالت ما تمنّت. الزمن كفيلٌ بشفاء كل الجروح. الصبر مفتاح الفرج. الانتقام لي.

تلك الأقوال المبتذلة العتيقة ليست دومًا صحيحة، عدا أنها أحيانًا تتحقق. هاك مني قولًا ما أخطأ يومًا: كل شيء يعتمد على التوقيت. حتى النكتة.

ليس أننا نتبادل النكت هنا. إذ ما كنا لنتمنى لأحد أن يتهمنا بقلة الذوق أو الطيش. وعلى العموم، في التراتبية الهرمية لأي سلطة، الجالسون في قمتها هم وحسب من يحق لهم المزاح، سرًّا حتى لا جهرًا.

لكن فلندخل في صلب الموضوع.

في كل تلك الأعوام التي قضيتها في جلعاد، حظيت بامتياز أراه العامل الأساسي في ارتقائي العقلي: أن أكون ذبابةً على حائط؛ أو، أكثر دقة، أذنًا في حائط. يا لها من تجربة تنويرية، تلك الأسرار التي تودعها النساء اليافعات بعضهن لدى بعض متى ما ظنن ألا ثالث معهما. على مرِّ الأعوام دوزنت الميكروفونات كيما تلتقط حتى الهمسات، وحبست أنفاسي ترقبًا: أيٌّ من تلك الفتيات المجندات حديثًا ستمنحني المعلومات المخزية التي أشتهي وأدّخر. وما كانت سوى مسألة وقت حتى امتلأت إضبارات ملفاتي على آخرها، مثل منطاد هوائي متأهب للانطلاق.

فيما يخص رفقة، الأمر استلزم سنوات. إذ ظلت على تكتمها حول السبب الرئيس في محنتها، حتى مع آغنس زميلتها في المدرسة. توجب عليّ أن أنتظر صداقتهما تتطور إلى علاقة ثقة.

آغنس من أخيرًا فتحت الموضوع وطرحت السؤال. لعلك لاحظت أني أشير

إليهما باسميهما السابقين – آغنس ورفقة – ذلك لأنّ بهما يناديان بعضهما بعضًا في خلوتهما. حينذاك عملية تحولهما إلى خالات مثاليات كانت أبعد ما تكون عن الاكتمال، وهو ما أسعدني. لكن على أية حال، لا أحد مثالي متى ما اشتدت الشدائد.

"رفقة، ما الذي جرى لك فعلًا؟" قالت آغنس وقت كانتا مستغرقتين في دراسة الإنجيل. "فنفرك من فكرة الزواج." برهة صمت. "أعرف أنّ خطبًا ألمّ بك، أرجوك، ألن يريحك البوح لي؟"

"لا أستطيع."

"أرجوك ثقي بي. لن أبوح بسرك أبدًا."

وهكذا، شذرًا نزرًا، انكشف السر. دكتور غروف الحقير لم يكتف وحسب بمداعبة مرضاه من الفتيات اليافعات على كرسي عيادة الأسنان. أجل، كان عندي علمٌ مسبقٌ بالأمر. حتى أني جمعت أدلةً مصورة، لكني تجاوزته، بما أنّ شهادة الفتيات اليافعات – إن سمح من الأساس باستنطاق شهادة منهن، وهو ما شككت في إمكانية تحقيقه – لكانت قليلة القيمة إن لم تكن معدومة. والحال ذاته ينطبق على النساء البالغات، فهنا في جلعاد شهادة الرجل تعادلها شهادة أربع نساء.

وغروف اعتمد على هذه الحقيقة. كذلك، فالرجل كان يحظى بثقة الرؤساء: فقد كان طبيب أسنان بارع، ومن عادة أصحاب السلطة أن يرخوا الحبل مع كل من بيده أن يريحهم من عناء الألم. الأطباء، أطباء الأسنان، المحامون، والمحاسبون: حالهم في عهد جلعاد الجديد، من حالهم في العهد القديم، خطاياهم غالبًا ما تغفر لهم.

لكن ما ارتكبه غروف في حق الطفلة الصغيرة جدًا رفقة، ثم لاحقًا الفتاة اليافعة رفقة – هذا، في حكمي، استوجب عقابًا شديدًا.

رفقة نفسها ما كان ليعتمد عليها في إنزال هذا العقاب. إذ ما كانت لتشهد أبدًا ضد غروف، كنت متيقنة من موقفها هذا. وحديثها مع آغنس أكّد يقيني.

آغنس: علينا أن نخبر أحدًا.

رفقة: لا، لا أحد سيسمعني.

آغنس: هناك الخالة ليديا.

رفقة: ستقول إنه والدي ومن واجبنا طاعة الوالدين، تلك مشيئة الرب. أي نفسه اعتاد قول هذا لي.

آغنس: لكنه ليس حتى بأبيك الحقيقي. ليس إن ارتكب هذا في حقك. قد سلبوك من أمك، كنت رضيعة حين سلموك إليه ...

رفقة: أخبرني أنّ الرب من منحه السلطة عليّ.

آغنس: وماذا عن المدعوة أمك؟

رفقة: ما كانت لتصدقني. وحتى إن صدقتني، لقالت إني أنا من أغويته. الكل سيقول هذا.

آغنس: لكنك كنت في الرابعة!

رفقة: لن يصنع فرقًا معهم. وأنت أدرى بأنه لن يصنع فرقًا. لن يبدأوا عادة تصديق ... أناس مثلي. ولنفترض أنهم صدقوني، حينها سيقتل، سيمزق إربًا على يد الجواري في طقس الاستعدام، والذنب يومها سيكون ذنبي. ولن أطيق العيش مع ذنب كهذا. إذ سأكون أنا من قتله.

لم أنقل إليك الدموع، مواساة آغنس، عهود الصداقة الأبدية، الصلوات. لكن كلها كانت هناك. ولأذابت أقسى القلوب وأشدها تحجرًا. حتى أنها كادت تذيب قلبي.

الخلاصة أنّ رفقة قررت رفع معاناتها الصامتة هذه قربانًا إلى الرب. لست واثقة من رأي الرب في هكذا قربان، لكن عن نفسي لم أقتنع بهذه التقدمة. فمتى ما كنت قاضيًا، تظل قاضيًا. وأنا قاضية، وقد أصدرت حكمي. لكن كيف لي أن أنفذه؟

بعدما فكرت مليًا في الأمر لبعض الوقت، قررت الأسبوع الماضي أن أنفذ

خطوتي. دعوت الخالة إليزابيث إلى كوب شاي بالنعنع في مقهى شلافلي.

كانت تطير من السعادة: فهي من اصطفيتها حتى تنال شرف حظوتي. "الخالة ليديا، يا لها من مفاجأة مبهجة!" كانت في قمة الذوق والتهذيب متى ما اختارت أن تتحلى بهما. خريجة فاسار، دائمًا خريجة فاسار، كما اعتدت أن أقول في نفسي استهزاءً كلما راقبتها تسلخ بالسوط باطن قدمي جارية متمردة في دار راحيل وليئة للتأهيل.

"ارتأيت أن علينا تبادل الحديث في موضوع سري." قلت لها، وهي مالت نحوي، متوقعةً نميمة.

"كلي آذانٌ صاغية،" أجابتني. كذبةٌ بيضاء – فأذناها ليستا سوى جزء صغير جدًّا من جسدها الضخم – لكني سأغفر لها كذبتها.

"لطالما تساءلت، إن كنتِ حيوانًا، فأي الحيوانات ستكونين؟"

عادت بظهرها للوراء، مرتبكة. "ما فكرت لحظةً في هذا،" أجابتني. "فالرب ما خلقني حيوانًا."

"سايريني،" قلت لها. "مثلًا: هل ستكونين ثعلبًا أم قطة؟"

هنا، قارئي العزيز، أدين لك بتفسير. في طفولتي قرأت كتابًا يدعى حكايات إيسوب. كنت قد حصلت على الكتاب من مكتبة المدرسة: فعائلتي ما أنفقت يومًا سنتًا على الكتب. وفي هذا الكتاب كانت هناك حكاية لطالما تدبرت معانيها. وها هي الحكاية.

ثعلبٌ وقطة وقفا يتناقشان طرقهما الخاصة في التملص من قبضة الصيادين وكلاب الصيد. الثعلب قال إن في جعبته الكثير من الحيل، وأنه سيوظفها تباعًا – الارتدادَ على عقبيه، الجري عبر الماء كي يطمس رائحته، الاندفاع نحو وكر متعدد المخارج. الصيادون سرعان ما سيرهقون ويستسلمون أمام داهية الدواهي، تاركين اياه يواصل مسيرته المهنية في السرقة وسلب أفنيةَ الحظائر. "وماذا عنكِ، عزيزتي القطة، ما هي حيلك؟"

"هي حيلةٌ واحدة وحسب،" أجابته القطة. "متى ما اشتدت الشدائد، تسلقت شجرة."

الثعلب شكر القطة على الحديث الجانبي الممتع وأعلن أزوف وقت العشاء وأنّ القطة على قائمة الطعام. طقطقة أسنان ثعلب، كتلٌ من شعر قطة، طوقٌ يُبْصق. ملصقات قطة مفقودة تدبس على أعمدة الهاتف، تضرعات أطفال مكروبين تدمي القلب.

اعذرني، قارئي العزيز، إذ جمحت في خيالي. في الواقع الحكاية تنتهي على هذا النحو:

الصيادون وكلابهم وصلوا. الثعلب جرّب كل حيله، لكن سرعان ما نفدت جعبته من الحيل وقتل. القطة، في غضون ذلك، تسلقت شجرة وراحت ترقب المشهد أسفلها في رباطة جأش. "صدقًا داهية الدواهي!" قالت ساخرة. أو ملاحظة لئيمة من هذا القبيل.

في أيام جلعاد الأولى، اعتدت سؤال نفسي إن كنت ثعلبًا أم قطة. هل يجدر بي المواربة والالتفاف، استخدام الأسرار الكامنة في جعبتي للتلاعب بالآخرين، أو هل يجدر بي إطباق شفتيّ والابتهاج برؤية الآخرين يتذاكون ويُقْصون أنفسهم بأنفسهم؟ من الواضح أني لعبت الدورين، إذ – على خلاف الكثيرين – لا أزال هنا. جعبتي الكبيرة لا تزال ملأى بالحيل. ولا أزال فوق الشجرة.

عدا أنّ الخالة إليزابيث جلست غافلة عن تأملاتي الخاصة. "صدقًا لا أعرف،" أجابتني. "لربما قطة."

"وأنا أراك قطة. لكن لربما حان الوقت كي تكشفي عن أنياب الثعلب فيك." تريثت للحظة ثم أردفت،" الخالة فيدالا تنوي تجريمك. فهي تدّعي أنك تحاولين توريطي وإلصاق تهمة الهرطقة والوثنية بي بتركك البيض والبرتقال عند تمثالي."

الخالة إليزابيث ذهلت. "ليس صحيحًا! ليس صحيحًا على الإطلاق! لم عساها تقول شيئًا كهذا؟ فأنا ما أذيتها قط!"

"من منا القادر على سبر دواخل الروح الإنسانية؟" قلت لها. " لا أحد منا

معصومٌ من الخطيئة. والخالة فيدالا خطيئتها الطموح. وأظنها استشعرت أنك أنت من ينوبني في إدارة الأمور." وهنا أشرقت أسارير الخالة إليزابيث، إذ رأت فيه خبرًا جديدًا عليها. "ولربما استنبطت أنك لا محالة التالية على خط خلافتي في أردوا هول، وامتعضت هذه الحقيقة، بما أنها تعتبر نفسها أعلى منزلةً منك، بل حتى أعلى منزلةً مني، كونها من أوائل المؤمنات في جلعاد. أنا لست بالشابة، ولا صحتي في أفضل حالاتها؛ وهي تدرك، أنها كي تطالب بموقعها المستحق، فمن الضروري أولًا إقصاؤك. وهنا نفهم رغبتها في تشريع قوانين جديدة تحرم التبرك بتمثالي وترك التقدمات عند قدميه. مع عقوبة شديدة للمخالف." تريثت ثم قلت، "لن أفاجأ إن كانت اللحظة تخطط لطردي أنا وإياك من الخالات وأردوا هول."

إليزابيث هنا راحت تبكي. "ما توقعتها أبدًا حقودة إلى هذا الحد،" قالت منتحبة. "ظننتها صديقتي."

"للأسف، يحدث في حياتنا أن نفاجأ بأن عرى الصداقة الوثيقة لهي أوهى من خيوط العنكبوت. لا تقلقي. أنا سأحميك."

"أنا بالغة الامتنان لك خالة ليديا، يا سيدة الفضيلة!"

"شكرًا لك،" قلت لها. "لكن في المقابل، هناك طلبٌ صغير أريد منك القيام به."

"أوه أجل! بالطبع، وما هو؟"

"أريدك أن تشهدي زورًا."

ما كان أبدًا بالطلب الصغير: إليزابيث كانت ستخاطر بالكثير. فجلعاد صارمة جدًا في موقفها من شهادة الزور، رغم أنها، مع ذلك، هي الشهادة الشائع استخدامها.

اللآلئ الكريمة

محضر أقوال الشاهدة "369B"

42

يومي الأول في تقمصي دور جايد الهاربة صادف الخميس. ميلاني اعتادت أن تقول إني مولودة الخميس ما يعني أنّ أمامي الكثير[28]– من أنشودة أطفال عتيقة والتي تقول أيضًا أنّ مولود الأربعاء موعودٌ بابتلاء، لذا متى ما صرت حزينة نكدة اعتدت القول لها أنها مخطئة في اليوم وأني مولودة الأربعاء، وكانت ستقول لا، بالطبع لا، فهي تعرف بالضبط اليوم الذي ولدت فيه، كيف يعقل أن تنساه؟

على أية حال، كان يوم خميس. كنت جالسةً القرفصاء على رصيف المشاة مع غارث، أرتدي طماقًا أسود ضيقًا ومشقوقًا– آدا من دبرته لي، لكني أنا من أضفت الشق بنفسي – ومن فوقه شورت فوشيا قصير، وحذاء رياضي فضيّ وهرئ جدًا كأنما لفظه الجهاز الهضمي لراكون. ارتديت كذلك قميصًا زهريًا رثًّا – القميص كان بلا كمّين لأن آدا قالت أنّ من الضروري الكشف عن وشمي الجديد. حول خصري طوّقت سترة هودي وعلى رأسي ارتديت قبعة بيسبول. لا قطعة ملابس تلاءمت مع الأخرى: وجب أن يبدو الأمر وكأني التقطت تلك القطع من حاويات القمامة. وسخت شعري الجديد كي أعطي الانطباع أني نمت في الشارع لأيام. الأخضر أصلًا بدأ يبهت.

"تبدين رائعة،" قال غارث ما إن رآني في زيي التنكري الكامل وعلى أهبة الاستعداد.

"بروعة الخراء،" قلت له.

"خراء من الصنف الأول،" قال غارث. أظنه كان يحاول أن يتصرف بلطف

28 أنشودة الأطفال تدعى "Monday's Child"

معي، لكنه أغاظني. أردته أن يعني حقًّا ما يقول. "لكن ما إن تصبحي في جلعاد، عليك أن تكفي عن السباب والكلام القذر. أو حتى دعيهم يقوموا بهذا الجهد عنك ويهدوك إلى عفة اللسان."

تعليماتٌ كثيرة وجب عليّ تذكرها. التوتر تملكني – كنت واثقة أني سأفسد الخطة – لكن غارث حاول طمأنتي وأخبرني بأن كل ما عليّ فعله أن أمثل دور الغبية، وبدوري شكرته على أمثل.

لم أكن جيدة في المغازلة. إذ ما سبق لي أن غازلت.

نصبنا موقعنا أنا وإياه خارج بنك، والذي وصفه غارث بالموقع الممتاز إن أردت الحصول على نقد سريع: فالناس الخارجون من البنك أكثر نزوعًا إلى منحك شيئًا من مالهم. شخصٌ آخر – امرأة على مقعد متحرك – كانت تحتل هذا المكان، لكن اليوم المايوي دفعوا لها مقابل انتقالها إلى موقع آخر ريثما ننتهي من المهمة: فاللآلئ الكريمة يسلكن الدرب ذاته المقرر لهن، وهذا الموقع يقع في طريقهن.

الشمس كانت حارقة وجلسنا متكئين بظهرينا على الجدار، في تلك البقعة الصغيرة من الظل. كانت أمامي قبعة قش مع لافتة من الورق المقوى مكتوبٌ عليها بقلم اللون الشمعي: مشردة أرجوكم ساعدوني. كانت هناك عدة قطع نقدية في القبعة: غارث أخبرني إذا ما رأى الناس أنّ هناك من سبق وتبرع فعلى الأرجح سيحذون حذوه. كان يفترض بي أن أتصرف مثل فتاة تائهة ومرتبكة، دورٌ ما كان أبدًا بالصعب عليّ، إذ فعلًا كنت فتاةً تائهة ومرتبكة.

على بعد مربع سكني شرقًا، نصب جورج موقعه في زاوية هناك. كان سيتصل بآدا وإلايجا إن وقع أي طارئ، سواء مع اللآلئ الكريمة أو الشرطة. إذ ظلّا يجوبان الشوارع القريبة في عربة النقل.

غارث لم يقل الكثير. لذا قررت في نفسي أنّ وجوده تقاطعٌ بين دور حاضنة الأطفال والحارس الشخصي، وبذا فهو غير ملزم بتبادل الحديث وليس من قانون يجبره على التصرف بلطف معي. كان يرتدي قميصًا أسود بلا كمين يكشف عن

وشومه – حبّارٌ على عضلة ذراع، وخفاشٌ على عضلة الذراع الأخرى، والوشمان كلاهما أسود. كان يرتدي قبعةً صوفية، هي الأخرى كانت سوداء.

"ابتسمي في وجه الناس متى ما رموا لك بقطعة نقدية،" قال بعد فشلي في الابتسام في وجه امرأة عجوز بيضاء الشعر. "قولي أي شيء."

"مثل ماذا؟"

"بعض الناس لقالوا، فليبارك الرب."

لصعق نيل إن رآني أتلفظ بشيء كهذا. "لكني وقتها سأكذب. فأنا لا أؤمن في الرب."

"حسنٌ إذن. شكرًا ستفي بالمطلوب،" قال في نبرة حليمة. "أو حتى أتمنى لك يومًا سعيدًا."

"لا، ليس بيدي قولها أيضًا، إذ سأكون منافقة. فلا أنا بشاكرة لهم، ولا أكترث أي يوم لعين سيعيشونه."

ضحك على ما قلته. "الآن أصبحت قلقة من كونك كاذبة؟ إن كنت حقًا رافضة للكذب لم لا تعودي إلى اسم نيكول؟"

"هذا الاسم ما كان يومًا خياري. وحاليًا هو على آخر قائمة همومي اللعينة، وأنت تعرف ذلك." شبكت ذراعيّ حول ركبتيّ واستدرت بعيدًا عنه، تصرفاتي راحت تنحو إلى الطفولية أكثر وأكثر: فهو من استفزها فيّ.

"لا تهدري غضبك عليّ، فأنا لست سوى قطعة أثاث. غضبك ادّخريه لجلعاد."

"ألستم أنتم من أصررتم أن ألعب دور المراهقة الغاضبة من كل شيء، ها أنا ألعب دورها."

"ها هن اللآلئ الكريمة قادمات،" قال فجأة. " إياك أن تحدقي فيهن. لا تنظري حتى إليهن. تصرفي وكأنك منتشية."

لا أدري كيف رصدهن دون أن يبدو عليه التلفت، إذ كنّ ما زلن بعيدًا في أول الشارع. لكن سرعان ما اقتربن منا: اثنتان منهن، في الرداء الرمادي الفضي والتنورة

الطويلة، مع الياقة البيضاء والقلنسوة البيضاء. إحداهما كانت صهباء، خصلةٌ من شعرها كانت فالتة، والأخرى سوداء الشعر، خمنت من حاجبيها. كلتاهما ابتسمتا لي حيث كنت متكئة على الجدار.

"صباح الخير، عزيزتي،" قالت الصهباء. "ما اسمك؟"

"بيدنا مساعدتك،" قالت سوداء الشعر. "فلا مشردون في جلعاد." رفعت رأسي وحدّقت فيهما، آملة أن تعكس ملامحي الكرب الذي أشعر به. كلتاهما كانتا أنيقتين في احتشام ومهندمتين: ما جعلني أستشعر قذارتي أكثر وأكثر.

غارث مسكني من ذراعي اليمنى، تشبث بي على نحو تملكي. "لن تتحدث معكما."

"ألا يعود الأمر لها؟" قالت الصهباء. ونظرتُ شزرًا نحو غارث وكأني أطلبه الإذن.

"ما هذا؟" قالت الأطول قامة منهما، سوداء الشعر. ونظرت أسفلًا تحدق في الوشم على ذراعي.

"هل يعتدي عليك، عزيزتي؟" سألتني الصهباء.

الأخرى ابتسمت. "هل يتاجر بك؟ في جلعاد سنساعدك على أن تعيشي حياة أفضل بكثير."

"ارحلن من هنا، عاهرات جلعاد،" صاح غارث فيهما في وحشية مذهلة. رفعت عينيّ إليهما، نظيفتان ومرتبتان في ردائيهما اللؤلؤيين وعقديهما الأبيضين، وصدقني حين أقول لك، أنّ دمعةً حقيقية سالت على وجنتي. كنت مدركة أن لهما مآرب أخرى وما اكترثنا البتة – كل ما أرادتاه تجنيدي وإضافتي إلى نصابهما – عداِ أنّ طيبتهما هزتني قليلًا. إذ تمنيت لحظتها أن يرفعني أحدهم عن الأرض، ويدثرني في الفراش.

"أوه، يا لك من بطل،" قالت الصهباء. "على الأقل دعها تأخذ هذا،" ودفعت بكتيب لي. كان مكتوبًا عليه: **لك بيتٌ في جلعاد!** "ببركة الرب،" ودعتاني وأكملتا طريقهما، ولمرة واحدة نظرتا للخلف.

"أما كان يفترض بي أن أدعهما تجنداني؟" سألته. "أما كان يجدر بي الذهاب معهما؟"

"ليس من المرة الأولى. علينا ألا نسهل الأمر كثيرًا عليهن،" قال غارث. "في حال تواجد مراقبٌ من جلعاد – إذ سيبدو الأمر مثيرًا للشك. لا تقلقي، ستعودان."

تلك الليلة نمنا أسفل جسر، حيث غديرٌ يشق الوهد. ضبابٌ رقيقٌ غشى الأرض: من بعد اليوم الحار، الليل غدا باردًا رطبًا. الأرض فاحت برائحة بول القطط النتنة، أو لعلها كانت رائحة ظربان. أرتدي سترة الهودي الرمادية، أدخل ذراعي الموشوم على مهل في الكم. فندبة الوشم كانت لا تزال تؤلمني.

كان هناك أربعة أو خمسة آخرون معنا أسفل الجسر، ثلاثة رجال وامرأتان، على ما أظن، فالمكان كان مظلمًا ومن الصعب التيقن. جورج كان أحد أولاء الرجال؛ بيد أنه تصرف وكأنما لا يعرفنا. إحدى المرأتين عرضت السجائر، لكني كنت أدرى بألا أحاول تدخين واحدة – إذ كنت سأسعل وأفضح أمري. قنينة خمر تبادلتها الأيدي. غارث كان قد حذرني من تدخين أي شيء وشرب أي شيء، إذ من يدري ما المدسوس فيه؟

كذلك أخبرني بألا أكلم أحدًا: فأي من أولاء المشردين قد يكون عميلًا من جلعاد، وإن راحوا يستقصون أمري وزل لساني فسيشكون في الأمر وينذرون اللآلئ الكريمة. لذا هو من تولى الكلام، والذي في غالبه لم يتجاوز النخر. بدا لي أنه على معرفة مسبقة باثنين منهم. أحدهما قال، "ما قصتها، أهي متخلفة عقليًّا، ما بالها لا تتكلم؟" وأجابه غارث، "هي لا تتحدث لأي أحد سواي." والآخر قال في إعجاب، "أحسنت، ما هو سرّك؟"

كان لدينا عدة أكياس قمامة بلاستيكية خضراء حتى نستلقي عليها. غارث دثرني بذراعيه، والدفء غمرني. في الوهلة الأولى دفعت بذراعه العليا عني، لكنه همس في أذني، "تذكري، يفترض بك أن تكوني حبيبتي." لذا توقفت عن التلوي. كنت مدركة أنّ عناقه ليس سوى أداء تمثيلي، لكن في تلك اللحظة ما همّني. حتى أني صدقت بأنه حبيبي الأول. لم يكن بالكثير، لكن على الأقل كان شيئًا.

الليلة التالية دخل غارث في عراك مع أحد الرجال أسفل الجسر. كان عراكًا سريعًا انتصر فيه غارث. لم أر كيف – كانت حركةً رشيقة، في طرفة عين.

ثم قال إنّ علينا الانتقال إلى مكان آخر، لذا في الليلة التي تلتها نمنا في كنيسة في وسط البلدة. كان يملك مفتاحًا؛ لا أدري كيف تحصّل عليه. لكن يقينًا لم نكن الأشخاص الوحيدين الذين ينامون فيه، مع كل تلك الأغراض البالية والنفايات المنتثرة أسفل مقاعد الكنيسة: حقائب الظهر المهجورة، القوارير الفارغة، إبرة الحقن الغريبة.

تناولنا وجباتنا في مطاعم الوجبات السريعة، والتي شفتني من اشتهائها كل تلك السنوات. إذ اعتدت أن أرى في تناول الطعام السريع سحرًا جاذبًا، ربما لأن ميلاني عارضت تناولها، لكن متى ما صرت تأكلها طوال الوقت فسينتابك شعورٌ وعك بالانتفاخ. تلك المطاعم كانت أيضًا المكان حيث أذهب إلى الحمام، نهارًا، متى ما لم أكن مقرفصة في وهد ما.

الليلة الرابعة قضيناها في المقبرة. فالمقابر أماكن جيدة، قال غارث، غير أنها في العادة ملأى بالناس. بعضهم يظن أنّ من المسلي القفز على أحدهم من خلف شاهد قبر، لكن معظم من يفعل ذلك مراهقون فروا من بيوتهم نهاية الأسبوع. أما أبناء الشوارع فهم أدرى بأنّ إخافة شخص على هذا النحو في الظلمة قد تفضي إلى طعنك بسكين، فليس كل من يجوب المقابر هو في كامل عقله.

"تعني مثلك أنت،" قلت له. لكن لم يبد ردة فعل. على الأرجح بدأ ينزعج مني.

وهنا لا بد لي من الإشارة إلى أنّ غارث لم يستغلني، رغم أنه يقينًا استشعر ولعي المراهق به. كان معي ليحميني، وقد حماني، حتى من نفسه. يروق لي أن أتخيل أنه وجدها مهمةً شاقة عليه.

"متى ستعاود اللآلئ الكريمة الظهور؟" سألت صباح اليوم الخامس، "أتظنهن رفضنني؟"

"تحلّي بالصبر،" قال غارث. "فكما أخبرتك آدا، سبق أن بعثنا بعملاء إلى جلعاد بهذه الطريقة. بعضهن نجح، لكن البعض الآخر كن متحمسات زيادة عن اللزوم، فضحن أنفسهن مع أول امتحان. وتخلصوا منهن قبل أن يقطعن حتى الحدود."

"شكرًا،" قلت في صوت يغمره الحزن. "قد رفعت من ثقتي بنفسي. أكيدًا سأفشل وتفشل الخطة معي، أنا موقنة."

"هدئي من روعك، ستكونين على ما يرام،" قال غارث. "أنت قادرة على إنجاح الخطة. كلنا نعتمد عليك."

"لا ضغوط عليّ، صحيح؟ قل لي \اقفزي، وسأسألك أنا من أي علو، أليس كذلك؟" أدري، كنت مزعجة، لكن ما كان بيدي منع نفسي.

لاحقًا في ذاك اليوم، اللؤلؤتان الكريمتان سلكتا الطريق تجاهنا مرةً أخرى. راحتا تتلكآن في الجوار، تتجاوزان موقعنا، ثم قطعتا الشارع وسارتا في الاتجاه المعاكس تتأملان واجهات المتاجر. وما إن مضى غارث لإحضار شطائر همبرغر، قدمتا نحوي وبدأتا الحديث معي.

سألتاني عن اسمي، وأجبتهما جايد. ثم عرّفتا عن نفسيهما: الخالة بياتريس هي ذات الشعر الأسود، والخالة دوف هي الصهباء ذات النمش.

سألتاني إن كنت سعيدة، وهززت رأسي. ثم تأملتا وشمي، وقالتا كم أنا فتاةٌ مميزة لتحملي كل هذه المعاناة لأجل الرب، وأنهما سعيدتان بمعرفتي أنّ الرب يحبني. وجلعاد ستحبني أيضًا لأني زهرةٌ أثيرة، كل امرأة هي زهرةٌ أثيرة، لا سيما كل فتاة في عمري، ولو أني كنت في جلعاد لعوملت على هذا الأساس، فتاة مصونة، ولا

أحد – لا رجل – كان سيجرؤ على إيذائي. وهل ذاك الرجل الذي كان معي – هل يضربني؟

كرهت اضطراري للكذب عن غارث بهذه الطريقة، لكني أومأت.

"وهل يجبرك على ارتكاب أفعال مشينة؟"

لعبت دور الغبية، لذا الخالة بياتريس – الخالة الأطول – قالت، "هل يجبرك على ممارسة الجنس؟" أومأت إيماءةً واهية، وكأنّما خزيٌ عارم اعتراني اللحظة من فعلتي.

"وهل يمررك على رجال آخرين؟"

حتى كذبًا رأيته تجاوزًا للحد – ما كنت أبدًا لأتخيل غارث يفعل شيئًا كهذا – لذا هززت رأسي. والخالة بياتريس قالت إنه لربما لم يحاول بعد، لكن إن بقيت معه سيفعل، لأن هذا ما يفعله الرجال من أمثاله – ما إن يوقع الواحد منهم فتاةً يافعة في شباكه متظاهرًا بحبه لها، سرعان ما سيبيعها لمن يدفع.

"الحب الحر،" قالت الخالة بياتريس في ازدراء. "ليس حرًّا على الإطلاق. بل قيدٌ واستعباد."

"حتى أنه ليس حبًّا،" قالت الخالة دوف. "ولماذا أنت معه؟"

"لأنّ لا مكان آخر ألجأ إليه،" وإذ أنهمر في البكاء، "تعرضت للعنف في بيتي!"

"لا وجود أبدًا للعنف في بيوتنا في جلعاد،" قالت الخالة بياتريس.

ثم جاء غارث ومثّل دور الغاضب. قبض عليّ من ذراعي – اليسرى الموشومة – ورفعني بشدة عن الأرض، وصرخت لأني فعلًا تألمت. زجرني وأمرني بالصمت قائلًا إننا سنغادر المكان.

الخالة بياتريس قالت، "هل لي بكلمة معك؟" وهي وغارث ابتعدا عن السمع. الخالة دوف ناولتني منديلًا ورقيًّا لأني كنت أبكي وقالت، "هل لي أن أعانقك نيابةً عن الرب؟" وأومأت لها.

الخالة بياتريس عادت وقالت، "يمكننا الذهاب الآن،" والخالة دوف قالت، "له الحمد." غارث مضى بعيدًا. ما التفت حتى للوراء. لم يتسنّ لي حتى أن أودعه،

ما زاد من حرقة بكائي.

"لا بأس، أنت في أمان الآن،" قالت الخالة دوف. "كوني قوية." ذات العبارة التي سمعتها تقال إلى لاجئات جلعاد في ملجأ راعية الملاذ، لا فرق بيني وبينهن سوى أنهن قطعن الحدود من الاتجاه المعاكس.

الخالة بياتريس والخالة دوف سارتا قريبًا جدًا مني، كلٌّ لصيقة بجانب من جانبيّ، كي لا يضايقني أحدهم، كذا قالتا لي.

"ذاك الشاب قد باعك،" قالت الخالة دوف في نبرة احتقار.

"حقًّا؟" سألتها متفاجئة. فغارث لم يخبرني بأنه ينوي على ذلك.

"كل ما توجب عليّ فعله هو طلب شرائك. هي ذي قيمتك عنده. أنت محظوظة أنه باعك علينا وليس على تاجر رقيق أبيض،" قالت الخالة بياتريس. "أراد مبلغًا كبيرًا مقابلك، لكني ساومته. في النهاية، قبل بنصف المبلغ."

"الكافر القذر،" قالت الخالة دوف.

"أخبرني أنك عذراء، ما يعني أنك أغلى ثمنًا،" قالت الخالة بياتريس، "هذا ليس ما أخبرتنا به."

فكرت سريعًا. "أردتكما أن تشفقا عليّ،" أجبتها هامسة، "كي تقبلا بأخذي معكما."

الاثنتان تبادلتا النظر، عبري. "نتفهم ذلك،" قالت الخالة دوف، "لكن من الآن فصاعدًا ستكونين صادقة، لن نقبل منك سوى الحقيقة."

أومأت، وأكدت لهما أني سأكون.

صحبتاني معهما إلى الشقة السكنية حيث تقيمان. تساءلت إن كانت ذات الشقة المفروشة التي وجدوا فيها اللؤلؤة الكريمة مقتولة. لكن خطتي في تلك المرحلة اقتضت ألا أقول إلا أقل القليل؛ إذ لم أرد أن أفسد الأمر. كذلك لم أرد أن يعثروا عليّ مشنوقة بمقبض باب.

الشقة المفروشة كانت حديثة الطراز. ضمّت حمامين، في كل واحد منهما حوض استحمام ومقصورة استحمام، نافذة زجاجية ضخمة، وشرفة فسيحة مع نباتات حقيقية مزروعة فيها، في مساكب إسمنتية. عاجلًا كنت سأكتشف أن باب الشرفة مغلق.

كنت متحرقة جدًا على الاستحمام: كنت أرشح نتانةً، إثر الطبقات المتراكمة من قشور جلدي القذر وعرق جسدي ورائحة قدميّ في الجوارب القديمة، الطين النتن أسفل الجسر، ورائحة دهن المقالي في مطاعم الوجبات السريعة. الشقة المفروشة كانت نظيفة جدًا ومعطرة بمزيل روائح بشذى الليمون والبرتقال ما جعل رائحتي حتمًا نفّاذة.

حين سألتني الخالة بياتريس إن أردت الاستحمام، أومأت على عجل. لكن عليّ أن آخذ حذري، قالت الخالة دوف، مع ذراعي: عليّ ألا أبللها حتى لا تنسلخ عنها قشور الوشم. عليّ أن أعترف أني تأثرت باهتمامهما، حتى مع زيفه: فهما لا تريدان اصطحاب دُمّلة متقيحة إلى جلعاد بدلًا عن لؤلؤة كريمة.

لدى خروجي من الحمام، متدثرة بمنشفة بيضاء زغبة، وجدت أنّ ملابسي القديمة كلها اختفت – كانت قذرة جدًا حدّ ما كان لينفع معها أي غسيل، قالت الخالة بياتريس – وتركا لي رداءً رماديًا فضيًّا مثل ردائهما.

"هل يفترض بي أن ألبس هذا؟" سألتهما. "لكني لست لؤلؤة كريمة، أنتما اللؤلؤتان الكريمتان."

"الكريمات اللواتي يجمعن اللآلئ واللآلئ التي يجمعنها كلهن لآلئ كريمة،" قالت الخالة دوف. "وأنت لؤلؤةٌ أثيرة. لؤلؤةٌ ثمينة جدًا."

"لهذا نخاطر بحياتنا لأجلكن،" قالت الخالة بياتريس. "لدينا الكثير من الأعداء هنا. لكن لا تقلقي جايد. سنبقيك في أمان."

على أية حال، قالت لي، حتى وإن لم أكن رسميًا لؤلؤة كريمة، فعليّ أن أرتدي الرداء كي يتسنى لهما إخراجي من كندا لأن السلطات الكندية صارت تشدد إجراءاتها في تصدير المهتديات القاصرات، فهم يرون فيه شبهة الاتجار بالبشر.

ولخطأٌ فادحٌ منهم، أردفت قائلة، أن يروا فيه ذلك.

وهنا ذكرتها الخالة دوف بأنّ عليها ألا تستخدم تلك الكلمة تصدير لأن الفتيات لسن سلعة؛ والخالة بياتريس اعتذرت وقالت إنها كانت تقصد، "تسهيل التنقل عبر الحدود." وكلتاهما ابتسمتا.

"لكني لست قاصر،" قلت لهما. "أنا في السادسة عشرة."

"هل تملكين أي ورقة ثبوتية؟" سألتني الخالة بياتريس. وهززت رأسي.

"توقعنا ذلك،" قالت الخالة دوف. "لا تقلقي، سنتدبر الأمر."

"لكن كي نتفادى أي مشكلة، ستحصلين على أوراق الخالة دوف الثبوتية،" قالت الخالة بياتريس. "فاسمها مسجل لدى الكنديين ضمن القادمين، لذا متى ما غادرت الحدود سيظنونك هي."

"لكني أصغر عمرًا منها بكثير، ولا وجه شبه بيننا."

"صورتك أنت ستكون على أوراقها الثبوتية،" قالت الخالة بياتريس. الخالة دوف الحقيقية ستبقى في كندا، وتغادر برفقة الفتاة القادمة التي ستجمعها، مع الأوراق الثبوتية الخاصة باللؤلؤة الكريمة التي ستحل محل الخالة بياتريس.

هن معتادات على هذه الحلقة من تبادل الأوراق الثبوتية.

"الكنديون لا يميزون الواحدة منا عن الأخرى،" قالت الخالة دوف. "ففي أعينهم نحن كلنا سواء." كلتاهما ضحكتا، وكأنهما مبتهجتان بممارسة هذه الخدعة الصبيانية التي ما تنفك تنخدع بها السلطات.

ثم قالت الخالة دوف أنّ هناك سببًا إضافيًّا مهمًا لارتدائي الرداء الفضي وهو تسهيل عملية انتقالي إلى جلعاد لأن النساء هناك لا يرتدين ملابس الرجال. أجبتها بأن الطماق ليس ضمن ملابس الرجال، وكلتاهما قالتا – في هدوء لكن في حزم – بَل من ملابس الرجال، وهو مذكورٌ في الإنجيل، بأنّ التشبه بالرجال ضلالةٌ عظيمة، وإن أردت الانضمام إلى جلعاد فعليّ أن أقبل بذلك.

ذكّرت نفسي بألا أنجرف وأتناقش معهما، لذا لبست الرداء؛ وكذلك العقد اللؤلؤي، والذي كان مزيفًا كما قالت ميلاني. كانت هناك قلنسوة بيضاء، لكني

أحتاج إلى ارتدائها فقط لدى خروجي، قالتا لي. فالكشف عن الشعر مسموحٌ به داخل البيت إلا في حال تواجد رجل، لأن الرجل من طبيعته اشتهاء الشعر، رؤيته اياه يفلت شهواته من زمام سيطرته. وشعري بالذات مع لونه المخضر يعد مثيرًا جدًا.

"ليست سوى صبغة، وستبهت،" قلت معتذرة كي تعرفا أني تبرأت أصلًا من قراري المتهور بصبغ شعري.

"لا بأس عزيزتي، فلا أحد سيراه،" قالت الخالة دوف.

في الواقع وجدت الرداء مريحًا بعد ملابسي القديمة القذرة. كان حريريًّا وناعمًا.

الخالة بياتريس طلبت بيتزا للغداء، وتناولناها مع البوظة الموجودة في البراد. أخبرتهما أني فوجئت بتناولهما الطعام السريع: إذ ألم تحرمه جلعاد، لا سيما على النساء؟

"هو جزءٌ من امتحاننا كلآلئ كريمة،" قالت الخالة دوف، " يفترض بنا أن نختبر غواية ترف العالم الخارجي كي نفهمها، من ثم ننكرها في قلوبنا." وتناولت قضمةً أخرى من البيتزا.

"على أية حال، هذه ستكون مرتي الأخيرة في اختبارها،" قالت الخالة بياتريس، بعد أن أنهت البيتزا وراحت تتناول البوظة. "صدقًا لا أدري السبب وراء تحريم البوظة، إن حرصنا ألا تتضمن مواد كيماوية." ورمقتها الخالة دوف بنظرة توبيخية. ولعقت الخالة بياتريس ملعقتها.

اعتذرت عن تناول البوظة، فأعصابي كانت مشدودة. كذلك فأنا ما عدت أطيقها، إذ ذكرتني كثيرًا بميلاني.

تلك الليلة وقبل ذهابي إلى النوم تفحصت نفسي على مرآة الحمام. رغم الاستحمام والطعام، لم أر أمامي سوى حطامًا. دوائر سود أسفل عينيّ؛ هزيلة بعد فقداني الكثير من وزني. صدقًا بدوت مثل فتاة مشردة في أمس الحاجة إلى الإنقاذ.

كان من الرائع الخلود إلى النوم في سرير حقيقي بدلًا عن افتراش كيس قمامة

أسفل جسر. رغم أني اشتقت إلى عناق غارث.

كل ليلة قضيتها في تلك الغرفة، أقفلتا الباب عليّ. وفي ساعات صحوي حرصتا أشد الحرص ألا أكون وحدي.

الأيام اللاحقة قضيناها في إعداد أوراق الخالة دوف الثبوتية. أخذتا صورتي وبصماتي لأجل جواز السفر. الجواز ختم في سفارة جلعاد في أوتاوا، وأعيد من جديد إلى القنصلية عبر خدمة بريد خاصة. الجواز تضمن رقم هوية الخالة دوف لكن مع صورتي ومواصفاتي الجسدية، حتى أنهم اخترقوا قاعدة بيانات الهجرة في الحكومة الكندية حيث مسجل دخول الخالة دوف، أزالوا الخالة دوف الحقيقية عن النظام مؤقتًا، واستبدلوا بياناتها ببياناتي ومسحة قزحية عيني وبصماتي.

"لدينا الكثير من الأصدقاء في أجهزة الحكومة الكندية،" قالت الخالة بياتريس. "ستصدمين بعددهم."

"الكثير من المتعاطفين مع قضيتنا،" قالت الخالة دوف. ومعًا قالتا، "له الحمد."

على صفحة من صفحات جواز السفر ألصقوا طابعًا مختومًا، **لؤلؤة كريمة**. ما يعني أنه سيسمح لي بدخول جلعاد مباشرةً، دونما أسئلة: مثل الدبلوماسيين، قالت الخالة بياتريس.

الآن أنا الخالة دوف، لكني خالة دوف مختلفة. لدي فيزا إرسالية اللآلئ الكريمة الكندية المؤقتة والتي يتوجب بي إرجاعها إلى سلطات الحدود لدى مغادرتنا. أمرٌ في منتهى البساطة، قالت الخالة بياتريس.

"أبقي عينيك على الأرض معظم الوقت لدى قطعك الحدود،" قالت الخالة دوف، "حتى تخفي ملامحك. كذلك فهي دلالة الحياء في الفتاة."

أنا والخالة بياتريس توجهنا إلى المطار في سيارة سوداء تابعة لحكومة جلعاد، وهناك تجاوزت شرطة الحدود بلا أي مشاكل. حتى أنهم لم يخضعونا للتفتيش الجسدي.

كانت طائرة خاصة. مع رمز عين مجنحة عليها. كانت فضية، عدا أنها بدت لي سوداء – أشبه بطائر أسود ضخم، ينتظر حملي والطيران بي، لكن الطيران بي إلى أين؟ إلى العدم. آدا والإيجا حاولا قدر استطاعتهما تعليمي عن جلعاد؛ شاهدت الوثائقيات ومشاهد الأخبار المتلفزة، لكن مع ذلك كله عجزت عن تصور ما ينتظرني هناك. لم أشعر أني حقيقةً مستعدة لما سيأتي.

تذكرت ملجأ راعية الملاذ، والنساء اللاجئات. كنت قد نظرت إليهن لكني لم أبصرهن. لم أتفكر للحظة كيف بدا لهن مغادرة المكان الذي يعرفنه، ترك كل شيء وراءهن، وشد الرحال إلى المجهول. يا له من إحساس مظلم وسحيق، لولا شعاعة الأمل التي أوحت إليهن من الأساس المخاطرة بكل شيء لأجل هذه الفرصة.

عن قريب جدًا، أنا الأخرى، كان سينتابني ذات الإحساس. كنت سأجدني في مكان مظلم سحيق، أحمل معي قبسًا صغيرًا من ضوء، علّني به أهتدي إلى طريقي.

أقلعنا في وقت متأخر، وانتابني القلق إذ لربما كشفت السلطات حقيقة أمري وسيمنعوننا عن السفر. لكن ما إن حلقت بنا الطائرة، شعرت بهمٍّ ثقيل انزاح عن كاهلي. ما كان قد سبق لي ركوب طائرة – لذا تملكني الحماس في البداية. لكن سرعان ما حجبت السحب الأرض، وبات المشهد رتيبًا. لا بد أني غفوت، لأني أتذكر الخالة بياتريس تكزني برفق قائلة، "نكاد نصل."

نظرت خارج النافذة الصغيرة. الطائرة كانت تطير على ارتفاع منخفض، وتسنى لي رؤية مبان جميلة في الأسفل، قمم الأبراج، نهرٌ متعرج، والبحر.

ثم حطت الطائرة. هبطنا على سلم أنزلوه من الباب. الجو كان حارًا وجافًا، الريح تهب، تدفع بتنانيرنا الطويلة الفضية على سيقاننا. وعلى الطريق المسفلت وقف صفان من الرجال في بزاتهم الرسمية السود، وأنا وإياها سرنا بين الصفين، ذراعًا بذراع. "لا تنظري في وجوههم،" همست لي.

لذا ركزت نظري على بزاتهم الرسمية، لكن كل ما شعرت به هي عيونٌ، عيونٌ، عيونٌ تتلمس سائر جسدي كما الأيدي. شعرت بخطر لم يسبق أن عشته في حياتي – حتى حين نمت أسفل الجسر مع غارث، يحاوطني الغرباء من كل مكان.

وإذ بكل أولاء الرجال يؤدون التحية. "وما هذا؟" سألتها همسًا. "علام أداء التحية؟"

"على نجاح مهمتي،" قالت الخالة بياتريس. "فقد أعدتُ لؤلؤةً ثمينة. أنتِ."

* * *

صحبونا إلى سيارة سوداء وقادوا بنا إلى المدينة. لم يكن هناك الكثير من الناس في الشوارع، كل النسوة ارتدين تلكِ الأردية الطويلة وفق التصنيف الملون الذي شاهدته في الوثائقيات. حتى أني رأيت الجواري يمشين في أزواج من اثنتين.

ما كان هناك من أحرف على واجهات المتاجر – فقط صورٌ ترمز إلى محتواها. حذاء، سمكة، سن.

السيارة توقفت بنا أمام بوابة في جدار قرميدي. حارسان لوّحا إلينا بالدخول. السيارة دخلت ثم توقفت، وفتحوا لنا الباب. غادرنا السيارة، وشبكت الخالة بياتريس ذراعها بذراعي قائلة، "لا وقت لدينا كي أريك أين ستنامين، فالطائرة تأخرت في الإقلاع. علينا أن نتوجه مباشرةً إلى المعبد للاحتفاء بعيد الشكر. فقط نفذي ما أقوله لك."

كنت أعرف أنّ العيد طقسٌ ذو علاقة باللآلئ الكريمة – فآدا حذرتني منه، والخالة دوف فسرته لي، وفي كلتا الحالتين سرحت ولم أصغِ – لذا لم أعرف حقًّا ما الذي ينتظرني.

توجهنا إلى المعبد. كان ممتلئًا عن آخره: النساء الأكبر عمرًا كن في أردية الخالات البنية، والأصغر عمرًا في أردية اللآلئ الكريمة. كل لؤلؤة كريمة كانت تقف برفقتها فتاةٌ من عمري، ومثلي كانت في ردائها الفضي المؤقت. وفي صدر المعبد رأيت معلقًا على الحائط صورة كبيرة مؤطرة بالذهب للرضيعة نيكول، مجرد رؤيتها أحبطني.

وفيما راحت الخالة بياتريس تسوق بي عبر الممر، الكل راح ينشد:

ها هنّ اللآلئ الكريمة،
جمعن اللآلئ الثمينة،
واليوم نحتفي مبتهجات،
بالكريمات ولآلئهن الثمينة.

كلهن ابتسمن وأومأن لي: بدون حقًّا سعيدات بي. فقلت في نفسي، لربما الأمر لم يكن بالسوء الذي تصورته.

كلنا جلسنا. وامرأةٌ كهلة صعدت المنبر.

"الخالة ليديا،" همست الخالة بياتريس. "المؤسسة الرئيسة." تعرفت عليها من الصورة التي أرتني اياها آدا، رغم أنها بدت أكبر عمرًا بكثير من المرأة في الصورة، أو هكذا خيّل إليّ.

"نحن مجتمعاتٌ اليوم حتى نحمد الرب على العودة الآمنة للآلئنا الكريمة من مهامهن التبشيرية – من كل الإرساليات التي خدمن فيها حول العالم، قدومًا ومجيئًا، حيث حملن بكل إخلاص رسالة جلعاد الصالحة. نحيّيهن على الشجاعة الجسدية والشجاعة الروحية التي أبديتها، ونشكرهن من قلوبنا. والآن أعلن أنّ اللآلئ الكريمة ما عدن مبتهلات بل أصبحن خالات مكتملات، مع كل الصلاحيات والامتيازات المقترنة بموقعهن الجديد. ونحن موقنات أنهن سيؤدين واجبهن، أينما كان وكيفما كان." والكل ردد، "آمين."

"أيتهن اللآلئ الكريمة، أحضرن لي اللآلئ الثمينة اللاتي جمعتن،" قالت الخالة ليديا. "بدءًا بإرسالية كندا."

"إنهضي،" همست الخالة بياتريس. وساقت بي إلى الأمام، تمسك بي من ذراعي اليسرى. يدها كانت قابضة على وشم "God/Love"، مما آلمني.

نزعت عنها عقد اللآلئ، وسجته في صحن ضحل كبير أمام الخالة ليديا، وقالت، " أعيد إليك هذه اللآلئ مثلما استلمتها نقيةً من كل دنس، علّ الرب يبارك فيها وترتديها اللؤلؤة الكريمة القادمة لدى أدائها رسالتها بكل فخر. بفضل المشيئة الإلهية، ها أنا أضيف لؤلؤة إلى كنز جلعاد ونفائسها من الأحجار الكريمة. أقدم إليك جايد، لؤلؤة ثمينة جدًا، أنقذتها من الخراب المحتوم. علّ الرب يطهرها من دنس الدنيا، ينقيها من الرغبات الآثمة، يقيها من الخطيئة، ويكرسها لخدمة جلعاد في الموقع الذي قدّره لها." وضعت يديها على كتفيّ ودفعتني إلى وضع الركوع. فوجئتَ بها – وكدت أقع على جانبي.

"ما الذي تفعلينه؟" همست لها.

"صه،" قالت الخالة بياتريس. "الزمي الصمت."

ثم قالت الخالة ليديا، "مرحبًا بك في أردوا هول، جايد، وليبارك الرب خيارك

الذي أخذتيه، تحت عينه، بير أردوا كم استرس." ووضعت يدها على رأسي، ثم رفعتها، أومأت لي، وتبسمت لي ابتسامةً صفراء.

هن رحن يرددن من بعدها، "مرحبا باللؤلؤة الثمينة جدًا، بير أردوا كم استرس، آمين."

وأنا أردد في عقلي:

ما الذي جنيته على نفسي؟ ما الذي أفعله هنا مع تلكن العاهرات المجنونات!

أسنانٌ مثاليّة

سِفْرُ أَرْدوا هول

46

قارورة حبري الأزرق، قلمي الفاونتن، صفحات مفكرتي بهوامشها المقصوصة حتى تتلاءم مع حجم مخبئها، فيها كلها أودعت رسالتي إليك، قارئي العزيز. لكن أي نوع من الرسائل؟ أحيانًا أرى نفسي الرقيب العتيد، أدون كل خطايا جلعاد، ومن ضمنها خطاياي؛ وفي أيام أخرى أطرح عني هذه النبرة الأخلاقية المتعالية. إذ ألستُ، في الأساس، سوى امرأة نمّامة تتداول الأقاويل القذرة؟ الحكم لك قارئي العزيز، وإن أخشى أني أبدًا لن أعرفه.

خشيتي الأعظم: أنّ كل جهودي ستضيع سدىً، وجلعاد ستظل قائمة لألف عام. فذا الإحساس الغالب هنا، بعيدًا جدًا عن مناطق الحرب، في قلب الإعصار الساكن. حيث الشوارع هادئة جدًا، ساكنة جدًا، ونظامية جدًا؛ لكن مع ذلك، أسفل ذاك السطح الهادئ المخادع، رجفةٌ تسري في الأوصال، وكأنما واقفون قرب خطوط إمداد الكهرباء. فنحن خائرو القوى، أعصابنا مشدودة؛ كلنا نرتجف، نرتعش، أبدًا واقفون على شفير الهاوية. حكم الإرهاب[29]، كذا أسموه يومًا، عدا أنّ الإرهاب لا يحكم، بل يشل. ولذا يعم هذا الهدوء غير الطبيعي.

لكن يظل الرب ينعم علينا برحماته الصغيرة. فالبارحة شهدت – على شاشة التلفاز في مكتب الرئيس جود – طقس الاستعدام الذي أشرفت عليه الخالة

29 عهد الإرهاب: العام اللاحق لقيام الثورة الفرنسية (1793 – 1794) والذي اتصف بدموية قيادة الثورة في محاكمة شخوص النظام الملكي السابق وحكم الإعدام العلني بالمقصلة، عدا المجازر التي ارتبكت باسم حماية الثورة.

إليزابيث. كان الرئيس جود قد طلب كوبًا من القهوة – من النوع الممتاز الذي لا يتوافر عادةً في جلعاد؛ شربتها وتجنبت سؤاله عن كيفية حصوله عليها. أضاف جرعةً من الرم في كوبه وسألني إن أردت جرعة لنفسي، لكني رفضت. ثم قال إنّ قلبه موهن وأعصابه تالفة وفي حاجة إلى شيء يساعده على استجماع قواه، إذ وجد في المشهد الوحشي الدموي الذي يوشك أن يراه وزرًا ثقيلًا على معنوياته.

"أتفهم موقفك،" قلت له. "لكن الواجب يحتم علينا تحقيق العدالة." تنهد تنهيدةً عميقة، تجرع القهوة، ثم صبّ لنفسه كوبًا جديدًا مع جرعة رم أخرى.

رجلان حكم عليهما بالاستعدام: ملاكٌ ألقي القبض عليه يبيع ليمونًا مهربًا عبر ماين في السوق الرمادية، والدكتور غروف، طبيب الأسنان. عدا أنّ الليمون لم يكن بجريمة الملاك الحقيقية: بل اتهم باستلام رشاو من اليوم المايوي وتقديم العون في عدة محاولات ناجحة لتهريب الجواري عبر حدودنا المختلفة. لكن الرئيس لم يرغب بإذاعة هذه الحقيقة على العامة: إذ ستوحي إليهم بأفكار باطلة. فالموقف الرسمي أنّ لا ملاك فاسد في جلعاد، وبالتأكيد لا جاريات هاربات؛ إذ من ذا الذي سيتبرأ من ملكوت الرب كي يهوي بإرادته الحرة في غياهب الجحيم؟

في كل المراحل التي كانت ستؤدي اللحظة إلى إنهاء حياة غروف، أبدعت الخالة إليزابيث في تنفيذ مهمتها. فهي كانت عضوة في فريق التمثيل الجامعي، ولعبت دور هيكوبا في نساء طروادة – معلومةٌ صغيرة التقطتها أثناء أحد اجتماعاتنا الأولية حيث جلسنا هي وهيلينا وفيدالا وأنا ننحت بمطارقنا عالم المرأة في جلعاد الوليدة. فالرفقة الحزبية تولد في ظروف كهذه، حيث يتشارك المجتمعون حيواتهم الماضية. عدا أني حرصت أشد الحرص ألا أشارك إلا أقل القليل من ماضيّ.

حياة إليزابيث الماضية على خشبة المسرح لم تخذلها. تنفيذًا لأوامري، حجزت موعَدًا لدى الدكتور غروف. من ثم، في اللحظة المناسبة، زحفت خارج كرسي المريض، مزقت ملابسها، وزعقت صارخة أنّ غروف حاول اغتصابها. وفي صياحها الجنوني الذاهل، ترنحت نحو قاعة الانتظار، حيث السيد ويليام، مساعد الطبيب، شهد مظهرها الممزق الأشعث وانهيارها الروحيّ.

يفترض بشخص الخالة أن تكون قرينة للقداسة. لذا لا عجب أن الخالة إليزابيث صدمت بهذا الاعتداء السافر عليها، كذا كان رأي العامة، فلا أحد يرتكب فعلةً شنعاء كهذه إلا مجنونٌ خطر.

كنت قد أمّنتُ الحصول على سلسلة صور للحادث عبر كاميرا بالغة الصغر دسستها في طقم أسنان جذابة. حافزٌ احتياطي في حال فكرت الخالة إليزابيث يومًا في الإفلات من الرسن، حينها كنت سأهددها بنشر الصور دليلًا على شهادتها الكاذبة.

لاحقًا في المحاكمة، السيد ويليام شهد ضد غروف. فهو ليس بأحمق: إذ أدرك فورًا أنّ مديره بات في حكم الهالك. وصف الغضب العارم الذي اعترى غروف لحظة الاكتشاف. أيتها الحقيرة العاهرة كذا صاح غروف الشيطاني على الخالة إليزابيث، كان هذا ما ادعاه. لكن في الحقيقة لا أحد تلفظ بتلك الكلمات، ما قاله غروف في الواقع كان، "لماذا تفعلين هذا؟" – لكن شهادة ويليام كانت حاسمة في المحاكمة. القاعة ضجت بشهقات الحضور، لا سيما مجتمع أردوا هول بأكمله: فأن تنعت خالة بهذه النعوت السوقية يتاخم حدود التجديف! وفي التحقيق، اعترف ويليام على مضض بأن لديه أسبابًا تحدوه إلى الشك في شذوذ تصرفات مديره في الماضي. البنج، قال في نبرة حزينة، قد يكون إغواءً عظيمًا للنفس الضعيفة.

وما الذي كان بيد غروف أن يقول دفاعًا عن نفسه عدا أنه بريء من التهمة والاستشهاد بقصة المرأة الشهيرة في الإنجيل والتي اتهمت أحدهم زورًا باغتصابها، زوجة فوطيفار؟ بيد أنّ الرجال الأبرياء من تهمة الاغتصاب يبدون تمامًا مثل الرجال المذنبين بالاغتصاب، وأظنك لاحظت هذا قارئي العزيز. والمستمع، في الحالتين، لا يميل إلى التصديق.

بالكاد منع غروف نفسه من الاعتراف بأنه ما كان أبدًا ليمس الخالة إليزابيث بإصبع فاسقة لأن القاصرات وحسب من يثرن شهوته.

نظرًا لأداء الخالة إليزابيث المذهل، شعرت بأنّ من الإنصاف السماح لها بالوقوف على تنفيذ طقوس الاستعدام في الاستاد. غروف كان الثاني في الترتيب. كان سيرى بأم عينه الملاك يرفس حتى الموت وحرفيًا يتمزق إربًا على يد سبعين جارية مفترسة.

فيما اقتيد إلى وسط الاستاد، مكبل الذراعين، صاح زاعقًا، "لم أفعلها!" والخالة إليزابيث، المثال الحي على الفضيلة المنتقمة، في ملامح صارمة، أطلقت الصفارة. وفي ظرف دقيقتين امّحى غروف من الوجود. أياد مرفوعة في الهواء، تحمل في قبضاتها كتلًا من الشعر الدامي المقتلع من جذوره.

الخالات والمبتهلات كلهن كنّ حاضرات، مؤازرةً لانتقام إحدى مؤسسات أردوا هول المبجّلات. في جانب من جوانب الاستاد، جلسن اللآلئ المجندات حديثًا؛ كان يومهن الثالث في جلعاد، ما يعني أنّ ما يشهدنه هي لحظتهن المعمودية. حاولت تفحص وجوههن اليافعة لكنهن كن بعيدات عن الكاميرا. أتراهن اشمأززن؟ تلذذن؟ عارضن؟ فمن الجيد دائمًا معرفة تلك الأمور. اللؤلؤة الثمينة جدًا كانت بينهن؛ ما إن ينتهي الحدث الرياضي الذي نشهده، كنت سأقرر محل إقامتها الأنسب لتحقيق غرضي.

وفيما الجاريات منهمكات في إحالة غروف إلى الطين الذي خلق منه، أغمي على الخالة إمّورتيل، وهو ما كان متوقعًا: فهي صاحبة روح حساسة. أتوقعها تلوم نفسها على نحو ما: إذ مهما كان دنيئًا وخسيسًا معها، يظل غروف الرجل الذي لعب دور أبيها.

الرئيس جود أطفأ التلفاز. "يا للأسف،" تنهد قائلًا، "كان طبيب أسنان بارع."

"أدري، لكن يتوجب بنا ألا نغض النظر عن الخطيئة فقط لأن صاحبها يتمتع بمَهارة عالية."

"هل كان حقًّا مذنبًا؟" سألني في اهتمام بسيط.

"أجل، لكن ليس بهذه التهمة. إذ لما توفرت له القدرة ولا الرغبة في اغتصاب الخالة إليزابيث. فهو يشتهي الأطفال."

الرئيس جود عاد وتنهد من جديد. "المسكين، ابتلي ابتلاءً عظيمًا. علينا أن نصلي لروحه."

"بالتأكيد، بيد أنّه لوّث الكثير من الفتيات اليافعات ونفرهن من الزواج. وبدلًا عن القبول بعقد القران عليهن، الزهور الأثيرة فررن إلى حياة الخالات."

"آه، إذن هذا ما حصل مع الفتاة آغنس؟ شعرت أنّ خطبًا ما بها."

أراد أن يسمع توكيدًا مني يطمئنه إلى أنّ بغض آغنس الشديد له لم يكن شخصيًّا. "لست متيقنة،" قلت له. وإذ بوجهه يمتقع. "لكني أظن هذا." إذ لا نفع من المبالغة في استفزازه.

"حكمك دائمًا في محله، خالة ليديا. في مسألة غروف هذه، قد أخذت القرار الصائب الذي يصب في مصلحة جلعاد."

"شكرًا لك. هي استجابة الرب على صلواتي طلبًا لهدايته،" قلت له. "لكن فلنغير الموضوع، أنا سعيدة بإعلامك أننا استوردنا الرضيعة نيكول واللحظة هي آمنة في جلعاد."

"يا لها من ضربة موفقة! بوركتِ!"

"لآلئي الكريمة لعبن دورًا فعالًا، إذ نفذن كل أوامري. ضممنها إلى جناحهن كمهتدية جديدة، وأقنعنها بالانضمام إلينا. تمكنّ من رشوة الشاب المسيطر عليها. الخالة بياتريس هي من فاوضته على الثمن، رغم أنها، بالطبع، تجهل حقيقة أنّ الفتاة هي الرضيعة نيكول."

"لكنك كنت تعرفين، عزيزتي الخالة ليديا،" تريث لحظة ثم أردف، " لكن كيف تدبرت معرفة هويتها؟ عيوني المراقبة ما انفكوا يحاولون لأعوام." هل استشفيت في صوته نبرة حسد، أو الأسوأ، نبرة شك؟ غضضت النظر وتجاوزتها.

"لي أساليبي الصغيرة. وبعض المعلومات المفيدة،" قلت كاذبة. "فأحيانًا اثنان زائد إثنين فعلًا يساوي أربعة. ونحن النساء، حسيرات البصر بطبيعتنا، يحدث أحيانًا أن نلمح التفاصيل بالغة الصغر التي قد تفوت نظرة الرجل الواسعة التي يلقيها من علّ. الخالة بياتريس والخالة دوف تلقتا التعليمات بأن

يكن متيقظات لوشم معين وشمته تلك الفتاة المسكينة على جسدها. ولحسن الحظ، عثرتا عليها."

"وشمت على جسدها؟ منحرفات، كل أولاء الفتيات منحرفات. وعلى أي موضع من جسدها وشمت؟" سأل في اهتمام بالغ.

"على الذراع. وجهها نظيفٌ من الوشوم."

"لا بأس إذن. فذراعاها ستكونان محجوبتان في أي عرض علنيّ."

"هي تحمل الاسم جايد؛ وعلى الأرجح تظنه اسمها الحقيقي. لم أرغب في إعلامها بحقيقة هويتها قبل أن أستشيرك في الأمر."

"وخيرًا فعلت،" قال لي. "هل لي أن أسأل – عن طبيعة العلاقة بينها وبين ذاك الشاب؟ إذ سيكون من الأفضل لنا، بطبيعة الحال، لو أنها لم تُمَس. على كلٍّ نحن مستعدون لاستثنائها من القاعدة. إذ سيكون هدرًا ضمها بعد كل تلك الأعوام إلى الجواري."

"حالتها العذرية ليست مؤكدة حتى الآن، لكني أظنها نقية فيما يخص تلك المسألة. قد حددت إقامتها لدى اثنتين من الخالات اليافعات لدي، خالتان طيبتان ومتعاطفتان. مما سيشجعها بلا شك على مشاركتهما آمالها ومخاوفها، وكذلك عقيدتها، والتي أنا واثقة أن بيدنا قولبتها بما يتناسب مع عقيدتنا."

"أعود وأكررها، بوركت، خالة ليديا. صدقًا أنت جوهرة نفيسة. ومتى سيتسنى لنا أن نكشف عن الرضيعة نيكول أمام جلعاد والعالم بأسره؟"

"علينا أولًا التيقن من أنها مهتدية راسخة الإيمان،" قلت له. "ثابتة على عقيدتها. وسيتطلب الأمر قدرًا من الرعاية والمهارة. فالقادمات الجدد يأتين مندفعات يغلبهن حِماسٌ عارم، تحدوهن تلك الآمال غير الواقعية. لذلك علينا أولًا إعادتها إلى أرض الواقع، علينا أن نعلمها بالواجبات المطلوبة منها: فالحياة هنا ليست كلها إنشاد تراتيل وانتشاءٌ روحي. وفوق كل هذا، علينا أن نطلعها على تاريخها الشخصي: حتمًا ستصدم باكتشافها أنها هي الرضيعة نيكول المحبوبة والمعروفة."

"سأترك المسألة برمتها بين يديك القديرتين،" قال لي. "هل ما زلت رافضة

جرعة الرم في قهوتك؟ فهي مفيدة للدورة الدموية."

"ربما ملعقة صغيرة،" قلت له. صب القهوة وأضاف لها الرم. رفعنا قهوتنا، وقرعنا الكوب بالكوب.

"فليبارك الرب جهودنا،" قال رافعًا النخب. "كلي إيمانٌ أنه سينصرنا."

"ولو بعد حين،" أجبته مبتسمة.

بعد الجهد الجهيد الذي بذلته في عيادة الأسنان، في المحاكمة، وفي طقس الاستعدام، عانت الخالة إليزابيث من انهيار عصبيّ. ذهبنا أنا والخالة فيدالا والخالة هيلينا لزيارتها في إحدى بيوت النقاهة حيث كانت تتعافى. وما إن رأتنا رحبت بنا باكية.

"لا أدري ما الذي أصابني، كل طاقتي استنزفت مني."

"لا عجب، بعد كل الذي مررت به،" قالت هيلينا.

"فعليًا ارتقيتِ إلى مصاف القديسة في أردوا هول،" قلت لها. كنت أعلم بمبعث قلقها الشديد: فقد حلفت يمينًا كاذبة عن عمد ولا عودة عن نتائجها، وإن فضح أمرها، فتلك ستكون نهايتها.

"أنا ممتنة جدًا لإرشادك إياي خالة ليديا،" قالت فيما ترمق الخالة فيدالا شزرًا. الآن وقد أصبحتْ حليفها القوي – بحكم تنفيذها طلبي غير الاعتيادي – شعرت بأن الخالة فيدالا تقف أمامها مجردة من كل قواها.

"وكم أنا سعيدة بمساعدتي إياك،" قلت لها.

قاعة القراءة

محضر أقوال الشاهدة "369A"

47

أول مرة رأينا فيها جايد أنا ورفقة كان في حفل عيد الشكر الذي أقيم ترحيبًا بعودة اللآلئ الكريمة برفقة المهتديات. كانت فتاةً طويلة، خرقاء نوعًا ما، إذ ما انفكت تتلفت حولها وتحدق في كل ما تراه على نحو بدا لي وقحًا. برؤيتها ساورني الشعور بأنها ستجد من الصعوبة بمكان الانتماء إلى أردوا هول، إلى جلعاد نفسها. لكني لم أعرها تفكيرًا طويلًا إذ استغرقتُ كليًا في جمال الحفل.

عن قريب نحن من سيُحتَفى بنا، قلت في نفسي. رفقة وأنا كنا على مشارف الانتهاء من فترة تدريبنا كمبتهلات؛ وشبه مستعدتين للارتقاء إلى خالات مكتملات. وقريبًا جدًا كنا سنستلم رداء اللؤلؤة الكريمة الفضي، الأجمل بكثير من ردائنا البني الاعتيادي. كنا سنرث عقد اللؤلؤ؛ ننطلق في عملنا التبشيري؛ وكل منا كانت ستحضر معها لؤلؤةً ثمينة.

في أعوامي الأولى في أردوا هول، عشت مفتونة بهذا المستقبل. كنت ما زلت حينها مؤمنة ثابتة العقيدة – إن ليس في كل شيء يخص جلعاد، فعلى الأقل في حياة الإيثار التي سلكتها الخالات. لكني الآن ما عدت واثقة.

لم نر جايد مرةً أخرى حتى اليوم التالي. فمثلها مثل كل اللآلئ الجدد، وجب عليها حضور قداس صلاة الليل في المعبد، والاستغراق في الصلوات والتأمل. من بعدها كانت ستسلم رداءها الفضي وتستلم الرداء البني الذي نرتديه جميعًا هنا. لا يعني ذلك أنها كانت مهيئة لأن تصبح خالة – فاللآلئ الجدد يُراقَبْن عن كثب قبل تعيينهن زوجات أو زوجات كفاف، أو مبتهلات، أو في حالات غير سعيدة،

جاريات – لكن ما دمن يعشن بيننا فيتوجب عليهن ارتداء الرداء البني مثلنا، لكن مع إضافة مشبك كبير هلاليّ الشكل من اللؤلؤ المزيف.

تعريف جايد بتقاليد جلعاد بدأ بدايةً قاسية، إذ حضرت في اليوم التالي طقس الاستعدام. على الأرجح صدمت على مرأى رجلين حرفيًّا يتمزقان إربًا على يد الجواري؛ هو صادمٌ حتى لي، رغم أني شهدته مرات عديدة على مرِّ الأعوام. فالجواري يعشن بيننا في منتهى الخنوع والخضوع، وإطلاقهن للعنان هذه الفورة من الغضب العنيف لهو مقلقٌ جدًا.

الخالات المؤسسات هن من شرّعن تلك القوانين. رفقة وأنا كنا سنوثر تشريع طريقة أقل تطرفًا.

أحد الرجلين المحكومين كان الدكتور غروف، أب رفقة السابق، من أدين بتهمة اغتصاب الخالة إليزابيث، أو بمحاولة اغتصابها: نظرًا لتجربتي معه، فلا أكترث حقًّا بأي التهمتين أدين. ويؤسفني القول إني ابتهجت أيما ابتهاج برؤيته يعاقب.

لكن لم يكن هذا شعور رفقة. فما فعله بها الدكتور غروف وهي طفلة مخز وشنيع، وما كنت أبدًا لأعذره على فعلته الدنيئة، رغم أنها هي نفسها كانت مستعدة. إذ لطالما كانت أكثر إحسانًا مني؛ وهذا ما يعجبني فيها، لكني أبدًا ما كنت لأضاهيها.

وفيما الدكتور غروف راح يتمزق أشلاءً في الاستعدام، أغمي على رفقة. بعض الخالات عزون ردة فعلها إلى حب الابنة – أجل، الدكتور غروف كان رجلًا شريرًا آثمًا، لكن يظل رجلًا، ورجلًا عالي المقام. كذلك كان أبًا، وله حق الاحترام والطاعة على ابنته البارة. غير أني كنت أعرف حقيقة الأمر: فرفقة شعرت بالمسؤولية عن موته. وتملكها الندم على إخباري بجرائمه معها. أكدت لها أني ما شاركت سرها مع أحد، وأخبرتني أنها تثق بي، لكن يقينًا الخالة ليديا عرفت بالأمر بطريقة ما. فهكذا تستَمد الخالات قواهن وسلطتهن: في التنقيب عما أبدًا لا يقال.

رفقة وأنا كنا قد عدنا من طقس الاستعدام. أعددت لها كوبًا من الشاي واقترحت عليها أن تستلقي في فراشها – إذ كانت ما تزال شاحبة – لكنها حاولت

طمأنتي أن مشاعرها تحت السيطرة وأنها ستغدو على ما يرام. كنا مستغرقتين في قراءة الإنجيل المسائية حين سمعنا طرقًا على الباب. وفوجئنا برؤية الخالة ليديا واقفة خارجًا؛ برفقتها اللؤلؤة الجديدة، جايد.

"الخالة فيكتوريا، الخالة إمّورتيل، قد اصطفيتكما لأداء مهمة خاصة جدًا،" قالت لنا. "قد عهدتُ لؤلؤتنا الجديدة، جايد، إلى رعايتكما. ستقيم في حجرة النوم الثالثة، والتي على حد علمي شاغرة. مهمتكما مساعدتها بكل طريقة ممكنة، وتعليمها تفاصيل حياة الخدمة هنا في جلعاد. هل لديكن ما يكفي من الملاءات والمناشف؟ إن لا، سأتدبر لكنّ المزيد منها."

"لدينا ما يكفي، خالة ليديا، له الحمد." أجبتها، ورفقة رددت صدى إجابتي. جايد تبسمت لنا، ابتسامة هيّابة وعنيدة في ذات الآن. كانت مختلفة عن بقية المهتديات الجدد الآتيات من الخارج: إذ كنّ إما ذليلات أو متعصبات.

"مرحبًا بك،" قلت لجايد. "رجاءً تفضلي."

"حسنٌ." ما إن قطعت عتبة غرفتنا، هوى قلبي: إذ حتى وإن كنت مدركة أنّ الحياة الهادئة ظاهريًا التي عشناها أنا ورفقة تسع سنوات في أردوا هول قد شارفت على الانتهاء – فها هو التغيير قد دخل حياتنا – إلا أني لم أعِ حينها إلى أي حد سيقلبنا هذا التغيير رأسًا على عقب.

كنت قد وصفت حياتنا بالهادئة، لكني لا أراها الصفة الصحيحة. في كل أحوالها كانت حياة منهجية، نظامية، وإن رتيبة. كل ثانية من وقتنا كانت مشغولة، لكن مع هذا، وعلى نحو غريب، بدا وكأن الوقت لا يمر. كنت في الرابعة عشرة حين قُبِلت مبتهلة في أردوا هول، ورغم أني كبرت في العمر، لا أرى نفسي أني صدقًا كبرت، نضجت. وكذا كان الحال مع رفقة: بدا وكأننا تجمدنا في الزمن؛ حُفِظْنا طفلتين في الجليد.

أما الخالات المؤسسات والجيل الأول من الخالات فقد عركهن الدهر. إذ تقولبن في عصر سابق لجلعاد، خضن كفاحًا مريرًا أعفينا نحن منه، وهذا الكفاح

شذّب عنهن الرقة التي كانت يومًا لديهن. عدا أننا اليوم لسن مجبرات على الخوض في محن كهذه. فنحن مصونات، محميّات، لا شيء يضطرنا إلى التعامل مع قسوة العالم الخارجي. نحن من جنينا ثمار تضحيات أسلافنا. ما ينفكون يذكروننا بهذه الحقيقة، ونؤمر بأن نكن شاكرات حامدات. لكن يشق عليك أن تكون شاكرًا حامدًا على نعمة غياب شيء أنت أصلًا تجهله. أخشى أننا لم نقدر فعلًا إلى أي حدٍّ عاركت الخالة ليديا ونساء جيلها الحياة، إلى أي حد تحجرت قلوبهن في النار. ففيهن من قسوة القلب ما بالتأكيد افتقرنا نحن إليه.

رغم الإحساس بجمود الزمن، إلا أني في الواقع تغيرت. إذ ما عدت الشخص الذي كنت حين دخلت أردوا هول. الآن أنا امرأة، حتى وإن امرأة عديمة الخبرة؛ فيوم دخلت كنت مجرد طفلة.

"أنا سعيدة جدًا بقرار الخالات إبقائك هنا،" قالت رفقة في يومي الأول. كانت تمعن فيّ بنظرتها الخجولة.

"وأنا سعيدة أيضًا."

"لطالما نظرت إليك بإعجاب في المدرسة. ليس فقط لأن لديك ثلاث مرثيّات وكونك ابنة رئيس، بل لأنك كنت الأقلّ كذبًا من بين الأخريات. وكنت لطيفةً معي."

"لم أكن لطيفةً إلى هذا الحد."

"كنت ألطف من الأخريات."

كانت الخالة ليديا قد منحتني الإذن بالإقامة في ذات الوحدة السكنية حيث تقيم رفقة. فأردوا هول كانت مقسمة إلى وحدات سكنية عديدة؛ وحدتنا كانت تحمل رمز "C" وشعار أردوا هول: بير أردوا كم استرس.

"يعني، الكفاح في مخاض الولادة عبر دورة التناسل الأنثوي،" قالت رفقة.

"يعني كل هذا؟"

"الشعار لاتيني. له رنةٌ أجمل في اللاتينية."

"وما اللاتينية؟"

وأخبرتني رفقة بأنها لغة عتيقة ما عاد أحدٌ يتحدث بها، لكن ظل الناس يكتبون شعاراتهم بها. على سبيل المثال، كان هناك شعارٌ منقوش في كل مكان ضمن حدود الحائط، فيريتاس، أي "الحقيقة" باللاتينية. لكنهم نحتوا الكلمة وغطوها بالطلاء."

"وكيف عرفت بذلك؟" سألتها. "إن كانت الكلمة أصلًا قد اختفت؟"

"في مكتبة هلدغارد العامة،" أجابتني. " الخالات وحسب يسمح لهن بدخولها."

"وما المكتبة العامة؟"

"هي المكان حيث يحتفظون بالكتب. هناك قاعاتٌ وقاعاتٌ ملأى بها."

"وهل هي شريرة؟" سألتها. "تلك الكتب؟" تخيلت كل هذا الكبريت المتفجر موضبًا في قاعة واحدة.

"ليس تلك التي أقرأها. الكتب الأخطر محفوظة في قاعة القراءة. عليك أن تحصلي على تصريح خاص لدخولها. لكنك حرة في قراءة ما عداها."

"ومسموحٌ لك بالقراءة؟" سألتها مذهولة. "تدخلين بكل بساطة وتقرأين؟"

"أجل إن كان لديك تصريح دخول المكتبة، طبعًا باستثناء قاعة القراءة. إن دخلت القاعة دون التصريح الخاص بها، فسيطبق عليك الإصلاح، في إحدى الأقبية في الأسفل." وأخبرتني أنّ كل وحدة سكنية في أردوا هول تضم في الأسفل قبوًا عازلًا للصوت، استخدمها السابقون في أمور مثل العزف على البيانو. لكن القبو "R" بات المكان حيث تطبق عليك الخالة فيدالا عقوبة الإصلاح، عقوبة كل فتاة تنحرف عن طريق الصواب.

"لكن لماذا؟ فالعقوبات في العادة تطبق علنًا،" قلت لها. " المجرمون في الاستعدام. شنق الناس وعرضهم على الحائط."

"أجل، أعلم،" قالت رفقة. "وكم أتمنى لو أنهم لا يتركون تلك الجثث معلقة لوقت طويل. فسرعان ما تنسل الرائحة إلى غرفنا، وتصيبني بالغثيان. لكن الإصلاح في القبو أمرٌ مختلف، فهي لصالحك، لأجل تقويمك. والآن، دعنا نحضر لك زيك، وبعدها تختارين اسمك."

كانت هناك قائمة من الأسماء المتفق عليها، جمعتها الخالة ليديا وكبار الخالات. رفقة أخبرتني أنّ تلك الأسماء مشتقة من أسماء منتجات أحبتها النساء فيما مضى وارتأت الخالات أنّ قلوبهن ستطمئن إليها، لكن رفقة نفسها لا فكرة لديها عن تلك المنتجات. "لا فتاة في عمرنا تملك أدنى فكرة."

قرأت عليّ قائمة الأسماء، إذ لم أكن قد تعلمت القراءة بعد.

"ماذا عن ميبلين؟ وقعه جميلٌ على الأذن. الخالة ميبلين."

"لا،" قلت لها. "مبهرجٌ زيادة."

"حسنٌ، ماذا عن الخالة آيفوري؟"

"باردٌ زيادة."

"هاكِ اسمًا أتوقع سيعجبك: فكتوريا. على ما أظن كانت هناك ملكة تدعى فكتوريا. ستدعين الخالة فيكتوريا: إذ حتى وأنت مبتهلة مسموحٌ لك بحمل لقب خالة. لكن ما إن ننتهي من مهمتنا التبشيرية في إرسالية اللآلئ الكريمة في دول أخرى خارج جلعاد، سنرتقي إلى خالات مكتملات." لم نكن قد سمعنا الكثير عن اللآلئ الكريمة في مدرسة فيدالا – عدا أنهن نساء في منتهى الشجاعة، يخاطرن بحياتهن ويضحين بأنفسهن في سبيل جلعاد، وأنّ علينا جميعًا واجب احترامهن.

"نغادر جلعاد؟ أليس مخيفًا قطع تلك المسافات الهائلة؟ أليست جلعاد كبيرة جدًا؟" بدا لي وكأننا سنهوي عن العالم إن فعلناها، فحتمًا جلعاد لا حواف لها.

"جلعاد أصغر مما تصورين،" قالت لي. "هي محاطة بثلاث دول. لاحقًا سأريك إياها على الخريطة."

لا بد أنها لاحظت الارتباك على وجهي إذ تبسمت وقالت، "الخريطة أشبه بصورة. ستتعلمين هنا قراءة الخرائط."

"أقرأ صورة؟ وكيف سأفعل ذلك؟ فالصور ليست كتابة."

"سترين. كان شاقًا عليّ في بادئ الأمر، لكن مع وجودك الآن معي، فلن تغمرني الوحدة."

وإلام كان سيؤول مصيري بعد الستة أشهر؟ ذا كان هاجسي العظيم الذي ما انفك يقلقني. هل كان سيسمح لي بالبقاء؟ إذ أثار أعصابي تحديق الخالات بي على الدوام وكأنهن يتفحصن حبة خضراوات. شقّ عليّ إبقاء عينيّ على الأرض دومًا، وهو ما كان المطلوب منا: إن رفعت عينيّ قليلًا كنت سأجدني أحدق في جذعهن،

تصرفٌ غير مهذب، أو في أعينهن، تصرفٌ وقح. كان من الصعب عليّ الالتزام بالصمت وعدم الكلام إلا إذا بادرت خالة بالكلام معي أولًا. الطاعة، الخنوع، الانقياد: تلك كانت الفضائل المطلوبة للبقاء هنا.

وهناك القراءة التي وجدتها محبطة جدًا. ربما كبرت في العمر على تعلمها. ربما هي أشبه ببراعة التطريز: عليك أن تبدئي بممارستها في سن مبكرة؛ عدا ذلك يدك ستكون دومًا خرقاء. لكن شيئًا فشيئًا وجدتني أفهمها. "أنت موهوبة بالفطرة،" قالت رفقة. "أنت أفضل مني بكثير حين ابتدأت!"

الكتب التي منحوني اياها حتى أتعلم منها كانت عن صبيٍّ وفتاة يدعوان ديك وجاين. الكتب كانت قديمة جدًا، والصور خضعت لتعديلات أردوا هول. جاين كانت ترتدي تنورةً طويلة وكماها كانا طويلين، لكن كان بإمكانك أن تستشف من المواضع التي خضعت للتلوين أن تنورتها كانت فيما مضى أعلى الركبة وكماها وصلا حدّ مرفقيها. أنّ شعرها فيما مضى كان مكشوفًا.

أكثر ما أذهلني بخصوص تلك الكتب أن ديك وجاين والطفلة سالي عاشوا في بيت لا يسوّره شيء سوى سياج أبيض خشبي، سياج مهلهل حدّ يمكن لأي أحد كان أن يتسلقه. ما كان هناك من وجود للملائكة، ولا وجود لأوصياء. ديك وجاين والطفلة سالي راحوا يلعبون في فناء البيت على مرأى الجميع. ولخطف الإرهابيون في أية لحظة الطفلة سالي وهربوها إلى كندا، مثلما حدث مع الرضيعة نيكول والكثير من الأطفال الأبرياء المسروقين. ولأثارت ركبتا جاين العاريتان الشهوات الآثمة في أي رجل عابر، وحتى مع تغطية كل مواضع جسدها عدا وجهها بالألوان، كانت ستظل تثير الشهوات الآثمة في أي رجل عابر. رفقة قالت أنّ تلوين الصور في تلك الكتب ستكون من ضمن المهام التي سأتولى القيام بها، كونها مهمة المبتهلات. هيَ نفسها لونت في الكثير منها.

السماح لي بالبقاء ليست بالنتيجة المضمونة، أخبرتني رفقة: فليست كل فتاة مهيئة لحياة الخالات. قبل وصولي إلى أردوا هول كانت قد تعرفت إلى فتاتين تم قبولهما، لكن إحداهما غيرت رأيها بعد ثلاثة أشهر واستعادتها عائلتها، والزواج

الذي كان مقررًا لها تم في نهاية المطاف.

"وما الذي حدث للفتاة الأخرى؟"

"شيءٌ سيئ،" قالت رفقة. "كان اسمها الخالة ليلي. في البداية لم يبد أنها تعاني من أي خطب. الكل قال إنها تنسجم على نحو جيد، لكنها لاحقًا تلقت عقوبة الإصلاح جزاء ردها بفظاظة. حتى أني لا أظن الإصلاح كان قاسيًا إلى هذا الحد، ففتياتٌ تعرضن لما هو أقسى مما تلقته بكثير: فالخالة فيدالا قد تتصرف بلؤم في تلك العقوبات. كانت ستقول، "هل يروق لك هذا؟" فيما تعاقبنا، وألسنتنا المعقودة كانت ستعجز عن الإجابة."

"لكن الخالة ليلي؟"

"لم تعد الشخص نفسه. أرادت الرحيل عن أردوا هول – قالت إنها ليست مهيئة لهذه الحياة – والخالات أخبرنها أنّ في هذه الحالة زواجها المقرر سيتم؛ لكنها أيضًا ما أرادت الزواج."

"ما الذي أرادته إذن؟" سألتها. إذ فجأةً اعتراني فضولٌ شديد لمعرفة ما جرى للخالة ليلي.

"أرادت أن تستقل بحياتها وتعمل في مزرعة. الخالة إليزابيث والخالة فيدالا قالتا إنّ هذه هي عاقبة القراءة في مرحلة مبكرة من التدريب: التقطت تلك الأفكار الهدامة من مكتبة هلدغارد العامة، قبل أن يتحصن عقلها بما يكفي حتى يصد هذه الأفكار عنها. قالتا أنّ الكثير من تلك الكتب المشبوهة يجب مراجعتها والتخلص منها. ثم قررتا أنّ إصلاحًا أشدّ صرامة وقسوة هو المطلوب في مساعدتها على تقويم أفكارها."

"وما الإصلاح الذي طبق عليها؟" ورحت أتساءل في نفسي إن كان عقلي محصّنًا كفاية، إن كنت أنا الأخرى سأنال عقوبة الإصلاح أكثر من مرة.

"قضاء شهر في القبو، وحدها، لا تتناول شيئًا سوى الخبز والماء. وبعد قضائها العقوبة وخروجها لم يسمح لها بتبادل الحديث مع أي أحد، إلا ردًّا بـ نعم أو لا. الخالة فيدالا رأت أنّها موهنة العقل ولن تصلح أبدًا كي تكون خالة، وأنها في نهاية

المطاف سيتوجب عليها الزواج."

"اليوم السابق ليوم مغادرتها أردوا هول لم تشاركنا مائدة الفطور. كذلك لم تشاركنا الغداء. لا أحد عرف أين اختفت. الخالة إليزابيث والخالة فيدالا قالتا إنها بالتأكيد قد فرّت، واعتبر فرارها خرقًا أمنيًا استلزم بحثًا واسعًا. لكنهم لم يعثروا عليها. لاحقًا بدأت مياه الدش تفوح منها رائحة غريبة. فأجروا بحثًا آخر، هذه المرة على السطح وفتحوا صهريج مياه المطر حيث الماء المخصص للاستحمام، ووجدوها هناك."

"مريع! وهل – هل أحدهم قتلها؟"

"في البدء كان هذا رأي الخالات. الخالة هيلينا أصيبت بالهستيريا، حتى أنهن منحن الإذن لجهاز العيون المراقبة بالدخول إلى أردوا هول وجمع الأدلة، لكن لم يكن هناك من أدلة. أنا وأخريات من المبتهلات صعدنا إلى السطح وتفحصنا الصهريج. ما كانت لتقع فيه خطأً بهذه البساطة: فهناك سلم، ومن بعده بابٌ صغير."

"هل رأيتها؟"

"كان تابوتًا مغلقًا،" أجابت رفقة. "لكن لا بد أنها فعلتها عمدًا. فجيباها كانا مليئين بالحجارة – تلك كانت الإشاعة التي سرت بيننا. لم تترك رسالة وراءها، وإن تركت فبالتأكيد مزقتها الخالة فيدالا. في الجنازة أعلنوا أنّ سبب وفاتها تمدد في الأوعية الدموية في دماغها. ما كنّ ليرغبن بأن يعلن على العامة أنّ مبتهلةً فشلت هذا الفشل الذريع في تدريبها. كلنا صلينا لأجل روحها؛ أنا موقنة أنّ الرب سيغفر لها."

"لكن لماذا فعلت ذلك؟" سألتها. "هل حقًا أرادت أن تموت؟"

"لا أحد يريد أن يموت،" قالت رفقة. "هناك وحسب أناسٌ لا يريدون أن يعيشوا أي حياة من الحيوات المسموحة لهم."

"لكن أن تغرقي نفسك!"

"يفترض أن تكون ميتةً هادئة،" قالت رفقة. "تسمعين فيها قرع الأجراس

وترتيل الأناشيد. مثل الملائكة. هذا ما قالته لنا الخالة هيلينا، كي ترفع من معنوياتنا."

بعد أن أتقنت قراءة كتب ديك وجاين، أعطوني كتاب الحكايات العشر للفتيات اليافعات، كتابٌ شعري نظمته الخالة فيدالا. أذكر منه هذه القصيدة:

انظرن إلى تِرْصَة! ها هي جالسة هناك،
مع خصل شعرها فالتة في الهواء؛
أنظرن إليها تتمختر على رصيف الشارع،
تخطف نظرةً من الوصيِّ الغافل
وتغويه بها إلى فعل آثم.
ترصة أبدًا لا تتوب عن أفعالها،
ترصة أبدًا لا تسجد لربها!
عاجلًا ستسقط في نار خطيئتها
ويتدلى جسدها من على الحائط.

حكايات الخالة فيدالا العشر انصبت كلها حول التصرفات التي لا يفترض بالفتيات القيام بها والعواقب الوخيمة المرعبة التي ستجرها عليهن تلك التصرفات. أدرك الآن أنّ تلك الحكايات ما ارتقت حتى إلى الشعر المقبول، وحتى آنذاك لم يرق لي الاستماع إلى قصص الفتيات المسكينات من يرتكبن الأخطاء ثم يعاقبن عليها بشدة أو حتى يقتلن: لكن، ومع ذلك، ما فتّ ذرةً من حماستي على استطاعتي أصلًا قراءة أي شيء.

في يوم رحت أقرأ حكاية ترصة بصوت عال على رفقة حتى تصحح لي أخطائي حين قاطعتني فجأة، "لن يحدث لي أبدًا."

"ما الذي تعنينه؟"

"لن أغوي وصيًّا هكذا. وأبدًا لن أسترق نظرةً منهم. فأنا حتى لا أريد رؤيتهم،"

قالت رفقة. "لا هم، ولا أي رجل. فكلهم مريعون. ومن ضمنهم رب جلعاد الذي على صورتهم."

"رفقة! ما بالك تقولين شيئًا كهذا؟ وما الذي تعنينه، رب جلعاد الذي على صورتهم؟"

"هم يريدون الرب أن يكون على صورة واحدة،" قالت لي. "ويحرفون الأشياء الأخرى. مذكورٌ في الإنجيل أن الرب خلقنا على صورته، ذكورًا وإناثًا على حدٍّ سواء. سترين ما أعني، متى ما سمحن لك الخالات بقراءته."

"إياك أن تقولي أشياء كهذه رفقة، فالخالة فيدالا - ستتهمك بالكفر."

"أدري، لكن لي أن أقولها لك، آغنس. فأنا ائتمنتك على حياتي."

"لا تفعلي، فأنا لست بشخص صالح، أنا لست أنتِ."

في شهري الثاني في أردوا هول، تلقيت زيارة من شونميّة. التقيت بها في مقهى شلافلي. كانت ترتدي رداء الزوجة الأزرق الرسمي.

"آغنس!" هتفت مبتهجة، ترفع لي كلتا يديها. "كم أنا سعيدة جدًا برؤيتك! هل أنت على ما يرام؟"

"بالطبع أنا على ما يرام،" قلت لها. "أنا الخالة فيكتوريا الآن. هل ترغبين بكأس من الشاي بالنعنع؟"

"ظننت وحسب ... بولا لمحت أنك ...أنّ خطبًا ما - "

"أني فقدت عقلي،" أجبتها مبتسمة. لاحظت كيف أنّ شونميّة أشارت إلى بولا وكأنها صديقة. فشونميّة تتجاوزها في الرتبة الآن، وحتمًا ضايق بولا إلى حدٍّ كبير ترقية فتاة مثلها إلى منزلة أعلى منها. "أعرف أنها تظن ذلك. بالمناسبة، عليّ أن أهنَئك على زواجك."

"إذن أنت لست غاضبة مني؟" سألتني، تسترجع نبرتنا حين كنا بعد فتيات في المدرسة.

"ولم عساي أكون غاضبة منك كما تقولين؟"

"على سرقتي زوجك؟" هل هذا ما تظنه؟ أنها ربحت في منافسة ما؟ كيف لي أن أنكر هذا دون إهانة الرئيس جود؟

"تلقيت نداءً ربانيًا كيما أكرس نفسي لخدمة أسمى،" أجبتها بقدر ما استطعت من التكلف.

قالت في قهقهة، "صدقًا تلقيت نداءً لخدمة أسمى؟ حسنٌ، أنا تلقيت نداءً لخدمة أدنى. والآن بات لدي أربع مرثيّات! كم أتمنى لو بيدك رؤية بيتي!"

"واثقة أنه بيتٌ جميل."

"لكن هل أنت حقًّا على ما يرام؟" قلقها عليّ نيابةً عني تلمست فيه شيئًا من الصدق. "ألا يرهقك وجودك في هذا المكان؟ إذ يبدو كئيبًا جدًا."

"أنا على ما يرام،" طمأنتها. "وأتمنى لك كل السعادة."

"رفقة هي الأخرى في هذا المعتقل، أليس كذلك؟"

"ليس بمعتقل،" قلت لها. "وأجل، هي موجودة. أنا وإياها نتشارك وحدة سكنية."

"ألا تخشين أن تهاجمك بمقراض؟ ألا تزال مجنونة؟"

"ما كانت أبدًا مجنونة، كانت تعيسة وحسب." قلت لها. "سعيدة بالتقائي بك شونميّة، لكن لزامٌ عليّ العودة إلى أداء واجباتي."

"ما عدت تحبينني،" قالت في نبرة شبه جدية.

"أنا أتدرب حتى أصبح خالة،" قلت لها. "والخالة لا يفترض بها أن تحب أحدًا."

مهارة القراءة تحسنت لدي ببطء، وليس دون عثرات عديدة. رفقة ساعدتني كثيرًا. استعنا بآيات من الإنجيل كتمارين للقراءة، من كتاب الآيات المختارة المسموح للمبتهلات بقراءتها. بعينيّ بت قادرة على قراءة سور الكتاب المقدس التي قبلًا كنت أسمعها وحسب. رفقة ساعدتني في العثور على المقطع الذي تفكرت به طويلًا لدى وفاة طابيثة:

تعيد الإنسان إلى الغبار، وتقول: "عودوا يا بني آدم". فإن ألف سنة في عينيك كيوم أمس العابر، وكهجعة من الليل. تغمرهم بالرقاد، فيصيروا كالعشب النابت في الصباح. في الصباح يزهر وينبت، وفي المساء يذبل وييبس.

بجهد جهيد تهجيت الكلمات. بدت مختلفة في وجودها على الصفحة: ما عادت مندفقة ورنّانة، مثلما تلوتها في رأسي عشرات المرات، بل رتيبة، جافة.

رفقة قالت أنّ التهجئة ليست قراءة: القراءة هي حين تسمع الكلمات وكأنما تصغي إلى أنشودة.

"إذن لا أظنني سأقرأ يومًا."

"بل ستقرأين،" قالت رفقة. "فلنحاول التمرن على قراءة أناشيد حقيقية."

ومضت إلى المكتبة – إذ ما كان مسموحًا لي بعد بدخولها – وأحضرت كتابًا من كتب ترانيم أردوا هول. وفيها وجدت أنشودة الأطفال المرعبة التي اعتادت طابيثة أن تهدهدني عليها ليلًا في صوتها ذي رنة الجرس الفضيّ:

فيما أستلقي على فراشي كي أنام
أصلي للرب أن يحفظ لي نفسي؛

غنيتها لرفقة، ومع التدريب وجدتني قادرة على قراءتها لها. "يا لها من أنشودة

مفعمة بالأمل،" قالت لي. "يطمئن قلبي فكرة وجود ملاكين واقفين عند رأسي في انتظار اللحظة التي يرفعان بها روحي." ثم أردفت، "لم أحظَ أبدًا بأحد يغني لي قبل النوم. أنت محظوظة جدًا."

موازاةً مع القراءة، وجب عليّ تعلم الكتابة. وهو ما وجدته أصعب من القراءة في أوجه، وأسهل منها في أوجه أخرى. استخدمنا المحبرة مع أقلام الحبر المستقيمة ذات الريشة المعدنية، وأحيانًا استخدمنا أقلام رصاص. اعتمد الأمر على نصيب أردوا هول من مخزون البضائع المستوردة.

مواد الكتابة كانت امتيازًا مقصورًا على الرؤساء والخالات. عدا ذلك فهي لا تتوفر عادةً في جلعاد؛ فالنساء لن ينتفعن بها، وكذلك معظم الرجال، عدا في كتابة التقارير وقوائم الجرد. إذ عمّ سيكتب معظم الناس؟

كنا قد تعلمنا مهارة التطريز والرسم في مدرسة فيدالا، ورفقة قالت أنّ الكتابة أشبه بهما – كل حرف هو رسمة أو صفٌّ من الغرز، مثل النوتة الموسيقية؛ كل ما عليّ تعلمه هو تشكيل تلك الأحرف، من ثم وصلها ببعضها البعض، مثل الحبات في عقد اللؤلؤ.

خط يد رفقة كان جميلًا. أرتني كيف أكتب، ودومًا كانت مواظبة وصبورة معي؛ وما إن تمكنت من الكتابة، وإن على نحو أخرق، اختارت لي مجموعة من الحكم الإنجيلية كي أنسخها.

فالآن تبقى هذه الأمور الثلاثة: الإيمان والرجاء والمحبة، ولكنّ أعظمها المحبة.[30]

فإنّ الحبّ قويٌّ كالموت.[31]

لا تلعن الملك ولو في فكرك، ولا تلعن الغني ولو في غرفة نومك، فإن طائر

---

30 رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل قورنتس (13:13)

31 نشيد الأناشيد (8:6)

السماء ينقل الصوت، وذا الجناح يخبر بالكلام.[32]

كتبتها كلها المرة تلو الأخرى. وبمقارنة النسخ المكتوبة سيتسنى لي، كما قالت رفقة، أن أرى بنفسي مدى تطوري في مهارة الكتابة.

وجدتني أتساءل عن معنى الكلمات التي رحت أكتبها وأعيد كتابتها. هل المحبة أعظم فعلًا من الإيمان؟ وهل أملك أيهما؟ هل الحب قويٌّ كالموت؟ وصوت مَنْ كان، ذاك الذي سينقله طائر السماء بعيدًا؟

قدرتي على القراءة والكتابة لم تمنحني الإجابة على أسئلتي. بل فتحت الباب على أسئلة أخرى، وأسئلة أخرى وأخرى.

إلى جانب تعلم القراءة، تمكنت بنجاح من أداء كل واجباتي الأخرى التي أنيطت بي في تلك الأشهر الأولى. بعض تلك المهام ما كانت بالمرهقة: فقد استمتعت بتلوين التنانير والأكمام الطويلة وأغطية الرأس على أجساد الفتيات الصغيرات في كتب ديك وجاين، ولم أمانع العمل في المطبخ، أفرم اللفت والبصل للطاهيات وأغسل الصحون، فكل من تسكن أردوا هول عليها أن تساهم في تحقيق المصلحة العامة حيث لا عمل يدوي عملٌ وضيع. ولا خالة تترفع عن أداء تلك المهام، وإن في الواقع المبتهلات هن من يحملن معظم أعباء هذه المهام. لكن لم لا؟ فنحن الأصغر عمرًا.

فرك المراحيض لم تكن بالمهمة الممتعة، لا سيما اضطرارك لفركها مرةً ثانية، وثالثة حتى، مع أنك نظفتها على نحو مثالي من المرة الأولى. كانت رفقة قد حذرتني أنّ الخالات سيطالبن بهذا التكرار – فنظافة المراحيض ليست هي الهدف من المهمة، بل امتحان طاعتي.

"لكن إجباري على تنظيف المرحاض ثلاث مرات – طلبٌ غير منطقي." قلت

32 سفر الجامعة (10:20)

لها. "هدرٌ لموارد الدولة الحيوية."

"منظف المراحيض ليس ضمن موارد الدولة الحيوية،" قالت رفقة. "على خلاف النساء الحوامل. لكن غير منطقي – معك حق، ولهذا هو امتحان. هن يرغبن في معرفة مدى استعدادك لإطاعة الأوامر مهما بدت لك غير منطقية ودون إبداء أي تذمر."

وكي يصعبن الامتحان على المبتهلة، تتعمد الخالات الكبار اختيار خالة تخرجت للتو كي تشرف على التنظيف. فأن تطيع أوامر غبية صادرة عن شخص تقريبًا في مثل عمرك لأشد إغاظةً لك مما لو صدرت عن شخص كبير في العمر.

"كم أكرهها!" قلت لرفقة بعد أسبوعي الرابع في تنظيف المراحيض. "صدقًا أكره الخالة آي! فهي لئيمة ومغرورة، و..."

"هذا امتحان،" ذكرتني رفقة. "مثلما امتحن الرب أيوب."

"الخالة آي ليست الرب. وإن كانت تظن نفسها ربًّا."

"علينا ألا نكون حقودات،" قالت رفقة. "صلّي للرب أن يزيح الكراهية عن قلبك. تخيليها تندفق خارجك عبر منخريك، مثل الزفير."

رفقة كانت تملك في جعبتها الكثير من تقنيات السيطرة على النفس. بنصيحة منها حاولتُ ممارسة بعضها. وأحيانًا كانت تنجح.

ما إن اجتزت الامتحان النهائي بعد الستة أشهر، وتم قبولي مبتهلةً دائمة، منحت تصريح الدخول لمكتبة هلدغارد العامة. يصعب عليّ أن أصف لك الشعور الذي غمرني تلك اللحظة، لحظة تجاوزي أبواب المكتبة للمرة الأولى. شعرت وكأني ملكت في يدي مفتاحًا ذهبيًا – مفتاحًا يفتح قفل كل الأبواب السرية، بابًا بعد باب، كاشفةً لي كل النفائس الخبيئة فيها.

في البدء اقتصر التصريح على القاعة الخارجية. لكن بعد مدة منحت ترخيص دخول قاعة القراءة. وبات لي فيها مكتبي الخاص. إذ كانت إحدى مهامي الرئيسة إعداد نسخ واضحة خالية من الأخطاء للخطب – أو على الأصح المواعظ – التي

ألقتها الخالة ليديا في المناسبات، إذ كانت ستعيد استخدامها مع تحوير بسيط. كذلك طلب منا ضمّ ملاحظاتها المكتوبة بخط اليد في نسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة. كنت وقتها قد تعلمت الطباعة، وإن كنت ما أزال بطيئة.

وحدث مرات عديدة، بينما أنا جالسة إلى مكتبي، أن رأيت الخالة ليديا تقطع قاعة القراءة في طريقها إلى قاعتها الخاصة، حيث قيل إنها تعد بحثًا بالغ الأهمية من شأنه أن يجعل من جلعاد مكانًا أفضل: فتلك هي المهمة التي كرست لها الخالة ليديا كل حياتها، كذا قلن كبار الخالات. حيث يوجد الأرشيف النفيس للأصول والأنساب والذي يحظى بأقصى الرعاية وأدق الاهتمام على يد كبار الخالات. حيث الأناجيل، الدراسات اللاهوتية، الأعمال الأدبية الخطيرة - كلها محفوظة خلف أبواب موصدة. قيل لنا أنّ يومًا ما سنمنح تصريح الدخول إليها، وقت تصبح فيه عقولنا محصنةً منيعة.

على مرِّ الشهور والأعوام، قويت عرى صداقتنا، وكلٌّ أفضت للأخرى بتفاصيل كثيرة عن نفسها وعائلتها والتي أبدًا ما شاركتها مع أي أحد آخر. اعترفت لها بكرهي زوجة أبي، بولا، رغم أني حاولت لأعوام دحر هذا الشعور عن صدري. وصفت لها الميتة المريعة التي منيت بها جاريتنا، كريستال، وكيف ترك موتها أثرًا بالغًا في نفسي. هي بدورها أخبرتني بما ارتكبه الدكتور غروف بها، وأنا أخبرتها قصتي معه، ما زادها حزنًا لأجلي. تحدثنا عن أمينا الحقيقيتين وعن رغبتنا في معرفة هويتهما. لربما ما كان يجدر بنا الإفصاح عن سرائرنا لبعضنا، غير أنّ المشاركة بعثت في روحينا السلوان.

"كم أتمنى لو كان لي أخت،" قالت لي يومًا، "ولو كان لي أخت لتمنيتها أن تكون أنتِ."

كنت قد وصفت لك حياتنا بأنها مسالمة، وفي عين الآخر فعلًا كانت مسالمة؛ غير أنّ عواصف اهتاجت في صدري كنت سأعلم لاحقًا أنها ليست بالنادرة لدى من يقررون تكريس حياتهم لهدف أسمى. وأول تلك العواصف الداخلية هبّت فيّ لدى منحي أخيرًا، وبعد أربعة أعوام من قراءة النصوص الأولية، تصريح قراءة الإنجيل كاملًا. فالأناجيل مقفلٌ عليها، في أردوا هول وفي كل بيت من بيوت جلعاد: فقط ذو العقل الحصين وثابت الدين يؤتمن على قراءته، ما عنى استقصاء كل النساء، عدا الخالات.

رفقةُ بدأت قبلي في قراءة الإنجيل – فهي كانت تسبقني، في الأقدمية والإتقان – عدا أنّ من الشروط التي فرضت علينا أنّ من يُقبَل بدخولها هذا العالم الغامض لا يجوز لها الحديث عن تجربة قراءتها المقدسة مع أي شخص آخر، لذا ما حصل وأن تناقشنا يومًا حول ما قرأت.

وأخيرًا حلّ اليوم الذي كنت سأستلم فيه الصندوق الخشبي الموصد حيث الإنجيل المحفوظ لي، في قاعة القراءة، ويتاح لي أخيرًا فتح الكتاب الأشد تحريمًا من بين كل الكتب. وكم كنت متحمسة جدًا لقراءته، لكن في ذاك الصباح رفقة قالت لي، "عليّ أن أحذرك."

"تحذرينني؟ لكنه كتابٌ مقدس."

"لا يقول ما يقوله الآخرون عنه."

"ما الذي تعنينه؟"

"لا أريد لأملك أن يخيب،" تريثت من ثم قالت، "أنا موقنة أنّ الخالة إستى كانت تقصد خيرًا. سفر القضاة، الآيات 19 إلى 21."

هذا كل ما كانت ستخبرني به. لكن ما إن وصلت قاعة القراءة وفتحت الصندوق الخشبي ورفعت الإنجيل، فأول ما قرأت فيه الآيات التي أشارت إليها. كانت قصة السّريّة التي تقطعت اثنتي عشر قطعة، ذات القصة التي روتها علينا

الخالة فيدالا منذ زمن بعيد في المدرسة – القصة التي هزت رفقة وأزعجتها حين كانت بعد طفلة.

تذكرتها جيدًا. وتذكرت كذلك التفسير الذي شاركتنا اياه الخالة إستى. حين قالت أنّ السبب الذي لأجله قتلت السريّة أنها أرادت أن تكفر عن خطيئة عصيانها، أنها آثرت التضحية بنفسها على تعريض مالكها للاغتصاب على يد بني بنيامين الآثمين. الخالة إستى وصفت السّريّة بالشجاعة والنبيلة. أخبرتنا أنّ السّريّة هي من أخذت هذا الخيار.

لكن هأنذا أقرأ القصة بأكملها، أبحث مليًّا عن الشجاعة والنبل، أبحث مليًّا عن الخيار، ولا أجد شيئًا. الرجل من دفع بها جبرًا وتركها خارجًا كي تغتصب حتى الموت، ثم قطّع جسدها مثلما يقطّع بقرة لأنه هكذا رآها في حياتها، بهيمةً يملكها. لا عجب أنها فرت منه في المقام الأول.

وها هي الصدمة الأليمة: الخالة إستى، الخالة الطيبة الحنون إستى، كذبت علينا. والحقيقة ليست نبيلة، بل مريعة. إذن هذا ما عنينه الخالات بحديثهن حول عجز عقل المرأة الواهن عن القراءة. إذ كنا سننهار، نتساقط أشلاءً أمام كل هذه التناقضات، لكُنّا عجزنا عن الوقوف على أرض ثابتة.

حتى تلك اللحظة ما كان يساورني أي شك حقيقي في شرعية دين جلعاد ولا سيما في مصداقيته. إن فشلت في بلوغ صورته المثالية، أيقنت أنّ الذنب ذنبي. لكن ما إن بدأت أكتشف تحوير جلعاد، إضافات جلعاد، حذف جلعاد، خشيت أني حتمًا سأفقد إيماني.

إن لم تكن أصلًا صاحب عقيدة، فلن تفهم ما أعنيه. كنت ستشعر وكأنّ أعز أصدقائك يموت؛ أن كل ذرة تشكلت في هويتك احترقت هباءً؛ أنك تركت وحيدًا في العراء. ستشعر بأنك نبذت، تهت في غابة مظلمة. هو ذات الشعور الذي تملكني لدى وفاة طابيثة: العالم يُفرِغ نفسه من معناه. كل شيء يستحيل فراغًا أجوفًا. كل شيء يذبل وييبس.

ومع رفقة شاركت شيئًا من أحاسيسي هذه.

"أدري، فذات الشيء حدث معي. كل من يتسيّد جلعاد كذب علينا."

"ما الذي تعنينه؟"

"الرب ليس ما وصفوه لنا." أخبرتني بأن لديك خيارين لا ثالث لهما، إما أن تؤمن في الله أو تؤمن في جلعاد. لكن يستحيل عليك أن تؤمن فيهما معًا. وعلى صخرة هذه الحقيقة بنت عقيدتها وتجاوزت عاصفة شكوكها.

أخبرتها بأني لست واثقة بقدرتي على الاختيار بينهما. لكن في سري كنت خائفة من عجزي عن الإيمان بأيٍّ منهما. مع ذلك، أردت أن أؤمن؛ صدقًا تقت إلى الإيمان؛ لكن، في النهاية، كم من عقيدة بنيت على مجرّد التوق؟

بعد ثلاث سنوات، عرفت حقيقةً أكثر ترويعًا. كما سبق أن قلت لك، كان من بين المهام المناطة إليّ في مكتبة هلدغارد العامة إعداد نسخ مطبوعة من خطب الخالة ليديا. كنت سأجد الخطاب الذي يفترض بي العمل عليه متروكًا على مكتبي في ملف فضيّ. لكن في صباح يوم، اكتشفت، مدسوسًا أسفل الملف الفضي، ملفًا آخر أزرق. يا ترى من تركه هناك؟ هل ارتكب أحدهم خطأً ووضعه في غير محله؟

فتحته. وجدت اسم زوجة أبي، بولا، يتصدر أعلى الصفحة الأولى. ما تبعه كان تدوينًا لأحداث موت زوجها الأول، السابق لزواجها من المدعو أبي، الرئيس كايل. كما قيل لي، فزوجها، الرئيس ساندرز، كان قد قُتِل في مكتبه على يد جاريتهما. أو تلك كانت القصة التي شاعت بين الجميع.

يومها بولا شهدت بأنّ الجارية كانت مضطربة العقل إلى حدٍّ خطير، سرقت سيخًا من المطبخ وقتلت به الرئيس ساندرز بغتةً بلا أي سبب. الجارية لاذت بالفرار، لكن سرعان ما ألقي القبض عليها وشنقت، وعلقت جثتها على الحائط. لكن شونميّة قالت إنّ مرثتها أخبرتها بوجود علاقة آثمة وغير قانونية – فالجارية والزوج اعتادا ممارسة الزنا في مكتبه. هذا ما منح الجارية الفرصة المواتية لقتله، والسبب الذي دفعها أصلًا لقتله: الأمور التي أجبرها على فعلها كي تشبع شهواته دفع بها إلى حافة الجنون. أما بقية قصة شونميّة فمماثلة للقصة الرسمية: عثور بولا على الجثة، القبض على الجارية، والشنق. شونميّة كانت قد أضافت تفصيلًا عن غرق بولا بالدماء إثر محاولتها إلباس زوجها بنطاله حفاظًا على المظاهر.

لكن القصة في الملف الأزرق كانت مختلفة تمامًا. التدوين جاء معزّزًا بالصور والسجلات السرية لمحادثات عديدة. ما كان هناك أصلًا من علاقة محرمة بين الرئيس ساندرز وجاريته – سوى الطقس المعتاد وحسب الذي أقره القانون. العلاقة المحرمة كانت بين بولا والرئيس كايل – أبي السابق –حتى قبل وفاة أمي، طابيثة.

بولا كانت قد صادقت الجارية وعرضت عليها المساعدة في تهريبها من جلعاد، إذ رأت كم هي فتاة تعيسة. حتى أنها زودتها بخارطة وإرشادات وأسماء عناصر في شبكة اليوم المايوي لمساعدتها في طريق هروبها. وما إن انطلقت الجارية في الفرار، بولا بيدها طعنت زوجها بالسيخ. لهذا كانت غارقة في الدماء، وليس بسبب إعادة إلباسه البنطال، الذي لم يخلعه عنه أبدًا، على الأقل في تلك الليلة.

رشت مرثتها حتى تدعم قصتها عن جاريتها القاتلة المجنونة، رشوة تحمل في قلبها التهديد. من ثم اتصلت بالملائكة واتهمت الجارية، والبقية أنت تعرفها. الفتاة المسكينة وجدت تهيم يائسة في الشوارع، فالخريطة مزيفة وعناصر اليوم المايوي اتضح أنّ لا وجود لهم.

الجارية خضعت للتحقيق. (محضر التحقيق كان مرفقًا بالملف، كانت قراءة مزعجة.) رغم اعترافها بمحاولة هروبها وكشفها دور بولا فيه، فقد ظلت مصرة على براءتها من جريمة القتل – بل حتى جهلها بوقوع الجريمة من الأساس – إلى أن وصل الألم حدًّا لا يطاق، وهنا اعترفت زورًا على نفسها.

كان من الواضح أنها بريئة. لكنها شنقت على كل حال.

الخالات كنّ على علم بالحقيقة. أو على الأقل إحداهن. فها هو الدليل، في هذا الملف الموضوع أمامي. ومع ذلك لا شيء أصاب بولا. والجارية هي التي شنقت على ذنب لم ترتكبه.

***

جلست مبهورة، وكأنّ صاعقةً ضربتني. إذ لم أذهل وحسب بقراءتي هذه القصة، بل ارتبكت للسبب الذي لأجله تُرِك الملف على مكتبي. ما الذي سيدفع شخصًا مجهولًا إلى منحي معلومات خطيرة كهذه؟

بمجرد ما تكتشف زيف قصة آمنت في حقيقتها، سيساورك الشك في كل القصص. هل هذه محاولة للدفع بي إلى الانقلاب على جلعاد؟ هل الدليل مزور؟ هل تهديد الخالة ليديا بكشف جريمة بولا هو ما دفع بزوجة أبي إلى التخلي عن

محاولاتها تزويجي إلى الرئيس جود؟ هل هذه القصة الفظيعة هي التي أمنت مكاني خالةً في أردوا هول؟ هل كانت هذه طريقةً لإعلامي بأنّ أمي، طابيثة، لم تمت بداع المرض بل قتلًا على يد بولا بسلاح مجهول، بل لربما حتى على يد الرئيس كايل؟ ما عدت أعرف ما الذي يجدر بي تصديقه.

ما كان لديّ من أحد أئتمنه على سري. ولا حتى رفقة: إذ لم أرغب في توريطها والمخاطرة بجعلها شريكة في جرمي. فالحقيقة قد تتسبب بالكثير من المتاعب لمن لا يفترض بهم أن يعرفوها.

أنهيت عملي لليوم، تاركةً الملف الأزرق حيث وجدته. في اليوم التالي وجدت خطابًا جديدًا للطباعة، والملف الأزرق من اليوم السابق اختفى.

على مر العامين اللاحقين، وجدت عددًا من تلك الملفات تنتظرني على مكتبي. كلها تضمنت أدلةً على جرائم عدة. تلك التي تتضمن جرائم الزوجات كانت زرقاء، الرؤساء سوداء، المهنيون – الأطباء مثلًا – رمادية، زوجات الكفاف مقلمة، المرثيات أخضرٌ كامد. ولا ملف منها تضمن جريمةً لجارية، ولا جريمةً لخالة.

معظم الملفات التي تركت على مكتبي كانت إما زرقاء أو سوداء، وتضمن الملف منها عدة جرائم. الجواري أجبرن على ارتكاب أفعال غير قانونية، ثم عوقبن عليها؛ أبناء يعقوب تآمروا على بعضهم البعض؛ رشاو وخدمات تداولتها الأيدي على أعلى المستويات؛ الزوجات كدن بالزوجات؛ المرثيات استرقن السمع وجمعن المعلومات، من ثم بعنها؛ حالات تسمم غذائي لا تفسير لها وقعت، تبادل الرضع بين زوجة وزوجة إثر إشاعة فاضحة، لكن لا أساس لها من الصحة. زوجاتٌ شنقن بتهمة جرِيمة زنا لم تقع أصلًا لكن الزوج أراد زوجةً مختلفة، أصغر عمرًا. المحاكمات العلنية – بهدف تطهير القيادة من الخونة – قامت على اعترافات كاذبة انتزعت تحت التعذيب.

شهادة الزور ما كانت الاستثناء، بل القاعدة. وراء حجاب الفضيلة والتقوى، الفساد العفن كان ينخر في جلعاد.

عدا ملف بولا، فالملف الآخر الذي تعلق بي شخصيًا كان ملف الرئيس جود، وكان ملفًا سميكًا. من بين الآثام المدونة فيه، تضمن الملف أدلةً تخص مصير زوجاته السابقات، من كن زوجاته قبل خطوبتي القصيرة عليه.

كان قد تخلص منهن جميعًا. الأولى دفع بها على السلم، وكسر عنقها. قيل إنها تعثرت ووقعت. ومن قراءتي للملفات الأخرى، بت أعرف كم من السهل تحوير تلك الجرائم إلى حوادث عرضية. اثنتان من زوجاته قيل إنهما توفيتا أثناء الولادة، أو بعدها بقليل؛ كلتاهما ولدت طفلًا فاسدًا، لكن موت الزوجتين تضمن تعمدًا في إصابتهما بعفن الدم أو السكتة. فمع إحداهما رفض الرئيس جود إجراء عملية حين علق طفلٌ فاسد برأسين في قناة الولادة، قائلًا بكل ورع، إنّ لا شيء بيده فعله، طالما ما زال في الجنين قلبٌ ينبض.

الزوجة الرابعة اتخذت من الرسم هوايةً لها بناءً على اقتراح من الرئيس جود، والذي بنفسه اشترى لها الألوان. لاحقًا أظهرت أعراضًا تعزى إلى التسمم بالكادميوم. عنصر الكادميوم، كما أشار الملف، معروف بأنه مادة مسرطنة، وسرعان ما أصيبت الزوجة الرابعة بسرطان المعدة ولقيت حتفها.

حتى تلك اللحظة، لم أكن واعية إلى أني فلتّ بجلدي من حكم محقق بالموت. وأحدهم ساعدني على تفاديه. لذا، وفي تلك الليلة، رفعت صلواتي شكرًا وحمدًا: فرغم الشكوك التي تجوس في صدري، كنت ما زلت مواظبة على صلاتي. شكرًا لك، أعِنّي على الإيمان بك، وأرجوك ساعد شونميّة، فهي حتمًا ستحتاج العون منك.

* * *

في بداية قراءتي تلك الملفات، وجدتها مروعة ومثيرة للغثيان. هل كان أحدهم يحاول إيلامي؟ أو لعلها ليست سوى مرحلة في تعليمي؟ هل يفترض بها أن تقسي قلبي؟ هل كنّ يهيئنني لأجل المهام التي سأتولاها لاحقًا متى ما ارتقيت إلى خالة؟

فهذا ما يفعلنه الخالات، وهذا ما أتعلمه أنا. فالخالات يدونّ. ينتظرن.

يستخدمن معلوماتهن في تحقيق أهداف معلومة لهن وحسب. أسلحتهن قوية لكن، كما قلن المرثيات، مشوبة بالأسرار. الأسرار، الأكاذيب، المكر، الخداع – عدا أنها الأسرار، الأكاذيب، المكر، والخداع الجاري في حياة الآخرين، وأيضًا في حياتهن.

لو أني بقيت في أردوا هول – لو أني أديت مهمتي في إرسالية اللآلئ الكريمة وعدت إليها خالةً مكتملة – كنت سأفعل كل هذا. لباتت كل تلك الأسرار التي عرفتها، والمزيد المزيد منها بلا شك، أسلحةً في جعبتي، أستخدمها كما أشتهي. هذه القوة العظيمة. هذه السلطة القضائية التي بها أصدر أحكامي على الآثمين في صمت، وأنزل عليهم العقاب في طرق ما كانوا أبدًا ليتوقعوها. تصوّر هذا الجبروت من الانتقام بين يديك.

كما قلت لك، هناك جانبٌ منتقمٌ فيّ ندمت عليه في الماضي. ندمت عليه لكن ما تخلصت منه.

سأكون كاذبة إن قلت لك أنّ الانتقام لم يغوِني.

حجرة المكتب

سِفْرُ أَرْدوا هول

52

مساء البارحة، قارئي العزيز، عشتُ إزعاجًا كريهًا. كنت منزوية بعيدًا في المكتبة المهجورة، مستغرقة في نقش ألواحي بقلمي الفاونتن ومحبرتي الزرقاء، مع الباب مفتوحًا كيما أهوّي المكان، حين أقحمت الخالة فيدالا رأسها بغتةً من خلف زاوية مقصورتي الخاصة. لم أجفل – فلي أعصابٌ من البوليمير المعالج، مثلي مثل الجثث المحنطة – لكني سعلت، ردة فعل عصبية، وأزحت كتاب أبولوجيا برو فيتا سوا المغلق على الصفحة التي كنت أكتب عليها.

"آه، الخالة ليديا،" قالت الخالة فيدالا. "أرجو أنك لم تصابي بالبرد. ألا يجدر بك أن تخلدي إلى الراحة في فراشك؟" الراحة الأبدية، قلت في نفسي: هذا ما تتمنينه لي.

"مجرد حساسية،" قلت لها. "فأناسٌ كثر يعانون منها في هذا الوقت من العام." ما كان بيدها الإنكار، كونها هي أعظم من يعاني منها.

"اعذريني على تطفلي،" قالت كاذبة، ترنو بنظرة عجلى على كتاب الكاردينال نيومان. "أرى أنك لا تزالين منكبة على البحث والدراسة، ويا ترى ما الذي تبحثين عنه في هذا الهرطوق الكبير؟"

"إعرف عدوك،" أجبتها. "كيف لي أن أساعدك؟"

"لدي أمرٌ ضروري أريد مناقشته معك. هل لي أن أدعوك على كوب حليب دافئ في مقهى شلافلي؟"

"لطفٌ منك." نهضت وأعدت كتاب الكاردينال نيومان على رف كتبي، مديرةً ظهري لها حتى أدس صفحتي المنقوشة بالحبر الأزرق في طيه.

جلسنا إلى طاولة في المقهى، مقابلي كوب الحليب الدافئ، ومقابلها كأس الشاي بالنعنع. "استشعرت شيئًا غريبًا في حفل عيد شكر اللآلئ الكريمة،" استهلت حديثها معي.

"وما هو ذاك الشيء؟ مما أرى فالحفل سار كما المعتاد."

"تلك الفتاة الجديدة، جايد. لست مقتنعة بها،" قالت الخالة فيدالا. "لا تبدو لي من النوعية التي تنتمي إلينا."

"كلهن يبدون هكذا في البدء،" قلت لها. "فهن يردن الملاذ الآمن، الحماية من الفقر، الاستغلال، النهب، الخلاص من هذه الحياة المدعوة بالحديثة. هن يردن الاستقرار، النظام، يردن منهجًا واضحًا يسرن عليه في حياتهن. سيتطلب الأمر وقتًا كي تستقر هنا."

"الخالة بياتريس أخبرتني عن الوشم السخيف على ذراعها. وأظنها أخبرتك أيضًا. صدقًا! الرب والحب! وكأننا سذج إلى هذه الدرجة حتى ننخدع بتملق بائس مثل هذا! بتلك البدعة الضلالية! صدقيني، تلك الفتاة تنضح خديعةً. وكيف لنا أن نتيقن أنها ليست مندسة من اليوم المايوي؟"

"سبق أن نجحنا في تصيد المندسات،" قلت لها. "أما ما يخص التشويه الجسدي، فشباب كندا وثنيون؛ يَسِمون أجسادهم بمختلف الوشوم الهمجية. برأيي، أظن الوشم يعبر عن نية طيبة؛ على الأقل ليس بوشم يعسوب أو جمجمة أو وشمًا آخر من هذا القبيل، وعلى كلٍّ سنراقبها عن كثب."

"علينا أن نزيل ذاك الوشم، فهو شركٌ عظيم. فاسم الرب مقدس ولا يجوز تدنيسه بنقشه على ذراع نجسة."

"الإزالة ستكون مؤلمة جدًا لها في هذه المرحلة. فلنرجئها إلى وقت لاحق. لا نريد تثبيط المبتهلات الجديدات."

"إن كانت صدقًا مبتهلة، وهو ما أشك كثيرًا فيه. فهو ديدن اليوم المايوي محاولة خدعنا بحيل رخيصة كهذه. أرى أنّ علينا إخضاعها للتحقيق." ما تعنيه، تحقيقٌ تشرف عليه بنفسها. فهي تستمتع بإجراء تلك التحقيقات زيادةً عن اللزوم.

"في العجلة الندامة،" قلت لها. "أنا عن نفسي أوثر التأني وسلك الطرق الغامضة."

"لكنك لم توثريها في الأيام السالفة،" قالت فيدالا. "كنتِ الوعيد النذير، حتى أنك لم تمانعي إرهاق الدم في طريقك." انقطع حديثها مع عطسها. يجدر بنا أن نفعل شيئًا بخصوص العفن الفطري في المقهى، قلت في نفسي. لكن، ربما خيرٌ لنا أن نبقيه.

لأن الوقت كان متأخرًا، هاتفت الرئيس جود على خط المكتب في منزله وطلبت اجتماعًا طارئًا، والذي فورًا وافق عليه. أمرت سائقي بأن ينتظرني خارجًا.

الباب فتحته لي زوجة جود، شونميّة. لم تبد لي مطلقًا على ما يرام: هزيلة، شاحبة، غائرة العينين. مقارنةً بمن سبقنها، فقد طال مقامها زوجةً له؛ لكنها على الأقل أنجبت طفلًا، طفلًا فاسدًا. لكن الآن، يبدو أن وقتها زوجةً للرئيس جود قد شارف على النفاد. تساءلت عمّا يضعه جود في حسائها. "أوه، الخالة ليديا،" رحبت بي. "تفضلي أرجوك، الرئيس في انتظارك."

لماذا فتحت لي الباب بنفسها؟ ففتح الباب مهمة المرثا. لا بد أنها أرادت شيئًا مني. فأخفضت صوتي. "عزيزتي شونميّة،" قلت لها مبتسمة، "هل أنت مريضة؟" إذ كانت فيما مضى فتاةً مفعمة بالحيوية، حتى مع كونها طائشة ومثيرة للحنق، عدا أنها الآن استحالت طيفًا سقيمًا.

"لا يفترض بي أن أقول شيئًا، فالرئيس جود ما ينفك يقول إنها تهيؤات، أني أبتدع تلك الشكاوى. لكني أعرف أنّ خطبًا يلمّ بي."

"بيدي أن أدع العيادة في أردوا هول يجرين عليك بعض الفحوصات."

"لكن عليّ أن أنال إذنه، وموقنة أنه لن يمنحني إياه."

"سأنال إذنه لك، لا تخافي." رأيت الدموع، وسمعت الشكر. في عصر آخر، لخرّت راكعة على ركبتيها وقبّلت يديّ.

جود كان جالسًا في مكتبه في انتظاري. سبق أن زرت مكتبه هذا، أحيانًا مع وجوده، وأحيانًا بغيابه. مساحةٌ ثرية بالمعلومات. توجب عليه ألا يحضر عمله في جهاز العيون المراقبة إلى بيته وتركه هكذا في منتهى الإهمال.

على الحائط الأيمن – الخفي عن مدى نظر الواقف عند الباب، كي لا تخدش حياء شريكات السكن الإناث – لوحةٌ من القرن التاسع عشر مرسومٌ فيها فتاة بالكاد بلغت، وعارية. لا شيء عليها سوى جناحي يعسوب يضفي عليها صورة الجنية. فالجنيات كن معروفات في ذاك الوقت بنفورهن الشديد للاحتشام. ترفرف بجناحيها حول الفطر، وعلى ملامحها ابتسامةٌ داعرة، خبيثة. هذا ما يعشقه جود – الفتيات القاصرات اللواتي يتسنى له إسقاط صورة خرافية عليهن، مخلوقات شقية يداعبنه، ولا ينتمين للبشر. ما يبرر له أسلوب تصرفه معهن.

المكتب كان محاطًا بأرفف من الكتب، مثله مثل كل مكاتب الرؤساء. فمن بين هواياتهم تكديس الكتب، تأمل غنائمهم منها، والتبجح على بعضهم بسلبها. لدى جود مجموعة فاخرة من كتب السير الذاتية والتاريخ – نابليون، ستالين، تشاويتشسكو، وغيرهم من القادة المتحكمين في أعناق الرجال. كذلك يملك في حوزته طبعات نادرة حسدته عليها: الكوميديا الإلهية برسومات دوريه، أليس في بلاد العجائب برسومات دالي، ليسيتراتا برسومات بيكاسو. كذلك ضمن مقتنياته كتابٌ، ينتمي إلى أدب أقل رقيًا: الإباحية، وأعرف ذلك لأني تصفحته. فئة أدبية سرعان ما تضجرك، كون صور انتهاك الجسد البشري محدودة وتفتقر إلى الخيال.

"أوه، الخالة ليديا،" رحب بي نصف ناهض عن كرسيه في صدىً للتصرف الرجولي النبيل الذي ساد فيما مضى. "أرجوك اجلسي وأخبريني ما الذي أحضرك إليّ في هذه الساعة المتأخرة." ابتسامته المشرقة لا تنعكس على عينيه، واللتان كانتا ثاقبتين حذرتين.

"أمامنا عقبة،" قلت له، فيما أجلس على الكرسي مقابله.

ابتسامته تلاشت. "أرجو أنها ليست بالعقبة الكبيرة."

"لا شيء لا يمكننا تجاوزه. فالخالة فيدالا تشك في أنّ الفتاة جايد عميلة مندسة، أرسلوها إلينا كي تنقب معلومات عنا وتسيء إلى سمعتنا. هي ترغب في إخضاع الفتاة إلى التحقيق. تصرفٌ كهذا سيقضي على أي فرصة مستقبلية في الاستفادة من الرضيعة نيكول."

"معك حق. لن يسعنا بعدها عرضها على التلفاز. ما الذي بيدي فعله كي أساعدك؟"

"تساعدنا،" قلت له. إذ من الجيد تذكيره بأنّ مركب القرصنة هذا يحملنا كلينا. "أمرٌ من جهاز العيون المراقبة يحمي الفتاة من أي تدخل إلى أن نتأكد أنها صالحة للعرض بصفتها الرضيعة نيكول. الخالة فيدالا تجهل هوية جايد،" تريثتُ للحظة ثم أردفت، "وعليها أن تبقى جاهلة. إذ ما عادت شخصًا يوثق به."

"هلا فسرت لي هذا؟"

"ليس الآن، عليك أن تثق بي،" قلت له. "وهناك أمرٌ آخر. زوجتك، شونميّة، يجدر بنا إرسالها إلى عيادة **البلسان والسكينة** في أردوا هول حتى تتلقى الرعاية الطبية."

الصمت ساد بيننا، كل واحد منا يحدق في عينيّ الآخر. "الخالة ليديا، قد قرأت أفكاري،" قال لي أخيرًا. "بالفعل، من الأفضل تركها في رعايتك على أن تبقى في رعايتي. في حال حدث أي شيء ... في حال أصيبت بمرض عضال."

أذكرك هنا، قارئي العزيز، بأن لا طلاق لدينا في جلعاد.

"قرارٌ حكيم. يجب أن تبقى فوق الشبهات."

"أعتمد على تكتمك. فأنا بين يديك، عزيزتي الخالة ليديا." قال لي، ناهضًا عن كرسي مكتبه، مثلما يتصرف الرجل النبيل. وأنت على حق، قلت في نفسي. وما أسهل على اليد أن تصبح قبضة.

قارئي العزيز، أقف الآن متأرجحة على شفير سكين. هناك خياران أمامي:

أواصل خطتي الخطيرة، المتهورة حتى، وأحاول نقل رزمتي المتفجرة عبر الفتاة نيكول، فإن نَجَحتْ، أكون أنا من دفع بجود وجلعاد من على حافة الهاوية. وإن فَشِلتْ، فأنا من سيوسم بالخيانة وأعيش في خزي عظيم؛ أو بالأحرى أموت فيه.

أو لعلّي أختار الطريق الآمنة. أسلم الرضيعة نيكول إلى الرئيس جود حيث سيسطع نجمها لدقيقة قبل أن ينطفئ وهجها مثل شمعة في مهب الريح بسبب عصيانها، إذ أرى أنّ فرص تقبلها بخنوع موقعها في أردوا هول معدومة تمامًا. بعدها بطبيعة الحال سأقطف ثمار جهدي في جلعاد، وأتوقعه سيكون ثمرًا عظيمًا. الخالة فيدالا سيقضى عليها؛ ولربما حتى سأودعها في مصح عقلي. سأسيطر على أردوا هول بقبضة حديدية وسأؤمن على نفسي في سنوات شيخوختي مكللةً بالشرف والتبجيل.

سيتوجب عليّ التخلي عن فكرة إنزال عقابي الانتقامي على جود، لأنّ حينها سنصبح للأبد توأمين متصلين بالذنب. زوجة جود، شونميّة، لن تعدو كونها خسارةً عرضية. أنا من قرر إقامة جايد في ذات الوحدة السكنية مع الخالتين إمّورتيل وفيكتوريا، وما إن يقضى عليها، فمصير كلتيهما سيعلق على كف عفريت: ففي جلعاد، مثلما هي الحال في كل مكان آخر، الذنب يلصق بك بمجرد المخالطة.

هل أنا قادرة على رياء خسيس كهذا؟ هل بيدي ارتكاب الخيانة الكاملة؟ هل بعد كل الأنفاق التي حفرتها في أسس جلعاد، حاملةً معي أصابع المتفجرات، أدع التردد يجمدني الآن؟ كوني في النهاية لست سوى بشرًا، فالاحتمال وارد.

في هذه الحال، سأدمر هذه الصفحات التي كتبتها بجهد جهيد؛ ومعها سأدمرك أنت، قارئي المستقبليّ. عود ثقاب واحد وتختفي – تُمحَى وكأنك يومًا لم تكن، كأنك يومًا لن تكون. سأنفيك عن الوجود. يا له من شعور إلهي! وإن كنت أعني هنا إله الهلاك.

أتردّد، أتردّد.

لكنّ غدًا مختلفًا لناظره قريب.

الأصول والأنساب

محضر أقوال الشاهدة "369B"

53

نجحت في الدخول إلى جلعاد. ظننتني أعرف الكثير عنها، لكن المعرفة شيء، والمعايشة شيءٌ آخر، ومع جلعاد كان شيئًا آخر على نحو مخيف. جلعاد كانت زلقة، كأنك تخطو على صفحة رقيقة من جليد: كنت مختلة التوازن، طوال الوقت. عجزت عن قراءة وجوه الناس، وغالبًا عجزت عن فهم ما يقولونه. أجل، كنت أسمع الكلمات، أفهم الكلمات، غير أني عجزت عن ترجمتها إلى معنى.

في ذاك الاجتماع الأول في المعبد، بعد أن انتهينا من الركوع والترنيم، حينما أجلستني الخالة بياتريس على أحد المقاعد الطويلة، التفتّ خلفي ورأيت قاعةً تعج بالنساء. كلهن كنّ يحدقن بي، في ابتسامة شبه ودودة وشبه جائعة، مثل تلك المشاهد في أفلام الرعب حين تدرك متأخرًا أنّ القرويين هم في الحقيقة مصاصو دماء.

عقب الاجتماع دخلنا في صلاة الليل لأجل اللآلئ المهتديات: كان يفترض بنا أن نتأمل في صمت فيما نحن راكعات. لا أحد أخبرني بشيء عن هذا: ما هي قواعد الصلاة؟ هل يفترض بي أن أرفع يدي إن أردت الذهاب إلى الحمام؟ في حال كنت تتساءل، فالإجابة هي نعم. بعد قضائنا ساعات على هذا المنوال – ساقاي مشدودتان من الألم – إحدى اللآلئ المهتديات، أظنها من المكسيك، انفجرت في بكاء هستيري. خالتان رفعتاها عن الأرض وسحبتاها خارجًا. لاحقًا علمت بأنهم حولوها إلى جارية، لذا خيرًا فعلت بإبقاء فمي مطبقًا.

في اليوم التالي سلمونا تلك الثياب البنية القبيحة، ثم ساقونا فجأةً كالقطيع إلى استاد رياضيّ حيث أجلسونا في صفوف. لا أحد ذكر لي شيئًا عن الرياضة في

جلعاد – حسب علمي فلا رياضة فيها – لكن ما شهدناه لم يكن بحدث رياضي، بل طقس الاستعدام. كانوا قد درسونا اياه في المدرسة، لكن لم يدخلوا في التفاصيل لأنهم، كما أظن، لم يرغبوا في صدمنا. أتفهم الآن صحة قرارهم.

كان إعدامًا مزدوجًا: رجلان تمزقا حرفيًّا على يد غوغاء من الجواري المسعورات. صراخ، رفس، عض، والكثير من الدماء، لا سيما على الجاريات: غرقن فيه. بعضهن رفعن أشلاءً في قبضاتهن – كتلة شعر، شيءٌ أشبه بإصبع – على وقع تهليل الأخريات.

كان مشهدًا دمويًا، مرعبًا. أرغمني على إضافة بعد جديد في تصوري للجارية. وخطر لي، فيما كنت أشاهدهن، أنّ أمي لربما كانت مثلهن، وحشًا مسعورًا.

محضر أقوال الشاهدة "369A"

54

أنا ورفقة بذلنا كل جهد في تعليم اللؤلؤة الجديدة، جايد، كما أمرتنا الخالة ليديا، لكن كل محاولاتنا كانت أشبه بالحديث مع الهواء. لم تعرف كيف تجلس في أناة، مع ظهر مستقيم ويدين مضمومتين على حجرها؛ ما انفكت تتلوى، ترتبك، تتململ بقدميها. "على هذا النحو تجلس المرأة،" رفقة كانت ستقول لها، تضرب لها مثالًا في نفسها.

"حاضر خالة إمورتيل،" كانت ستقول، وتدّعي محاولتها الثانية، لكن سرعان ما كانت ستعود إلى جلستها المترهلة القديمة وتضع كاحلها على ركبتها.

المرة الأولى التي تناولت فيها جايد وجبة العشاء على مائدة قاعة الطعام في أردوا هول أجلسناها بيننا لحمايتها، إذ كانت في منتهى الطيش. ومع ذلك، لم يحل حرصنا دون تصرفها بحماقة. الوجبة كانت خبزًا وحساء غير محدد – ففي أيام الإثنين يخلطون بقايا الطعام ويضيفون إليها البصل – مع سلطة فاصولياء خضراء ولفت أبيض. "هذا حساء! هذا ماء جلي عفن، لن أتناوله."

"صه ... كوني شاكرة للنعمة التي مُنِحتها،" همست لها. "أنا موقنة أنه مغذي."

طبق الحلوى كان عبارة عن تابيوكا، وها هي مرة أخرى. "لا، لا أطيق تناوله،" وألقت بملعقتها ورنّ صوت ارتطامها. "هذه عيون سمك مغموسة في صمغ!"

"عدم إكمالك الطبق ينم عن عدم احترام،" قالت رفقة. "إلا إن كنت صائمة."

"إذن هاكِ نصيبي،" قالت جايد.

"العيون علينا،" همستُ لها.

لدى قدومها، شعرها كان مخضرًا – على ما يبدو فعلٌ من أفعال التشويه الجسدي الذي يمارسونه في كندا– لكن بما أنها كانت مجبرة على تغطيته خارج وحدتنا السكنية، فتقريبًا لم يلاحظه أحد. من ثم راحت تنزع شعرات من خلف عنقها. قالت إنه يساعدها على التفكير.

"إن واصلت فعل ذلك ستتسببين بوجود بقعة صلعاء،" قالت رفقة ناصحة. كانت الخالة إستى قد علمتنا هذا في مدرسة الياقوت الإعدادية للزواج: إن نزعتن شعرات من جسدكن على نحو مستمر، فلن تعود تنمو من جديد. ذات القاعدة تنطبق على الحواجب والرموش.

"أدري،" قالت جايد. "لكن لماذا أكترث إن لن يرى أحدٌ شعري." ثم تبسمت وأسرّت إلينا قائلة، "يومًا ما سأحلق شعري كله."

"إياك! فشعر المرأة فخرها،" قالت رفقة. "جُعِل غطاءً لرأسك. مذكورٌ في الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس."

"فخرٌ واحد وحسب؟ شعرها؟" قالت جايد. نبرة صوتها بدت صفقة، لكني أظنها كانت متفاجئة وحسب.

"ولماذا تريدين جلب الخزي والعار على نفسك بحلق رأسك؟" سألتها بأقصى ما أستطيع من رقة. فأن تكوني امرأة حليقة الرأس إنما دلالةٌ على خزيك وعارك: فأحيانًا، متى ما تلقت الخالات شكوى زوج على زوجته، كنّ سيقصصن شعر زوجة الكفاف العاصية أو سليطة اللسان قبل تقييدها في المثقّبة[33] على مرأى الناس.

"كي أعرف شعور أن أكون امرأة حليقة الرأس،" أجابتني جايد. " شيءٌ وحسب على قائمة سطلي."

"عليك أن تلزمي الحذر في كلامك مع الآخرين،" أخبرتها. "فأنا ورفقة – الخالة إمورتيل - خالتان متسامحتان، ونتفهم انتقالك إلينا من ثقافة منحطة؛ وها نحن

33 المثقّبة: أداة تعذيب خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رجلا ويدا المذنب.

نحاول قدر استطاعتنا مساعدتك على التأقلم. لكن بقية الخالات – لا سيما الخالات الكبار مثل الخالة فيدالا – فهن يترصدن الأخطاء."

"آه، معك حق،" قالت جايد. "أعني، حاضر، خالة فكتوريا."

"وما قائمة السطل؟" سألت رفقة.

"هي قائمة بكل ما أريد فعله قبل أن أموت."

"ولماذا تدعى بذلك؟"

"مشتقة عن ركل السطل،" قالت جايد. "مجرد قول مأثور." وبرؤيتها نظرة التعجب على وجهينا، أردفت، "أظنه يعود إلى أيام شنقهم الناس من على الأشجار. كانوا سيوقفون الشخص على سطل من ثم يشنقونه، للحظة قدماه تركلان، وبطبيعة الحال كانتا ستركلان السطل. مجرد تخمين."

وقالت رفقة، "تلك ليست الطريقة التي نشنق عليها الناس هنا في جلعاد."

محضر أقوال الشاهدة "369B"

55

سرعان ما أدركت أنّ الخالتين اليافعتين في الوحدة "C" لم تتقبلاني؛ لكنهما كانتا كل ما لدي إذ لم أتحادث مع أي من الأخريات. الخالة بياتريس كانت لطيفة معي وقت كانت تهديني، في تورنتو، لكن مع وصولنا جلعاد ما عدت شأنها. متى ما مررت بها، اكتفت وحسب بالابتسام لي من بعيد.

متى ما توقفت لحظة وفكرت بالأمر، تملكني الذعر. لكني حاولت ألا أدع الخوف يسيطر عليّ. وحدةٌ قاسية غمرتني. لا أصدقاء، ولا وسيلة لدي للاتصال بأحد في كندا. آدا والإيجا كانا أبعد ما يكونان عني. لا أحد لدي أسأله النصح والمشورة؛ لا أحد أعتمد عليه سوى نفسي، ولا كتيب إرشادات بين يديّ. كم اشتقت إلى غارث. استغرقت في أحلام اليقظة عمّا فعلناه معًا: النوم في المقبرة، التسول في الشوارع. حتى أني اشتقت إلى وجبات الطعام السريعة معه. هل سأعود يومًا؟ وإن عدت، ما الذي سيحدث؟ فعلى الأرجح لديه حبيبة. إذ كيف لرجل مثله ألا يحظى بواحدة؟ أبدًا لم أسأله لأني لم أرغب في سماع الإجابة.

غير أنّ مبعث قلقي الأعظم كان الشخص الذي يدعوانه آدا والإيجا بالمصدر – مصدر معلوماتهما في جلعاد. متى كان سيظهر هذا الشخص في حياتي؟ وماذا إن لم يكن له من وجود أصلًا؟ إذ إن لم يكن هناك من "مصدر"، سأعلق هنا في جلعاد، لأن لا أحد هناك سيخرجني منها.

محضر أقوال الشاهدة "369A"

56

جايد كانت فوضوية. تترك أغراضها مبعثرة في الغرفة المشتركة. جورباها، نطاق ثوب المبتهلة تحت التدريب، حتى أنها أحيانًا كانت ترمي بفردتي حذائها. كثيرًا ما كانت تترك المرحاض دون شطف. شعرها المتساقط مبعثر على أرض الحمام، معجون الأسنان ملقىً في حوض المغسلة. كانت تستحم خارج الأوقات المسموح بها وكنا ننهرها بحدة، أكثر من مرة. أدري أنها تبدو توافه في عينيك، لكن تلك التوافه كانت تتراكم وتحسب في الغرف المغلقة.

كذلك كانت هناك مسألة الوشم على ذراعها اليسرى. مكتوبٌ فيه "**God**" و"**Love**" على صورة صليب. ادّعت أنها وشمته علامةً على اهتدائها إلى العقيدة الصحيحة، لكني شككت في صحة ما تزعم، إذ مرةً زلّ لسانها وقالت إنها تعتبر الرب، "صديقًا خياليًّا."

"الرب صديقٌ حقيقي، وليس خياليّ." قالت رفقة. نبرة صوتها تنم عن أقصى درجات الغضب الذي لها أن تكشفه.

"أعتذر إن كنت قد قللت من احترامي لمعتقدك الثقافي،" قالت جايد، في اعتذار لم يخفف أبدًا من غضب رفقة: فأن تصف الرب بمعتقد ثقافي لأسوأ بكثير في عينيها من وصفه بصديق خيالي. ولحظتها أدركنا أنا ورفقة أنّ جايد ترانا امرأتين غبيّتين؛ امرأتين مؤمنتين في الخرافات.

"يتوجب بك إزالة هذا الوشم،" قالت رفقة. "فهو كفرٌ وتجديف."

"آه، أظنك على حق،" قالت جايد. "أعني، حاضر خالة إمّورتيل، شكرًا لك على تنبيهي. على أي حال، لم يجلب عليّ إلا عذابًا من الحك."

"عذاب نيران الجحيم الأبدي تفوق عذاب الحك،" قالت رفقة. "سأصلي لأجل خلاصك من الخطيئة."

***

متى ما كانت جايد في غرفتها في الأعلى، تناهت إلينا أصوات خبط مكتوم وصيحات مكبوتة. هل كانت تؤدي صلاة وثنية ما؟ أخيرًا سألتها عمّا تفعل هناك.

"أتدرب،" أجابتني. "نوع من التمارين الرياضية. إذ على المرء أن يحافظ دومًا على قوته الجسدية."

"الرجال هم الأقوياء جسدًا،" قالت رفقة. "وعقلًا. أما نحن النساء فقويات روحًا. وإن كان يجوز للمرأة ممارسة تمارين خفيفة، مثل المشي، إن كانت في عمر الإنجاب."

"ولماذا تظنين أنّ عليك أن تكوني قوية جسدًا؟" سألتُها. إذ راح الفضول يتملكني أكثر وأكثر لمعرفة معتقداتها الوثنية.

"في حال اعتدى عليك رجل. حينها عليك أن تعرفي كيف تقحمي إبهاميك في عينيه، تركلينه في خصيتيه، تسددين ضربةً صاعقة إلى قلبه. تعالي سأريك. شدي قبضتك هكذا – كوري أصابعك، ولفي ابهامك على براجمك، وأبقي ذراعك مستقيمة. سددي نحو القلب." وسددت ضربةً عنيفة على الأريكة.

من ذهولها عجزت رفقة عن البقاء واقفة. "المرأة لا تضرب الرجال، لا تضرب أحدًا على الإطلاق! فقط في الحالات التي يقر لها القانون بالضرب، في الاستعدام مثلًا."

"لا عجب! قانونٌ مفصّلٌ على قياسهم!" قالت جايد. "إذن ما تقولينه أنّ على المَرأة أن تدع الرجل يفعل بها ما يشاء؟"

"من الأساس على المرأة ألا تثير الرجل،" قالت رفقة. "حينها أيًا ما سيحدث لها فهي جزئيًا ملامة عليه."

حولت جايد نظرها من إحدانا إلى الأخرى. "لوم الضحية؟" قالت أخيرًا.

"أحقًا تؤمنان بهذا؟"

"عذرًا؟" قالت رفقة.

"لا شيء. إذن ما تقولانه لي أنّها معركة خاسرة خاسرة، مقضيٌّ علينا في كل الأحوال." كلتانا رحنا نحدق فيها في صمت؛ فالصمت أبلغ من الكلام، كما اعتادت الخالة ليز أن تقول.

"حسنٌ،" قالت لنا. "مع ذلك سأظل أواظب على تدريباتي."

في اليوم الرابع بعد قدوم جايد، استدعتنا الخالة ليديا أنا ورفقة إلى مكتبها. "كيف حال اللؤلؤة الجديدة، هل بدأت تتأقلم؟" لدى ترددي في الإجابة، زجرتني آمرة، "انطقي!"

"تجهل آداب السلوك،" قلت لها.

الخالة ليديا ابتسمت ابتسامتها المتجعدة كما اللفت القديم. "تذكري أنها للتو قدمت من كندا، لذا فهي لا تجهل وحسب آداب السلوك بل حتى مصلحتها. المهتديات الأجانب كلهن هكذا متى ما قدمن إلينا. لهذا هو واجبكن، في هذه المرحلة، تعليمها ما يصب في مصلحتها."

"قد حاولنا كثيرًا معها، خالة ليديا،" قالت رفقة، "لكنها جدّ ..."

"عنيدة،" قالت الخالة ليديا. "لا يفاجئني عنادها. والوقت كفيلٌ بشفائها منه. ابذلا أقصى جهديكما. بإمكانكما أن تغادرا الآن." وغادرنا المكتب جانبيًا كما هو عُرْفنا جميعًا لدى مغادرتنا مكتب الخالة ليديا: إذ من غير التهذيب مطلقًا إدارة ظهرك لها.

ملفات الجرائم واصلت ظهورها على مكتبي في مكتبة هلدغارد العامة. ومع كل ملف منها وجدتني حائرة: يومًا يساورني الشعور بأنّ كوني خالة مكتملة لهو منصبٌ مبارك – معرفتي كل تلك الأسرار التي ادّخرتها الخالات بمنتهى الحذر، استغلالي القوى الخفية ببراعة، وإنزالي العقاب على الآثمين في أناة ومهل. لكن في

اليوم التالي يساورني القلق على روحي – أجل، فقد آمنت أنّ لي روح – وإلى أي حدٍّ ستغدو فاسدة ومخادعة إن سلكت هذا الطريق. هل يا ترى دماغي الطري الموحل بدأ يتصلب؟ هل أنا في طور التحول إلى امرأة متحجرة القلب، فولاذية، عديمة الشفقة؟ هل كنت أبادل طبيعتي الأنثوية الراعية والسمحة بنسخة مشوهة لطبيعة الرجل الحادة القاسية؟ لم يكن هذا ما أريد، لكن كيف كان لي أن أتفاداه إن كنت حقًّا أطمح إلى أن أكون خالة؟

من ثم حدث شيءٌ ما غيّر منظوري عن موقعي في الكون وألهمني رفع صلاة شكر جديدة لتصاريف لطف العناية الإلهية.

رغم أني بت أملك تصريح قراءة الإنجيل كاملًا والاطلاع على العديد من ملفات الجرائم الخطرة، إلا أني وقتها لم أملك تصريح دخول أرشيف الأصول والأنساب، والتي احتفظوا بها في قاعة مقفلة. من تسنى لهن الدخول إليها قلن بأن القاعة تضم ممرات وممرات من الملفات. وتلك الملفات كانت مرتبة على الأرفف وفقًا للرتبة، رتب الرجال وحسب: رجال الكفاف، الأوصياء، الملائكة، العيون، والرؤساء. وضمن تلك الفئات، فملفات الأصول والأنساب صنفت وفق الموقع، تاليًا اسم العائلة. النساء موجودات في ملفات الرجال. الخالات لا ملفات لهن؛ لأن سلسلة نسبهن تنقطع بهن، لأنهن ما كنّ سيحظين بأطفال. كان حزنًا داريته في قلبي: فأنا أهوى الأطفال، ولطالما رغبت في أن يكون لي أطفال، لكني لم أرغب في ما سيجره عليّ وجودهم.

بصفتنا مبتهلات، يتم إعلامنا بوجود الأرشيف وأهدافه. فهو يتضمن المعلومات الخاصة بهوية الجارية قبل تحويلها إلى جارية، هوية أطفالها، وهوية الآباء: لا الأب الرسمي المعلن وحسب، بل حتى الأب غير القانوني، لا سيما مع وجود الكثير من النساء – زوجات وجاريات – بلغ بهن اليأس حدّ لجوئهن إلى أي طريقة متاحة لهن للإنجاب. وفي كل تلك الحالات فالخالات حرصن على تدوين الأصول وسلالات النسب الصحيحة: فمع تزايد زواج الرجال الكهول والمسنين

من القاصرات، فجلعاد ما كانت ستخاطر باحتمال التوالد الآثم بين الأب وابنته، إذ هذا ما سيحصل إن لم يتولّ أحدٌ مهمة التتبع والتدوين.

لكني ما كنت سأحصل على تصريح الدخول إلى الأرشيف إلا بعد اكتمال مهامي التبشيرية في إرسالية اللآلئ الكريمة. كم تقت إلى تلك اللحظة التي يتسنى لي فيها تتبع سلسلة نسب أمي – لا أعني طابيثة، بل الأم التي كانت جارية. في ملف من تلك الملفات السرية، كنت سأعرف من كانت، أو من تكون –إن كانت بعد على قيد الحياة. كنت أعرف أنها ستكون مخاطرة – ولربما لن أحب ما سأكتشفه – لكني كنت في حاجة ماسة إلى المحاولة. لربما كنت سأستطيع تتبع أبي الحقيقي، وإن كان عثوري عليه أقل احتمالًا كونه ليس برئيس. إن استطعت حقًّا العثور على أمي، فحينها كنت سأملك قصةً ولو قصيرة جدًّا عوضًا عن الصفر في يديّ. لحظيتُ بماض سابق لماضيّ، حتى وإن كنت لن أحظى بمستقبل هي فيه.

صباح يوم وجدت ملفًا من الأرشيف على مكتبي. مشبوكٌ على غلافه الأمامي ورقة مع ملاحظة مكتوبة بخط يد صغير: سلسلة نسب آغنس يمامة. حبست أنفاسي وأنا أفتح الملف. في داخله كان السجل الخاص بسلسلة نسب الرئيس كايل. بولا كانت في الملف، وكذلك ابنهما، مرقس. لم أكن جزءًا من هذه السلسلة، لهذا لم يذكر اسمي أختًا لمرقس. لكن على خط نسب الرئيس كايل استطعت العثور على الاسم الحقيقي للمسكينة كريستال – أوفكايل، من ماتت في الولادة – بما أنّ مرقس الصغير ينتمي أيضًا إلى سلسلتها. أتساءل إن كان سيعرف يومًا بوجودها. لا أظن، ليس إن كان الأمر بيدهم.

وأخيرًا عثرت على سلسلة نسبي. لم أجده حيث توقعت – داخل ملف الرئيس كايل، ضمن الفترة التي كان متزوجًا بها زوجته الأولى، طابيثة. بل وجدته ملحقًا في النهاية، ضمن ملف منفصل.

وفيه رأيت صورة أمي. كانت صورة مزدوجة، مثل الصور على ملصقات مطلوبة الموزعة في عمليات البحث عن الجواري الهاربات: صورةٌ أمامية، وصورةٌ جانبية. شعرها فاتح، مشدودٌ للوراء؛ كانت شابة. كانت تحدق مباشرةً في عيني: ما

الذي كانت تحاول قوله لي؟ لا ابتسامة على وجهها، لكن لم عساها تبتسم؟ لا بد أنّ الخالات من التقطن صورتها، أو العيون المراقبة.

الاسم أسفل الصورة كان مشطوبًا، بحبر أزرق سميك. مع ذلك، أُرْفق أسفل الصورة تحديث مكتوب بخط اليد: والدة آغنس يمامة، الآن الخالة فيكتوريا. هربت إلى كندا. تعمل حاليًا لصالح مخابرات اليوم المايوي الإرهابية. محاولتا تصفية (فشلتا). الموقع حاليًا غير معروف.

وأسفل تلك الملاحظة، مكتوبٌ الأب البيولوجي، لكن اسمه هو الآخر مشطوب. لا صورة له. حاليًا في كندا، يقال إنه عميلٌ في اليوم المايوي. الموقع غير معروف.

هل يا ترى أبدو مثل أمي؟ طاب لي أن أظنّ ذلك.

هل أتذكرها؟ حاولت. وكنت أعرف أنه يجدر بي تذكرها، لكن ماضيّ معها استحال ظلمةً سحيقة.

ما أقسى الذاكرة. نعجز عن تذكر ما نسيناه. ما أُجْبرنا على نسيانه. ما أجبرنا أنفسنا على نسيانه، فقط كي يتسنى لنا الادعاء بأننا نعيش حياة طبيعية هنا.

آسفة، همست لها. ليس بيدي إرجاعك إليّ. ليس بعد.

وضعت يدي على صورة أمي. هل شعرت بدفئها؟ أردت أن أظن ذلك. أردت أن أصدق أنّ للحب والدفء أن ينبعثا من صورتها – هذه الصورة التي سلبتها جمالها، لكن مع ذلك ما همني. إذ تقت إلى التصديق أنّ حبها اندفق من الصورة إلى يدي. خيالٌ طفوليّ، أدري. عدا أنه واساني.

قلبت الصفحة: كانت هناك وثيقةٌ أخرى. أمي كان لها طفلةٌ أخرى، وتلك الطَفلة هربوها رضيعةً إلى كندا. اسمها كان نيكول. ومرفقٌ بها صورة الرضيعة.

الرضيعة نيكول.

الرضيعة نيكول، من نصلي لأجلها في كل مناسبة دينية في أردوا هول. الرضيعة نيكول، من وجهها الملائكي المشرق ما ينفك يظهر على شاشة التلفزيون

الجلعادي رمزًا للظلم الذي يوقعه عليها المجتمع الدولي. الرضيعة نيكول، القديسة، الشهيدة، الأيقونة، تلك الرضيعة نيكول تكون أختي أنا.

أسفل تلك الفقرة الأخيرة من النص كانت هناك ملاحظة مكتوبة بخط يد مرتعش في الحبر الأزرق: سري للغاية. الرضيعة نيكول هنا في جلعاد.

بدا لي أمرًا مستحيلًا.

غمرني شعورٌ عارمٌ من الامتنان – لي أختٌ صغرى! لكن الذعر أيضًا اجتاحني: فإن كانت الرضيعة نيكول هنا في جلعاد، لماذا لم يعلن خبر وجودها على العامة؟ لعمّ الابتهاج وأقيمت احتفالاتٌ ضخمة. لم أنا وحسب من علمت بالأمر؟ شعرت وكأني عالقة في شرك، وخيوط الشبكة من حولي خفيّة. هل أختي في خطر؟ ومن يعرف أيضًا بوجودها هنا؟ وما الذي ينوون فعله بها؟

وقتذاك كنت قد أدركت أنّ الشخص الذي يترك لي هذه الملفات هو حتمًا الخالة ليديا. لكن لماذا كانت تفعل ذلك؟ وما ردة الفعل التي كانت تريدها مني؟ أمي كانت على قيد الحياة، بيد أنها تعيش تحت حكم الإعدام. فهي تعتبر مجرمة؛ بل أسوأ، إرهابية. وإلى أي حدٍّ ورثت عنها صفاتها؟ هل أنا ملطخة بها؟ هل هذه هي الرسالة؟ جلعاد حاولت قتل أمي المرتدة مرتين وفشلت. هل يجدر بي أن أسرّ لهذا، أو أحزن؟ لمن أدين بولائي؟

من ثم، في نزوة، ارتكبت فعلًا خطيرًا للغاية. ما إن تلفت حولي واطمأننت أنّ لا أحد يراني، سحبت بهدوء الصفحتين من الملف حيث الصورتان الملصقتان بالصمغ، ثم طويتهما عدة مرات ودسستهما في كمي. إذ لم أطق الافتراق عنهما. كان فعلًا أحمق ومتهورًا، وما كان الفعل الأحمق المتهور الوحيد الذي سأرتكبه في حياتي.

محضر أقوال الشاهدة "369B"

57

كان يوم أربعاء، اليوم المكروب. وبعد تناولنا الفطور العفن المعتاد، تلقيت رسالة بالذهاب فورًا إلى مكتب الخالة ليديا. "ما الذي يعنيه؟" سألت الخالة فيكتوريا.

"لا أحد يعرف ما الذي يدور في عقل الخالة ليديا."

"هل ارتكبت خطأً ما؟" فبالتأكيد ارتكبت الكثير من الأخطاء التي لها أن تختار منها.

"ليس بالضرورة،" أجابتني. "لربما قمت بعمل صالح."

الخالة ليديا كانت في انتظاري في مكتبها. الباب كان مواربًا، وأمرتني بالدخول قبل حتى أن أقرع الباب. "أغلقي الباب خلفك واجلسي."

جلست. نظرت إليّ. ونظرت إليها. كان إحساسًا غريبًا، إذ كنت أعرف أنه يفترض بها أن تكون ملكة النحل الجبّارة اللئيمة العجوز في أردوا هول، لكن لحظتها لم أشعر بأي رهبة منها. كانت هناك شامة كبيرة على ذقنها: حاولت جهدي ألا أحدق فيها. ووجدتني أتساءل لماذا لم تزلها.

"كيف تجدين إقامتك لدينا، جايد؟" سألتني. "هل تتأقلمين على نحو جيد؟"

كان يجدر بي أن أجيب بنعم، على نحو رائع، أو أي إجابة أخرى توحي بالرضا من بين تلك الأجوبة التي دربوني عليها. بيد أني تفوهت فجأة، "لا، لست مرتاحة."

تبسمت لي، كاشفةً أسنانها الصفر. "كثيراتٌ يساورهن الندم في البداية،" قالت لي. "هل تودين العودة؟"

"العودة كيف؟ مع القِرَدة الطائرة؟"

"أقترح عليك أن تمسكي لسانك عن الثرثرة والتلفظ بهذه الصفاقة مع العامة. تصرفٌ كهذا سيجر عليك عواقب مؤلمة. هل لديك شيءٌ تريني اياه؟"

ارتبكت. "مثل ماذا؟ لا لم أحضر ..."

"على ذراعك، مثلًا. أسفل كمك."

"أوه، ذراعي." سحبت الكم: وها هو وشم "God" و"Love"، لا يبدو جميلًا على الإطلاق.

حدّقتْ فيه. "شكرًا على تنفيذ طلبي."

هي إذن من طلبته؟ "هل أنت المصدر؟" سألتها.

"ماذا؟"

هل أوقعت نفسي للتو في ورطة. "تدرين، المصدر – أعني – "

قاطعتني قائلة، "عليك أن تتعلمي تنقيح أفكارك، أي ألّا تفكريها. حسنٌ، الخطوة التالية. أنت الرضيعة نيكول، واثقة أنهم أعلموك بهذا في كندا."

"أجل، وليتني لم أكنها، فأنا لست سعيدة بهذه الحقيقة أبدًا."

"أتفهمك، الكثير منا يتمنى لو لم نكن من نحن عليه. أخشى ألا خيارات أمامنا في هذا الشأن. الآن، هل أنت مستعدة لمساعدة أصدقائك في كندا؟"

"ما الذي عليّ فعله؟"

"تعالي هنا وضعي ذراعك على المكتب، لن أؤلمك."

تناولت شفرةً رفيعة وحزّت شقًّا في وشمي، في قاعدة حرف الـ "O". مع عدسة مكبرة وملقط بالغ الصغر دسّت شيئًا صغيرًا جدًا في ذراعي. كانت مخطئة بشأن الألم.

"لا أحد سيفكر في تفتيش الرّب. الآن أنت حمامٌ زاجل، وكل ما علينا فعله هو نقلك. مهمةٌ أصعب مما كانت عليه في الماضي، لكن سنتدبر تنفيذها. أوه، وإياك أن تخبري أحدًا بهذا إلى أن آذن لك. فالألسنة الفالتة تغرق السفن، والسفن الغارقة تقتل الناس. فهمت؟"

"أجل،" قلت لها. في ذراعي الآن يكمن سلاحٌ فتاك.

"أجل، خالة ليديا. احذري مغبة الزلل في آداب السلوك هنا. ستثيرين استنكار الخالات، حتى مع زلة تافهة كالتي ارتكبتها الآن. وعليك أن تعرفي، أنّ الخالة فيدالا بالذات تعشق إصلاح الفتيات."

محضر أقوال الشاهدة "369A"

58

بعد نهارين من قراءتي ملف الأصول والأنساب تلقيت استدعاءً للحضور إلى مكتب الخالة ليديا. رفقة استدعيت أيضًا للحضور؛ ومضينا إلى هناك معًا. ظننا أنّنا سنسأل مرة أخرى عن تأقلم جايد، وإن كانت سعيدة معنا، إن باتت مستعدة لامتحان القراءة والكتابة، إن كانت راسخة العقيدة. رفقة قالت إنها ستطلب نقل جايد إلى مكان آخر لأننا عجزنا عن تعليمها أي شيء. بكل بساطة هي لا تصغي لأحد.

عدا أننا وجدنا جايد في مكتب الخالة ليديا، جالسة على كرسي. تبسمت لنا، ابتسامةً قلقة.

الخالة ليديا أدخلتنا، تلفتت يمينًا ويسارًا عبر الممر قبل أن تغلق الباب. "شكرًا لحضوركما، لكما أن تجلسا." جلسنا على الكرسيين الشاغرين، كرسيٌّ على كل جانب من كرسي جايد. الخالة ليديا نفسها جلست، تضع يديها على طاولة المكتب كيما تستند عليهما. يداها كانتا مرتعشتين قليلًا. وجدتني أقول في نفسي، قد هرمت. لكن الأمر بدا لي مستحيلًا: فالخالة ليديا لا تشيخ.

"لدي معلومةٌ سأشاركما بها، معلومة من شأنها أن تؤثر تأثيرًا حاسمًا في تقرير مستقبل جلعاد،" قالت الخالة ليديا. "وأنتما ستلعبان دورًا هامًا في تقرير هذا المستقبل. هل تملكان الشجاعة؟ هل أنتما على قدر هذه المهمة؟"

"أجل، خالة ليديا،" أجبتها. ورفقة رددت صدى إجابتي. فالمبتهلات الأصغر عمرًا دائمًا يقال إليهن أنهن يلعبن دورًا هامًا في شيء ما، دورًا يقتضي منهن التحلي بالشجاعة. في العادة كلامٌ مثل هذا يعني ضرورة تخلينا عن شيء، مثل الوقت أو الطعام.

"حسنٌ إذن. سأدخل مباشرةً في الموضوع. أولًا، عليّ أن أعلمك خالة إمّورتيل بما سلفًا تعرفه الأخريان. الرضيعة نيكول هنا في جلعاد."

ارتبكت لدى سماعي اياها: لماذا فتاةٌ مثل جايد يطلعونها على خبر مهم جدًا مثل هذا؟ فلا فكرة لديها البتة عن التأثير الجلل لظهور أيقونة مقدسة بيننا.

"حقًا؟ له الحمد، خالة ليديا!" قالت رفقة. "يا له من خبر رائع. هنا؟ في جلعاد؟ لكن لماذا لم يذيعوا الخبر؟ فهذه معجزة حقيقية من معجزات الرب!"

"رجاءً خالة إمورتيل، سيطري على نفسك. عليّ أن أضيف أيضًا أن الرضيعة نيكول هي أخت الخالة فيكتوريا غير الشقيقة."

"اللعنة!" هتفت جايد. "لا أصدق!"

"جايد، لم أسمع ما قلته للتو،" قالت الخالة ليديا. "توقير النفس، إدراك النفس، السيطرة على النفس."

"آسفة،" غمغمت جايد.

"آغنس، أعني، الخالة فيكتوريا!" قالت رفقة. "لديك أخت! يا لبهجتي!! وأختك هي الرضيعة نيكول! كم أنت محظوظة، فالرضيعة نيكول فاتنة." على الحائط خلف الخالة ليديا كانت معلقة الصورة الرسمية للرضيعة نيكول: فعلًا بدت فاتنة، لكن أليس كل الرضّع فاتنون؟ "هل لي أن أعانقك؟" قالت رفقة. شعرت بها تصارع نفسها كي تظهر إيجابية. فلا بد أنّ خبر وجود قريبة معروفة لي أحزنها في وقت لا تملك فيه هي أي قريب: فحتى أبوها المزيف أعدم في عار وخزي.

"اهدأي، أرجوك،" قالت الخالة ليديا. "قد مضى دهر طويل مذ كانت الرضيعة نيكول رضيعة. هي الآن فتاة ناضجة."

"بالطبع، خالة ليديا،" قالت رفقة، وجلست، تضم يديها على حجرها.

"لكن إن كانت هنا في جلعاد، خالة ليديا، إذن أين هي بالضبط؟"

جايد ضحكت. ضحكة أشبه بنباح كلب.

"هي هنا في أردوا هول،" قالت الخالة ليديا، مبتسمة. بالنسبة لها كانت لعبة تخمين، تسلي بها نفسها. لا بد أننا بدونا محتارتين بلغزها. فنحن نعرف الجميع

هنا، لذا أين يعقل أن تكون الرضيعة نيكول؟

"هي هنا في هذه الغرفة،" أعلنت الخالة ليديا، ولوحت يدها. "جايد هي الرضيعة نيكول."

"لا يعقل!" كانت ردة فعلي. جايد هي الرضيعة نيكول؟ يعني جايد هي أختي؟

رفقة فغرت فاها، تحدق في جايد. "لا،" قالت هامسة، فقدٌ مفجع يكتسى وجهها.

"آسفة على عدم كوني فاتنة،" قالت جايد. "حاولت، لكني رديئة في أداء هذا الدور." أظنها كانت تعني المزاح بقولها هذا، كي تخفف من وطأة الخبر.

"أوه – لم أعني هذا ... الأمر وحسب ...أنك لا تشبهين الرضيعة نيكول."

"معك حق، هي لا تشبهها،" قالت الخالة ليديا. "لكنها تشبهك."

وصدقًا كانت تشبهني، إلى حدٍّ ما: لنا نفس العينين، لكن نختلف في الأنف. استرقت نظرة إلى يدي جايد، أخيرًا مضمومتان على حجرها. راودتني الرغبة في سؤالها أن تبسط أصابعها كيما أقارنها بأصابعي، لكني شعرت بأن سؤالي سيهينها. لم أرد لها أن تظن أني أطالبها بأدلة كثيرة حتى أتثبت من حقيقة هويتها، وإلا فأني سأنكر قرابتها.

"أنا سعيدة جدًا بوجود أخت لي،" قلت لها في منتهى التهذيب، الآن وقد تجاوزت الصدمة. فأنا وغريبة الأطوار هذه نتشارك أمًّا. وجب عليّ أن أبذل أقصى جهدي في تقبلها.

"كلتاكما محظوظتان،" قالت رفقة، توقٌ حزينٌ يعتري صوتها.

"أنت أختي،" قلت لرفقة، "لذا جايد هي أختك أيضًا." إذ لم أرد لرفقة أن يساورها الإحساس بالنبذ.

"هل لي أن أعانقك؟" قالت رفقة لجايد؛ أو، كما يفترض بي الآن أن أدعوها به في هذا المحضر، نيكول.

"آه، أجل،" قالت نيكول، وتلقت عناقًا صغيرًا من رفقة. ثم عانقتها بدوري. وقالت لكلتينا، "شكرًا."

"شكرًا خالة إمورتيل وخالة فكتوريا، قد أظهرتما روحًا من التسامح والتقبل تستحق الإعجاب،" قالت الخالة ليديا. "لكني أخشى أنّي سأنهي حفل الترحيب هذا وألفت انتباهكن إلى أمر بالغ الأهمية."

وولّينا وجوهنا جميعًا إليها. "نيكول لن تبقى معنا لأمد طويل." قالت الخالة ليديا. "ستغادر أردوا هول عن قريب، عائدة إلى كندا. ستحمل معها رسالةً مهمة. وأريد منكما أن تساعداها."

ذهلت بكلامها. لماذا ستدعها الخالة ليديا تعود؟ فلا مهتدية قط عادت إلى بلدها – فهي خيانة عظمى – وإن حدث أنّ المهتدية هي الرضيعة نيكول، فالخيانة مضاعفة عشر مرات.

"لكن، خالة ليديا، ما تقولينه ضد القانون، بل ضد المشيئة الإلهية التي يُقيم حُكْمَها الرؤساء."

"معك حق، خالة فكتوريا. لكنك قرأت بنفسك أنت والخالة إمورتيل تلك الملفات السرية العديدة التي تركتها لكما، فهل ما زلتما حتى الآن لا تدركان إلى أي حدٍّ بائس تغلغل الفساد في جلعاد؟"

"أجل، خالة ليديا، لكن بالتأكيد ..." لم أكن واثقة إن كانت رفقة هي الأخرى قد اطلعت على ملفات الجرائم. كلتانا على ما يبدو أطاعت الكلمتين **سريٌّ للغاية**؛ لكن الأهم أنّ كلتينا حرصت على أن تحمي الأخرى بصمتها.

"في مطلع قيامها كانت أهداف جلعاد طاهرة ونبيلة، كلنا نتفق على هذا،" قالت الخالة ليديا. "لكن سرعان ما أطيح بتلك الأهداف بعد أن تلطخت بالأنانية وجنون السلطة، كما حدث غالبًا على مر التاريخ. لكني أثق أنكما تريدان إصلاحها."

"أجل،" أومأت رفقة. "نريد ذلك."

"وسأذكركما أيضًا بالعهد الذي أخذتماه على نفسيكما. فقد نذرتما حياتكما لمساعدة النساء والفتيات. وأثق أنكما عنيتما الإيفاء به."

"أجل، خالة ليديا،" قلت لها. "نعني الإيفاء به."

"ما ستفعلانه هي المساعدة التي يحتجنها النساء والفتيات منكن. إسمعا، لا

أريد إجباركما على فعل أي شيء ضد إرادتكما، لكن عليّ هنا أن أصرح بحقيقة وضعكما. الآن وقد أخبرتكما بهذا السر – أن الرضيعة نيكول هنا، وأنها عن قريب ستكون الساعي الذي سيحمل رسالتي – فكل دقيقة تمر عليكما دون أن تبوحا بهذا السر للعيون تعد خيانة. وحتى إن أفصحتما بالسر، ستعاقبان عقابًا شديدًا، ولربما سيتم تصفيتكما لإخفائكما السر، ولو للحظة. لا داعي لي أن أقول إني سأعدم، ونيكول لن تكون أكثر من ببغاء في قفص. وإن رفضت التعاون معهم، سيقتلونها، بطريقة أو بأخرى. لن يترددوا لحظة واحدة: فأنتما قرأتما ملفات الجرائم."

"ليس من حقك أن تفعلي هذا بهما!" قالت نيكول. "ليس عدلًا، ما تفعلينه هو ابتزازٌ عاطفي!"

"أقدر وجهة نظرك، نيكول،" قالت الخالة ليديا، "لكن مفهومك المراهق عن العدالة لا ينطبق هنا في جلعاد. لذا احتفظي برأيك لنفسك، وإن أردت حقًا أن تري كندا من جديد فسيكون من الحكمة اعتبار ما قلته للتو أمرًا مباشرًا."

من ثم استدارت نحونا. "أنتما، بالطبع، حرتان في اتخاذ قراركما. سأغادر الغرفة الآن؛ نيكول، تعالي معي. يجدر أن نمنح أختك وصديقتها مساحةً من الخصوصية تتفكران فيها بالاحتمالات أمامهما. سأعود بعد خمس دقائق. وحينها سأطلب منكما جوابًا محددًا: إما نعم أو لا. أي تفاصيل أخرى متعلقة بمهمتكما ستصلكما في الوقت المناسب. هيا، نيكول." قبضت على نيكول من ذراعها وساقتها خارجًا.

عينا رفقة اتسعتا رعبًا، مثلما اتسعتا عيناي. "علينا أن نقوم بالمهمة،" قالت رفقة. "لن نتركهما تموتان. نيكول هي أختك، والخالة ليديا ..."

"نقوم بماذا؟" قاطعتها. "نحن لا نعرف أصلًا ما الذي تطلبه منا؟"

"هي تطلب منا الطاعة والولاء،" قالت رفقة. "ألا تذكرين كيف أنقذتنا – كلينا؟ لا خيار أمامنا سوى الإجابة بنعم."

بعد مغادرتنا مكتب الخالة ليديا، مضت رفقة إلى المكتبة العامة لاستلام

نوبتها النهارية، ونيكول وأنا عدنا إلى وحدتنا السكنية معًا.

"بما أننا أختان،" قلت لها، "فناديني آغنس متى ما كنا وحدنا."

"حسنٌ، سأحاول."

دخلنا الغرفة المشتركة. "لحظة، لديّ شيء أود أن أشاركك اياه،" قلت لها وصعدت إلى الأعلى. كنت قد خبأت الصفحتين من ملف الأصول والأنساب أسفل فرشتي، مطوية إلى حجم صغير. لدى عودتي، فردت الصفحتين بحذر وبسطتهما. ما إن رأتها نيكول على الطاولة – ومثلما حدث معي – عجزت عن مقاومة رغبتها في وضع يدها على صورة أمنا.

"مذهل،" اندهشت ورفعت يدها عن الصورة، وتفحصتها مرة أخرى. "هل تظنينها تشبهني؟"

"سألت نفسي ذات السؤال."

"ألا تتذكرينها؟ أبدًا؟ من المستحيل أن أتذكرها أنا، فقد كنت رضيعة."

"لا أدري. أحيانًا أظن أن بيدي تذكرها. يبدو لي أني أحمل ذكريات عنها. بيتٌ مختلف؟ أسافر إلى مكان ما؟ لكن لربما تلك الذكريات ليست سوى تمنٍّ طفوليّ."

"وماذا عن أبوينا؟" سألتني. "ولماذا شطبوا اسميهما؟"

"ربما أرادوا حمايتنا بطريقة ما."

"شكرًا على مشاركتي،" قالت نيكول. "لكن لا أظن من الحكمة أن تبقي عليهما معك. ماذا إن وقعوا عليها هنا؟"

"أدري. حاولت إعادة الصفحتين إلى الملف، لكن لم يظهر مرة أخرى."

في النهاية، قررنا تمزيق الصفحتين إلى قطع صغيرة وشطفها في المرحاض.

الخالة ليديا أخبرتنا بأنّ علينا أن نحصّن عقلينا استعدادًا للمهمة المقبلة علينا. في غضون ذلك، علينا أن نواصل حياتنا كما المعتاد، وألا نفعل أي شيء من شأنه أن يلفت الانتباه إلى نيكول، أو إثارة الشبهات. كان أمرًا صعبًا، إذ تملّك القلق من كلينا؛ أنا عن نفسي عشت في رهبة مروعة: ماذا سيحدث إن اكتشفوا أمر

نيكول، هل سيتهمونني أنا ورفقة؟

كان مقررًا لي ورفقة الالتحاق عن قريب في إرسالية اللآلئ الكريمة. هل كنا سنذهب أصلًا، أو هل كان في نية الخالة ليديا تغيير مسارنا؟ ما كان بيدنا سوى الانتظار. رفقة كانت قد درست جيدًا كتاب اللآلئ الكريمة الإرشادي عن كندا، عن العملة، العادات، وطرق الشراء، بما فيها البطاقات الائتمانية. كانت أكثر استعدادًا مني.

مع تبقي أقل من أسبوع على حفل عيد الشكر، استدعتنا الخالة ليديا إلى مكتبها مرة أخرى. "هذا ما عليكما فعله،" قالت لنا. "قد دبرت غرفةً لأجل نيكول في أحد بيوت النقاهة في الريف. الأوراق الرسمية جاهزة. لكن أنت، خالة إمّورتيل، من سيذهب هناك بصفتك نيكول، ونيكول ستحل محلك. هي من ستغادر إلى إرسالية اللآلئ الكريمة في كندا."

"إذًا لن أذهب؟" قالت رفقة، في أسىً غامر.

"ستذهبين لاحقًا."

حتى والخالة ليديا تنطق بها، شككت أنها تنطق بكذب.

يَخْفِقُ ويَرِفّ

سِفْرُ أَرْدوا هول

59

ظننت الخطة تسير على ما يرام، لكن حتى أدهى مكائد الفئران والرجال لا تدرأ عنك مكر الله، والمصائب لا تنهال عليك فرادى[34]. أدون لك ما حصل على عجل، مع نهاية هذا اليوم الجدّ شاق. مكتبي اليوم كان أشبه بمحطة جراند سنترال – قبل استحالة هذا المبنى المهيب ركامًا على الأرض في حرب مانهاتن – زحامٌ من حركة المغادرين والقادمين.

وأول القادمين كانت الخالة فيدالا، من تجلّت على عتبة مكتبي مباشرةً بعد الفطور. أن تستهل صباحك بمزيج من فيدالا والعصيدة غير المهضومة لأمرٌ شاقٌ على الجسد: أقسمت على تطهير نفسي بكأس شاي بالنعنع ما إن أتدبر الحصول عليه.

"الخالة ليديا، هناك أمرٌ أود لفت انتباهك العاجل إليه."

تنهدت سرًا في نفسي. "بالطبع، خالة فيدالا. تفضلي بالجلوس."

"لن آخذ الكثير من وقتك،" وأخذت مكانها في الكرسي استعدادًا للقيام بعكس ما قالت. "الموضوع يتعلق بالخالة فيكتوريا."

"ماذا عنها؟ هي والخالة إمّورتيل ستلتحقان عن قريب بإرسالية اللآلئ الكريمة في كندا."

---

34 "أدهى مكائد الرجال والفئران" مقتبسة عن بيت من قصيدة "إلى فأر" "To a Mouse" للشاعر الأسكتلندي روبرت بيرنز والتي نظمها إثر تحطيمه عن غير عمد وكر فأر لدى حرثه الحقل، وضياع كل ما خزنه الفأر فيه من غنائم سلبه استعدادًا للشتاء القارس، وهو ما رآه الشاعر دليلًا على عبثية التخطيط للمستقبل الذي لا يؤمن وقوع شره رغم كل الاحتياطات.

"هذا بالضبط الموضوع الذي جئت لاستشارتك بشأنه. هل أنت متأكدة أنهما مستعدتان لمهمة كهذه؟ فهما يافعتان جدًا بالنسبة لعمريهما – بل حتى مقارنةً بالمبتهلات من جيلهما. ولا واحدة منهما تملك أي خبرة في العالم الخارجي، لكن على الأقل هناك مبتهلات من أقرانهما من يتصفن بصلابة تفتقران إليه هاتان الفتاتان. فهما، إن شئت وصفهما بهذا، مطواعتان؛ عرضة للإغواء المادي المتفشي في كندا. كذلك، في رأيي، بإرسالنا الخالة فيكتوريا فإننا نجازف بردّتها. فهي قرأت نصوصًا مشكوكًا فيها."

"واثقة أنك لم تصفِ للتو الإنجيل بالنص المشكوك فيه."

"طبعًا لا. النص الذي أشير إليه هو ملفها من أرشيف الأصول والأنساب. سيوحي إليها ولا ريب بأفكار خطيرة."

"هي لا تملك تصريح الدخول على أرشيف الأصول والأنساب."

"أحدهم أمّن لها الملف. رأيته صدفةً على مكتبها."

"ومن ذا الذي سيفعل شيئًا كهذا بلا تصريح مني؟" قلت لها. "سأتقصى المسألة بنفسي؛ فلن أقبل أبدًا بأي تمرد. مع ذلك، أرى أنّ الخالة فيكتوريا صارت محصنة ضد أي أفكار هدامة. ورغم رأيك بخصوص عمرها اليافع، فأنا أرى أنها أظهرت نضجًا وعقلًا منيعًا."

"ليس سوى رياء." قالت فيدالا. "فعقيدتها متقلقلة. مفهومها عن الصلاة سخيف. وفي طفولتها كانت عابثة وعنيدة في أداء واجباتها المدرسية، لا سيما الحرف اليدوية. كذلك، فأمها كانت –"

"أعرف من كانت أمها،" قلت لها. "الشيء ذاته بيدنا أن نقوله على أكثر الزوجات توقيرًا واحترامًا من هنّ في الأصل ذرية جوار. فانحلالٌ مثل هذا لا تورثه الأم البيولوجية بالضرورة إلى ابنتها. ولا تنسي، أمها طابيثة التي تبنتها كانت مثال الاستقامة والصبر الصامت على المعاناة."

"وأنا لا أنكر هذه الحقيقة عن طابيثة،" قالت الخالة فيدالا. "لكن، كما تعرفين، فوالدة الخالة فيكتوريا الأصلية هي بالذات جاريةٌ آثمة. فهي لم تستخف

وحسب بواجبها، هجرت مركز عملها، وتحدت أصحاب الولاية الإلهية عليها، بل كانت المحرك الرئيس في سرقة الرضيعة نيكول من جلعاد."

"ما تقولينه من الماضي السحيق، فيدالا." قلت لها. "مهمتنا هي الهداية، لا الإدانة على احتمالات بعيدة."

"ما تقولينه صحيح، فيما يخص فكتوريا. لكن أمها تلك فيجب تقطيعها اثنتي عشر قطعة."

"أتفق معك تمامًا."

"هناك إشاعة موثوقٌ فيها أنها تعمل لصالح مخابرات اليوم المايوي في كندا، فوق كل جرائم خيانتها."

" هي ذي الحياة، ربحٌ وخسارة."

"تلك صياغةٌ غريبة لوصف الوضع،" قالت الخالة فيدالا. "هذه ليست بمباراة كرة قدم."

"لطفٌ منك أن تكرمتي وشاركتني ملاحظاتك حول الصياغة المقبولة في الكلام. أما بالنسبة إلى قلقك بشأن الخالة فيكتوريا، فالماء تكذب الغطّاس. أنا واثقة أنها ستكمل خدمتها في إرسالية اللآلئ الكريمة على نحو مرض."

"سنرى،" قالت الخالة فيدالا، في نصف ابتسامة. "لكن إن ارتدّت، فأرجوك تذكري أني حذّرتك."

التالية على خط القدوم كانت الخالة هيلينا، لاهثة من جرجرة نفسها كل الطريق من المكتبة العامة. فحال قدميها ما تنفك تزداد سوءًا.

"خالة ليديا، لا بد من إعلامك بأن الخالة فيكتوريا قد قرأت ملفها من أرشيف الأصول والأنساب دونما تصريح. وأخشى، في ضوء هوية أمها البيولوجية، أنّ القرار غير حكيم."

"للتو أطلعتني الخالة فيدالا على هذه المعلومة،" قلت لها. "وهي تشاركك الرأي بشأن ضعف النسيج الأخلاقي لدى الخالة فيكتوريا. لكن الخالة فكتوريا تربّت في

خيرة البيوت، وتلقت تعليمها في خيرة مدارس فيدالا. إلا إن كانت نظريتك هي أنّ الطبع يغلب التطبع؟ إذن، في هذه الحال، الخطيئة الأصلية التي ورثناها عن آدم ستكون لها الغلبة فينا جميعًا رغم كل محاولاتنا القاسية لاقتلاعها، وأخشى أنّ هيكل جلعاد حتمًا سينهار فوق رؤوسنا."

"أوه، بالتأكيد لا! لم أقصد هذا،" قالت هيلينا، مذعورة.

"هل قرأت ملف آغنس يمامة بنفسك؟"

"أجل، قبل عدة سنوات. وقتذاك اقتصر تصريح قراءته على الخالات المؤسسات وحسب."

"وكان قرارًا صائبًا. لو حدث وانتشرت حقيقة أنّ نيكول هي أخت الخالة فيكتوريا غير الشقيقة للعبت المعلومة دورًا مؤثرًا في تنشئتها. فلدي شكوكي أنّ هناك أناسًا معدومو الضمير في جلعاد لكانوا حاولوا استغلال الخالة فيكتوريا كورقة تفاوض في محاولاتهم استعادة الرضيعة نيكول، لو وصلهم علم بالأمر."

"لم أفكر في هذا الاحتمال،" قالت الخالة هيلينا. "بالطبع معك حق."

"ولربما سيهمك معرفة أن اليوم المايوي مطلعة على هذه العلاقة الأخوية؛ والرضيعة نيكول كانت في قبضتهم لبعض الوقت، إذ تمنوا جمع شمل الابنة بأمها المنحطة. وقد وضعوا أيديهم عليها مذ توفي أبواها بالتبني فجأة." تريثت ثم أردفت، "في تفجير."

الخالة هيلينا لوت يديها الصغيرتين الأشبه بالبراثن. "اليوم المايوي متحجرة القلب، لن تتوانى عن أي شيء في سبيل وضع تلك الطفلة بين يدي مجرمة فاسقة مثل أمها، ولا حتى التضحية بروح بريئة."

"الرضيعة نيكول في أمان."

"له الحمد!"

"وإن كانت جاهلة بعد لحقيقة أنها الرضيعة نيكول،" قلت لها. "لكنا نأمل بأنها عن قرب ستأخذ محلها الصحيح في جلعاد. الفرصة سانحة الآن."

"مبتهجة أيما ابتهاج لسماع الخبر. لكن متى ما قدمت إلينا، فعلينا أن نتولى

مسألة تعريفها بهويتها الحقيقية بمنتهى الحذر. سيتوجب بنا أن نطلعها عليه في أناة. فإفشاء أسرار كهذه يخل باتزان العقل اليافع الحساس."

"وهو رأيي تمامًا. لكن في غضون ذلك أود منك أن تراقبي عن كثب تحركات الخالة فيدالا. أخشى أنها هي من وضعت ملف الأصول والأنساب بين يدي الخالة فيكتوريا، لا أتصور لأي غاية فعلت ذلك. لربما أرادت للخالة فكتوريا أن تغرق في اليأس متى ما عرفت بأصولها الفاسدة، فتتزعزع حالتها الروحية وترتكب خطأً متهورًا."

"فيدالا لم تحبها قط،" قالت الخالة هيلينا. "ولا حتى عندما كانت طفلة في المدرسة."

غادرت مكتبي تجرجر نفسها، مبتهجة أيما ابتهاج بتفويض المراقبة الذي وهبتها.

بعد الظهيرة، وبينما كنت جالسة في مقهى شلافلي أرشف كأس الشاي بالنعنع، هرعت إليّ الخالة إليزابيث تعول صائحة، "خالة ليديا! خالة ليديا! هنالك عيونٌ وملائكة في أردوا هول! كأنه غزوٌ عسكري! هل أقررت لهم بالدخول؟"

"تمالكي نفسك،" قلت لها، قلبي يخفق ويرف. "أين، بالضبط، هم الآن؟"

"في المطبعة. قد صادروا كل كتيبات اللآلئ الكريمة. الخالة ويندي اعترضت، ويؤسفني أن أخبرك بأنهم ألقوا القبض عليها. وضعوا أيديهم حرفيًا عليها!" قالت مرتعدة.

"هذا تصرفٌ غير مسبوق،" قلت لها ونهضت على قدميّ. "سأطالب باجتماع عاجل مع الرئيس جود."

توجهت إلى مكتبي بنية الاتصال به عبر الخط الأحمر، لكن ما كان من داع: فجود سبقني. لا بد أنه اقتحم المكتب، بكل بساطة، مدعيًا وجود حال طارئة. وأسفاه على عالمنا المقدس المنفصل الذي اتفقنا عليه. "الخالة ليديا، شعرت بأني أدين إليك بتفسير شخصي لما يحدث." قال لي، دونما ابتسامة على وجهه.

"وأنا واثقة أن هناك تفسيرٌ ممتاز،" قلت له، مع مسحة من البرودة في نبرتي. "العيون المراقبة والملائكة قد تجاوزوا كل حدود اللباقة على نحو فادح، عدا طبعًا تجاوزهم القانون والعرف."

"كل ما نفعل هو في خدمة مقامك المصون، خالة ليديا. هل لي أن أجلس؟" أشرت إلى الكرسي، وجلسنا.

"بعد بلوغ تحقيقاتنا طرق مسدودة، وصلنا إلى الاستنتاج بأن الوثائق الميكروسكوبية التي حدثتك عنها حتمًا بودلت بين اليوم المايوي وعنصر اتصال هنا في أردوا هول خلال الكتيبات التي وزعنها اللآلئ الكريمة في غفلة عن حقيقتها." تريث كيما يقرأ ردة فعلي.

"صدمتني!" قلت له. "يا لها من وقاحة!" وفي نفسي تساءلت لماذا تطلب منهم اكتشاف الأمر كل هذا الوقت؟ لكن تظل الوثائق الميكروسكوبية بالغة الصغر، ومن منهم كان سيفكر في التفتيش في كتيبات تجنيدنا التقليدية الجذابة؟ لا شك أنّ العيون هدروا الكثير من الوقت في تفتيش الأحذية والملابس الداخلية. "هل تملك دليلًا؟" سألته. "وإن كان لديك دليل، هلّا أعلمتني بهوية التفاحة العفنة في برميلنا؟"

" شنينا غارة على مطبعة أردوا هول، واحتجزنا الخالة ويندي للتحقيق. بدا أنها السبيل الأقرب للوصول إلى الحقيقة."

"لا أصدق أبدًا أنّ الخالة ويندي متورطة، فتلك المرأة عاجزة عن تدبير خطة كهذه. فعقلها عقل سمكة. أقترح عليك إطلاق سراحها فورًا."

"هذا ما أراه أيضًا. واثقٌ أنها ستشفى من الصدمة في عيادة البلسان والسكينة."

كان مبعث ارتياح لي. لا ألم إلا في الضرورة، لكن عند الضرورة، فلا بد من الألم. الخالة ويندي غبيةٌ مفيدة لكنها غير مؤذية. "ما الذي وصلتم إليه؟" سألته. "هل وجدتم أيًا من تلك الوثائق الميكروسكوبية، كما تدعوها، في الكتيبات المطبوعة مؤخرًا؟"

"كلا، لكن بحثنا في الكتيبات المسترجعة من كندا أثمر عن عثورنا على عدة نقاط ميكروسكوبية تتضمن خرائط ومعلومات أخرى أرفقتها اليوم المايوي بالكتيبات. الخائن المجهول بيننا لا بد أدرك أنّ تصفية الملابس الطريدة قد وضع حدًّا للعملية وصير تلك الطريقة عديمة الجدوى فكفّ عن تزيين الكتيبات بمعلومات حساسة عن جلعاد."

"لطالما كانت لديّ شكوكي حول الخالة فيدالا،" قلت له. "الخالة هيلينا والخالة إليزابيث هما الأخريان تمتلكان تصريح الدخول على مطبعة أردوا هول، وعن نفسي فأنا من أودع تلك الكتيبات بين أيدي لآلئنا الكريمة قبل مغادرتهن، لذا أنا الأخرى أجدني تحت طائلة الشك."

الرئيس جود ابتسم. "خالة ليديا، حتى في أوقات عصيبة كهذه، تتمتعين بروح النكتة. على العموم، هناك آخرون مخولون بالدخول: هناك الطباعون. لكن لا دليل البتة على تورطهم. ولن ينفعنا هذه المرة اللجوء إلى كبش فداء. لزامٌ علينا ألا ندع المجرم الحقيقي يسرح ويمرح."

"ما يعني أننا باقون في ظلامة الجهل."

"لسوء الحظ. من سوء حظي أنا، ومن سوء حظك أنت أيضًا، خالة ليديا. فرصيدي بدأ يهوي لدى المجالس: فقد وعدتهم بنتائج. ومؤخرًا بتّ أستشعر برودتهم تجاهي، تحياتهم المقتضبة. أعراض تطهير واقع لا محالة: أنا وأنت سيطالنا الاتهام بالتساهل والإهمال حدّ الخيانة بتركنا اليوم المايوي ترقص في دوائر حولنا، تحت أنوفنا هنا في أردوا هول."

"الوضع خطير."

"لدينا طريقة واحدة وحسب نخلص فيها نفسينا،" قال لي. "الرضيعة نيكول، علينا فورًا الإعلان عنها واستعراضها على الملأ. التلفاز، الملصقات، مسيرات جماهيرية ضخمة."

"أرى الفضيلة في هذا."

"والحل سيكون أكثر فاعليةً إن أعلنّا خطوبتي عليها، ولاحقًا نبث زفافنا

مباشرةً على الهواء. حينئذ أنا وأنت لن نمسّ."

"حلٌّ ذكي، كما العادة. لكنك متزوج."

"وكيف هي صحة زوجتي؟" سألني، رافعًا حاجبيه في إيماءة تأنيب.

"أفضل مما كانت عليه، لكن ليست في صحة جيدة كما أملنا." لماذا ترك نفسه مكشوفًا في استخدامه سم الفئران؟ حتى في جرعات صغيرة، فمن السهل تقفي أثره. وحتى إن كانت شونميّة فتاة بغيضة في المدرسة، فلا أتمنى لها العودة إلى جود ذي اللحية الزرقاء والانضمام إلى حجرة عرائسه الميتات[35]. في الواقع صحتها آخذة في التحسن؛ لكن رعبها من احتمال عودتها إلى ذراعي جود المحبتين يعوق شفاءها الكامل. "أخشى أنها ستعاني من انتكاسة."

تنهد قائلًا، "أصلي للرب أن يخلصها من معاناتها."

"أنا واثقة أن صلاتك ستستجاب عن قريب." وحدقنا لوهلة في بعضنا.

"عن قريب متى؟" ما كان بيده أن يمنع نفسه عن السؤال.

"أقرب مما تتصور."

35 "Bluebeared": صاحب اللحية الزرقاء هي حكاية فرنسية تراثية عن نبيل ثري صاحب سلطة وذي لحية زرقاء ما ينفك يتزوج الفتيات الصغيرات ويقتلهن، ومحاولة زوجته الأخيرة تفادي هذا المصير.

الضّرْبة الصّاعِقَة

محضر أقوال الشاهدة "369A"

60

قبل يومين من موعد استلامي ورفقة عقود اللؤلؤ، تلقينا زيارة مفاجئة من الخالة ليديا أثناء صلواتنا المسائية. رفقة فتحت الباب.

"أوه، خالة ليديا،" قالت في نبرة يشوبها الرهبة. "له الحمد."

"لطفًا تراجعي للوراء وأطبقي الباب من خلفي،" قالت الخالة ليديا. "أنا على عجلة من أمري. أين هي نيكول؟"

"في الأعلى، خالة ليديا،" أجبتها. فمن عادة نيكول كلما اختلينا إلى الصلاة الذهاب إلى الأعلى وممارسة تمارينها الرياضية.

"رجاءً استدعيها. فقد وقع أمرٌ طارئ." أنفاسها كانت متسارعة على غير المعتاد.

"خالة ليديا، هل أنت على ما يرام؟" سألت رفقة في قلق. "هل تودين كأسًا من الماء؟"

"كفي عن الجلبة،" زجرتها الخالة ليديا.

ونيكول دخلت الغرفة، "هل كل شيء على ما يرام؟"

"في واقع الأمر، لا. فاللحظة نحن محشورات في الزاوية. الرئيس جود أغار للتو على مطبعتنا بحثًا عن أدلة على الخيانة. ومع أنه تسبب بإزعاج مؤلم للخالة ويندي، فلم يعثر على أي شيء يديننا. لكنه للأسف الشديد علم بأنّ جايد ليس اسمك الحقيقي. قد اكتشف أنك الرضيعة نيكول، وهو عاقد العزم على الزواج منك في أقرب وقت ممكن حتى يرتفع مقامه بين الرؤساء. ينوي نقل مراسيم الزفاف مباشرةً على تلفزيون جلعاد."

"ما هذا الخراء الذي تقولينه!" قالت نيكول.

"ألفاظك، لو سمحت،" قالت الخالة ليديا.

"لا يحق لهم إجباري على الزواج منه!"

"سيجدون طريقة،" قالت رفقة، شاحبة شحوب الأموات.

"يا له من أمر فظيع،" لم أجد شيئًا أقوله سوى هذا، فقد قرأت ملف الرئيس جود، ليس أمرًا فظيعًا وحسب: بل حكمٌ بالإعدام.

"وما الذي بيدنا فعله؟" سألتُها.

"أنت ونيكول عليكما المغادرة غدًا،" قالت الخالة ليديا. "في أقرب وقت ممكن. طائرة جلعاد الدبلوماسية ما عادت خيارًا؛ جود سيسمع حتمًا برحيلكما ويوقفكما. عليكما أن تسلكا طريقًا آخر."

"لكننا لسنا مستعدتين. لا عقود اللؤلؤ عندنا ولا الأردية، ولا النقود الكندية ولا الكتيبات، ولا حقائب الظهر الفضية."

"سأؤمن لكما الأغراض الضرورية في وقت متأخر الليلة،" قالت الخالة ليديا. "تدبرت تصريح المرور الذي يعرّف نيكول بأنها الخالة إمّورتيل. لكن للأسف لا وقت لدينا لتحديد موعد جديد لإقامة الخالة إمورتيل في بيت النقاهة. على أي حال لا أظن أن خدعتنا هذه كانت ستنطلي على أحد لفترة طويلة."

"الخالة هيلينا ستلاحظ اختفاء نيكول،" قلت لها. "فهي دائمًا تحصي رؤوسنا. وحتمًا ستتساءل لماذا رفقة – الخالة إمورتيل – لا تزال هنا."

"معك حق،" قالت الخالة ليديا. "لذلك لا بد أن أسألك معروفًا خاصًا، خالة إمّورتيل. هل لك رجاءً أن تخفي نفسك لثمان وأربعين ساعة بعد رحيلهما. ربما في المكتبة العامة؟"

"لا، ليس هناك،" قالت رفقة. "فهناك الكثير الكثير من الكتب. ولا متسع لاختباء شخص."

"أنا متأكدة أنك ستتدبرين أمرك،" قالت الخالة ليديا. "فنجاح المهمة بأسرها يعتمد عليك، عدا طبعًا سلامة الخالة فيكتوريا ونيكول الشخصية. هي مسؤولية

عظيمة – لا قيامة لجلعاد جديدة إلا بك؛ وبالتأكيد لا تريدين لأحد أن يقبض عليه ويشنق."

"لا، خالة ليديا،" أجابتها رفقة همسًا.

" إذن هيّا، ضعي قبعة التفكير!" شجعتها الخالة ليديا في نبرة مبهجة. "واستعيني بدهائك."

"ما بالك تلقين عليها بحمل لا يطاق،" قالت نيكول محتدة. "لم لا أذهب وحدي؟ حينئذ الخالة إمورتيل وآغنس – الخالة فيكتوريا – تغادران إلى إرساليتهما في الوقت المقرر."

"لا تكوني غبية،" قلت لها. "ما تقولينه مستحيل، وسيلقى القبض عليك فورًا. فاللآلئ الكريمة يغادرن دومًا في أزواج. وحتى إن لم ترتدي زي اللآلئ الرسمي، فلا فتاة في عمرك تتنقل خطوة واحدة دون مرافق."

"علينا أن نجعل الأمر يبدو وكأن نيكول تسلقت الحائط وفرّت،" قالت رفقة. "حينها لن يبحثوا عنها في أردوا هول، وهكذا سيتسنى لي الاختباء فيها بطريقة ما."

"يا لها من فكرة ذكية، خالة إمّورتيل،" قالت الخالة ليديا. "لربما تتعطف علينا نيكول بتدوين رسالة بهذا الشأن. تقول فيها أنها أدركت عدم ملاءمتها لحياة الخالة: أمرٌ لا أحد سيجد صعوبة في تصديقه. وتدعي فيها هربها مع رجل كفاف – مهنيٌّ وضيع ممن يتولون التصليحات لدينا – وعدها بالزواج وتأسيس عائلة. على الأقل نيّة الإنجاب ستثير الاستحسان."

"أشك! لكن لا مشكلة،" قالت نيكول.

"لا مشكلة ماذا؟" قالت الخالة ليديا في نبرة جازمة.

"لا مشكلة، خالة ليديا،" قالت نيكول. "سأكتب الرسالة."

في الساعة العاشرة، في جنح الظلام، عاودت الخالة ليديا الظهور على عتبة بابنا، تحمل حقيبة ملابس سوداء ضخمة. رفقة أدخلتها. "مباركةٌ هي الثمرة، خالة ليديا."

الخالة ليديا لم تكترث بإتمام التحية الرسمية. "قد أحضرت إليكما كل ما ستحتاجان إليه. ستغادران عبر البوابة الشرقية الساعة السادسة والنصف صباحًا. سيارةٌ سوداء ستكون في انتظاركما على يمين البوابة. سيقود بكما خارج المدينة حتى بورتسموث، نيوهامبشير، حيث ستستقلان الباص. هاكما خريطة موضحٌ عليها الطريق. انزلا عن الباص في المحطة X. كلمتا السر هما اليوم المايوي وقمر حزيران[36]. العميل سينتظركما هناك ويصحبكما إلى وجهتكما التالية. نيكول، إن نجحت في المهمة، فمن قتلوا والديك بالتبني سيفضح أمرهم، ويساقون فورًا إلى العدالة. ولي أن أخبر كليكما، أنكما إن وصلتما فعلاً إلى كندا رغم كل العوائق المعروفة، ففرصكما ليست معدومة – ليست معدومة – في جمع شملكما بأمكما. هي على علم بهذا الاحتمال."

"أوه آغنس، له الحمد – يا له من خبر رائع،" قالت رفقة في صوت خفيض. ثم أردفت، "لكليكما."

"صدقًا ممتنة لك، خالة ليديا،" قلت لها. "لطالما صليت لتحقيق هذه الغاية."

"قلتُ إن نجحتما. شرطٌ كبير." قالت الخالة ليديا. "فالنجاح ليس مضمونًا. اعذروني،" تلفتت حولها ثم جلست مجهدة على الأريكة. "هلّا أكرمتني بكأس الماء الذي دعوتني إليه، خالة إمورتيل؟" ومضت رفقة تحضره.

"هل أنت على ما يرام، خالة ليديا؟"

"أوهان الشيخوخة، وآمل أن يمتد بكما العمر كفاية كي تعشنها. أمرٌ آخر. من عادة الخالة فيدالا الخروج للتمشية حول تمثالي في الصباح الباكر. إن رأتكما – في زي اللآلئ الكريمة كما يجدر بكما – ستحاول إيقافكما. وقتها عليكما التصرف بسرعة، قبل أن تتسبب بأي قلقلة."

"وَكيف عسانا نفعل ذلك؟" سألتها.

"أنت قوية،" قالت الخالة ليديا، تنظر إلى نيكول. "القوة نعمة، والرب يحب لنعمه أن تستغل."

36 "June Moon" في اختيار شهر حزيران فالإشارة قد تقرأ أنها تعود إلى جون، بطلة "حكاية الجارية".

"هل تعنين أنّ عليّ ضربها؟" قالت نيكول.

"ذا تفسيرٌ صريحٌ لرغبة الرب،" قالت الخالة ليديا.

بعد مغادرة الخالة ليديا، فتحنا حقيبة الملابس السوداء. ضمّت الرداءين، عقدي اللؤلؤ، القلنسوتين البيضاوين، حقيبتي الظهر الفضيتين. ضمّت أيضًا رزمة الكتيبات وظرفًا يحتوي قسائم شراء الطعام الجلعادية وحزمةً من عملة كندا الورقية، وبطاقتي ائتمان. وجدنا تصريحي العبور عبر البوابة ونقاط التفتيش. كذلك وجدنا تذكرتي الباص.

"الأجدر بي أن أكتب الرسالة الآن وأخلد إلى النوم،" قالت نيكول. "ألقاك مع طلعة الشمس." كانت تدعي الشجاعة واللامبالاة، لكن كان لي أن أرى التوتر غالبًا عليها.

ما إن غادرت الغرفة، قالت رفقة، "أتمنى لو كان بيدي الذهاب معك."

"وكم أتمنى أنا ذلك،" قلت لها. "لكنك ستكونين عونًا كبيرًا لنا. وسأعثر لاحقًا على طريقة لإخراجك من هذا المكان. أعدك."

"أخشى ألا طريقة هناك،" قالت رفقة. "لكني مع ذلك سأصلي للرب أن يهديك إلى طريقة."

"الخالة ليديا قالت إننا سنحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة، أي يومين. إن تمكنت من الاختباء فيهما ..."

"أعرف المخبأ المناسب،" قالت رفقة. "على السطح. في صهريج الماء."

"إياك رفقة! فالأمر خطرٌ للغاية!"

"أوه، بالتأكيد سأفرغه أولًا من الماء. سأسربه عبر حوض الاستحمام في وحدتنا السكنية."

"لكنهن سيتنبهن للأمر، رفقة. في الوحدات السكنية "A" و"B". سيلاحظن شح الماء، فهن يشاركننا الصهريج."

"ليس في البداية. إذ لا يفترض بنا الاستحمام في الصباح الباكر."

"لا تفعليها، أرجوك. لم لا أبقى هنا معك؟"

"لا خيار لديك. إن بقيت هنا، ما الذي سيحصل لنيكول؟ والخالة ليديا لن ترغب في استدعائهم اياك والتحقيق معك، وإرغامك على كشف كل خططها. لا تنسي أنّ الخالة فيدالا لن تتردد في وضع يديها عليك واستجوابك، وتلك ستكون نهايتك."

"هل تلمحين إلى أن الخالة ليديا ستقتلني؟"

"في النهاية، حتمًا. على يديها أو يدي غيرها،" قالت رفقة. "فهذا ديدنهم."

"لا بد من وجود طريقة لاصطحابك معنا. ماذا إن خبأناك في السيارة، أو..."

"اللآلئ الكريمة يتنقلن في أزواج،" قالت لي. "بوجودي سيلقون القبض علينا سريعًا. لا تقلقي، روحي سترافقكما."

"شكرًا رفقة. أنتِ أختي."

"سأتخيلكما طيرين، تحلقان بعيدًا،" قالت لي. "طائر السماء الذي سينقل الصوت."

"سأصلي لأجلك،" قلت لها. لم يبدُ لي القول صائبًا ولا صادقًا.

"وأنا سأصلي لأجلك." تبسمت لي، ابتسامةً صغيرة. "ما أحببت أحدًا إلاكِ."

"وأنا أحبك أيضًا." تعانقنا وبكينا قليلًا.

"اخلدي للنوم،" قالت رفقة. "ستحتاجين كل قواك لأجل الغد."

"وأنت أيضًا."

"لن أنام. سأصلي صلاة الليل لأجلك." مضت نحو غرفتها، وبرفق، أغلقت الباب من خلفها.

صباح اليوم التالي، نيكول وأنا انسلينا في هدوء خارج مدخل الوحدة السكنية "C". السحب كانت زهريةً ذهبية، العصافير تزقزق، ونسيم الصباح الباكر لمّا يزل عليلًا. ما كان من أحد في الأرجاء. مشينا بسرعة في خطىً خفيفة على مرِّ الدرب المقابل لأردوا هول، صوب تمثال الخالة ليديا. ما إن وصلنا، إذ بالخالة فيدالا تنعطف نحونا من زاوية المبنى الملاصق، تسير في خطىً عازمة.

"الخالة فيكتوريا! ما الذي تفعلينه في هذا الرداء؟ عيد الشكر لن يحل حتى الأحد القادم!" أدارت وجهها وحدقت في نيكول. "ومن معك؟ الفتاة الجديدة! جايد! لا يفترض بها أن –" مدّت يدها وقبضت على عقد اللؤلؤ حول عنق نيكول، وقطعته.

نيكول فعلت شيئًا بقبضتها. فعلتها بسرعة حدّ أني بالكاد لمحتها، غير أنّها سددت لكمةً إلى صدر الخالة فيدالا. الخالة فيدالا انهارت على الأرض. وجهها أبيضٌ شديد الشحوب، عيناها مغمضتان.

"أوه، لا –" رحت أردد مبهوتة.

"ساعديني،" قالت نيكول. أمسكت بالخالة فيدالا من قدميها وجرتها خلف قاعدة التمثال، ثم شبكت أصبعيها السبابة والوسطى وقالت، "فليكن الحظ معنا، هيّا فلنذهب،" وأمسكت بي من ذراعي.

كان هناك برتقالٌ على الأرض. تناولت نيكول برتقالة ودستها في جيب رداء اللآلئ الكريمة.

"هل ماتت؟" سألتها همسًا.

"وما أدراني. هيا، علينا أن نتعجل."

بلغنا البوابة، أظهرنا تصاريح العبور، والملائكة سمحوا لنا بالمغادرة.

نيكول ظلت ممسكة بياقة ردائها كي لا يتبين فقدانها عقد اللؤلؤ. على اليمين من البوابة وجدنا سيارة سوداء مركونة نهاية الشارع، تمامًا حيثما قالت الخالة

ليديا. السائق لم يلتفت للوراء لدى صعودنا السيارة.

"جاهزات، سيداتي؟"

"أجل، شكرًا،" قلت له. أما نيكول فقالت، "لسنا سيدات." ووكزتها بمرفقي.

"لا تتكلمي إليه بهذا الأسلوب،" همست لها.

"لم القلق؟ ليس بوصيٍّ حقيقي. فالخالة ليديا ليست حمقاء."

تناولت البرتقالة من جيبها وراحت تقشرها. الهواء صار عبقًا بشذاه المنعش.

"أتريدين قطعة؟" سألتني. "سأعطيك نصفها."

"لا، شكرًا لك. لا يصح تناولها." فقد كانت قربانًا مقدسًا نوعًا ما. لكن ما همّها، هي التهمت البرتقالة بأكملها.

ما برحت أقول في نفسي، ستزِلّ، حتمًا ستزِلّ. ستلفت عين أحدهم علينا. ستتسبب بإلقاء القبض علينا.

62

شعرت بالأسف على لكمي الخالة فيدالا، وإن لم يكن بالأسف الشديد: لو لم أضربها، لصاحت بأعلى صوتها وأوقفونا. ومع ذلك، قلبي ما انفك يخفق بقوة. هل يا ترى قتلتها؟ لكن لا يهم، فمتى ما عثروا عليها، حيةً أو ميتة، سيطلقون كلابهم في إثرنا. فنحن غارقتان في الخراء حتى عنقينا، لقالت آدا.

في غضون ذلك، أظهرت آغنس انزعاجها مني في زمها شفتيها والتزامها الصمت، أسلوب الخالات في إعلامك بأنك تجاوزت خطًّا أحمر من خطوطهن العديدة. على الأرجح كانت البرتقالة. لربما ما كان يجدر بي أخذها. ولحظتها خطر لي خاطرٌ مخيف: الكلاب. فالبرتقال فوّاح. وراح القلق يتملكني عمّا سأفعله بالقشور.

ذراعي اليسرى عادت تثير الحك من جديد، حول حرف الـ "O". يا ترى لماذا لم تشف بعد؟

عندما غرزت الخالة ليديا الوثيقة الميكروسكوبية في ذراعي، ظننتها خطةً عبقرية، لكن الآن ساورني الشعور بأنها ليست أصلًا بالفكرة الجيدة. فإن كان جسدي والرسالة واحدًا، فما الذي سيحدث إن عجز جسدي عن الوصول إلى كندا؟ هل توقعت مني قطع ذراعي وإرسالها بالبريد؟

سيارتنا عبرت عدة نقاط تفتيش - الجوازات، الملائكة يتفحصون وجهينا من خلف النافذة للتيقن من هويتنا -آغنس كانت أخبرتني بأن أدع السائق يتولى الحديث، وقد فعل: اللآلئ الكريمة ما أروعهن، اللآلئ الكريمة نبيلات، يا لكل هذه التضحيات التي يقدمنها في سبيل جلعاد.

في إحدى نقاط التفتيش، الملاك قال، "حظًا سعيدًا في مهمتكن." وفي النقطة الأخرى – أبعد عن المدينة – تبادلوا المزاح.

"آمل ألا يحضرن معهن قبيحات أو فاسقات."

"ومن ستأتي هنا معهن سوى القبيحة والفاسقة." والملاكان ضحكا.

آغنس وضعت يدها على ذراعي. "إياك الرد عليهما."

لدى وصولنا الريف وقطعنا الطريق السريع، ناولنا السائق شطيرتين: جبن جلعاد الزائف. "أخمن أنّ هذا هو فطورنا،" قلت لآغنس، "مربى إصبع القدم على البياض اللزج."

"علينا أن نكن شاكرات،" قالت آغنس في نبرة الخالة الورعة، لذا خمنت أنها ما تزال حانقة. وجدته غريبًا اعتبارها أختًا لي، فنحن لا نشبه بعضنا في شيء. أصلًا بالكاد تسنى لي أي وقت للتفكر في أُخوّتنا.

"أنا سعيدة بأنك أختي،" قلت لها، محاولةً تهدئة الأمور بيننا.

"أنا سعيدة أيضًا،" قالت آغنس. "وشاكرة." عدا أني لم أستشف الشكر في نبرتها.

"أنا شاكرة أيضًا." ومع الشكر وضعنا حدًا للمحادثة. فكرت في سؤالها حتّام نحن مضطرتان إلى لعب الدور، هذه الطريقة الجلعادية في الحديث – لم لا نكف عنها ونتحدث بصورة طبيعية، الآن وقد هربنا؟ عدا أنّ، بالنسبة إليها، لربما هذه هي الطريقة الطبيعية في الحديث. ربما لا تعرف أي طريقة أخرى غيرها.

في بورتسموث، نيوهامبشير، أنزلنا سائق السيارة عند محطة الباص. "حظًا سعيدًا، فتيات،" قال مودعًا. "ألقوا بهم جميعًا في الجحيم!"

"رأيت؟ ليس بوصيٍّ حقيقي" قلت لآغنس، آملةً أن أفتح حديثًا معها.

"بالطبع لا، فالوصيّ الحقيقي ما كان لينطق بالكلمة الملعونة."

محطة الباص كانت قديمة ومتهالكة، حمام السيدات معمل جراثيم، ولا مكان لاستبدال قسائم الطعام بأي شيء قد يرغب فيه أي إنسان طبيعي. وحينها

سعدت بتناولي البرتقالة. لكن آغنس، من لم تقرف من الطعام المتاح، كونها اعتادت أكل الهراء الذي يسمونه طعامًا في أردوا هول، فقد اشترت دونات مزيفة بقسيمتين من قسائمنا.

الدقائق راحت تتكّ؛ والتوتر غلبني. انتظرنا وانتظرنا، وأخيرًا وصل الباص. بعض الراكبين أومأوا إلينا ما إن ركبنا، مثلما يومؤون إلى الجنود: بتحية الرأس. حتى أنّ زوجة كهلة من زوجات الكفاف قالت، "باركّكما الرب."

بعد عشرة أميال صادفتنا نقطة تفتيش أخرى، لكن الملائكة كانوا مهذبين جدًا معنا. حتى أنّ أحدهم قال، "أنتن شجاعات، بذهابكن إلى سدوم وهداية أهلها." لو لم أكن مذعورة لربما ضحكت – ففكرة أنّ كندا هي سدوم سخيفة جدًا، فلا أظن أنّ هناك مكانًا في العالم أكثر ضجرًا واعتياديةً منها. لن ترانا أبدًا نعربد في حفلات الجنس الجماعي على مستوى الدولة.

آغنس شدت على يدي كيما تعلمني أنها هي من سيتولى الكلام. فهي تتمتع بخصلة أردوا هول في إبقاء ملامح الوجه هادئة وغير مقروءة. "نحن نؤدي واجبنا اتجاه جلعاد،" قالت في نبرة الخالات الروبوتية الجامدة، والملاك أجابها، "له الحمد."

الطريق صارت وعرة. لا بد أنهم أنفقوا أموال إصلاح الطرق على الطرق التي يسلكها معظم الناس: فمع إيقاف التبادل التجاري مع كندا في الوقت الحالي، فمن سيرغب بالذهاب إلى شمال جلعاد عدا القاطنون فيها؟

الباص لم يكن ممتلئًا؛ كل ركابه كانوا من طبقة الكفاف. سلكنا طريقًا مفتوحًا على المناظر الطبيعية، لكن لم يكن هناك من مناظر تذكر. الموتيلات ومطاعم الطريق كانت مغلقة، وأكثر من كركند أحمر كبير ومبتسم سقط متداع على الأرض.

مع مضيّنا شمالًا، المشاعر الودية اتجاهنا فترت: فالنظرات الغاضبة أخذت في الازدياد، وراودني الإحساس بأنّ مهمة اللآلئ الكريمة وقصة جلعاد بأسرها تفتقر إلى الشعبية في هذه الأرجاء. لا أحد بصق في وجهينا، لكن لو كان الأمر بيدهم، لبصقوا. اكتفوا وحسب بالتقطيب العابس.

رحت أتساءل في نفسي كم من الطريق قطعنا. آغنس من كانت لديها الخريطة التي علّمت عليها الخالة ليديا، لكني لم أرغب في سؤالها إخراج الخريطة: فمنظر كلينا نقرأ خريطة كان حتمًا سيثير الشبهات. الباص كان بطيئًا، وداهمني قلقٌ عارم. إذ كم من الوقت سيمضي قبل إدراكهم اختفاءنا من أردوا هول؟ هل سيصدقون رسالتي الزائفة؟ هل سيتصلون بمراكز الحدود، يقيمون حواجز طرق، يوقفون الباص؟ فقد كنا هدفين واضحين جدًا.

ثم دخلنا منعطفًا، شارع ذو مسار واحد، وكان مزدحمًا. لمحت يديْ آغنس ترتعشان في عصبية، فوكزتها بمرفقي. "علينا أن نبدو هادئتين، أتذكرين؟" ابتسمت ابتسامةً شاحبة وضمّت يديها على حجرها؛ شعرت بها تأخذ أنفاسًا عميقة وتزفرها على مهل. أظن حتى في أردوا هول لك أن تتعلم درسًا أو درسين يفيدانك في حياتك، والسيطرة على النفس هي أحد تلك الدروس. المرأة العاجزة عن السيطرة على نفسها ستعجز عن السيطرة على ثبات طريقها نحو أداء واجبها. لا تقاومي أمواج الغضب، بل استغليها وقودًا لك. تنشقي. ازفري. تنحَّيْ جانبًا. طوِّقي. راوغي.

ما كنت أبدًا لأصلح خالة.

كان الوقت قد قارب الخامسة مساءً حين قالت آغنس، "سننزل هنا."

"هل وصلنا الحدود؟" سألتها، وأجابتني لا، بل حيث يفترض بنا أن نلتقي توصيلتنا التالية. تناولنا حقيبتي الظهر من الرف ونزلنا من الباص. واجهات متاجر البلدة كانت محصنة بألواح خشبية ونوافذها متهشمة، لكننا وجدنا محطة وقود وبقالة رثة.

"يرفع المعنويات،" قلت في تشاؤم.

"الحقي بي ولا تنطقي بكلمة."

في الداخل، المكان فاح برائحة التوست المحروق والأقدام. بالكاد كان يوجد شيءٌ على الأرفف، صفٌ واحد وحسب من الأطعمة المحفوظة مشطوبة الأحرف:

معلبات وبسكويت أو كوكيز. آغنس توجهت إلى نضد القهوة – إحدى تلك النضد الحمراء مع مقاعد البار الطويلة – وجلست، وجلست أنا مثلها. كان هناك رجل كفاف في منتصف عمره، قصيرٌ وبدين، يعمل خلف النضد. لو كنا في كندا، لكانت امرأة كهلة، قصيرة وبدينة.

"نعم؟" قال الرجل سئمًا. من الواضح لم يكن مفتونًا بهيئة اللآلئ الكريمة.

"كوبا قهوة، رجاءً،" قالت آغنس.

صب القهوة في كوبين ودفع بهما على النضد. حتمًا ظلت القهوة بائتة النهار بأكمله لأنها أسوأ قهوة ذقتها في حياتي، أسوأ حتى من قهوة "كاربتز". لم أرغب في إثارة حنق الرجل بعدم شربها، لذا أفرغت رزيمة سكر فيها علّها تتحسن، غير أنها زادتها سوءًا.

"اليوم دافئ بالنسبة إلى يوم مايوي،" قالت آغنس.

"لسنا في شهر مايو،" قال الرجل.

"بالطبع لا،" قالت آغنس. "خطئي. فنحن مقبلون على قمر حزيران."

وتبسّم الرجل. "توجهي إلى الحمام، كليكما. عبر ذاك الباب، سأفتحه لكما الآن."

عبرنا الباب. لم يكن بحمام، بل سقيفة تضم شباك صيد سمك قديمة، فأسًا مكسورًا، كومة دلاء، وبابٌ خلفي. "لا أدري لم أخذتما كل هذا الوقت؟" قال الرجل. "الباص اللعين، دائمًا يتأخر. هاكما أغراضكما الجديدة. مصابيح إضاءة. ضعا رداءيكما في حقيبتي الظهر، سأتخلص منهما لاحقًا. سأنتظركما في الخارج. هيّا، علينا أن نسرع."

الملابس كانت بنطالَيْ جينز وبلوزتيْن طويلتي الأكمام وجوارب صوفية وجزمتي تسلق، سترتين بليديتين، قبعتيْ صوف، وستر مضادة للماء. واجهت مشكلة مع كم البلوزة الأيسر – شيءٌ علق بالحرف "O". "اللعنة،" قلت متنرفزة، ثم عدت وقلت، "آسفة." في حياتي بأسرها ما بدلت ملابسي أسرع من تلك المرة، لكن ما إن نزعت عني الرداء الفضي وارتديت تلك الملابس شعرت أني أخيرًا عدت إلى نفسي.

محضر أقوال الشاهدة "369A"

62

وجدت الملابس التي أمنوها لنا جدًا فاضحة. الثياب الداخلية مختلفة عن تلك البسيطة المتينة التي نرتديها في أردوا هول: هذه كانت زلقة وفاسقة. وفوقها كنا سنرتدي ملابس رجالية. أزعجني ملمس القماش الخشن على جلد ساقيّ، بلا تنورة تحتانية عازلة. ارتداء الثياب هذه هي خيانةٌ للجنس وضد قوانين الرب: العام الماضي شنقوا رجلًا على الحائط لارتدائه ملابس زوجته الداخلية. هي من اكتشفته وبلغت عنه، في امتثال فاضل لواجبها الشرعي.

"سأنزعها عني،" قلت لنيكول. "هذه ملابس رجالية."

"لا، ليست ملابس رجالية. هذه بناطيل جينز للفتيات. انظري، قَصّتها مختلفة، وهناك كيوبيد فضي. حتمًا بنطال فتيات."

"كلامك هذا لن يأخذوا به أبدًا في جلعاد، قد أتلقى عقوبة الجلد، ولربما عقوبة أسوأ."

"جلعاد،" قالت نيكول، "ليست وجهتنا. لدينا دقيقتان فقط حتى ننضم إلى صديقنا خارجًا. لذا ابلعي الموس."

"عذرًا؟" أحيانًا يشق عليّ فهم ما تقوله أختي.

ضحكت قليلًا. "يعني كوني شجاعة."

كنا ذاهبتين إلى وجهة هي تفهم لغتها، وأنا لا.

* * *

شاحنة الرجل كانت بالية. ثلاثتنا انحشرنا في المقعد الأمامي. رذاذٌ بدأ يتساقط.

"شكرًا لكل ما تفعله لأجلنا،" قلت له. الرجل أجابني ناخرًا.

"مقابل أجر،" قال لي. "لهذا أخاطر بوضع عنقي في الحبل. كم بتّ مسنًا على أفعال كهذه."

لا بد أنّ السائق كان يشرب في انتظارنا نبدل ملابسنا: كان يفوح برائحة الخمر. تذكرت رائحتها من حفلات العشاء في بيت الرئيس كايل حين كنت صغيرة. روزا وفيرا اعتادتا احتساء المتبقي في الكؤوس. أما صِلّة، فنادرًا ما فعلت.

الآن وأنا أغادر جلعاد إلى الأبد، راودني الحنين إلى صِلّة وروزا وفيرا، إلى بيتي السابق، وإلى طابيثة. ففي تلك الأيام الخوالي لم أكن يتيمة الأم، لكن الآن صرت أشعر حقًّا باليتم. حتى الخالة ليديا، كانت أشبه بأم لي، وإن أمًّا قاسية، وهأنذا لن أراها أبدًا. الخالة ليديا أخبرتني ونيكول بأن أمنا الحقيقية ما تزال على قيد الحياة وهي في انتظارنا في كندا، لكني تساءلت إن كنت سأموت في طريقي إليها. إن مت، فلن ألتقي بها أبدًا في هذه الحياة. آنذاك ما كانت سوى صورة اقتطعتها. كانت غيابًا، كانت فجوةً في داخلي.

رغم شربه الخمر، قاد بنا في كفاءة وسرعة. الطريق كان متعرجًا، وزلقًا إثر الرذاذ. قطعنا أميالًا عديدة؛ القمر طلع من وراء السحاب، نوره الفضي ترأرأ على خطوط قمم الأشجار. على الطريق بيوتٌ متفرقة، كما المعتاد، إما مظلمة أو مضاءة إضاءة خفيفة. بذلت جهدًا واعيًا في كبت قلقي؛ من ثم غفوت.

حلمتُ برفقة. كانت هناك، جالسة جانبي في مقعد الشاحنة الأمامي. عجزت عن رؤيتها، رغم أني كنت واعية لوجودها. في الحلم قلت لها، "ها أنت هنا، معنا، رغمِ كل شيء. كم أنا سعيدة!"

لكنها ما ردّت عليّ بكلمة.

محضر أقوال الشاهدة " 369B"

64

الليل انسلّ في صمت. آغنس كانت نائمة، والرجل الذي كان يقود بنا السيارة لم يكن من هواة الحديث. أظنه اعتبرنا حمولةً يوصلها، ومذ متى السائق يتبادل الحديث مع حمولته؟

بعد برهة انعطفنا إلى طريق جانبيّ ضيق؛ المياه تتلألأ أمامنا. ركنا جانب مكان بدا رصيف قوارب خاص. كان هناك زورقٌ بمحرك وأحدهم جالسٌ فيه.

"أيقظيها،" قال السائق. "خذا متاعكما، ها هو الزورق في انتظاركما."

وكزت آغنس في ضلوعها وبدأت تستيقظ.

"أشرقي عصفورتي،" قلت لها.

"كم الساعة الآن؟"

"ساعة الزورق. هيّا فلنذهب."

"رحلة موفقة،" ودعنا السائق قائلًا. آغنس راحت تشكره من جديد، لكنه قاطعها. ألقى بحقيبتي الظهر خارج شاحنته وانصرف قبل أن نقطع حتى نصف الطريق إلى الزورق. كنت قد أشعلتُ مصباح الإضاءة كي نستدل طريقنا.

"أطفئي الضوء،" الشخص الجالس نادى علينا في صوت خفيض. كان رجلًا، يرتدي سترة مضادة للماء ورافعًا قلنسوته. من الصوت بدا لي يافعًا. "بإمكانك أن تريْ. تمهلي. اجلسي هنا في المقعد الأوسط."

"هل هذا هو المحيط؟" سألت آغنس.

ضحك على سؤالها. "ليس بعد، هذا نهر بينوسكوت. عن قريب ستبلغين المحيط."

المحرك كان كهربائيًا وهادئًا جدًا. الزورق تحرك مباشرةً نحو وسط النهر؛ القمر كان هلالًا، صورة انعكاسه على صفحة الماء.

"انظري،" همست آغنس. "ما سبق أن رأيت شيئًا بهذا الجمال! مثل أثر من ضوء!" لحظتها شعرت بأني أنا الأخت الكبرى. كنا قاب قوسين أو أدنى من مغادرة جلعاد، وها هي القوانين بدأت تتبدل. هي الذاهبة إلى المكان الجديد حيث تجهل كيف تسير الأمور، وأنا العائدة إلى وطني.

"نحن هنا في العراء. ماذا إن رآنا أحد؟" سألت الرجل. "ماذا إن بلغوا عنا إلى العيون؟"

"الناس هنا لا يتبادلون الحديث مع العيون،" قال لي. "ولا نحب الوشاة."

"هل أنت مهرب؟" سألته، إذ تذكرت ما أخبرتني به آدا. أختي وكزتني: ها قد تجاوزتُ حدود الأدب مرة أخرى. فطرح الأسئلة الصريحة لا يجوز في جلعاد.

ضحك على سؤالي. "الحدود – خطوطٌ على خريطة. أشياءٌ تقطعها، أناسٌ يقطعونها. وأنا لست سوى فتى التوصيل."

النهر أخذ في الاتساع. الضباب ارتفع؛ الضفاف صارت غبشاء.

"ها هي هناك،" أعلن الرجل أخيرًا. وكان لي أن أرى طيفًا أغمق، على سطح الماء. "نيللي جي. بانكس. تذكرتكما إلى الجنة."

الحائط

سِفرُ أَرْدوا هول

65

عُثِر على الخالة فيدالا واقعة خلف تمثالي وغائبة عن الوعي. الخالة كلوفر وبستانيّان سبعونيان هم من عثروا عليها. التشخيص الذي وصل إليه المسعفون أنها أصيبت بسكتة دماغية، تشخيصٌ أكّد عليه أطباؤنا. الخبر شاع في أردوا هول، وإيماءاتٌ حزينة تبادلتها الرؤوس، مع وعود برفع صلوات لأجل شفائها. وجدوا عقد لؤلؤ منفرط جوار موقع سقوط الخالة فيدالا: إحدى اللآلئ الكريمة لا بد أضاعته، سهوٌ غير مقصود وإن يظل هدرًا لا مبرر له. سأعمم مذكرةً تحض على التيقظ للأغراض التي في عهدتنا. فاللآلئ لا تنمو على الأشجار، كذا سأقول، ولا حتى الصناعية منها؛ ولا يجدر بهن كذلك إهداؤها إلى الخنازير[37]. ليس أنّ لدينا خنازير في أردوا هول، سأردف بتحفظ.

ذهبت لزيارة الخالة فيدالا في وحدة العناية المركزة. كانت مستلقية على ظهرها مع عينيها مغمضتين وأنبوب موصول فيها عبر أنفها وآخر في ذراعها. "وكيف هي حال عزيزتنا الخالة فيدالا؟" سألت الخالة الممرضة.

"أصلي لأجلها،" قالت الخالة فلانة. لطالما صعب عليّ تذكر أسماء الخالات الممرضات: هذا قَدَرهن. "هي في غيبوبة: ربما غيبوبتها ستكون عاملًا في شفائها. قد تعاني نوعًا من الشلل. يخشون أنها ستعاني من صعوبة في النطق."

"إن شفيت."

"متى ما شفيت،" قالت الخالة في نبرة موبخة. "لا نقبل هنا بالتلفظ بأمور

37 "Don't cast pearls before swine": مثلٌ يقال عن إهداء الشيء الثمين لمن لا يستحق، لا سيما الشخص الحقير.

سلبية على سمع المريض. قد يبدو المريض نائمًا، لكن غالبًا ما يكون في كامل وعيه."

جلست جانب الخالة فيدالا إلى أن غادرت الممرضة. وفي نظرة عجلى تفحصت كل وسائل إبقائها على قيد الحياة. هل أرفع منسوب البنج؟ أتلاعب بالمغذي المغروز في ذراعها؟ هل أنزع عنها أنبوب الأكسجين؟ لكني ما فعلت شيئًا من هذا. فأنا أؤمن في بذل الجهد، لكن ليس الجهد غير الضروري: فعلى الأغلب الخالة فيدالا تفاوض طريق خروجها من هذا العالم بنفسها. وقبل مغادرة وحدة العناية المركزة، انتشلت قارورة مورفين صغيرة ودسستها في جيبي، كون استشراف المستقبل من أمهات الفضائل[38].

بينما جلسنا نتناول وجبة الغداء في قاعة الطعام، علقت الخالة هيلينا على غياب الخالة فيكتوريا والخالة إمّورتيل. "أظنهما صائمتان،" قلت لها. "لمحتهما البارحة في قاعة القراءة في مكتبة هلدغارد العامة، تدرسان الإنجيل، وتصليان لأجل الهداية في مهمتهما التي ستنطلقان إليها عن قريب."

"تصرفٌ جديرٌ بالثناء،" قالت الخالة هيلينا. وواصلت إحصاءها الصامت لرؤوس البنات. "وأين هي المهتدية الجديدة، جايد؟"

"لربما متوعكة،" أجبتها. "العارض الأنثوي."

"سأذهب وأرى،" قالت الخالة هيلينا. "ربما ستحتاج إلى مطارة ماء حار. المدخل "C"، أليس كذلك؟"

"لطفٌ منك أن تفعلي. أجل. على ما أظن فغرفتها هي العلّية في الطابق الثالث." أملت أن تكون نيكول تركت رسالة فرارها في مكان ظاهر للعيان.

الخالة هيلينا عادت على عجل من زيارتها إلى المدخل "C"، منتشية من شدة حَماسها على ما اكتشفته للتو: الفتاة جايد قد فرت للزواج. "مع سمكري يدعى غارث،" أردفت الخالة هيلينا. "تدّعي أنها وقعت في غرامه."

38 أمهات الفضائل وفق أفلاطون: العفة، الشجاعة، الحكمة، والاعتدال؛ واللاهوت المسيحي أضاف عليها: الإيمان، الأمل، والمحبة.

"للأسف،" قلت لها. "يجدر بنا العثور عليهما، نوجه إليهما تأنيبًا رسميًّا، والتأكد أنّ مراسم الزواج طبقت وفق الشرع. على أية حال، جايد كانت خرقاء وفظة، ما كانت أبدًا لتصبح خالة محترمة. فلننظر إلى الجانب المشرق: زواجهما سيساهم في تناسل سكان جلعاد."

"لكن كيف لها أن التقت بسمكري؟" سألت الخالة إليزابيث.

"كانت هناك شكوى هذا الصباح من الوحدة السكنية "A" بخصوص شح مياه الاستحمام، فاستدعينا السمكري. من الواضح أنه كان حبًا من النظرة الأولى. فاليافعون متهورون."

"لكن الاستحمام غير مسموح به في ساعات الصباح الأولى،" قالت الخالة إليزابيث. "إلا إن كان هناك من تخالف القوانين."

"للأسف، الاحتمال وارد،" قلت لها. "فالجسد ضعيف أمام الإغواء."

"أوه، أجل، جدّ ضعيف،" وافقتني الخالة هيلينا. "لكن كيف تمكنت من عبور البوابة؟ فهي لا تملك تصريح عبور، لما سمح الملائكة لها بالخروج."

"الفتيات في عمرها رشيقات وسريعات،" قلت لهما. "أتوقعها تسلقت الحائط."

واصلنا غداءنا – شطائر جافة وفظاعةٌ كريهة ارتكبوها بالطماطم، ختامًا بطبق مهلبية سائلة – ومع نهاية وجبتنا المتواضعة تحول فرار الفتاة جايد، مأثرة تسلقها الأكروباتي على الحائط، تشبثها العنيد بخيار تحقيق مصيرها الأنثوي كاملًا بلا نقصان بين ذراعي حبيبها رجل الكفاف والسمكري المغوار، معرفة عامة لدى الجميع.

نيللي جِى. بانكس

محضر أقوال الشاهدة " 369B"

66

توقف بنا الزورق جانب المركب. على ظهره تراءى لي ثلاثة أخيلة؛ مصباحٌ ضوئي سطع لوهلة. ثم تسلقنا سلم الحبل.

"إجلسي على الحافة، وأرجحي قدميك صوبي،" سمعت صوتًا يقول. أحدهم أمسك بي من ذراعي. وهكذا بتنا جميعًا واقفين على سطح المركب.

"كابتن ميشيمنغو،" قال الصوت. "هلمّا داخلًا." سمعت همهمة خفيفة وشعرت بالمركب يتحرك.

مضينا نحو قمرة صغيرة تغطي نوافذها ستائر معتمة وفيها لوح تحكم وشيئًا أشبه برادار، إذ لم تتسنّ لي الفرصة لأتفحصه جيدًا.

"سعيدٌ بنجاحكما في الوصول،" قال الكابتن ميشيمنغو، وصافح يدينا؛ إصبعان من أصابعه كانا مبتورين. كان رجلًا مكتنزًا، في الستين من عمره، بشرته مسمرة مع لحية قصيرة سوداء. "والآن، هذه هي قصتنا، في حال سئلتما: هذا مركبٌ شراعي لصيد القد، يعمل بالطاقة الشمسية، مع محرك احتياطي يعمل بالوقود. العلم المرفوع هو علم لبنان. سلمنا شحنةً من سمك القد والليمون برخصة خاصة، أي السوق الرمادية، والآن نحن في طريق عودتنا. لزامٌ عليكما البقاء بعيدًا عن الأنظار طوال اليوم. مصدري أبلغني، عبر بيرت الذي أوصلكما إلى الرصيف، بأنهم عاجلًا سيبحثون عنكما. هناك مكانٌ لكما كي تناما فيه، في العنبر. إن صادفنا تفتيش، من قبل خفر السواحل، فلن يكون تفتيشًا دقيقًا، فأولاء الرجال معارفنا." وفرك إصبعيه، إيماءة أعرف أنها تعني المال.

"هل لديك أي طعام؟" سألته. "بالكاد تناولنا أي شيء اليوم بطوله."

"بالتأكيد." وأخبرنا أن ننتظر وعاد إلينا بكوبي شاي وعدة شطائر. كانت شطائر جبنة، لكن ما كانت بجبنة جلعاد، بل جبنة حقيقية: جبنة ماعز مع الثوم، النوع الذي كانت تحبه ميلاني.

"شكرًا،" قالت آغنس. كنت بدأت أصلًا بالتهام الشطيرة، فغمغمت شكري في فم مملوء.

"صديقتك آدا ترسل إليك السلام، وأنها ستراك عن قريب،" قال الكابتن ميشيمنغو.

ابتلعت لقمتي. "من أين تعرف آدا؟"

ضحك وأجاب، "كلنا أقرباء بعض، على الأقل في هذه الأنحاء. أنا وهي اعتدنا الذهاب لصيد الغزلان في نوفاسكوشا معًا، في الأيام الخوالي."

نزلنا أسفل سلم إلى العنبر حيث كان يفترض بنا أن ننام. كابتن ميشيمنغو تقدمنا، وأشعل الأضواء. كانت هناك ثلاجات مجمدة، وصناديق معدنية مستطيلة وكبيرة. على جانب أحد الصناديق مصراعٌ قابل للطي، وفي داخله كيسا نوم لم يبدوا نظيفين على الإطلاق: أظننا لسنا أول من سيستخدمهما. المكان بأسره كان يفوح برائحة السمك. "يمكنكما الإبقاء على المصراع مفتوحًا ما دامت الأمور مستتبة،" قال الكابتن ميشيمنغو. "نومًا هنيئًا، لا تدعا بق الفراش يعضكما." وسمعنا صوت خطاه المنسحبة.

"يا له من مكان مقرف،" همست لآغنس. "رائحة السمك. أكياس النوم هذه. أراهنك أنها موبوءة بالقمل."

"فلنكن حامدات شاكرات،" قالت لي. "ونخلد إلى النوم."

وشم "God/Love" ما انفك يزعجني، وجدتني مضطرة للاستلقاء على جانبي الأيمن كي لا أهرسه. وخطر لي أنّي لربما مصابة بتسمم في الدم. فإن كنت حقًّا مصابة، فأنا في ورطة لعينة لأن بالتأكيد ما من طبيب على متن المركب.

كان الوقت ما يزال ليلًا لدى استيقاظنا على تأرجح المركب. آغنس خرجت من صندوقنا المعدني وصعدت السلم كي ترى ما الذي يجري. أردت الذهاب معها لكني لم أشعر بأني على ما يرام.

عادت حاملةً معها مطارة شاي وبيضتين مسلوقتين. قد وصلنا المحيط، قالت لي، والأمواج هي التي تؤرجح القارب. لم تتصور أبدًا أنّ هناك أمواجًا عالية كهذه، رغم أنّ الكابتن ميشيمنغو أخبرها بأن هذه الأمواج ليست بشيء يذكر.

"يا الله، أتمنى ألا تعلو أكثر. فأنا أكره التقيؤ."

"رجاءً لا تنطقي اسم الرب لغوًا،" قالت لي.

"آسفة،" قلت لها. "لكن إن كنت لا تمانعين قولي هذا، إن افترضنا أنّ هناك فعلًا من رب، فقد خرّب حياتي."

ظننتها ستشتاط غضبًا مني، لكن كل ما قالته، "لست وحدك من يعاني في هذا الكون. كل من فيه يعاني من أمر ما في حياته. لكن لربما الرب خرّب حياتك هذه، كما تقولين، لسبب وجيه."

"ولا أطيق الانتظار أكثر لمعرفة السبب الذي لأجله خرّب الرب اللعين حياتي،" قلت لها. الألم في ذراعي صيّرني مهتاجة. ما كان يجدر بي أن أبدو ساخرة، ولا كان يجدر بي الإساءة إلى الرب بهذه الطريقة أمامها.

"لكني ظننتك استوعبت الهدف الحقيقي من مهمتنا. تخليص جلعاد من خطاياها. تطهيرها من ذنوبها. قيامتها من جديد. لأجل هذا السبب نحن هنا."

"أتراك تصدقين فعلًا أنّ كومة الخراء المتقيح هذه لها أي أمل في القيامة؟ خلاصها لا يكون إلا بحرقها عن بكرة أبيها!"

"لم عساك تودين إنزال الأذى في أناس كثيرين؟" سألتني برفق. "جلعاد موطني، وفيها نشأت. من دمرها هم الرؤساء. ولا أتمنى لها إلا مستقبلًا أفضل."

"آه، حسنٌ،" قلت لها. "أفهمك. أنا آسفة. لم أقصدك أنت. فأنت أختي."

"اعتذارك مقبول. وشكرًا لتفهمك."

جلسنا في الظلمة حيث لذنا بالصمت لدقائق. كان لي أن أسمع شهيق

أنفاسها، وتنهيدات زفيرها.

"برأيك، هل سننجح في مهمتنا؟" سألتها أخيرًا. "هل سنصل هناك؟"

وأجابتني، "الأمر ليس بيدينا."

محضر أقوال الشاهدة "369A"

67

مع بداية يومنا الثاني، اعتراني قلقٌ عارم على نيكول. ادّعت بأنها ليست مريضة، لكنها كانت مصابة بالحمى. استرجعت ما تعلمناه في أردوا هول عن العناية بالمرضى، لذا حاولت أقصى جهدي وقايتها من الجفاف. كان هناك ليمون، وتدبرت خلط عصيره مع الشاي ومع قليل من الملح والسكر. الصعود والنزول من السلم المؤدي إلى قمرة نومنا بات سهلًا عليّ، وتفكرت كيف كان سيشق عليّ الصعود والنزول لو كنت مرتدية تنورةً طويلة.

الطقس كان ما يزال ضبابيًا. كنا ما نزال في مياه جلعاد الإقليمية، وحوالي الظهر أوقفنا خفر السواحل للتفتيش. نيكول وأنا أغلقنا باب مصراع الصندوق المعدني علينا. قبضتْ نيكول على يدي وشددتُ أنا على يدها بكل قوتي، وبقينا صامتتين. سمعنا خطى أقدام تدوس حولنا، وأصواتًا، لكن سرعان ما تضاءلت تلك الأصوات وتوقف قلبي عن الخفقان بسرعة.

لاحقًا ذاك اليوم تعرض المحرك للعطب، وهو ما اكتشفته لدى صعودي لعصر مزيد من الليمون. كابتن ميشيمنغو بدا قلقًا: الأمواج في هذه الأرجاء عالية ومهتاجة، دون محرك بالوقود ستجرفنا الأمواج إلى البحر، أو تجرفنا إلى خليج فانداي حيث سيتحطم المركب على الشواطئ الكندية، وحينها سيصادرون المركب ويلقون القبض على الطاقم. المركب أصلًا بدأ ينجرف جنوبًا؛ أيعني هذا أننا عائدون إلى جلعاد؟

تساءلت إن كان الكابتن ميشيمنغو يساوره الندم على اصطحابه لنا. فقد أخبرني أنهم إن لاحقوا المركب وأمسكوا بها، ووجدونا داخلها، فسيتهم بجريمة

تهريب النساء. مركبه ستصادر، وبما أنه هو نفسه مواطن جلعادي وهرب من مستوطنات جلعاد القومية عبر الحدود الكندية، فمن حق جلعاد مطالبة الحكومة الكندية بتسليمه ومحاكمته بتهمة التهريب، وتلك ستكون نهايته.

"قد وضعناك في خطر كبير،" قلت له ما إن أخبرني بكل هذا. "ألا يوجد اتفاق بينك وبين خفر السواحل؟ عن السوق الرمادية؟"

"سينكرون أي معرفة بي، فلا شيء مكتوبٌ بيننا،" أخبرني. "فمن منهم سيريد أن يقتل رميًا بالرصاص لأجل رشوة؟"

في العشاء كان لدينا شطائر دجاج، لكن نيكول لم تكن جائعة وأرادت أن تنام.

"هل أنت مريضة؟ هل لي أن أضع يدي على جبينك؟" جبينها كان يحترق من الحمى. "أريد أن أقول لك كم أنا ممتنة لوجودك في حياتي، كم أني سعيدة لأنك أختي."

"وأنا أيضًا،" قالت لي، وبعد دقيقة سألتني، "هل تظنين أننا يومًا سنرى أمنا؟"

"لديّ إيمانٌ أننا سنراها."

"وهل تظنين أنها ستعجب بنا؟"

"بل ستحبنا،" قلت لها كي أخفف عليها. "ونحن سنحبها."

"القرابة بالدم لا تعني بالضرورة وجود الحب،" غمغمت قائلة.

"الحب انضباط، مثله مثل الصلاة،" قلت لها. "وأود أن أرفع صلاةً لأجلك، كي تتحسني. هل تمانعين؟"

"لن تنفع بشيء. لن أشعر بأي تحسن."

"لكني أنا سأشعر بتحسن،" قلت لها. فوافقت.

"يا الله، ألهمنا تقبل ماضينا بكل أخطائه، حتى نمضي قدمًا إلى مستقبل أفضل، غافرات محبّات. ألهمنا شكرك على نعمة الأخت، واكتب لنا رؤية أمنا، وأبوينا. وعسانا نتذكر دومًا الخالة ليديا، واغفر لها ذنوبها وخطاياها، مثلما

نرجوك أن تغفر لنا ذنوبنا وخطايانا. وعسانا دومًا نكن حامدات شاكرات لك على نعمة أختنا رفقة، أينما تكون. أرجوك ربي، باركهم جميعًا برحمتك وعطفك. آمين."

وما إن ختمت صلاتي، نامت أختي.

حاولت الخلود إلى النوم، لكن الجو في العنبر بات خانقًا أكثر من المعتاد. بعد برهة سمعت صوت خطى تنزل السلم المعدني. كان الكابتن ميشيمنغو. "آسف، لكن يجب أن ننزلكما الآن."

"الآن؟ لكن الوقت ليل."

"آسف،" كرر الكابتن ميشيمنغو اعتذاره. "تدبرنا إصلاح المحرك، لكن لا نملك ما يكفي من وقود. نحن حاليًا في المياه الإقليمية الكندية، لكن بعيدون كل البعد عن الوجهة المتفق عليها. ولا يمكننا الرسو على مرفأ، إذ سأعرض نفسي والطاقم لخطر كبير. والموج الليلة يعاكسنا."

أخبرني أنّنا مقابل الساحل الشرقي لخليج فانداي. كل ما علينا فعله أنا ونيكول هو الوصول إلى ذاك الشاطئ وستكون أمورنا على ما يرام؛ لكن هو لن يخاطر بمركبه وطاقمه.

نيكول كانت مستغرقة في نومها؛ كان عليّ أن أهزها كي تستيقظ.

"هذا أنا،" قلت لها. "أختك."

وأعاد كابتن ميشيمنغو سرد القصة عليها: علينا أن نغادر نيللي جى. بانكس فورًا.

"ما الذي تقوله؟ أنّ علينا أن نسبح؟" سألته نيكول.

"سنضعكما في قارب نجاة مطاطي، قمت بالاتصالات اللازمة ويتوقعون الالتقاء بكما هناك."

"لكنها ليست في حال جيدة،" قلت له. "ألا يسعنا تأجيل الأمر إلى الغد؟"

"مطلقًا،" أجاب حازمًا. "الموج يغير اتجاهه اللحظة. إن لم نستغل هذه

النافذة الضيقة فسننجرف حتمًا إلى البحر. هيّا، تدثرا بأشد الملابس دفئًا، وقابلاني على سطح المركب في عشر دقائق."

"أشد الملابس دفئًا؟" قالت نيكول. "هل يظن أننا أحضرنا معنا ملابس بعثة قطبية؟"

وهكذا ارتدينا كل ملابسنا. الجزم، قبعات الصوف، الستر المضادة للماء. نيكول صعدت أولًا على السلم: لم تكن متزنة، استخدمت فقط ذراعها اليمنى.

على السطح وجدنا الكابتن ميشيمنغو في انتظارنا مع فرد من طاقمه. جهزا لنا سترتي نجاة ومطارة. على الجانب الأيسر من المركب رأينا جدارًا من ضباب يمتد نحونا.

"شكرًا لك،" قلت للكابتن ميشيمنغو. "على كل شيء فعلته لأجلنا."

"آسف أنّ الخطة لم تجر كما كان مقررًا لها،" قال لي، ثم أردف، "فليحفظكما الرب."

"شكرًا لك،" كررتها عليه. "وليحفظكم الرب."

"تحاشيا الضباب ما استطعتما."

"روعة،" قالت نيكول. "هذا ما كان ينقصنا، الضباب اللعين."

"لربما نعمة."

أنزلونا في قارب النجاة المطاطيّ. كان مزودًا بمحرك شمسيّ: بسيط الاستخدام، كذا قال الكابتن ميشيمنغو: تشغيل، تسييب، أمام، وراء. كذلك كان هناك مجذافان.

"ادفعي،" قالت نيكول.

"عذرًا؟"

"ادفعي بقاربنا بعيدًا عن نيللي. لا ليس بيديك! هاكِ – استخدمي مجذافًا."

تدبرت دفع قاربنا، لكن ليس ببراعة، فأبدًا ما حملت مجذافًا في يدي. شعرت بأني خرقاء. "وداعًا، نيللي جي. بانكس، كنت طيبة معنا،" قلت مودعةً اياها، "فليباركك الرب!"

"لا تزعجي نفسك بالتلويح، فلن يروك،" قالت نيكول. "هم الآن مبتهجون بتخلصهم منا، فنحن حمولةٌ مسمومة."

"كانوا لطفاء معنا."

"ليس من طيبة قلوبهم، بل من كومة النقود التي استلموها على حسابنا."

نيللي جي. بانكس أبحرت بعيدًا عنا. في قلبي دعوت لها برحلة آمنة.

شعرت بالتيار الجارف يقبض على القارب المطاطي. قودا القارب على نحو موارب، كذا أوصانا الكابتن ميشيمنغو: إياكما قطع التيار بشكل مباشر، فقد ينقلب بكما القارب.

"امسكي المصباح،" قالت نيكول. وراحت تتعبث بالأزرار على المحرك، بيدها اليمنى. والمحرك دار. "هذا التيار أشبه بالنهر." فعلًا، كان يجرفنا بسرعة بالغة. لمحت أضواءً على الشاطئ يسارنا، بيد أنها كانت بعيدة جدًا. الجو كان باردًا، تلك البرودة التي تخترق كل ملابسك.

"هل وصلنا؟" قلت بعد برهة. "إلى الشاطئ؟"

"آمل ذلك،" قالت نيكول. "لأننا إن لم نصل، فسريعًا سنجد نفسينا عائدتين إلى جلعاد."

"فلنقفز من القارب إذن،" قلت لها مذعورة. فالعودة إلى جلعاد ليست أبدًا بخيار، مهما كان الثمن: إذ حتمًا اكتشفوا اختفاء نيكول، وأنها لم تهرب مع رجل كفاف. وما كنت أبدًا لأخون رفقة وكل ما فعلته لأجلنا. أوثر الموت على إيذائها.

"سحقًا،" قالت نيكول. "المحرك خرئ علينا."

"ماذا؟ هل بإمكانك ..."

"أحاول جهدي. اللعنة!"

"ماذا؟ ما الخطب؟" كان عليّ أن أرفع صوتي: فالضباب حاوطنا، وصوت الماء الهادر كان يصدح في آذاننا.

"تماسٌّ كهربائي، على ما أظن. أو لربما البطارية نفدت."

"هل فعلوا ذلك عمدًا؟ ربما يرغبون في موتنا."

"مستحيل! لم عساك تقتل زبائنك؟ اسمعي، علينا أن نجذف الآن."

"نجذف؟"

"أجل نجذف، بالمجذافين،" قالت نيكول. "سأجذف فقط بذراعي اليمنى، فالأخرى أشبه بفقع الذئب، وإياك أن تسأليني ما هو فقع الخراء!"

"ليس خطأي أني أجهل تلك الأمور."

"حقًا؟ أترينه الوقت المناسب للدخول في هذا النقاش؟ أنا آسفة جدًا، من كل قلبي اللعين، لكننا في فوضى طارئة هنا! هاك، امسكي بالمجذاف!"

"حسنٌ، حسنٌ،" قلت لها. "ها قد مسكته."

"ضعيه في مسند المجذاف. في مسند المجذاف! ذاك الشيء هناك! والآن، استخدمي كلتا يديكِ. حسنٌ، والآن راقبيني! متى ما هتفت هيّا، ضعي المجذاف في الماء واسحبي،" قالت نيكول. كانت تصيح بأعلى صوتها في وجهي.

"لا أعرف كيف. أشعر بأني عاجزة تمامًا."

"كفي عن البكاء،" واصلت نيكول صياحها. "لا أكترث البتة لمشاعرك! فقط افعلي ما أمرتك به! الآن! متى ما قلت هيّا، اسحبي المجذاف إليك! هل ترين الأضواء؟ ها نحن ندنو منها!"

"لا أظن!" قلت لها. "نحن بعيدتان جدًا. سيجرفنا التيار بعيدًا."

"لا لن يجرفنا التيار،" قالت نيكول. "ليس إن حاولتِ. والآن، هيّا! هيّا! ها قد فعلتِها! أحسنتِ! هيّا! هيّا! هيّا!"

اسْتَيْقِظي

68

الخالة فيدالا فتحت عينيها. لم تنطق بعد بشيء. هل ما زال من عقل لديها؟ هل تتذكر رؤية الفتاة جايد في رداء اللؤلؤة الكريمة الفضي؟ هل تتذكر اللكمة القاضية التي أوقعتها أرضًا؟ وهل ستنطق بما تتذكر؟ إن كانت الإجابة نعم على السابق، فالإجابة هي نعم على اللاحق. ستجمع اثنين باثنين – ومن غيري له أن يسهل تنفيذ سيناريو كهذا؟ أي تبليغ عني تنقله إلى الممرضة سيصل فورًا إلى العيون؛ وعندئذ عقارب الساعة ستتوقف. عليّ أن آخذ احتياطاتي. لكن أيّ احتياطات، وكيف؟

الإشاعة السارية في أردوا هول تقول إنّ السكتة لم تكن طبيعية، بل نتيجة صدمة، أو حتى اعتداء. من أثر كعبي حذائها في التراب يتبين أنّ أحدهم جرّها وألقى بها خلف تمثالي. قد أخرجوها من وحدة العناية المركزة والآن هي في جناح النقاهة، والخالة إليزابيث والخالة هيلينا تتناوبان الجلوس بجانب فراشها، في انتظار كلماتها الأولى، كلٌّ تشك في الأخرى؛ لذا يستحيل عليّ الاستفراد بها.

رسالة الفرار للزواج دار حولها الكثير من التخمين. وعليّ أن أقرّ، أنّ قصة السمكري كانت لمسة ممتازة: تفصيلٌ مقنع. كم فخورة أنا ببراعة نيكول، وأثق أن براعةً كهذه ستنفعها في المستقبل القريب. فالقدرة على تلفيق أكاذيب مقنعة موهبة لا يستخف بها.

بالطبع عادوا إليّ لمعرفة ما الإجراء المناسب. هل يجدر إطلاق عملية تفتيش؟ موقع الفتاة الحاليّ ليس بذي أهمية، كان رأيي، ما دام الزواج والتناسل هو هدفها؛ لكن الخالة إليزابيث قالت إن الرجل لربما فاسق أو حتى عميلٌ لليوم المايوي تسلل

متنكرًا إلى أردوا هول؛ وفي كلتا الحالتين، سيستغل الفتاة جايد ثم يتخلى عنها، وبعدها لن تصلح لشيء سوى حياة الجارية؛ لهذا يتوجب بنا العثور عليها فورًا وإلقاء القبض على الرجل وإخضاعه للتحقيق.

لو كان هناك من رجل حقيقي، لكان هذا هو المسار المتبع: فالفتيات العاقلات في جلعاد لا يهربن للزواج والرجال أصحاب النية الصالحة لا يهربون معهن. لذا كان عليّ أن أذعن، وأرسلت فريق تفتيش من الملائكة حتى يغربلوا البيوت والشوارع في المنطقة المجاورة. الملائكة كانوا فاتري الحماس: فمطاردة فتاة موهومة ليست بالعمل البطولي. ولا داعي للقول، أنّ الفتاة جايد لم يعثر عليها؛ ولا سمكري مزيف من اليوم المايوي نقبوه من تحت الأرض.

الخالة إليزابيث رأت أن القصة بأكملها مثيرة للشك. اتفقت معها، وأخبرتها بأني الأخرى محتارة. لكن – سألتها – ما الذي بيدي فعله؟ فالأثر البارد يظل باردًا. ولا حلّ أمامنا سوى انتظار التطورات.

الرئيس جود لم يكن من السهل إلهاؤه. استدعاني إلى مكتبه في اجتماع طارئ. "أضعتِ الرضيعة نيكول." كان يرجف غضبًا مكظومًا، وكذلك خوفًا: أن تكون الرضيعة نيكول في قبضة يده، وتنسل هكذا من بين أصابعه – فأمرٌ لن يغفره له المجلس. "من أيضًا يعرف بهويتها؟"

"لا أحد آخر،" قلت له. "أنا، أنت، ونيكول بالطبع – إذ ارتأيت إطلاعها على المعلومة، كي أقنعها بقدرها العظيم. ولا أحد آخر."

"ولن يعرف أحد! أبدًا! كيف سمحتِ لشيء كهذا أن يحدث؟ أن تحضريها كل الطِريق إلى جلعاد، ثم تسمحين باختفائها هكذا أمام عينيك، بكل بساطة ... فعلتك وضعت سمعة العيون على المحك، وكذلك سمعة الخالات."

وكيف لي أن أعبر لك بالكلمات، إحساس البهجة العارمة التي غمرتني برؤيتي جود يتلوى هكذا أمام عينيّ، لكني سترت بهجتي بقناع كآبتي. "لا أدري، فقد اتخذنا كل احتياطاتنا،" قلت له. "إما أنها فعلًا فرّت، أو خطفت. إن خطفت فعلًا، فلا

بد أنها صنيعة اليوم المايوي."

كنت أشتري وقتًا. فالمرء منا دومًا يسعى إلى شراء شيء.

***

رحت أحصي الساعات مع انقضائها. الساعات، الدقائق، الثواني. كانت لدي أسبابي وراء إيماني أنّ رسوليّ في طريقهما، تحملان معهما بذور هلاك جلعاد. إذ ليس عبثًا قضيت أعوامًا وأعوام أصور في أردوا هول كل ملفات جرائم رؤسائها وأعزة قومها.

حقيبتا ظهر تابعتان للآلئ الكريمة عثر عليهما مرميتين في فيرمونت جانب مسار تسلق مهجور. الحقيبتان احتوتا رداءين فضيّين، قشور برتقال، وعقد لؤلؤ واحد. أطلقوا عملية تفتيش في المنطقة، مع كلاب التقفي. لكن لا أثر.

ولا عجب، فرائحة الرنكة الحمراء تشتت الانتباه.

قسم الأشغال تفحص مسألة شح المياه التي اشتكت منها الخالات القاطنات في الوحدتين السكنيتين "A" و"B" وعثروا على المسكينة الخالة إمّورتيل في الصهريج، تسد المنفذ. الطفلة المقتصدة خلعت عمدًا ثوبها حتى يحتفظ به لأجل فتاة أخرى في المستقبل؛ عثر عليه مطويًا بعناية على الدرجة العليا من السلم. أبقت وحسب على ثيابها التحتانية حياءً. ما كنت لأتوقع تصرفًا غير هذا منها. لا تظن أني لست حزينة على فقدانها؛ لكني أعود وأذكر نفسي بأنها هي من ضحت بنفسها بكامل إرادتها.

هذا الخبر فجّر دورةً جديدة من الشكوك والافتراضات: إشاعةٌ سرت بأنّ الخالة إمّورتيل قتلت، ومن عساه سيرتكب جريمة كهذه سوى المهتدية الكندية المفقودة التي تدعى جايد؟ كثيرٌ من الخالات – من ضمنهن الخالات اللواتي رحبن بقدومها ببهجة ورضا – راحوا يقلن الآن بأنهن دومًا شككن في أمرها.

"يا لها من فضيحة مروعة!" قالت الخالة إليزابيث. "ستنعكس بصورة سيئة جدًا علينا."

"سنغطي الأمر،" قلت لها. "القصة الرسمية هي أنّ الخالة إمّورتيل كانت تحاول ببساطة التحقق من الصهريج بنفسها، كيما توفر علينا توظيف عمالة مكلفة لأداء المهمة. لا بد أنها زلقت، أو أغمي عليها. ما حصل ليس سوى حادث تعرضت له أثناء أدائها واجبًا إيثاريًّا. هذا ما سأقوله في جنازتها المهيبة والتمجيدية التي سنبدأ اللحظة بتنظيمها."

"فكرةٌ عبقرية،" قالت الخالة إليزابيث، في ارتياب. "لكن، هل تظنين أحدًا سيصدق هذه القصة؟"

"سيصدقون أيّما يسمعون طالما هو في صالح أردوا هول،" أجبتها في حزم. "لأنه أيضًا في صالحهم."

لكن الشكوك زادت. لؤلؤتان كريمتان عبرتا البوابة – الملائكة الذين ناوبوا يومها أقسموا على هذا – وتصاريحهما كانت قانونية. هل يعقل أنّ إحداهما هي الخالة فكتوريا، من لم تظهر بعد في قاعة الطعام؟ إن لا، فأين هي؟ وإن كانت هي اللؤلؤة الكريمة التي عبرت البوابة، فلماذا رحلت مبكرًا إلى إرساليتها قبل عيد الشكر؟ وإن لم تكن الخالة إمّورتيل برفقتها، فمن تلك اللؤلؤة الكريمة الأخرى؟ هل الخالة فكتوريا متواطئة في عملية هروب مزدوج؟ إذ، مع مرور الوقت، بدت المسألة أكثر وأكثر هروبًا مخططًا له. ورسالة الفرار للزواج ما هي إلا جزءٌ من الخطة: بنية الخداع، ومماطلة عمليات البحث. كم هنّ مخادعات وماكرات تلكن الفتيات اليافعات، تهامسن الخالات – لا سيما الأجنبيات.

ثم وصل الخبر بأنّ لؤلؤتين كريمتين تم رصدهما في محطة باص في بورتسموث في نيوهامبشير. الرئيس جود نفسه أمر بإطلاق عملية المطاردة: تلكما المدعيتان – كذا أسماهما – مطلوبتان للقبض والتحقيق. ولا أحد سواه يسمح له بتبادل كلمة معهما. وفي حال محاولتهما الهرب، فالقتل رميًا بالرصاص.

"أليس إجراءً قاسيًا بعض الشيء،" قلت له. "فهما يافعتان وغرّتان. أحدهم لا بد أضلّهما."

"في هذه الظروف، الرضيعة نيكول الميتة تفيدنا أكثر بكثير منها حية. أثق أنك تدركين ذلك، خالة ليديا."

"اعذرني على غبائي،" قلت له. "آمنت حقًّا أنها صادقة؛ أعني، صادقة في نيتها الانضمام إلينا. لكان انقلابًا مذهلًا في ميزان القوى، لو أن الأمور آلت إلى ذاك المنحى."

"من الواضح أنها مدسوسة، أرسلوها إلى جلعاد تحت غطاء مزيف. ببقائها على قيد الحياة، ستجر كلينا إلى الهاوية معها. ألا تفهمين كم هشًا سيصبح وضعنا إن أمسك أحدهم بها قبلنا وأجبرها على الكلام؟ سأخسر كل مصداقيتي، وعندئذ، سيستلون السكاكين الطويلة من الأغماد[39]، ولن يكون ظهري وحسب: بل عهد حكمك في أردوا هول - وبصراحة – حياتك أنت."

يحبني، لا يحبني: أجدني أتقمص دور الأداة، أُسْتخدم وأُطْرح بعيدًا. لكنها لعبة ذات حدين.

"معك كل الحق،" قلت له. "للأسف الشديد فالبعض في دولتنا مهووسٌ برد الثأر. لا يدركون أنّ كل شيء فعلته إنما فعلته للصالح العام، لا سيما عمليات التطهير والغربلة. وحتى في هذه المسألة فقد أخذت الخيار الحكيم، كما هي عادتك."

ابتَسم على كلامي، ابتسامة متوترة. وإذ تلمع في خاطري ذكرى. وما كانت بالمرة الأولى التي تخطر لي. أنا في كساء المسح البني، أرفع مسدسًا، أصوِّب، أطلق النار. رصاصة. ليست رصاصة.

رصاصة.

39 إشارة إلى "ليلة السكاكين الطويلة" وهي عملية تطهير سياسية وعسكرية في ألمانيا النازية قادها هتلر وأفضت إلى تصفية منافسيه وترسيخ سلطته.

ذهبت مرة أخرى لزيارة الخالة فيدالا. وجدت الخالة إليزابيث تقضي نوبتها، تحيك قبعةً صغيرة جدًا للمواليد الخدّج، الموضة الرائجة هذه الأيام. دومًا سأظل ممتنة أنّي ما تعلمت الحياكة يومًا.

عينا فيدالا كانتا مغمضتين. كانت تتنفس في انتظام: حظي ينحدر سوءًا.

"هل تحدثت بعد؟"

"لا، ولا كلمة." قالت الخالة إليزابيث. "ليس وأنا هنا."

"أحسنت صنعًا في إبقائك عينًا متيقظة عليها،" قلت لها. "لكن لا بد أنك مرهقة، دعيني أريحك لبعض الوقت. اذهبي وتناولي كوبًا من الشاي." رمقتني بنظرة مرتابة، لكنها غادرت.

ما إن غادرت الغرفة أحنيت رأسي وتلفظت عاليًا في أذن فيدالا. "استيقظي!"

فتحت عينيها. وركزت بصرها عليّ. ثم همست، في لسان واضح من غير جمجمة. "أنت من فعل ذلك، ليديا. وستشنقين على فعلتك،" على وجهها ترتسم ملامح الانتقام والانتصار: فأخيرًا وضعت يدها على الاتهام الذي سيلصق بي، ووظيفتي ستغدو من نصيبها.

"أنت متعبة،" قلت لها، "عودي للنوم." وأغمضت عينيها. كنت أنقب في جيبي عن قارورة المورفين التي أحضرتها معي حين دخلت إليزابيث. "نسيت أغراض حياكتي."

"فيدالا تكلمت. ما إن خرجت من الغرفة."

"وما الذي قالته؟"

"لا بد أنها تعاني من تلف في الدماغ. فهي تتهمك أنت بضربها. تزعم أنك متعاونة مع اليوم المايوي."

"قطعًا لا أحد سيصدق كلامها،" قالت إليزابيث، وجهها ابيضّ ذعرًا. "إن كان من أحد قد ضربها فعلًا فهي تلك الفتاة جايد."

"من الصعب التنبؤ بما سيصدقه الآخرون،" قلت لها. "فالبعض قد يجد في الأمر ذريعة لاتهامك. فليس كل الرؤساء راضين عن المصير المخزي الذي لقيه

دكتور غروف. وقد تناهى إلى سمعي بأن منهم من يجدك عنصرًا غير موثوق فيه – فإن اتهمت غروف – فمن ستتهمين لاحقًا؟ وكيفما كان سيقبلون بشهادة الخالة فيدالا ضدك. فالناس تحب التضحية بكبش فداء."

جلست منهارة. "هذه كارثة."

"سبق أن حوصرنا في الزاوية، إليزابيث،" قلت لها برفق. "هل تذكرين حجيرة الشكر. كلتانا نجونا منها. ومذ ذاك ما تورعنا عن عمل أي شيء للنجاة بأنفسنا."

"لطالما كنت سندي، ليديا."

"لمن المؤسف أنّ الخالة فيدالا تعاني من الحساسية،" قلت لها. "آمل أنها لن تعاني من أزمة ربو وهي نائمة. أخشى أنه يتوجب بي المغادرة الآن، فلديّ اجتماع. سأترك فيدالا أمانةً بين يديك الراعيتين. أرى أن وسائدها في حاجة إلى ترتيب."

عصفوران بحجر واحد: وإن حدث، فالنتيجة مرضية جماليًّا وعمليًّا، وإلهاءٌ يتسنى لي به شراء المزيد من الوقت للهروب. وإن ليس بالضرورة هروبي أنا، ففرصي في النجاة بلا خدش ستصبح شبه معدومة ما إن تنكشف الأمور على حقيقتها، وتظهر نيكول على شاشة أخبار كندا تعرض على الملأ محتوى الذاكرة الفلاشية التي حملتها لأجلي.

السـاعة تدق، والدقائق تمر. أنتظر، وأنتظر.

طيرا في أمان، يمامتاي الفضيتان، ملاكيّ المُدَمِّران. وحطّا على البرّ بسلام.

برّ الأمان

محضر أقوال الشاهدة "369A"

69

لا أدري كم من الوقت قضينا في القارب المطاطيّ. بدا لي ساعات. آسفة، ليس بيدي أن أمنحك جوابًا دقيقًا.

كان هناك ضباب. الأمواج كانت عالية، الرذاذ والماء ينهالان علينا. الطقس كان باردًا برود الموت. التيار كان سريعًا، يجرفنا اتجاه البحر. ما شعرت به يفوق الذعر: كنت موقنة أننا سنموت. القارب المطاطي سيُغْمَر بالماء، وسينقلب بنا في عرض المحيط، حيث سنغرق أعمق وأعمق. حيث رسالة الخالة ليديا ستضيع، وكل التضحيات التي بذلت لإيصالها ستضيع معها هباءً.

يا الله، صليت في قلبي. أرجوك وأتوسل إليك، أعِنّا على الوصول إلى بر الأمان. وإن كان لا بد لأحد أن يدفع حياته قربانًا، فلتكن حياتي أنا، أنا وحسب.

رحنا نجذف ونجذف، كلٌّ في يدها مجذاف. ما سبق لي أبدًا أن كنت في قارب لذا لم أعرف ما العمل. شعرت بالإرهاق والعجز، وذراعاي تشنجتا من الألم.

"لا أستطيع،" قلت لها.

"واصلي التجذيف!" صاحت نيكول. "نحن على ما يرام!"

تناهى إليّ صوت ارتطام الأمواج على الشاطئ، لكن الظلمة كانت حالكة حدّ عجزت عن رؤيته. وإذ بموجة عالية ضخمة تضرب قاربنا، ونيكول راحت تصيح، "جذفي! جذفي وإلا سنموت!"

سمعت صوت شيء يسحق، كان حتمًا صوت حصى. موجةٌ عارمة أخرى ضربتنا، والقارب المطاطي مال جانبًا وانجرفنا نحو البر. وجدتني على ركبتيّ في الماء، فالموجة أطاحت بي، لكني تدبرت النهوض، ويد نيكول امتدت إليّ في الظلمة

وسحبتني نحوها حيث صخور الجلمود. ووقفنا أنا وإياها، بعيدًا عن قبضة المحيط. كنت أرجف، أسناني تصطك، يداي خدرتان وكذا قدماي. نيكول ألقت بذراعيها حولي.

"نجحنا! نجحنا! ظننتنا سنموت!" راحت تصرخ. "آمل أنّ هذا الشاطئ اللعين هو الشاطئ الصحيح!" قالت ضاحكة، تحاول لاهثة التقاط نفسها.

وفي قلبي صليت. يا الله، الحمد والشكر لك.

محضر أقوال الشاهدة "369B"

70

كنا قاب قوسين أو أدنى من الموت. كدنا نركل السطل. لجرفنا التيار وانتهى الحال بنا في أميركا الجنوبية، أو على الأرجح، لالتقطتنا جلعاد وعلقت جثتينا الهامدتين على الحائط. كم أنا فخورة بآغنس - بعد تلك الليلة صدقًا أصبحت أختي. ظلت تكافح حتى النهاية، حتى بعد أن خارت قواها. ما كنت أبدًا لأتمكن من تجذيف القارب المطاطي وحدي.

الصخور كانت غادرة. الكثير من الطحالب الزلقة. عجزت عن الرؤية جيدًا لأن الظلمة كانت حالكة. من حسن حظي، آغنس كانت إلى جانبي، إذ بدأت حينها في الهذيان. ذراعي اليسرى ما عادت ذراعي - كأنها انفصلت عني والكُم هو ما يربطها بجسدي.

تسلقنا صخورًا كبيرة وخوّضنا في برك الماء، نتعثر ونتزلق، لم أعرف إلى أين كنا ذاهبتين، لكن ما دمنا نصعد التل فهذا يعني ابتعادنا عن الأمواج. كنت شبه نائمة، منهكة. قلت في نفسي، ها قد قطعت كل هذا الطريق والآن سأخسر كل شيء وأقع وأسحق جمجمتي. رفقة قالت مضى الكثير وما بقي إلا القليل. لا أذكر أني رأيتها معنا على القارب المطاطي لكنها كانت معنا على الشاطئ، لم أرها حينها لأن الظلام دامس. ثم قالت، أنظري للأعلى. اتبعي الضوء.

أحدهم راح يصيح من الجرف أعلانا. كانت هناك أضواءٌ تتحرك في الأعلى، وصوتٌ يصرخ، "ها هما هناك!" وآخرٌ ينادي، "هنا! هنا!" كنت مرهقة جدًا لأرد عليهم النداء. وها هي أقدامنا على الرمل، والأضواء انحدرت صوبنا من التل على يميننا.

أحد حاملي الأضواء كانت آدا. "قد فعلتها،" قالت لي، فقلت لها، "أجل،" ولحظتها هويت. أحدهم رفعني عن الأرض وحملني بين ذراعيه. كان غارث. قال لي، "ألم أقل لك؟ أحسنت! كنت أعرف أنك ستنجحين." وكشرت له في ابتسامة عريضة.

صعدنا التل ووجدت في انتظارنا أضواءً ساطعة وأناس يحملون كاميرات تلفزيونية، وصوتًا يقول، "ابتسمي لنا." وهنا أغشي عليّ.

نقلونا بطائرة الإسعاف إلى مركز كامبوبيللو الطبي للاجئين وهناك حشوني بالمضادات الحيوية، وعندما استيقظت ذراعي ما عادت منتفخة ولا موجعة.

أختي، آغنس، كانت هناك إلى جانب فراشي، ترتدي بنطال جينز وبلوزة مكتوّبٌ عليها اركضوا للحياة، كافحوا السرطان. وجدته شعارًا مضحكًا لأن هذا ما كنا نفعل: نركض لأجل حياتنا. كانت تمسك بيدي. آدا إلى جانبها، وكذلك إلايجا، وغارث. ابتساماتهم من الشدق إلى الشدق كما المجانين.

أختي قالت لي، "هي معجزة. قد أنقذتِ حياتنا."

"نحن فخورون جدًا بكليكما،" قال إلايجا. "وإن كنت آسفًا حقًّا بشأن القارب المطاطي، فالاتفاق كان يقضي بإيصالكما إلى المرفأ."

"مذ وصولكما وأنتما تحتلان نشرات الأخبار،" قالت آدا. أختان تتحديان كل الاحتمالات. هروب الرضيعة نيكول الجريء من جلعاد."

"والذاكرة الفلاشية،" قال إلايجا. "هي الأخرى تصدرت الأخبار. وثائق مزلزلة. العديد من الجرائم، بين كبار الرؤساء في جلعاد – أكثر بكثير مما كنا نأمل. الإعلام الكندي ينشر الوثائق توالًا، وعن قريب جدًا رؤوسٌ ستتدحرج. مصدرنا في جلعاد صدقًا أوفى بوعده."

"هل بادت جلعاد؟" سألته. أجل شعرت بالسعادة، لكني أيضًا شعرت وكأني في حلم، كأن الشخص الذي فعل كل هذا لم يكن أنا. كيف أخذنا كل تلك المخاطر؟ من ذا الذي حملنا قدمًا؟

"ليس بعد،" قال إلايجا. "لكنها البداية وحسب."

"أخبار جلعاد تدعي أن الوثائق بأكملها مزورة،" قال غارث. "أنها مؤامرة من اليوم المايوي."

آدا هرّت ضاحكة. "بالتأكيد هذا ما سيقولونه."

"وأين رفقة؟" سألتهم. شعرت بالدوار من جديد، لذا أغمضت عينيّ.

"رفقة ليست هنا،" أجابتني آغنس بحنو. "هي لم تأت معنا، ألا تتذكرين؟"

"بل أتت. كانت معنا على الشاطئ،" قلت هامسة. "أنا سمعتها."

لا بد أني غفوت. ثم عدت واستيقظت. "هل لا تزال مصابة بالحمى؟" سمعت صوتًا يقول.

"ما الذي يجري؟" سألتهم.

"اهدأي،" قالت أختي. "الأمور على ما يرام. أمنا هنا. كانت قلقة جدًا عليك. انظري، ها هي إلى جانبك."

فتحت عينيّ، الضوء كان ساطعًا، لكني رأيت امرأة واقفة. بدت لي حزينة وسعيدة، في الآن ذاته؛ كانت تبكي قليلًا. بدت شبيهة بالصورة من ملف الأصول والأنساب، عدا أنها كانت أكبر عمرًا.

ساورني الشعور بأنها هي، لذا مددت إليها ذراعيّ، ذراعي الجيدة وذراعي المتشافية، وأمنا انحنت فوق فراشي الطبي، وعانقنا بعضنا بذراع واحدة. عانقتني بذراع لأن الذراع الأخرى طوقت بها آغنس، وقالت، "فتاتاي الحبيبتان."

هي ذي الرائحة. أشبه بصدىً، بصوت بالكاد تلقطه.

تبسمتْ قليلًا وقالت، "بالطبع لا تذكراني. فقد كنتما طفلتين صغيرتين جدًا."

فقلت لها، "لا، لا أذكرك. لكن لا بأس."

وأختي قالت، "ليس بعد، لكني سأتذكر."

بعدها أغمضت عينيّ، وعدت للنوم.

الوداع!

وأتمنى لكِ حظًا طيبًا

سِفْرُ أَرْدوا هول

71

وقتنا معًا يشارف على الانتهاء، قارئي العزيز. ربما سترى في الصفحات التي دونتها صندوق كنز هش، يُفْتح بمنتهى العناية. ولربما ستمزق صفحاتي إربًا، أو حتى تحرقها: فغالبًا، هذا مصير الكلمات.

وقد تكون طالبًا في التاريخ، وفي هذه الحال، آمل أنك ستجد فائدةً مني: بورتريه بكل عيوبي، تدوينٌ مفصل لحياتي وزمني، ومزودٌ - لراحتك - بالهوامش؛ بيد أني سأذهل إن لم تتهمني بسوء النية. في واقع الأمر، لا، لن أذهل: لأني سأكون ميتة، والأموات عصيٌّ إذهالهم.

أتصوركِ امرأةً يافعة، ذكية، طموحة. تخططين لحفر كوة لك في الصخر، تنبشين أظافرك في جدران ذاك الكهف المعتم من ترجيع الصدى، العالم الأكاديمي، الذي أتوقع سيظل موجودًا في زمنك. أتصوركِ جالسةً إلى مكتبك، شعرك مدسوسٌ خلف أذنيك، طلاء أظافرك متشقق – فطلاء الأظافر سيعود، دومًا ما يعود. أنت عابسة، قليلًا، وعبوسك سيصبح عادةً مع تقدمك في العمر. أحوم خلفك، أحدق من أعلى كتفك: ملهمتك، وحيك الخفيّ، أحثّك من كل قلبي على المضي قدمًا.

ستكدحين على تدويني هذا، تقرأين وتعاودين القراءة، تلتقطين القمل في طريقك، ومع الوقت سيعترم صدرك بهذا الشعور المذهل والمضجر أيضًا من الكراهية التي عادةً ما يحملها مؤرخو السير الذاتية تجاه أصحاب السير. كيف تراني ارتكبت كل تلك الأفعال الشائنة، بمنتهى القسوة، بمنتهى الغباء؟ ستطرحين السؤال. حتى أنك ستقولين إنك أبدًا ما كنت لترتكبي فعلًا منها! ما كنتِ لترتكبيها، أجل، لأنك أبدًا لن تضطري لارتكابها.

***

وبهذا نصل إلى نهايتي. الوقت فات: فات على درء جلعاد الدمار الآتِ إليها. يحزنني أني لن أعيش حتى أرى هلاكها – حريق روما، سقوطها من غير رجعة. والأوان فات عليّ. الساعة الآن في وقت متأخر من الليل: ليلة صافية لا تشوبها سحابة عابرة، كما لاحظت لدى تمشيتي. القمر بدرٌ، سطوعها البهي، سطوع قمر الحصاد، يغمر كل شيء. ثلاث عيون أدوا التحية لي، ما إن مررت بهم: في ضوء القمر رأيت وجوههم جماجم نذيرة، مثلما وجهي حتمًا بدا لهم.

سيأتون بعدما يفوت الأوان، العيون المراقبة. فرسولاي قد طارا. ومتى ما اشتدت الشدائد – عن قريب جدا – سأسلك الطريق الأسرع. حقنة أو حقنتان من المورفين ستتكفل بالأمر. هي الطريق المثلى: فإن سمحت لنفسي بأن أعيش، سأتقيأ الكثير من الحقيقة. فالتعذيب رقصة: وأنا بتّ امرأةً عجوزًا على الرقص. دع الأصغر عمرًا يمتحنّ شجاعتهن. وإن كن لا يملكن الخيار أصلًا، كونهن لا يحظين بامتيازاتي.

عدا أني اللحظة عليّ أن أنهي محادثتنا. الوداع، قارئي العزيز. حاول ألا تظن السوء بي، أو على الأقل، ليس بقدر السوء الذي أظنه أنا بي.

في لحظة سأقحم هذه الصفحات في الكاردينال نيومان وأدسها من جديد على رفِّ كتبي. في نهايتي تكمن بدايتي، مثلما قال أحدهم. من كان يا ترى؟ ماري، ملكة اسكتلندا، إن لم يكن التاريخ بكاذب. هو شعارها، مع عنقاء تبعث من جديد من تحت رمادها، مطرزٌ على سجادة حائط معلقة. النساء! يا لهن من مطرزات بارعات.

الخطى تدنو، جزمة تلو الجزمة. بين النَفَسِ والنَفَس، البابُ سيُقرَع.

الندوة الثالثة عشرة

الندوة الثالثة عشرة

ملاحظات تاريخية

جزء من سجل محاضر الندوة الثالثة عشرة في الدراسات الجلعادية، والتي أقيمت ضمن مؤتمر الجمعية التاريخية الدولية، بسّمقودّي[40]، ماين، في 29 يونيو 2197.

رئيس الجلسة: البروفيسور ماريان الهلالية، رئيس جامعة أَنيشِناب[41]، كوبالت، أونتاريو.

المتحدث الأساسي: البروفيسور جيمس دارسي بايكسوتو، مدير أرشيف القرن العشرين والحادي والعشرين، جامعة كامبريدج، انجلترا.

الهلالية: قبل أن نبدأ، نقدم العرفان إلى زعماء وأسلاف شعب بينوسكوت على السماح لنا بإقامة هذا الحدث على أرضهم التاريخية وموافقتهم على تواجدنا فيها اليوم. كذلك أود الإشارة إلى أنّ موقعنا الحالي – بسّمَقودّي، بانجور سابقًا – لم تكن وحسب محطة الانطلاق الأساسية في حركة نزوح اللاجئين عن جلعاد بل أيضًا الموقع الرئيس في درب النساء السري زمن ما قبل الحرب، أي قبل أكثر من ثلاثمائة عام. وكما يقول المثل، التاريخ لا يعيد نفسه، بل يتبع ذات القافية.

يسعدني أن أرحب بكم جميعًا هنا في الندوة الثالثة عشرة من الدراسات الجلعادية! كم كبرت جمعيتنا مذ اجتمعنا آخر مرة، ولأسباب جيدة. إذ يقع علينا واجب تذكير أنفسنا بالمنعطفات الخاطئة التي أخذناها في الماضي كيلا نعاود تكرارها من جديد.

40 "Passamaquoddy": قبيلة بسّمقودّي هي من أوائل قبائل السكان الأصليين في أميركا الشمالية ممن تواصلوا مع الأوروبيين مع بداية القرن السادس عشر كون مناطق نفوذ القبيلة امتدت آنذاك على سواحل ماين.

41 "Anishinaabe": تجمع قبائل السكان الأصليين في كندا.

بعض الإرشادات، أولًا: لمن يود منكم الصيد في نهر بينوسكوت، فقد نظمنا رحلتين ضمن الفعاليات؛ رجاءً لا تنسوا استخدام واقي الشمس وطارد الحشرات. تفاصيل الرحلتين، وجولة **تراث العمارة الجلعادي في البلدة**، ستجدونها جميعًا مرفقة في ملفات الندوة لديكم. كذلك أضفنا فعالية **إنشاد التراتيل الجلعادية الطربية في كنيسة القديس يهوذا**[42]، بمشاركة ثلاثة فرق إنشاد من طلبة مدارس البلدة. الغد سيكون **يوم إعادة إحياء العصر الجلعادي**، لمن جاء منكم مجهزًا بالأزياء والأدوات. وأطلب منكم هنا ألا تنجرفوا في إعادة الإحياء، كما حصل في الندوة العاشرة.

والآن رحبوا معي بالمتحدث المعروف لدينا جميعًا بإصداراته المكتوبة وكذلك من السلسلة التلفزيونية المذهلة التي عرضت عن قريب، داخل جلعاد: الحياة اليومية في الثيوقراطية التطهريّة. العرض الذي قدمه عن المقتنيات والآثار المحفوظة لدى المتاحف من مختلف أنحاء العالم - لا سيما مجموعة المطرزات اليدوية – كان ساحرًا. أقدم لكم: البروفيسور بايكسوتو.

بايكسوتو: شكرا، بروفيسور الهلالية، أو هل يجدر بي أن أقول، السيدة الرئيس؟ فنحن جميعًا نبارك لك على الترقية المستحقة، والتي لكانت أمرًا مستحيل الحدوث في جلعاد. (تصفيقٌ حار). وآمل، مع استحواذ النساء على المناصب القيادية على هذا النحو المطرد المخيف، ألا تقسيْ عليّ. فقد جرحني في الصميم تعليقاتك حول مزاحي البريء في الندوة الثانية عشرة – أعترف بأنّ عددًا منها افتقرت بعض الشيء إلى الذوق – لذا سأحاول اليوم ألا أهين أحدًا. (تصفيقٌ فاتر).

كم يغمرني السرور على وقوفي اليوم أمام هذا الحضور الكبير. من كان ليظن أن الدراسات الجلعادية – المهملة لعقود – ستحقق فجأة هذه الشعبية الكبيرة؟ أولاء منّا من قضوا ردحًا طويلًا من الزمن يكدحون في الزوايا المعتمة النائية في

42 القدّيس يهوذا تدّاوس: في الكنيسة الكاثوليكية هو شفيع الحالات البائسة التي لا أمل فيها.

العالم الأكاديمي ليسوا معتادين على بريق أضواء الشهرة المذهلة. (ضحك)

طبعًا تذكرون معي الحماسة التي عشناها قبل عدة أعوام، مع اكتشافنا الصندوق العسكري المحتوي مجموعة أشرطة الكاسيت المنسوبة إلى الجارية المعروفة بـ أوفريد. تلك اللقية وجدناها هنا في بسّمَقودّي، خلف حائط زائف. وكنا استعرضنا لكم في ندوتنا السابقة سير تحقيقاتنا ونتائجها غير النهائية، والتي ساهمت إلى حد كبير في صعود الاهتمام الأكاديمي وظهور أبحاث مثيرة للإعجاب من قبل أقراننا الأكاديميين.

لمن شكّك في أصالة المادة وتأريخها، بيدي أن أقول الآن إنّ عدة دراسات مستقلة قد أكدت صحة افتراضنا الأولي، وإن كنت أجد نفسي ملزمًا بتقديم بعض الإيضاحات. فالثقب الأسود الرقمي الذي وقع في القرن الحادي والعشرين والذي تسبب باختفاء الكثير من المعلومات نتيجة البلى المطرد في نظام تخزين البيانات – بالتوازي مع التخريب المتعمد الذي نال عددًا كبيرًا من مزارع الخوادم والمكتبات العامة على يد عناصر جلعادية بهدف تدمير كل السجلات والوثائق التي تتعارض مع جلعاد، إضافةً إلى اندلاع الثورات الشعبوية ضد أجهزة الأمن السيبراني القمعي في دول عديدة – كل هذا يعني أنّه ليس من الممكن تأريخ الكثير من المواد الجلعادية تأريخًا دقيقًا. وبناءً عليه، فيتوجب بنا أن نضع في الاعتبار هامش خطأ من عشرة إلى ثلاثين عامًا. وعلى كلٍّ، فضمن هذا الهامش، لي أن أقول مطمئن البال أننا واثقون ثقة أي مؤرخ في معطياته. (ضحك)

ومنذ اكتشاف هذه الأشرطة المهمة جدًا، فقد تسنى لنا أيضًا العثور على لقيتين لا تقلان أهميةً، واللتان إن ثبت مصداقيتهما، فسيعدان إضافةً قيمة على فهم هذا العصر البائد من تاريخنا الجمعي.

أولًا، المخطوطة المعروفة بـ سفر أردوا هول. هذه السلسلة من الصفحات المكتوبة بخط اليد جرى اكتشافها داخل كتاب أبولوجيا برو فيتا سوا للكاردينال نيومان طبعة القرن التاسع عشر. الكتاب بيع في مزاد علني واقتناه جى غريمسبي دودج، القاطن فيما كانت تعرف حتى عهد قريب بكامبريدج، ماساتشوستس. ابن

أخيه ورث مجموعة كتبه وباعها على تاجر مقتنيات عتيقة رأى قيمتها الحقيقية؛ وبذا تواصل معنا.

الشريحة التي نراها الآن هي للصفحة الأولى. خط اليد مقروء لأولاء المدربين على الكتابة المتصلة من العصر القديم؛ حواشي الصفحات قُصّت كي تتسع في حفرة الكاردينال نيومان. التأريخ الكربوني للوثيقة لا يستبعد تدوينها في الحقبة المتأخرة من جلعاد، والحبر المستخدم في الصفحات الأولى هو ذات حبر الرسم النموذجي في تلك المرحلة، أسود اللون، وإن بعد عدد من الصفحات سيستعاض عنه بالحبر الأزرق. الكتابة كانت محرمة على النساء والفتيات، باستثناء الخالات، لكن الرسم كان يدرس لبنات العوائل النخبوية؛ ما يعني وجود مخزون من هذا الحبر.

سفر أردوا هول يدّعي أن مدونه هي "الخالة ليديا"، والتي نالها الذم أكثر من مرة في سلسلة الأشرطة المكتشفة في الصندوق العسكري. كذلك فالأدلة المضمنة في النص تشير إلى أنها قد تكون "الخالة ليديا" نفسها التي عرّفها علماء الآثار بكونها صاحبة التمثال الكبير غير المتقن والذي اكتشف في مزرعة تفريخ دجاج مهجورة بعد سبعين عامًا على سقوط جلعاد. أنف التمثال الرئيسي كان قد جدع، وإحدى التماثيلِ الثانوية كانت مقطوعة الرأس، ما يشير إلى تخريب متعمد. ها هي شريحة بصورة التمثال؛ اعذروني على الإضاءة السيئة. فأنا من التقطت هذه الصورة بنفسي، وللأسف فأنا لست بأبرع مصور فوتوغرافي في العالم. وقيود الميزانية حالت بيني وبين الاستعانة بخدمة مصور محترف. (ضحك)

ويشار إلى شخصية "ليديا" في محاضر استخلاص المعلومات مع عملاء اليوم المايويِ المتغلغلين في النظام الجلعادي بكونها امرأة متحجرة القلب وداهية. وقد عجزنا تمامًا عن العثور ولو على أقل لقطة من مادة تلفزيونية ناجية من تلك الحقبة تظهر فيها، لكن صورة مؤطرة مكتوبٌ خلفها "الخالة ليديا" بخط اليد نبشت من أنقاض مدرسة بنات قصفت إبان انهيار جلعاد.

هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أنّ "الخالة ليديا" هي مُدوّنة السِّفْر.

لكن، مع هذا، يتوجب بنا دومًا توخي الحذر. إذ فرضًا المخطوطة مزورة؛ ولا أعني بكلامي التزوير الأخرق الحاصل في أيامنا هذه بهدف النصب - إذ سرعان ما سيكشف تحليل الورق والحبر خدعةً كهذه - بل أعني أن التزوير وقع في جلعاد نفسها، بل قد أصل إلى القول بأنه تزويرٌ من أردوا هول نفسها.

ماذا لو أنّ المخطوطة هي خدعة مدبرة بهدف تلفيق تهمة ضد "كاتبتها"، مثلما حدث مع **صندوق الرسائل** الذي استجلب حكم الموت على ماري، ملكة اسكتلندا؟ هل كان الفاعل إحدى أعداء "الخالة ليديا"، المذكورات تفصيلًا في السفر ذاته - الخالة إليزابيث، مثلًا، أو الخالة فيدالا - المتعضة من سلطة ليديا المتعاظمة، وتشتهي الحصول على منصبها، والتي لكان خط يد الخالة ليديا وأسلوب حديثها مألوفًا لديها، وحينها لانطلقت في مهمة تدوين هذه المخطوطة المُدينة، على أمل أن يعثر عليها جهاز العيون المراقبة؟

احتمالٌ جدّ وارد. لكن، على العموم، أميل إلى اعتبار مخطوطتنا وثيقةً أصلية. إذ هي حقيقة ثابتة أنّ إحداهن في أردوا هول لا بد زودت الأختين غير الشقيقتين بالوثائق الميكروسكوبية الخطيرة في رحلة هروبهما من جلعاد والتي سنتحدث عنها لاحقًا. وهما أصلًا تدعيان أن المصدر كان الخالة ليديا: فلم لا نأخذ بشهادتهما؟

إلا، بالطبع، إن كانت قصة الفتاتين عن "الخالة ليديا" هي في الأساس تمويهًا، بهدف حماية هوية العميل المايوي المزدوج في حال وجود خونة مندسين في المنظمة المايوية. فهذا الاحتمال دومًا وارد. ففي مهنتنا، أن تفتح صندوقًا غامضًا، يعني أنك ستجد في قلبه صندوقًا غامضًا آخر.

مما يقود بنا إلى وثيقتين أكاد أجزم في مصداقيتهما. هاتان الوثيقتان مصنفتان محاضر لأقوال شاهدتين يافعتين واللتين، اعتمادًا على أقوالهما، اكتشفتا من خلال أرشيف الأصول والأنساب أنهما أختان غير شقيقتان. المتحدثة التي عرفت عن نفسها بـ "آغنس يمامة" تزعم أنها نشأت في جلعاد. الأخرى التي تلقب نفسها "نيكول" يبدو أنها أصغر منها بثمان أو تسع أعوام. وفي شهادتها تصف كيف علمت

عن طريق عميلين مايويّيْن أنه جرى تهريبها من جلعاد وهي بعد رضيعة.

قد تبدو لنا "نيكول" يافعة جدًا، في الأعوام والخبرة، لهكذا مهمة محفوفة بالمخاطر، لكنها بالتأكيد لم تكن أصغر من كثير من المراهقين الذين انخرطوا في عمليات المقاومة والأنشطة التجسسية على مر القرون. حتى أنّ بعض المؤرخين يجادل بأنّ الأشخاص من هذه الفئة العمرية هم الأكثر ملائمة لمجازفات كهذه، لأن الشباب اليافع ميّالٌ إلى المثالية، لا يدرك بعد حتمية موته، ومبتلون بالتعطش الزائد لتحقيق العدالة.

ونعتقد أنّ المهمة الموصوفة في المحاضر لعبت دورًا أساسيًا في إطلاق أحداث الانهيار الأخير لجلعاد، بما أن الوثائق التي جرى تهريبها مع الأخت الصغرى – وثيقة ميكروسكوبية مغروسة في وشمها، والذي عليّ أن أقر أنه أسلوبٌ مبتكر في نقل المعلومات (ضحك) – قد كشفت العديد من الاسرار الشخصية الفاضحة المتصلة بكبار الرؤساء. وبالطبع فأكثرها لفتًا للانتباه المؤامرات التي دبرها رؤساء بهدف تصفية رؤساء آخرين.

الكشف عن هذه المعلومات أشعل شرارة ما يسمى **تطهير بعل** والذي قلص الطبقة النخبوية إلى حد كبير، وأنهك النظام، وأثار حركة العصيان المسلح في الجيش بالتوازي مع اندلاع ثورة شعبية. النضال المدني والفوضى اللذان تأتيًا عن العملية مكنتا المقاومة المايوية من تنفيذ حملة من عمليات التخريب وسلسلة من الهجمات الناجحة انطلاقًا من أقاليم معينة في الولايات المتحدة السابقة، من مثل ميزوري هيل، شيكاغو والمناطق المحيطة بها وديترويت، يوتاه – انتقامًا لمجازر المورمون التي وقعت فيها – جمهورية تكساس، ألاسكا، ومعظم أقاليم الساحل الغربي. لكن تلك حكاية أخرى – حكاية لا يزال المؤرخون العسكريون يعملون على جمع قطعها.

تركيزي سينصب على محضري الشهادة، المسجلين صوتيًا والمنسوخين لاحقًا في هذه السجلات للاستفادة منها على الغالب كمصدر معلومات لدى حركة

المقاومة المايوية. الوثيقتان عثر عليهما في مكتبة جامعة إنّو[43] في شيشاتشو، لابرادور. لا أحد اكتشفها من قبل – على الأرجح لأن الملف كان يحمل عنوانًا مضلّلًا، **حوليّات نيللي جي. بانكس: المُغامِرتان.** أي قارئ عابر يلمح تلك الكلمات لظنها تدوينًا لعمليات تهريب الخمور العتيقة، كون نيللي جي. بانكس هي قارب تهريب الرم الشهيرة في بداية القرن العشرين.

وظلت تلك الوثائق مجهولة إلى أن جاءت ميا سميث، إحدى طالبات الدراسات العليا لدينا والتي كانت تبحث عن موضوع لرسالتها، وفتحت الملف وكشفت الطبيعة الحقيقية لهذه الوثائق. حين مررت تلك الوثائق لي كي أقيمها، تملكني حماسٌ شديد إثر العثور عليها، كون احتمال العثور على تدوين شخصي لأحد مواطني جلعاد احتمالٌ نادر يقارب العدم – لا سيما المتعلق بحياة النساء والفتيات. إذ لكان عصيًّا على المحرومات من القراءة والكتابة ترك تدوينات كهذه وراءهن.

لكن نحن المؤرخون تعلمنا أن نضع افتراضنا الأولي دومًا قيد التشكيك والاستجواب. فهل هذا السرد ذو الحدين هو في الواقع تزويرٌ ذكي؟ فريقٌ من طلاب الدراسات العليا لدينا انطلقوا في مهمة تتبع خط رحلة الهروب وفق وصف الشاهدتين المزعومتين – بدايةً بتحديد الخط على الخرائط البرية والبحرية، من ثم القيام بالرحلة ذاتها على الأرض على أمل العثور على أدلة لربما ما تزال باقية. ما يثير غضبي حقًا هو افتقار الوثيقتين إلى أي ذكر للتاريخ الذي وقعت فيه الأحداث. لذا أثق أنكم إن قررتم المجازفة بحياتكم في مغامرات خطرة كهذه، أنكم ستمدون يد العون لمؤرخي المستقبل وتدونوا التاريخ باليوم والشهر والعام. (ضحك)

بعد بلوغ عدة طرق مسدودة وقضاء ليلة موبوءة بالفئران في مصنع مهجور لتعليب الكركند في نيوهامبشير، التقى الفريق بامرأة مسنة تقيم هنا في بسّمقودّي. وفي المقابلة التي أجروها معها ذكرت أنّ جدها الأكبر روى قصة عن

43 "Innu" قبائل السكان الأصليين في إقليم كوبيك في كندا وفي الإقليم الشمالي الشرقي من لابرادور. أما "Sheshatshiu" فإسم المحمية الخاصة بهذه القبائل.

نقل الناس إلى كندا – كنّ في الأغلب نساء – على متن قارب صيد. حتى أنه احتفظ بخريطة للمنطقة أهدتنا إياها الحفيدة، قائلة إنها كانت على وشك التخلص من هذه الخردة العتيقة كي لا يضطر أحدٌ من بعدها إلى ترتيبها بعد وفاتها.

وسأعرض عليكم الآن الخريطة في الشريحة التالية.

مستعينًا بقلم اللايزر، سأتقفى أثر الطريق الأكثر احتمالًا الذي سلكته اللاجئتان اليافعتان: من هنا إلى هنا بالسيارة، وبالباص إلى هنا، بالشاحنة إلى هنا، بالزورق إلى هنا، ومن ثم على متن نيللي جي بانكس إلى هذا الشاطئ قرب هاربرفيل، نوفاسكوشا. وعلى ما يبدو فمن هناك جرى نقلهما بطائرة الإسعاف إلى مركز استقبال وعلاج اللاجئين في جزيرة كامبوبيللو، نيوبرنسوك.

تاليًا، توجه فريق الطلبة إلى جزيرة كامبوبيللو، حيث البيت الصيفي الذي شيدته عائلة فرانكلن دي روزفلت في القرن التاسع عشر، والذي ضمّ المركز المؤقت لاستقبال اللاجئين. جلعاد أرادت قطع سبل الوصول إلى هذا الصرح فقصفت المجازة المؤدية له بصاروخ أرض جو كي تسد أي طريق هروب بري أمام التواقين إلى أسلوب حياة أكثر ديموقراطية. البيت شهد أوقاتًا قاسية في تلك الحقبة إلا أنّ لاحقًا جرى ترميمه وتحول الآن إلى متحف؛ عدا أنّ، للأسف الشديد، الكثير من الأثاث الأصلي اختفى.

على الأرجح فإن الشابتين اليافعتين قضتا على الأقل أسبوعًا في هذا البيت، إذ وفق شهادتيهما فكلتاهما كانتا في حاجة إلى الرعاية الطبية بعد تعرضهما للبرد الشديد وانخفاض حرارتهما، لا سيما الأخت الصغرى، التي كانت ستتطلب علاجًا من الخمج الذي أصابها إثر التهاب ذراعها. وفيما راح الفريق يبحث في أرجاء البيت، تدفعهم روح الإقدام والمبادرة، عثروا على حزوز مثيرة للاهتمام في المنجور الخشبي لعتبة النافذة في الطابق الثاني.

وها أنا أعرضها عليكم في الشريحة التالية – يعلوها الطلاء لكن، مع ذلك، يمكن قراءتها.

هذا حرف "N"، ولربما يرمز إلى نيكول – إن دققتم النظر ستجدون الخط

الرأسي الأول، هنا – وحرف "A"، و"G": أليس محتملًا أنهما يرمزان إلى "آدا" و"غارث"؟ أو لربما الـ "A" ترمز إلى "آغنس"؟ هناك "V" - فيكتوريا؟ - وأسفل تلك الأحرف بقليل، هنا. أجل، هنا، الحرفان "A L"، واللذان على الأرجح يشيران إلى "الخالة ليديا" المذكورة في شهادتهما.

ومن كانت والدة تلكما الأختين غير الشقيقتين؟ نحن نعرف بوجود جارية هاربة انضمت إلى اليوم المايوي وأصبحت عميلًا نشطًا فيها لعدة أعوام. وبعد نجاتها من محاولتي اغتيال، واصلت عملها لعدة أعوام أخرى تحت غطاء حماية مضاعفة في مقر اليوم المايوي الاستخباراتي قرب باري، أونتاريو، والذي كان في ظاهره مزرعة للقنّب العضوي وتصنيع منتجاته. حتى الآن لم نستثن في المطلق احتمال أن تكون هذه المرأة هي صاحبة أشرطة "حكاية الجارية" والتي عثر عليها في صندوق عسكري؛ ووفقًا لذاك السرد، فهذه المرأة كان لها على الأقل طفلتان. لكن القفز للاستنتاج قد يضلنا عن طريق الصواب، لذا أعتمد على مؤرخي المستقبل أن يمحصوا هذا الأمر مليًّا، إن كان في الإمكان.

للمهتمين – فهناك فرصة حاليًا، مفتوحة لحضور الندوة وحسب، لأسباب تتعلق بالتمويل، لكن نأمل لاحقًا في توفيرها لقطاع أوسع من القراء – فزميلي البروفيسور نوتلي وايد وأنا قد أعددنا نسخًا مصورة من طبعة تضم هذه الوثائق الثلاث، والتي عملنا على صفها في فصول متداخلة بينها في الترتيب الذي ارتأيناه الأكثر منطقيةً في السرد. فكما تعلمون، بيدك انتزاع المؤرخ من الراوي، لكن يستحيل عليك انتزاع الراوي من المؤرخ. (ضحك، تصفيق حار.) كذلك رقّمنا الفصول حتى نسهل على القارئ عمليتي البحث والإسناد: بالطبع لا داع للقول إن هذه الأرقام ليست موجودة أصلًا على الوثائق الأصلية. النسخ ستجدونها عند مكتب التسجيل؛ نسخة واحدة لكل شخص، رجاءً، فالطبعة محدودة.

أتمنى لكم رحلة طيبة في دروب الماضي؛ وبينما أنتم هناك، تأملوا جيدًا معنى الحزوز السرية في منجور عتبة النافذة. سأكتفي وحسب بالقول إن مطابقة هذه الحروف الاستهلالية بأسماء الشخصيات الرئيسة في نصوصنا هذه ستستثير فيك

الكثير من العواطف وتستحضر فيك الكثير من الصور، على أقل تقدير.

والآن سأختم محاضرتي بهذه القطعة الأخيرة المذهلة من الأحجية.

مجموعة الشرائح التي سأعرضها عليكم الآن تظهر تمثالًا قائمًا في حديقة بوسطن العامة. أصل التمثال يوحي بأنّه لا ينتمي إلى العصر الجلعاديّ: فاسم النحاتة المذكور عليه هي لفنانة في مونتريال نشطت في العقود التالية لسقوط جلعاد، وحتمًا التمثال نفسه جرى نقله إلى موقعه الحالي بعد أعوام الفوضى التي تلت سقوط جلعاد وأفضت إلى إحياء عهد الولايات المتحدة الأميركية من جديد.

وعلى ما يبدو فالأسماء المذكورة في نقش الاستشهاد تعود إلى أبطال النصوص بين يدينا. فإن كان التخمين صحيحًا، فهذا يعني أنّ رسولينا لم تعيشا وحسب بما يكفي لرواية حكايتهما بل اجتمع شملهما بأمهما ووالديهما، وأنجبتا أطفالًا وحظيتا بأحفاد.

أنا عن نفسي أعتبر هذا النقش شهادةً مقنعة على مصداقية محاضر شاهدتينا. أجل، الذاكرة الجمعية بطبيعتها معيبة، والكثير من الماضي يجرفه محيط الزمن حيث يظل غارقًا للأبد؛ لكن يحدث أحيانًا، وإن لوهلة، أن ينشق البحر عن الكنز الدفين، ونبصر لمحةً منه. وإن كان التاريخ زاخرًا بالاختلاف حتى في أوهى التفاصيل بين الرواة، ونحن المؤرخون لا نملك في أيدينا أن نُجْمِع أبدًا على قصة واحدة بصورة مطلقة، فأثق أنكم هنا ستتفقون مع النتيجة التي وصلت إليها، وإن في هذه المرحلة على الأقل.

كما ترون، فالتمثال يجسد شابةً يافعة ترتدي زي اللؤلؤة الكريمة: لاحظوا حوافِ القلنسوة المميزة، عقد اللؤلؤ، وحقيبة الظهر. تحمل باقة زهور صغيرة في يديها والتي عرّفها مستشار علم النبات-الإثني بزهور لا-تنسني؛ على كتفها الأيمن يقف طائران، ينتميان، كما يبدو، إلى فصيلة الحمام أو اليمام.

وها هو نقش الاستشهاد. الحروف كانت ذاوية بعض الشيء ويصعب قراءتها مباشرةً من شريحة العرض، لذا منحت نفسي الحق بطباعتها على الشريحة

التالية، هنا. ومع هذه الملاحظة الأخيرة، أختم محاضرتي.

في ذكرى الحبيبة

رفقة، الخالة إمّورتيل

هذا النصب التذكاري أقامته أختاها

آغنس ونيكول

وأمهما، ووالديهما،

وأطفالهما وأحفادهما.

واعترافًا بالامتنان للخدمة العظيمة التي قدمتها

A L

فإنّ طائر السماء ينقل الصوت، وذا الجناح يخبر بالكلام.

والحبّ قويٌّ كالموت.

كلمة شكر

كتبتُ العهود في أماكن كثيرة: في مقصورة قطار ذات قبة عَلِقَت على جانب السكة إثر انهيار طيني، في عدة سفن، في عدة غرف فندقية، في وسط غابة، في وسط مدينة، على مقاعد الحدائق، وفي المقاهي، كلماتٌ منها نقشتها على المناديل الورقية – خيار ورق الكتابة المبتذل - في المفكرات، وعلى اللابتوب. الانهيار الطيني كان خارج سيطرتي، وكذلك أحداثٌ أخرى أثرت في مواقع كتابة الرواية. أما ما عداها فهي ذنبي أنا بالمطلق.

لكن قبل نقشي الكلمات على الصفحات، فالعهود، في جزء منها، كتبت في عقول قراء سلفها، حكاية الجارية، من ما برحوا يتساءلون عمّا جرى بعد نهاية الرواية. خمسٌ وثلاثون عامًا مرت، ولهو دهرٌ طويلٌ من الزمن للتفكر في الأجوبة المحتملة، فالأجوبة تبدلت مع تبدل المجتمع نفسه، والاحتمالات استحالت واقعًا قائمًا. مواطنو العديد من الدول، ومنها الولايات المتحدة الأميركية، يرزحون اليوم تحت ضغوط كبيرة لم يعهدوا مثيلًا لها قبل ثلاثة عقود.

سؤالٌ واحد حول حكاية الجارية ظل يتردد: كيف سقط نظام جلعاد؟ والعهود كُتِبت ردًّا على هذا السؤال. فالأنظمة الديكتاتورية قد تنهار من الداخل، مع فشلها في الإيفاء بوعودها التي صعدت بها إلى رأس السلطة؛ أو قد تسقط إثر هجوم خارجي؛ وأحيانًا الإثنين معًا. فلا معادلة هناك أكيدة وثابتة، بما أنّ أقل القليل من التاريخ حتميٌّ لا يقبل التشكيك.

***

أوجه شكري أولًا إلى قراء حكاية الجارية: ما أظهروه من اهتمام كبير وفضول عارم كان ملهمًا لي. والشكر الجزيل إلى الفريق الضخم في إم جي إم وهولو الذي بثّ الحياة في الكتاب وبعثه في صورة مسلسل تلفازي أخاذ، مصنوع بمهارة وجمال، وحائز على الجوائز: المنتجون ستيف ستارك، وارن ليتلفيلد، ودانيل ويلسون؛ المدير الإبداعي بروس ميللر وفريق الكتابة الممتاز؛ المخرجون الرائعون؛ طاقم التمثيل المذهل، من يقينًا لم يتعاملوا مع العمل وكأنه مسلسل تلفزيوني آخر: إليزابيث موس، آن داود، سميرة وايلي، جوزيف فينيس، إيفون ستراهوفسكي، أليكسس بلديل، أماندا بروغل، ماكس منغيلا، وآخرون كثر. وفي كل مواسمه، احترم صناع المسلسل التلفازي إحدى أهم مسلّمات الرواية وقواعدها: لا حدث مسموحٌ بتضمينه ما لم تكن هناك واقعة سابقة له في التاريخ الإنساني.

كلّ كتاب ينشر هو نتيجة جهود جماعية عظيمة، وهنا أدين بالشكر الجزيل إلى جمهرة المحررين والقراء الأوائل على جانبيْ المحيط الأطلسي من ساعدوا في هذه التجربة الفكرية بطرق لا حصر لها ولا عد، بدءًا مع أحبه! إلى لن تفلتي بهذا! لا أفهم، أخبريني المزيد. هذا الفريق يتضمن، لكن ليس حصرًا، بيكي هاردي في شاتو/بينغوين راندوم هاوس في بريطانيا؛ لويز دينيس ومارثا كانيا-فورستنر في دار بنغوين راندوم هاوس كندا؛ نان تاليس ولو آن والثر في دار بنغوين راندوم هاوس الولايات المتحدة الأميركية؛ جس آتوود غيبسون، من نقدها قاس لا يعرف الرحمة؛ وهيذر سانغستر من سترونغ فينيش، شيطانة التحرير من تلقط كل قملة تجدها في طريقها، حتى تلك التي لم تفقس بعد عن بيضها. والشكر إلى فرق التدقيق اللغوي والإنتاج بقيادة ليديا بوكلير ولوريانا هايلاند في بنغوين راندوم هاوس الولايات المتحدة الأميركية وكيمبرلي هيساس في بنغوين راندوم هاوس كندا.

كما أشكر تود دوتي وسوزان هيرز في بنغوين راندوم هاوس الولايات المتحدة الأميركية؛ جاريد بلاند وآشلي دون في بنغوين راندوم هاوس كندا؛ وفران إوين، ماري يامازاكي، وكلوي هيلي في بنغوين راندوم هاوس بريطانيا.

وإلى وكيلتيّ الأدبيتين-المتقاعدتين، فيبي لارمور وفيفيان شوستر؛ إلى كارولاين ستون، وكايتلين ليدون، كلير نوزيريز، صوفي بيكر، وجودي فابري في كيرتس براون؛ إلى أليكس فاين، دايفيد سابيل، والفريق في فين للإنتاج؛ ورون برنستين في آي سي إم.

في قسم الخدمات الخاصة: إلى سكوت غريفين لما قدمه من نصائح حول الملاحة؛ إلى أوبرون زيل رافنهارت وكريستين جونسون؛ إلى ميا سميث، من اسمها يظهر في النص إثر حضوري مزاد خيري لدعم منظمة الحرية من التعذيب؛ وإلى عدة أعضاء في حركة المقاومة إبان الحرب العالمية الثانية في فرنسا وبولندا وهولندا من عرفتهم عبر السنين. شخصية آدا سُمِّيَت تيمنًا بزوجة عمي، آدا باور آتوود، والتي كانت من أوائل النساء الأدلاء في صيد الغزلان وصيد السمك في نوفاسكوشا.

كما وأشكر كل أولاء الحريصين على دحرجة دواليب حياتي ومن يذكرونني أي يوم نحن فيه، منهم لوشيا سينو في أو. دبل يو. تود المحدودة وبيني كافاناه؛ في. جى. بوير مصمم ومدير موقعي الإلكتروني؛ روث آتوود ورالف سيفيرد؛ إيفلين هيسكن؛ ومايك ستويان وشيلدون شويب، دونالد بينيت، بوب كلارك ودايف كول.

إلى كولين كوين، من تحرص أشد الحرص على مغادرتي جحر الكتابة والانطلاق خارجًا على الطريق السريع؛ زياولان زاو وفيكي دونغ؛ ماثيو غيبسون، من يصلح الأشياء؛ وتيري كارمان فني الكهرباء، لإبقائه الأضواء منارة.

ودائمًا وأبدًا غرايم غيبسون، شريكي في العديد من المغامرات الغريبة والمذهلة على مدى خمسين عامًا.



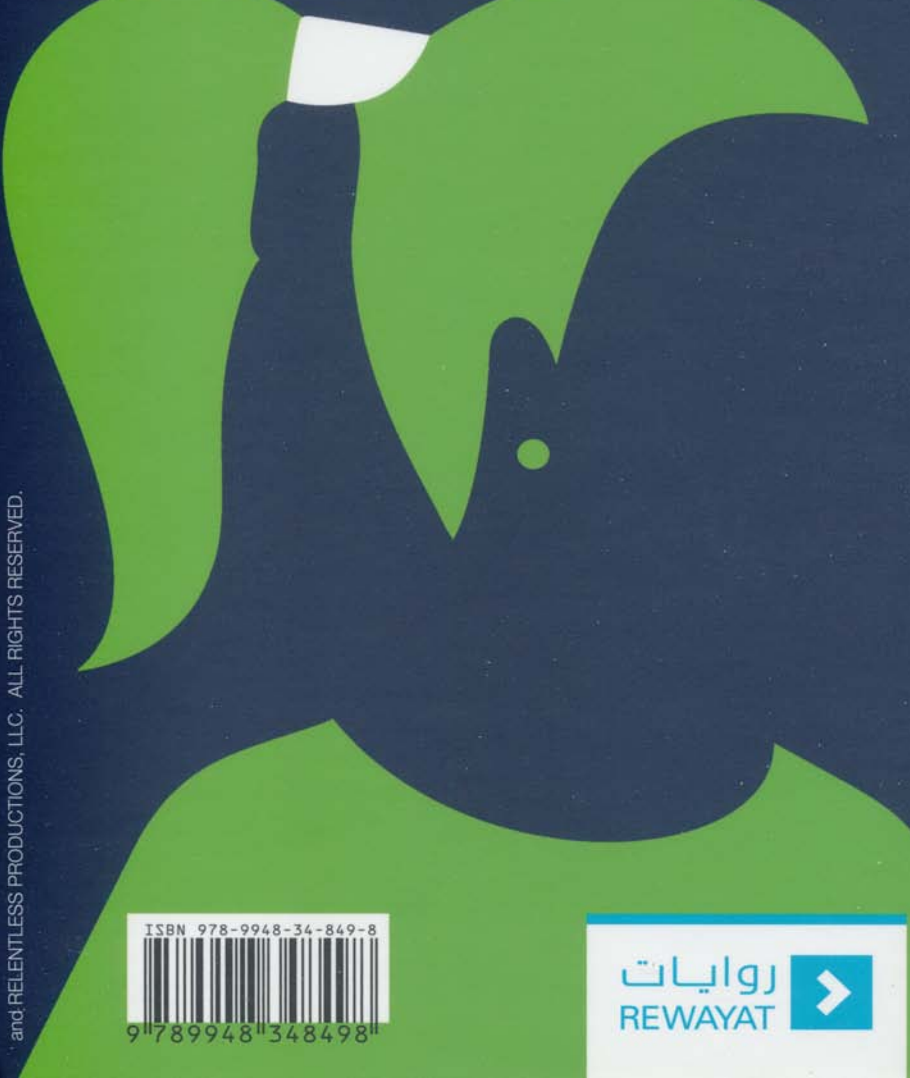
مارغريت آتوود، التي تُرجمت أعمالها إلى خمس وثلاثين لغة حول العالم، ألّفت ما يربو عن الأربعين كتابًا بين الرواية والشّعر والمقالة. إضافة إلى روايتها الأشهر "حكاية الجارية" هناك "عين القطّة" التي نافست في نهائيات جائزة البوكر عام 1989؛ و"آلياس غريس" الحائزة على جائزة Giller في كندا و Premio Mondello في إيطاليا؛ و "السفّاح الأعمى" التي نالت بها جائزة البوكر عام 2000 و"أوريكس وكريك" التي وصلت نهائيات البوكر عام 2003. أيضًا "سنة الفيضان" و"مادادام". فازت بأكثر من 55 جائزة وتكريمًا، بينها درجات علميّة تشريفيّة من جامعات كامبردج وأوكسفورد والسّربون. تعيش في تورنتو، كندا.



إيمان أسعد، روائية أردنية مقيمة في الكويت، صدر لها رواية "زينب والخيط الذهبي" عام 2014. حاصلة على شهادة الماجستير في الدراسات الأمريكية من الجامعة الأردنية عام 2005، وعلى شهادة البكالوريوس في تخصّصي علم الحاسب الآلي والأدب الإنجليزي من جامعة الكويت عام 2003. ترجمت إلى العربية رواية غراهام سويفت "الطلب الأخير" وكلير مسعود "المرأة في الطابق العلوي" ومارغريت آتوود "السفّاح الأعمى".

العُهود

كتبت مارغريت آتوود «العهود» الجزء الثاني من روايتها الأشهر «حكاية الجارية» ونالت بها جائزة البوكر البريطانية عام 2019 مناصفة. وفيه تُجيب على أسئلة لطالما حيّرت قُرّاء الجزء الأوّل منذ نشره عام 1985، فقدّمت رواية تبدأ أحداثها بعد خمسة عشر عامًا من نهاية «حكاية الجارية» حين تواجه أوفرِد مصيرها المجهول، وذلك بثلاثة أصوات نسائية مختلفة يكشف كلّ منها جانبًا خفيًا من جلعاد.



ISBN 978-9948-34-849-8
9 789948 348498

روايات
REWAYAT